أُمُّ الرَّحْمَة

حَكايا مَرْيَمِيَّة

طبعة أولى

تشرين الأوّل ٢٠١١

*

جميع الحقوق محفوظة

*

مَنشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص. ب: ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٤٤٨٨٠٦ / ٠١ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - شارع سيّدة النجاة - مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

أديب مُصلِح

أُمُّ الرَّحْمَة

حَكايا مَرْيَمِيَّة

٢٠١١

إهـداء

إلى أُمّي السماويّة،

التي أوكلتُ إلى عطفها وشفاعتها ذاتي وأحبّائي، وكلّ أموري، وهواجسي، وهمومي، ومصيري،

إلى جميع من تنوء كواهلهم بمتاعب الحياة، ولا يجدون لها مفترجًا، ولا تُفلح الأرض وساكنوها في تسريب العزاء والسلام إلى نفوسهم،

إلى كلّ مريضٍ ومتألّمٍ، لا يوفّر الطبُّ لعلّته وأَلمه عِلاجًا،

إلى من يُثقل وقر الخطيئة نفوسهم، ويتطلّعون إلى الخلاص،

إلى من تقضّ مضاجعهم النُذُر العاصفة من كلّ صوبٍ، ويصبون إلى السلام، وسجوّ النفس،

أُهدي هذه النماذج من مبادرات من هي أمّ الله، ومن ثمّ كلّيّة القدرة، وأمّ البشر، ومن ثمّ كلّيّة الرأفة.

فارأفي بنا جميعًا، يا أُمّاه، ولا تحرميني شرف الشهادة لشفاعتك.

أديب

تمهيد

لم يطمئنّ يسوع إلى اكتمال مهمّته الخلاصيّة على أرضنا إلاّ بعد أن أوكل البشريّة، ممثَّلةً في تلميذه الحبيب يوحنّا، إلى رعاية أُمّه، التي نصّبها أمًّا لكلٍّ من إخوته، في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

وكان يسوع قد خَبَر كم قلب أُمّه زاخرٌ بكنوز حنانٍ، وعطفٍ، ورأفةٍ، كفيلةٍ بغمر كلّ إنسانٍ. فهي أمّ الله، والله رحمةٌ، وهي بالتالي أمّ الرحمة، بل هي رائعةُ الرحمة الإلهيّة. والله، كلّيّ القدرة، أسبغ عليها من القدرة ما يؤهّلها لغوث كلّ حاجةٍ، ودرء كلّ مصيبةٍ، وشفاء كلّ علّةٍ.

حولها التفّ التلاميذ بعد أن يتّمهم صعود يسوع إلى السماء، وريثما نالوا دعم الروح القدس، وامتلأت نفوسهم منعةً وقدرةً على مواجهة الاضطهادات، وخوض المغامرات، من أجل تنفيذ الرسالة الكونيّة التي انتُدبوا لها.

والتحقت هي بابنها في الوطن السماويّ، ولكنّها لم تتخلَّ، لحظةً، عن أبنائها الجُدد الذين أوكلهم إليها ابنها الإلهيّ، المنتشرين على امتداد البسيطة، والذين اكتشفوا فيها، دائمًا، ومنذ فجر المسيحيّة، الشفيعة المجدية المنيعة، والمنقذة فائقة القدرة، الكفيلة بتمكينهم من تذليل كلّ ما يعترض مسيرتهم من عقبات، ومواجهة كلّ ما يحلّ بهم من مِحَنٍ نفسيّةٍ وجسديّةٍ.

لقد وجدوا فيها أُذنًا مصغيةً إلى أنّاتهم، وتوسّلاتهم، وأَدعيتهم، وعينًا ساهرةً على أحوالهم، متيقّظةً لهواجسهم، وقلبًا مفعمًا عطفًا، متأهّبًا، في كلّ لحظةٍ، للغوث، وسكب العزاء؛ تشاطرهم أحزانهم فتلطّفها، وتشدّ أزرهم فتقوّيهم،

وتؤتيهم، غالبًا، شفاءً لأَجسادهم، ودائمًا، بلسمًا لنفوسهم، وتقود خطاهم على دروب الخلاص، وتصبّ على كلّ أوصابهم ترياق حنانها وشفائها.

فمثلما هي كانت، في قانا، ساهرةً على هموم القوم الذين استدعوها، مبادرةً إلى إِنقاذهم، هي، دائمًا، وفي كلّ مكانٍ، متيقّظةٌ لاحتياجات أَبنائها، دائبةٌ على تلبيتها، بصمتٍ، وبما يتخطّى كلّ توقّعاتهم. ولا يتوانى ابنها عن فيض خمرة عزائه، وفرحه، ونِعَمِه، استجابةً لشفاعتها.

انتقلت العذراء إلى السماء، كي تكون، أبديًّا، إلى جانب ابنها، ولكنّ قلبها الذي يحتوي المسكونة جمعاء، ظلّ يخفق مع كلّ قلبٍ من قلوب أبنائها الضاربين في شعاب وادي الدموع. هي في السماء، مع يسوع من أجلنا، فعلى حدّ قول بوسّويه: «إنّها أمّ الله كي تنال كلّ شيءٍ، وأمّ البشر، لكي تهب كلّ شيءٍ».

بانتقالها إلى السماء، اكتسبت قدرةً لا محدودةً على توفير رحمةٍ كبرى للّذين يتوسّلونها. فقد شاء ابنها، مخلّص البشر، أن يجعلها الساقية التي تروي إخوته بماء النعمة المتدفّق من قلب الآب، والقيّمة على توزيع كنوز رحمته، كي تكون لملايين المؤمنين به، وملتمسي شفاعتها، ملاذًا من كلّ خطبٍ، وملجأً من كلّ اضطهادٍ، ومنارة رجاءٍ في جميع ليالي اليأس، وخشبة الخلاص الوحيدة من كلّ أزمةٍ وضيقٍ.

وهي، لكلٍّ من أبنائها، تقول ما قالته، سيّدة غوادلوبي لخوان دييغو:

«لا يُثرْ شيءٌ اضطرابك!
ألستُ، أنا، أُمّك، هنا؟
ألستُ، أنا نبع حياتك؟
ألستَ في ظلّي تحتمي؟
ألا تثوي في ثنايا معطفي، وفي غمرة ذراعيّ؟
وهل أنت بحاجة إلى شيءٍ آخر؟

ولطالما أكّد يسوع أنّه يطيب له سكب نعمه بيدي أُمّه. وقد كرّر هذا التأكيد في الصوفانيّة، عندما أعلن:

«هي أُمّي التي وُلدتُ منها. من أكرمها أكرمني. ومن نكرها نكرني، ومن طلب منها نال، لأنّها أمّي».

لقد كلّفها ابنها بأمومةٍ شاملةٍ، فغدت تتعرف في كلّ مؤمنٍ ابنًا لها، في أيّة حقبةٍ عاش، وأيًّا كان اسمه، وجنسه، ولونه، وثقافته، وبيئته. تكليفها بهذه الأمومة كان وصيّة يسوع الأخيرة، وخاتمة مشروعه الخلاصيّ، فما عاد يحقّ لأيّ إنسانٍ أن يشكو اليتم، أو التخلّي.

وعلى نقيض البشر، الذين لا يحسنون إلاّ لمن يحسن إليهم، ولا يتودّدون سوى إلى القادرين، تسعى الأمّ العذراء وراء الضعفاء لتبثّهم القوّة، ووراء الخطأة الذين يهينونها، ويهينون ابنها، لكي تردعهم، وتردّهم إلى جادّة التوبة والصلاح، لأنّهم، بالخطيئة، إنّما يسيئون إلى نفوسهم، ويُوْدون بها إلى الهلاك. وهي حريصةٌ على خلاصهم، وتلتمس لهم الغفران، وقد باحت، يومًا، أنّ أحبّ ألقابها على قلبها، هو لقب «محامية الخطأة».

إنّها، دائمًا، وفي كلّ مكانٍ، عزاءٌ وسلامٌ. تُحوّل المرارة عذوبةً، والنزاع وئامًا، والظلام نورًا. تتألّم مع المتألّمين، وتجهد مع المجاهدين، تقيم مع المقيمين، وتواكب المرتحلين.

إنّها فرحنا وراحتنا، إنّها رقّةٌ فائقةٌ، وعذوبةٌ منقطعة النظير، وقدرةٌ لا تُقهر. إنّها أمّ الله وأمّ البشر، وهي، من ثمّ، كلّيّة الرحمة، وكلّيّة القدرة.

لا مراء أنّ بعض الأحداث التي انطوى عليها هذا الكتاب، تبدو، لأبناء عصرنا، بعيدةً عن الواقع المألوف، أو متحدّيةً للمنطق العلميّ، ومن ثمّ غير جديرةٍ بالتصديق والاعتبار. وإنّه لمن دواعي الأسى أنّ مسيحيّين كُثُرًا، ومنهم كهنةٌ وأساقفةٌ، باتوا يخشون التحدّث عن فائق الطبيعة، وعن العجائب، لئلاّ يُتّهموا بالتخلّف.

ولا ريب أنّ البعض سيحكمون على محتويات هذا الكتاب بأنّها تخيّلات تقوًى ساذجةٍ، مع كونها وقائع ثابتةً مثبتةً، لأنّهم لا يؤمنون إلاّ بما يستطيع عقلهم الواهن تشريحه، وتحليله، واستخلاصه، ومن ثمّ يعمَون عن واقعٍ يجأر بالحقيقة، ولا سبيل إلى إنكاره، وإن ظلّ تفسيره بأنوار العقل متعذّرًا.

ولا مفرّ من التسليم بأنّ أحداثًا تخرق مسلّمات العلم، وحدود العقل، غالبًا ما تحدث في دنيانا، ولا يرى فيها محبّو الله، المؤمنون بقدراته، أيّة غرابة. فما يوصف بفائق الطبيعة، هو، في نظر أبناء الله، طبيعيٌّ جدًّا.

وليس بعسيرٍ على كلّ مراقبٍ غير مقيّدٍ بأحكامٍ مسبّقة، أن يشهد تجلّي أعمال الله الخارقة، في كلّ لحظةٍ من وجودنا، وكلّ منعطفٍ من مسيرتنا. وأنّ يتبيّن حبّه وحبّ أُمّه للبشر، يتجلّيان تجلّيًا ساطعًا، من خلال معجزاتٍ واقعيّةٍ لا سبيل إلى إنكارها.

فالمعجزات هي عنصرٌ جوهريٌّ من سعي العذراء إلى اقتياد العالم نحو الإيمان، وهي تدمغ بخاتم اليقين مهمّة شفاعة العذراء بأبنائها، وجدوى هذه الشفاعة، وترسّخ إيماننا بحنان الله الأبويّ، وبرقّة قلب أمّه العطوف.

ومن المحقّق أنّ عجائب متواترةً، وآلاءً لا تُحصى، ورؤًى روحيّةً ساميةً، وإلهاماتٍ سماويّةً فائقةً، وتعزياتٍ خارقةً، تتدفّق، بلا انقطاعٍ، من نبع حنان أمّ الله والبشر، وستظلّ تتدفّق وتتألّق إلى أن يبلغ العالم نهايته، في فجر الملكوت الذي لا نهاية له.

ولا بدّ من التنويه بأنّ الأمّ السماويّة لا تسارع دائمًا إلى تلبية كلّ ما نطلبه، وكلّ ما تصوّر لنا عقولنا وأهواؤنا أنّه خيرنا الأسمى. فلا نتّهمنّها، حينئذٍ، بالتلكّؤ أو بالإعراض عنّا، فهي أعلم منّا بخير نفوسنا، وتهبنا ما نفتقر إليه حقًّا، في الوقت الذي تراه الأنسب، وغالبًا ما نتبيّن سلامة اختيارها، بعد حين.

هذا ما خَبَره ملايين البشر، في كلّ أصقاع الدنيا، منذ أكثر من ألفي سنة، وهذا ما تبيّنه الأحداث الواقعيّة التي تضمّنها هذا الكتاب، وهي ليست سوى

نماذج من أحداثٍ لا تقع تحت حصرٍ أو إحصاءٍ. وإنّنا لنتمنّى أن يعمد آخرون إلى نشر أكبر عددٍ من أمثالها، عرفانًا بجميل أمّنا العذراء.

وقد ألحقنا بالأحداث العجيبة الواقعيّة، مجموعةً من نمطٍ آخر، تتميّز بالخيال والرمزيّة، والمتعة الأدبيّة، غير أنّ لرمزيّتها دلالاتٍ مستحبّةً، وهي، مع أنّها كُتبت منذ سبعة عقود، ما زالت تحظى باهتمامٍ بالغٍ، ولاسيّما من قبل صغارٍ يتذوّقون الكلمة، ويعشقون أمّهم السماويّة، ومن أجلهم دُوّنت هذه القصص على أقراصٍ مدمّجةٍ، في أوروبّا، فعسى أن تسهم ترجمتنا لها في إمتاع صغارنا، وفي شحذ محبّتهم لأمّهم العذراء.

الجزء الأوّل

حكايا مريميّة

من القرن الثاني عشر

«الربّ معكِ»

راهبةٌ اشتهرت بتقواها، أَوَت ليلاً إِلى سريرها كي ترتاح من عناء النهار، وفيما كانت تصلّي استعدادًا للنوم، ظهرت لها السيّدة العذراء، وكلّمتها:

– «هل تنامين، يا ابنتي؟

– «لا لم أَنمْ بعد».

– «أَودّ أَن أَلفت اهتمامك إِلى أَمر. إِن شئت أَن تكون الصلاة التي توجّهينها لي أَوفر فائدةً لك، وأَن تؤتيني قسطًا أَعظم من السرور، اجهدي بعد الآن، في تلاوتها بمزيدٍ من التأنّي والتمهّل. فكلّما حيّيتني بتحيّة الملاك، أَبتهج، ولاسيّما عندما تقولين بتأنٍّ: «الربّ معك»، فالبهجة التي تغمرني حينذاك، تستعصي على الوصف، إِذ يبدو لي، في تلك اللحظة، أَنّ ابني هو فيّ، مثلما كان يوم تنازل، ووُلد منّي، من أَجل افتداء الخطأة، وإِنّي لأَشعر بنفس الفرح الفائق الوصف الذي خالجني حينذاك، كلّما قيل لي: «الربّ معك».

الصبيّ الحافي

قدّيسٌ أَلمانيٌّ، كان في صباه شديد الفقر. دخل يومًا كنيسة السيّدة العذراء حافيًا، وتقدّم نحو هيكلها، وهو يرتجف قرًّا. ورأت السيّدة ما كان يعانيه من بردٍ رغم حرارة إيمانه وتقواه، فأَخذتها به الرأفة، ودعته إِلى الاقتراب منها، واستجوبته، فبيّن لها أَنّ فقر ذويه المدقع لا يسمح له بانتعال أَحذيةٍ تقيه لسعة البرد القارس. فدلّته إِلى حجرٍ وأَمرته برفعه، فيجد تحته من المال ما يبتاع به أَحذية. وتمّ كلّ شيءٍ حسب قولها. وعاد الصبيّ إِليها سعيدًا شاكرًا. فقالت له: كلّما احتجت إِلى غرضٍ ضروريٍّ، ارفع الحجر، فتجد تحته من المال ما يمكّنك من ابتياع ما أَنت بحاجةٍ إِليه».

العذراء تنقذ غريقًا

سقط راكب سفينةٍ كانت تمخر عباب البحر الأَبيض المتوسّط، مقلّةً ثلّةً من الحجّاج قاصدين الأَراضي المقدّسة، وابتلعته الأَمواج تحت أَنظار رفاقه المذهولين.

وتضاعف ذهولهم، بعد مضيّ ساعاتٍ طوالٍ، عندما شاهدوه يطفو على سطح الماء، سليمًا معافًى. وقد خاطب رفاقه قائلاً: «علامَ تدهشون؟ فأَنا عندما سقطت من المركب استغثت بالطوباويّة مريم، أُمّ الله. وحتّى وصولي إِلى قاع البحر لم يبارِح ذكرها قلبي، ولا نأى اسمها عن شفتيّ. وأُمّ الرحمة التي لا تتخلّى أَبدًا عن أَبنائها، ظهرت لي في قاع اليمّ، ودثّرتني بمعطفها، ومنعت الأَمواج من إِيذائي، واقتادتني برقّةٍ إِلى النجاة».

درسٌ لراهبٍ طبيبٍ

طبيبٌ اعتنق الحياة الرهبانيّة، ولكنّه كان يأبى تناول الأَطعمة البسيطة الشعبيّة كالفول، والحمّص، مكتفيًا بالخبز الذي يبلّله بالنبيذ والبيرة، مسبّبًا اعتراض إِخوانه، ومفسّرًا سلوكه برفضه تجربة اللّه، وبحرصه على الالتزام بقواعد الطبّ التي لا تنصح بالتهام أَطعمةٍ لا تؤتي نفعًا ولا طاقة.

وعشيّة أَحد أَعياد السيّدة العذراء، رأى في الحلم نفسه وسط تطوافٍ ضمّه مع رهبانٍ آخرين. وإذا بالعذراء عند باب الكنيسة تحمل كأسًا ذهبيّةً، وتسقي كلّ راهبٍ، بملعقةٍ فضّيّةٍ، شرابًا مغذّيًا وشهيًّا، كان يستسيغه كلّ من يتناوله. ولمّا حان دوره، وفتح فاه لتناول هذا الشراب، قالت له العذراء: «يا طبيب طبّب نفسك»، ومنَعتْ عنه الملعقة. فاستيقظ منتفضًا، وقد اعتراه الخجل، وأَدرك زيف ادّعائه العلميّ، وخطأ سلوكه المتعجرف. وفي الصباح روى حلمه أمام إِخوانه.

العذراء تفرج عن سجينٍ مظلومٍ

كان أَميرٌ قد احتلّ مدينةً عدوّةً، فأَحرق بيوتها، وأَعمل السيف في رقاب المقاومين، وقذف بهم مقيّدين بالأَغلال في غياهب السجون. وكان، بين هؤلاء، رجلٌ يدعى «پيير التأتاء». وقد أَمعن أَزلام الأَمير في سومه العذاب، بعد أَن تعذّر عليهم أَن ينتزعوا منه أَسرارًا كانوا راغبين في الاطّلاع عليها. ومع تفاقم آلام جسده ونفسه، دأب على التماس عون العذراء التي وضع فيها، بعد اللّه، رجاءه.

في هذه الأَثناء اقترب موعد عيد البشارة، ذلك العيد البهيّ المبارك الذي أَتى بالخلاص للعالم. فالتمس پيير، بكلّ جوارحه، أَن يكون ذلك العيد موعد خلاصه. وعشيّة ذلك اليوم، بعد أَن صلّى بكلّ حرارة إِيمانه، تسلّل كرًى عذبٌ إِلى كلّ أَعضائه، وفي نومه تراءت له العذراء القدّيسة، سيّدة السماء، التي دعته، بصوتٍ جليٍّ، إِلى الخروج واتّباعها. تردّد، للوهلة الأولى، إِذ كانت الأَغلال ما زالت تقيّده، ولكنّه سرعان ما استعاد ثقته بالأُمّ السماويّة، وخرج، بحرّيّةٍ، من بابٍ فُتح أَمامه، وكان عادةً محكم الإِيصاد، ووثب من فوق جدارٍ، ولم يصبه، من جرّاء ذلك، أَيّ أَذًى. وعاد إِلى ذويه، سعيدًا، شاكرًا عذراء العذارى، التي تحقّق خلاصها على الأَرض، بواسطة ابنها، ربّنا يسوع، والتي تلبّي ملتمسات من يعتمدون على عطفها، بقدر إِيمانهم بها.

الراهب الذي أَنقذته العذراء من مجموعة أَبالسةٍ

كان في منسكٍ راهبٌ مبتدئٌ، وضيع المحتد، ولكنّه نبيل النفس والشمائل، حديث السنّ، ولكنّه اجتاز أَشواطًا في مضمار القداسة.

كان راقدًا في غرفته، يرتاح من عناء النهار، ويتأمّل في شؤون اللّه؛ كان قد مضى من الليل هزيعٌ طويلٌ وهو ما زال ساهرًا مصلّيًا متأمّلاً، وإِذ بطائفةٍ من الأَبالسة تقتحم خلوته، في هيئة خنازير برّيّةٍ شرسةٍ، وتملأ صومعته صخبًا وفوضى، مشرّعةً أشداقها المريعة، وأنيابها الطويلة المشحوذة، وكأَنّها تبتغي التهامه. وكان الراهب يرتعد ذعرًا، وزاد في رعبه كائنٌ يشبه إِنسانًا ضخم الجثّة، اقتحم صومعته غرَّةً، وبدا وكأَنّه أَمير الأَبالسة المهاجمين. ومنذ دخوله التفت إِلى خنازيره، وصاح فيها: «ما بالكم، لمَ لمْ تقضوا عليه بعد؟».

في هذه الأَثناء، كان رجل اللّه لا يني يردّد: «لا تتركنا في التجربة، ولكن نجّنا من الشرّير». ورئف اللّه به، وسارع إِلى وضع نهايةٍ لمحنته. وما إِنّ مدّ أَمير الشرّ سلاح غدره بغية القضاء عليه، حتّى ظهرت أُمّ اللّه، كلّيّة القدرة، التي كان الراهب قد وضع فيها، بعد اللّه كلّ رجائه، وفي يدها عصًا، وهدّدت: «كيف أَتيتم إِلى هنا، أَيّها الملعونون. هذا الإِنسان هو خاصّتي، ولا شأن لكم به. ولن تنالوا منه بشيء».

العذراء تحول دون وقوع فتاةٍ في شباك إبليس

في ديرٍ مكرّسٍ للعذراء القدّيسة مريم، كان يقيم رهطٌ من النساء النبيلات، وكانت بينهنّ فتاةٌ مكرّسةٌ جسدًا ونفسًا لله. كانت رفيعة المحتد، تقرن الجمال بالذكاء؛ وتولّه بها ابن شقيق رئيسة الدير، وكان شابًّا وسيمًا، رفيع النسب، متدفّقًا حيويّةً وفرحًا ودماثة خلق. وأَلهب الشيطان غرائزه فاشتهى الفتاة، وجهد في إِغوائها، وقاومت هي طويلاً، ولكنّه لم يستسلم، إِلى أَن لانت. غير أَنّها لم تسمح له بمسّها قبل عقد قرانهما رسميًّا، فضرب لها موعدًا ليليًّا، واعدًا باصطحابها إِلى بلدة ذويه كي يقيما مراسيم الزواج في احتفالٍ فخم. حينئذٍ ذهلت الفتاة عن العذراء، وضجّ إِبليس فرحًا، كما يحدث له كلّما أَوقع أَشخاصًا فاضلين في حبائل الخطيئة.

وفي الموعد المضروب، تسلّلت الفتاة من مضجعها، ولكن كان عليها، كي تنتهي إِلى الخارج، أَن تجتاز مصلّى العذراء، فانطلقت بكلّ ما أوتيت من سرعةٍ، وقد رفعت أَذيال ثوبها لكيلا يعيق جريها. ولاشعوريًّا سجدت أَمام تمثال العذراء... وبغتةً دبّت الحياة في التمثال، وانحدرت العذراء من منصّتها، وسدّت الباب وهي مكتوفة اليدين. إِزاء هذا المشهد ذعرت الفتاة، وتبيّنت رفض العذراء لمحاولة فرارها.

الجزء الثاني

قصص مختارة

من كتاب «أَمجاد مريم»

للقدّيس أَلفونس دي ليغوري

العذراء ملجأ الخطأة

جاء في سيرة الأُخت كاترين القدّيس أوغسطينُس، أنّ امرأةً تُدعى مريم، كانت تعيش في البلدة التي كانت الأُخت مُقيمةً فيها، وقد ساقت حياةً حافلةً بالرذائل والفضائح منذ شبابها، ولم ترعوِ عن ضلالها، مع تقدّمها في السنّ، حتّى اضطُرّ أَهل البلدة إِلى طردها، فلجأت إِلى مغارةٍ معزولةٍ، حيث قضت عليها علّةٌ مستعصيةٌ، محرومةً من كلّ عونٍ بشريٍّ أَو روحيٍّ، ومن الأَسرار الخلاصيّة. وبسبب ماضيها المشين ووريت في حفرةٍ، كحيوانٍ قذرٍ.

وكانت الأُخت كاترين قد أَلِفَت أَن توكل، بحرارةٍ، إِلى رحمة الله، كلّ نفسٍ تنتقل إِلى الحياة الأُخرى. غيْر أَنّها، بعد أَن أُحيطت علمًا بمصير تلك المرأة البائسة، لم يخطر لها ببالٍ أَن تصلّي من أَجلها، إِذ استقرّ في يقينها أَنّها هالكةٌ، لا محالة.

وكانت قد انصرمت أَربع سنواتٍ على وفاتها، عندما مثلت، يومًا، أَمام الأُخت كاترين، نفسٌ قادمةٌ من المطهر، وقالت لها: «أَيّتها الأُخت كاترين، ما أَتعسني! فأَنتِ توكلين إِلى رحمة الله نفوس جميع الأَموات، ولكنّني الوحيدة التي لم ترأفي بها». فسألتها خادمة الله:

– كيف؟ وهل ظفرتِ بالخلاص؟

– أَجل! خلصتُ بفضل رحمة العذراء القدّيسة.

– كيف؟

– عندما شعرتُ بدنوّ أَجَلي، وقد هجرني الجميع، وأَرهقتني خطاياي،

التفتُّ إِلى أُمّ الله، وقلت لها: «يا ملكة السماء، أَنت ملجأ المساكين المهجورين، وها قد تخلّى عنّي الجميع. ولم يبقَ لي رجاءٌ سواكِ. أَنتِ وحدكِ، قادرةٌ على غوثي، فارحميني». وقد نالت لي مريم الرقيقة أن أَتلو فعل نَدامةٍ، مُتُّ على إِثره، وخلصتُ. وقد حصلت لي هذه الأُمّ الطيّبة، على تقصير أَمد عقابي، مستبدلةً بضع سنواتٍ كان من المكتوب لي أن أَتعذّب فيها، بمزيدٍ من كثافة العذاب. ولم يعد يلزمني سوى بضعة قداديس كي أُعتق من المطهر، فأَرجوكِ أَن تعملي على إِقامتها من أَجلي، وأَعدكِ بأَلاّ أَكفّ، بعد ذلك، عن التماس نعمة الله والعذراء الطوباويّة من أَجلكِ.

واستجابةً لرغبة الأُخت كاترين، أُقيمت قداديس عن نيّة النفس المعذّبة، التي ما عتّمت أَن ظهرت ثانيةً، أَشدّ تألّقًا من الشمس، وقالت للأُخت: «أَشكركِ، يا عزيزتي كاترين. ها إِنّي ماضيةٌ إِلى الفردوس كي أُشيد برحمة إِلهي، وأُصلّي من أَجلكِ».

جدوى الاستغاثة بالعذراء

كان القدّيس فرنسيس الساليزيّ طالبًا في باريس، وله من العمر نحو سبعة عشر عامًا. وكان مُتّقد التقوى، ويتذوّق، في علاقته الوثيقة بالله، عذوبةً بالغةً. وشاء الله أن يمتحن وفاءه، ويشدّه إليه برباطٍ أشدّ وثوقًا، فسمح أن تضطرب سعادته، إذ أوحى له إبليس أن لا طائل من كلّ تعبّده وصلواته، وأنّه مدانٌ، لا محالة. وممّا زاد محنتَه هصرًا لقلبه، الظلمةُ والجفافُ اللّذان سمح الله لهما أن يغشيا نفسه، إذ أمسى تفكيره في براهين عطف الله لا يؤتيه أيّ عزاءٍ، وتفاقمت هواجسه وأحزانه، بحيث فقد شهيّة الطعام، والقدرة على النوم، وغاضت الألوان في وجهه، والبهجة في قلبه، وأضحى موضع رثاء جميع من يشاهدونه.

وفي غمرة تلك العاصفة المدمّرة، بات القدّيس عاجزًا عن التفكير وعن التعبير، وإن هو تكلّم، كان كلامه أنين شكوى، وتعبيرًا عن الحزن. وكان يقول في نفسه: «سأُحرم، إذن، من نعمة الله، الذي طالما كان لي محبًّا ورقيقًا. فيا حبّي، ويا بهائي، يا من كرّست له كلّ عواطفي، ألن أنعم، بعدُ، بعزائك؟ ويا أيّتها العذراء، يا أُمّ الله، ويا أنقى العذارى، ألن أراكِ، أبدًا، في الفردوس؟ ولكن إن لم يُقيّض لي أن أنعم بمشاهدة قسمات محيّاك الفاتنة، في السماء، فلا تسمحي، أقلّه، أن أُضطرّ إلى قذفكِ بالتجديف واللعنات، في جهنّم!». تلك كانت عواطف ذلك الشابّ المفجوع، الذي ما انفكّ، مع ذلك، مُفعمًا حبًّا لله ولأُمّه.

وبعد أن امتدّت تجربته شهرًا، شاء الربّ أن ينقذه منها بواسطة معزّية الورى،

العذراء الطوباويّة، التي كان القدّيس قد كرّس لها بتوليّته، والتي أَودع بين يديها كلّ رجائه.

وذات مساءٍ، إِذ كان عائدًا إِلى بيته، دخل إِلى كنيسةٍ، فوقع نظره على لوحةٍ مثبّتةٍ على جدارٍ، وقد دُوِّن عليها دعاء القدّيس أوغسطينُس القائل: «تذكّري، يا مريم، الكلّيّة الرأفة، أنّه لم يُسمَع، قطُّ، أَنّ أَحدًا لاذ بحمايتكِ وخاب».

وفي الحال جثا أَمام هيكل أُمّ الله، وتلا هذا الدعاء بحرارةٍ، مجدّدًا بين يدَي العذراء، نذر العفّة، وواعدًا بتلاوة المسبحة كلّ يومٍ، وختم صلاته، بقوله: «يا ملكتي، كوني، أَنتِ، محاميتي، لدى ابنكِ الإِلهيّ، الذي لا أَجسر على مخاطبته. وإِن قُيِّض لي أَلاّ أَستطيع حبّ إِلهي، في الآخرة، مع يقيني بأَنّه جديرٌ بكلّ حبٍّ، فهبيني، أَقلّه، أَن أُحبّه، في هذه الدنيا، بكلّ ما أوتيت من طاقةٍ. هذه هي النعمة التي أَلتمسها منكِ، راجيًا نوالها».

وعقب هذه الصلاة، استسلم بين ذراعي الرحمة الإِلهيّة، خاضعًا، بكلّ جوارحه، لمشيئة الربّ. وما إِن فرغ من صلاته، حتّى سارعت الأُمّ الرقيقة إِلى إِعتاقه من التجربة التي كانت مستحوذةً عليه، فاستعاد سلامه الداخليّ، وعافيته الجسديّة.

ومنذئذٍ، احتفظ، دائمًا، بأَحرّ تكريمٍ لمريم، ولم يكفّ، ما دام على قيد الحياة، عن نشر مدائحها، والإِشادة برأفتها، في خطاباته، وكتاباته.

الطفل الإلهيّ الجريح

كان رجلٌ متزوّجٌ يسوق حياة فسقٍ وضلالٍ، وإذ عجزت زوجته عن ردعه، رجته أن يبدي، أقلّه، شيئًا من التكريم حيال أُمّ الله، ولو بتحيّتها، وبتلاوة «السلام عليك يا مريم»، كلّما مرّ بالقرب من إحدى صورها. وارتضى الرجل تنفيذ طلبها.

وذات ليلةٍ، خرج عازمًا على ارتكاب الخطيئة، ولكنّه شاهد من بعيدٍ، نورًا، ودنا منه، فإذا به نور مصباحٍ مضاءٍ أمام تمثال السيّدة العذراء حاملةً ابنها يسوع على ذراعيها. وعملاً بما ألِفه، تلا «السلام»، وإذ بمشهدٍ عجبٍ يتبدّى له. فقد ظهر له الطفل الإلهيّ، وقد انتشرت على جسمه جروحٌ حديثة العهد، تنثال منها قطرات دمٍ. فانتابه ذعرٌ مقرونٌ بالرأفة، إذ استقرّ في يقينه أنّ خطاياه هي التي أثخنت أعضاء الفادي بالجراح، فأجهش بالبكاء. ولكن تبيّن له أنّ يسوع كان يدير له ظهره. وحينئذٍ، وقد غمره الخزي، التفت إلى العذراء القدّيسة، وقال لها: «يا أُمّ الرأفة، إنّ ابنك ينبذني، ولستُ أجد محاميةً أوفر منكِ عطفًا ومقدرةً. فأنتِ أُمّه. فيا مليكتي، أغيثيني، وصلّي من أجلي». وأجابته أُمّ المخلّص، من خلال تمثالها: «أنتم، يا ربع الخطأة، تدعونني أُمّ الرحمة، وتمضون قُدُمًا في تجديد آلام ابني، وآلامي، باستمرار».

ومع ذلك، وبما أنّ مريم لا تردّ، أبدًا، بلا عزاءٍ، من يطّرحون عند قدميها، فقد التفتت صوب ابنها الإلهيّ، ورجته أن يصفح عن ذلك المسكين. وظلّ يسوع يأنف العفو عنه. وحينئذٍ، وضعت العذراء القدّيسة ابنها على أرض المشكاة، وجثت أمامه قائلةً: «يا بنيّ، لن أنهض، بل سأبقى عند قدميك، ما لم تصفح عن هذا الخاطئ». فأجاب يسوع: «أُمّاه، لا يسعني أن أرفض لك

طلبًا. تريدين أَن أَصفح عنه، وأَنا أَغفر له خطاياه، حبًّا بكِ. فدعيه يأتي ويُقبّل جروحي».

وتقدّم الرجل الخاطئ منتحبًا. وفيما كان يقبّل جراح الطفل الإِلهيّ، كانت هذه الجراح تلتئم في الحال. وأَخيرًا قبّله يسوع، دليلاً على مصالحته. ومنذ تلك اللحظة، غيّر ذلك الرجل سيرته، التي أَمست مثاليّةً، وبرهن، في كلّ حينٍ، عن تكريمٍ حارٍّ للعذراء الطوباويّة، التي نالت له تلك النعمة الكبرى.

الفتاة المحتضرة

كانت فتاةٌ فقيرةٌ مُكلّفةٌ بحراسة قطيع ماشيةٍ، تحبّ العذراء مريم حبًّا جمًّا. وكانت أَعذبُ متعةٍ تتذوّقها، هي شخوصها إلى كنيسةٍ صغيرةٍ، مكرّسةٍ للسيّدة العذراء، على قمّة جبلٍ. وفيما أَغنامها ترعى على مقربةٍ من المكان، كانت هي، تخاطب الأُمّ الحبيبة، وتقدّم لها آيات التكريم.

وإِذ تبيّنت أَنّ تمثال العذراء مجرّدٌ من كلّ زينةٍ، عزمت على أَن تحيك لها معطفًا بيديها. وذات يومٍ، قطفت أَزهارًا بريّةً، فعقدت منها قلادةً، ثمّ ارتقت إِلى الهيكل، وتوّجت بها هامة التمثال قائلةً: «أُمّاه كنت أَتمنّى أَن أُزيّن جبينك بالذهب والأَحجار الكريمة. ولكن، بما أَنّي فقيرةٌ، تقبّلي منّي إِكليل الزهر الوضيع هذا، دليلاً على ما أُكنّه لك من حبٍّ».

وما انفكّت تلك الراعية الورعة تخدم السيّدة الحبيبة وتكرّمها. وقد كافأت الأُمّ السماويّة العطوف زيارات ابنتها ومحبّتها. فقد مرَّ، يومًا، بذلك المكان راهبان، وجلسا تحت ظلّ شجرةٍ، كي يرتاحا من تعب المسير. واستسلم أَحدهما للكرى، فيما ظلّ الآخر يقظًا. ولكنّهما رأيا، كلاهما، حلمًا واحدًا. فقد شاهدا ثلّةً من العذارى الرائعات الجمال، وفي وسطهنّ فتاةً تفوق جميعهنّ بهاءً وجلالاً. وسألها أَحدهما: «من أَنتِ أَيّتها السيّدة الجليلة؟» فأَجابت: «أَنا أُمّ الله، وإِنّي ماضيةٌ مع هؤلاء العذارى القدّيسات كي أَعود، في القرية المجاورة، فتاةً راعيةً تحتضر، لطالما زارتني».

وتلاشت الرؤيا. فهتف الراهبان، معًا: «فلنمضِ، نحن أَيضًا، كي نعودها». وسرعان ما عثرا على مسكن الفتاة المحتضرة، وهو كوخٌ فقيرٌ، حيث دخلا،

فألفياها راقدةً على فراشٍ من قشٍّ. وحيّياها، فقالت لهما: «يا أخويَّ، اسألا الله أن يريكما مواكب الذين يساعدونني». فركعا، وشاهدا العذراء مريم واقفةً إلى جانب المحتضرة، ممسكةً إكليلاً بيدها، مغدقةً عليها العزاء. وحينئذٍ شرعت العذارى القدّيسات اللواتي يؤلّفن موكبها بالإنشاد، وعلى نغماتهنّ الرقيقة انفصلت نفس تلك الفتاة المباركة عن جسدها. فوضعت مريم الإكليل على رأسها، واقتادتها، معها، إلى الفردوس.

توبة القدّيس ثيوفيلُس

كان ثيوفيلُس رئيس شمامسةٍ في مدينة أَضنا، حيث كان يتمتّع بسمعةٍ عطرةٍ، جعلت الشعب يرشّحه للأسقفيّة. غير أَنّ تواضعه حمله على الاعتذار عن قبول ذلك المنصب.

ومع ذلك سعى حسّاده لدى الأُسقف، وأَلصقوا به من التهم أَبشعها، بحيث عُزل عن منصبه، فأَعماه الغمّ والسخط، ولجأ إِلى ساحرٍ يهوديٍّ، عساه يجد لديه علاجًا لمهانته. ومكّنه الساحر من مخاطبة إِبليس الذي وعده بالمساعدة، بشرط إِنكاره ليسوع المسيح، ولمريم العذراء، وبتسليمه صكًّا يدوّن فيه هذا الإِنكار، ممهورًا بتوقيعه. وانصاع ثيوفيلُس المسكين لطلب إِبليس.

وفي الغداة، تبيّن الأُسقف مدى الخطأ الذي اقترفه بحقّ ثيوفيلُس، فاستعذره، وأَعاده إِلى منصبه السابق. غير أَنّ رئيس الشمامسة، وقد مزّقه تأنيب ضميره، وأَرهقته جسامة خطيئته، كان لا يني ينتحب. وأَخيرًا لجأ إِلى الكنيسة، واطّرح باكيًا أَمام صورةٍ للعذراء، قائلاً: «يا أُمّ الله، لست أُريد الاستسلام لليأس، فأَنتِ لم تتخلّي عنّي، أَنتِ كلّيّة الرأفة، وما زال بوسعك إِنقاذي». وأَنفق، على هذا النحو، أَربعين يومًا، باكيًا خطيئته، ومتضرّعًا إِلى العذراء القدّيسة.

وتراءت له أُمّ الرحمة في الحلم، وكلّمته: «آه! يا ثيوفيلُس، ماذا فعلت؟ لقد تخلّيت عن صداقتي، وصداقة ابني. ولمن أَسلمت أَمرك؟ لعدوّك وعدوّي!».

وأَجاب الخاطئ:

– «بوسعك، يا مليكتي، أَن تصلحي ما اقترفتُه من خطإٍ. وما عليك إلاّ أَن تصفحي عنّي، وتنالي لي صفح ابنك الإِلهيّ».

وإِذ تبيّنت لديه هذه الثقة، قالت مريم: «تشجّع، سأُصلّي إِلى الله من أَجلك»!

هذه الرؤيا شدّت من عضد ثيوفيلُس، الذي ظلّ قابعًا أَمام صورة العذراء، وقد تضاعفت دموعه، وأَفعال توبته، وتوسّلاته. وبغتةً تراءت له مريم، ثانيةً، وقالت له بنبرة فرحٍ: «تعزَّ، يا ثيوفيلُس. فقد قدّمتُ لله دموعك وصلواتك، فتقبّلها وغفر لك. فكن له، بعد الآن، شاكرًا، ووفيًّا».

وأَجاب ثيوفيلُس: «يا أُمّي الطيّبة، ليس هذا كافيًا كي يغمر العزاء نفسي. فما زال بحوزة العدوّ صكّ إِنكاري لك، ولابنك الإِلهيّ. فهل لك أَن تستعيديه لي؟».

وبعد ثلاثة أَيّامٍ، استيقظ ثيوفيلُس، ليلاً، فوجد الصكّ المشؤوم على صدره. وفي الغداة، إِذ كان الأُسقف في الكنيسة، وسط جمعٍ حاشدٍ، وافى ثيوفيلُس، وارتمى عند قدميه، وروى له قصّته كلّها، ساكبًا دموعًا حرّى، وأَودع بين يديه الصكّ اللعين، الذي سارع الأُسقف إِلى حرقه على مرأى الجموع. وبكى الحضور فرحًا، معظّمين عطف الله، والرأفة التي عاملت بها مريم ذلك الخاطئ المسكين.

وعاد ثيوفيلُس إِلى كنيسة العذراء، حيث مكث ثلاثة أَيّامٍ، قضى، بعدها، نحبه، في فرحٍ غامرٍ، شاكرًا يسوع وأُمّه فائقة القداسة.

توبة الراهبة بياتريس

كانت تعيش في أَحد الأَديرة راهبةٌ مُكلّفةٌ بحراسة بوّابة الدير. وفي غفلةٍ عن نفسها، وقعت في هوى شابٍّ، وبتحريضٍ منه، هجرت الدير، وفرّت بعيدًا. ولكنّها، وهي تهمّ بتخطّي عتبة الدير، رمت، عند أَقدام تمثالٍ للعذراء، المفاتيح التي كانت بعهدتها.

وانتهت إِلى منطقةٍ نائيةٍ، حيث انغمست في الرذيلة، إِلى أَن أَمست غانيةً محترفةً، وأَنفقت خمسة عشر عامًا في حمأة الفحش.

وذات يومٍ التقت، في أَحد شوارعِ المدينة التي كانت تقطن فيها، أَحد مورّدي الأَرزاق للدير الذي كانت سابقًا فيه. وإِذ كانت موقنةً بأَنّه لن يتعرّفها، تجاسرت واستوضحته عن الأُخت بياتريس، ودهشت لسماعه يجيب: «إِنّي أَعرفها عن كثبٍ، فهي راهبةٌ قدّيسةٌ، وتتولّى، الآن، تدريب المبتدئات».

صعقت لهذا الجواب، الذي لم تدرك له تفسيرًا. وشدّها الفضول إِلى كشف سرّ هذا اللغز. فتنكّرت، ويمّمت صوب الدير، حيث استدعت الأُخت بياتريس، وإِذا بها أَمام السيّدة العذراء، في ملامح التمثال الذي رمت، عند أَقدامه، زيّها الرهبانيّ، ومفاتيح الدير، يوم هجرته.

وبادرتها الأُمّ السماويّة بالقول: «يا بياتريس، اعلمي أَنّني، حفاظًا على سمعتك، ارتديت ملامحك، وحللتُ مكانكِ، طيلة هذه السنوات، التي كنتِ فيها بعيدةً، ضالّةً. هلمّي، عودي إِلى الدير، فابني ما زال مستعدًّا لتقبّلك. اندمي، وتوبي، واجهدي كي تكتسبي، بسيرةٍ مثاليّةٍ، السمعة العطرة التي وفّرتها لكِ، هنا». وما إِن فرغت من كلامها، حتّى توارت.

وقد أَخذ التأثّر كلّ مأخذٍ من بياتريس، حيال جميل مريم، ورحمتها الفائقة. فاستعادت زيّها الرهبانيّ، وقضت في الدير، ما تبقّى لها من أَيّامٍ، في سيرةٍ زاخرةٍ بالورع. وقُبَيْل موتها، أَماطت اللثام عن سرّها الدفين، تمجيدًا لملكة السماء.

القرد الجهنّميّ

كان، في مدينة البندقيّة، محامٍ جنى ثروةً طائلةً، بأَساليب الغبن والخداع. حسنته الوحيدة كانت مثابرته على تلاوة صلاةٍ للعذراء، كلّ يومٍ، وكانت هذه العادة مدعاةً لنجاته من الهلاك الأَبديّ.

وكانت تربطه علاقة صداقةٍ بأَحد كهنة مدينته، وطالما أَلحّ في دعوته إِلى العشاء في بيته، إِلى أَن انتزع منه وعدًا بتلبية دعوته. وما إِن دخل الكاهن بيته حتّى بادره المحامي بالقول: «الآن، يا أَبتِ، سأريك أَمرًا عجبًا، لم ترَ له، قطُّ، نظيرًا. فلديّ قردٌ مدهشٌ يؤدّي لي مهمّة الخادم: فيفتح الباب، ويُعدّ المائدة، ويغسل الكؤوس والأَطباق». فأَجاب خادم الله: «حذارِ! أَخشى أَن يكون هذا الكائن أَكثر من مجرّد قردٍ. ائتِ به إِلى هنا».

فنادى المحامي قرده، وبحّ صوته في النداء، ولكنّ القرد لم يظهر. وبحثوا عنه في كلّ أَرجاء البيت، إِلى أَن عثروا عليه لاطيًا في قبو البيت، تحت سريرٍ. وعبثًا حاولوا إِخراجه. حينئذٍ قرّر الكاهن: «فلنمضِ نحن إِليه». ولمّا انتهى إِلى مخبئه، خاطبه قائلاً: «أَيّها الحيوان الجهنّميّ، اخرج في الحال، وإِنّي آمرك، باسم الله، أَن تعلن عن هويّتك». وسارع القرد المزعوم إِلى الاعتراف بأَنّه إِبليس، موضحًا: «كنت أَنتظر أَن يغفل هذا الخاطئ، يومًا واحدًا، عن دعائه المألوف إِلى أُمّ الله. فقد أَتاح لي الله، في هذه الحال، أَن أَخنقه، وأَمضي به إِلى جهنّم».

لدى سماعه هذا الاعتراف، هوى المحامي المسكين راكعًا، والتمس عون خادم الله، الذي سكّن روعه، وأَمر الشرّير بمغادرة المنزل، من غير أَن يُلحق به أَيّ

أَذًى. ولكنّه أَضاف: «أَسمح لك، فقط، أَن تحدث ثغرةً في الجدار، دليلاً على مغادرتك». وفي الحال، سُمع ضجيجٌ مدوٍّ، وشوهدت في الجدار ثغرةٌ، تكرّرت، من بعدُ، محاولات ردمها بالحجارة والكلس، بلا طائلٍ، إِذ شاء الله أَن تظلّ فترةً طويلةً، مشرعةً، شاهدةً على ما حدث، إِلى أَن سُدّت، بناءً على نصيحة خادم الله، بلوحةٍ رخاميّةٍ نقشت عليها صورة ملاك.

أَمّا المحامي، فقد تاب عن ماضيه المشين، وانتهج، في حياته، سلوكًا جديدًا قويمًا.

الأُسقف الخائن

في مطلع القرن الثاني عشر، كان في مدينة «مغديبورغ»، في سكسونيا، طالبٌ يُدعى «أودون»، واهن الذهن، شحيح الذكاء، بحيث أصبح مهزأةً لأترابه. وذات يومٍ، أَخذ منه الحزن كلّ مأخذٍ، بسبب هزال مؤهّلاته. فارتمى أَمام صورةٍ للعذراء، ملتمسًا أَزرها. بُعَيْد قليلٍ، ظهرت له العذراء في الحلم، وقالت له: «يا أودون، إنّني أَبتغي أَن أَسكب في قلبك العزاء، وأَن أَنال لك من اللّه، ليس فقط مهارةً كفيلةً بدرء الهزء عنك، بل أَيضًا، مواهب تجعلك موضع إِعجاب الجميع. وفضلاً عن ذلك، أَعدك بأَن تُنتَخَب خلَفًا للأُسقف، عقب وفاته». وتحقّقت هذه الوعود والنبوءات كلّها، فتفوّق «أودون» في دروسه، ونُصِّب أُسقفًا على المدينة.

ولكنّه سرعان ما أَنكر جميل اللّه، وإِحسان العذراء إِليه. فتخلّى عن كلّ ورعٍ وفضيلةٍ، وتردّى إِلى الفسق، وانقلب معثرةً للرعيّة كلّها. وذات ليلةٍ، إِذ كان منغمسًا في الرذيلة، سمع صوتًا يحذّره: «لقد تماديت في المجون، يا أودون!». ولكنّه عندما سمع هذا الإِنذار، في المرَّة الأولى، خُيِّل إِليه أَنّ أَحد أَفراد رعيّته يتدخّل في حياته الخاصّة، فاستشاط غيظًا. غير أَنّ هذا الإِنذار تكرّر ثانيةً، وثالثةً. فتوجّس خشيةً من أَن تكون تلك الإِنذارات آتيةً من السماء، ومع ذلك مضى قُدُمًا في نهجه الضالّ. وأَمهله اللّه ثلاثة أَشهرٍ لعلّه يؤوب إِلى صوابه، ولكنّه لم يرعوِ، فحانت ساعة العقاب.

وذات ليلةٍ، كان أَحد كهنته مختليًا في كنيسة القدّيس موريس، متوسّلاً عودة الأُسقف إِلى الصراط القويم، وإِذ بريحٍ عنيفةٍ تفتح أَبواب الكنيسة، ويدخل منها شابّان حاملين مشاعل مضاءةً، وينتصبان على جانبي الهيكل الكبير،

ويليهما آخران يبسطان سجّادةً أَمام الهيكل، ويضعان فوقها مقعدين مذهّبيْن، ولحق بهما خامسٌ منتضيًا سيفًا، وقف في وسط الكنيسة، وهتف: «أَنتم يا قدّيسي السماء، الذين ترقد ذخائرهم في هذه الكنيسة، تعالوا واشهدوا العدل الذي سينفّذه الديّان العادل». وفي الحال ظهر عددٌ غفيرٌ من القدّيسين يواكبهم الرسل الاثنا عشر، بصفتهم مساعدين للقاضي. ثمّ دخل الربّ يسوع فجلس على أَحد المقعديْن، ولحقت به مريم، في موكبٍ حاشدٍ من العذارى، فأَجلسها ابنها الإِلهيّ على المقعد الآخر.

وحينئذٍ أَمر الديّان بإِحضار المتّهم، وجيء به، فإِذا به «أدون» البائس. وتولّى القدّيس موريس الكلام، باسم الشعب الساخط على مخازي الأُسقف، وطلب أَن تقتصّ منه العدالة. وفي الحال هتف الجميع بصوتٍ واحدٍ: «يا ربّ، إِنّه يستأهل الموت». وأَجاب الديّان: «فليمُتْ، إِذن!»

حتّى اللحظة الأَخيرة كانت العذراء تتوقّع أَن تسمع من الأُسقف الخائن كلمة توبةٍ، أَو التماس استغفارٍ. ولكن، إِذ رأته سادرًا في غيّه، خرجت، إِذ لم تطقْ مشاهدة تنفيذ الحكم. وحينئذٍ، تقدّم حامل السيف، وبضربةٍ واحدةٍ قطع عنق «أودون».

وفي الحال تلاشت الرؤيا، وساد الظلام، فهبّ الكاهن مرتعدًا، وأَشعل شمعةً، وذُهل لرؤية الأُسقف «أودون» ملقًى على الأَرض، وقد انفصل رأسه عن جسده، وقد صبغ دمه بلاط الكنيسة.

وما إِن أَشرق النهار، حتّى تدافع الشعب إِلى الكنيسة، فروى لهم الكاهن رؤياه، والمأساة المريعة. وفي هذه الأَثناء روى أَحد أَفراد الرعيّة، ولم يكن قد أُحيط، بعدُ، علمًا بما حدث، أَنّه رأى في الحلم الأُسقف التعيس، مدفونًا في أَعماق جهنّم.

وأُلقيت جثّة الأُسقف الخائن في مستنقعٍ، ولكن احتُفظ ببقعة الدم على بلاط الكنيسة مغطّاةً بسجّادةٍ.

ومنذ ذلك اليوم، من عام ١١٠١ جرت العادة بأَن تُكشف هذه البقعة كلّما استلم أُسقفٌ جديدٌ منصبه، لكي تكون له رؤية آثار العقاب عبرةً تحمله على انتهاج مسيرةٍ مستقيمةٍ، فلا ينكر نِعَم الربّ، وأُمّه القدّوسة.

حماية مريم

قدم إلى كرسيّ اعتراف الأب «نيقولا زوكّي»، في روما، شابٌّ متورّطٌ في حبال الرذيلة، ومثقلٌ بالخطايا. ورئف الكاهن بحاله، فعامله برفقٍ، وأكّد له أنّ تكريم السيّدة العذراء كفيلٌ بتحريره من رذائله. ومن ثمّ فرض عليه، كفّارةً، تلاوة السلام الملائكيّ، مرّةً في الصباح، عند استيقاظه، ومرّةً أُخرى مساءً، قُبَيْل إخلاده إلى النوم. وفي الآن عينه، أوصاه بأن يقدّم للعذراء عينيه، ويديه، وكلّ جسده، ملتمسًا منها أن تحفظه بمثابة خاصّتها.

ونفّذ الشابّ ما طُلب منه. ولكنّ اصطلاحه ظلّ بطيئًا. غير أنّ الكاهن حثّه على المضيّ قُدُمًا في تكريمه للعذراء، والثبات عليه، أيّةً كانت الظروف، وحرّضه على الثقة المطلقة في حماية مريم.

واتّفق لذلك الشابّ أن مضى مع رفاقٍ له، في جولةٍ حول العالم، استمرّت بضع سنواتٍ. ولمّا عاد إلى روما، مَثُل أمام معرّفه الذي تبيّن، في كثيرٍ من الفرح والإعجاب، تغيُّر حاله، وانعتاقه الكامل من عاداته الوبيلة السالفة. وإذ استوضحه عن أسباب هذا التبدّل الرائع، أجاب الشابّ أنّ السيّدة العذراء هي نالته له، لقاء التكريم البسيط الذي كان يؤدّيه لها، عملاً بنصيحته.

وروى الأب نيقولا هذا الحدث، من خلال عظةٍ كان يستمع إليها، وسط الحضور، ضابطٌ كان، هو أيضًا، متورّطًا في علاقاتٍ أثيمةٍ. فعزم على تكريم العذراء، كما فعل الشابّ المذكور، علّه ينعتق من القيود الوبيلة التي كانت تستعبده للشرّير. وهكذا أفلح في كبح ميوله الرديئة، وفي تغيير نهج سيرته. ولكن بعد ستّة أشهرٍ، خُيّل إليه أنّه بات منيعًا، مستعصيًا على الخطيئة، فشخص

إِلى منزل شريكته السابقة في الرذيلة، بحجّة استطلاع أَوضاعها، واستبيان أَيّ تغييرٍ في سلوكها. ولمّا همّ بقرع بابها، شعر بقوّةٍ لا سبيل إِلى مقاوَمتها، تبعده، وتعود به إِلى منزله. واتّضح له أَنّ السيّدة العذراء وقته من خطر الوقوع في تجربةٍ كفيلةٍ بالعودة به إِلى سالف ضلاله.

فالعذراء لم تقتصر على سلخه عن الخطيئة، بل حرصت على حمايته من الوقوع، ثانيةً، في حمأتها.

إيقونة العذراء المنقذة

فيما كان كاهنٌ زميلٌ للقدّيس ألفونس دي ليغوري يسمع الاعترافات في الكنيسة، لمح شابًّا واقفًا إزاء كرسيّ الاعتراف، متردّدًا في الدنوّ منه. وأخيرًا دعاه الكاهن واستوضحه عن رغبته في الاعتراف، فأكّد الشابّ رغبته هذه، ولكنّه أوضح أنّ الأمر سيطول. فآثر الكاهن أن يختليا في غرفةٍ مستقلّةٍ. وهناك أفاد الشابّ أنّه غريبٌ عن المدينة، وتساءل هل سيغفر له الله، بعد حياةٍ حافلةٍ بالآثام. فهو، فضلاً عن الفسق الذي تمادى فيه، وجرائم القتل، وجرائم من كلّ نوعٍ اقترفها، يئس من الخلاص، فغدا يرتكب الشرّ لا تلبيةً لأهوائه، بل تحدّيًا للّه، وتعبيرًا عن بغضه له. فداس صليبًا كان يعلّقه في عنقه، وأقدم على المناولة، وهو في حالة الخطيئة، وهو مبيّتٌ العزم على دوس القربانة بنعله. ولكن، إذ همّ بتنفيذ فعلته الشنعاء هذه، شاهده المارّة فمنعوه من المضيّ في تدنيسه. وتأكيدًا لنيّته الآثمة، ألقى بين يدي الكاهن القربانة المقدّسة، التي كان يعتزم دوسها، ملفوفةً بورقةٍ.

بعدئذٍ، إذ كان مارًّا بالقرب من الكنيسة، دفعته إلى دخولها قوّةٌ لم يقوَ على مقاومتها. وفي الحال، انتابه ندمٌ حادٌّ، مقرونٌ برغبةٍ مبهمةٍ، متردّدةٍ، في الاعتراف. وانتصب أمام كرسيّ الاعتراف، غير أنّ الخجل والشكّ استحوذا عليه، حتّى خطر له الفرار، ولكنّ شيئًا كان يمسكه عن التراجع، إلى أن دعاه الكاهن.

حينئذ، سأله الكاهن هل كان، في أثناء فترة ضلاله، يحتفظ بأيّة ممارسةٍ تقويّةٍ، أو بأيّة وسيلة تكريمٍ للعذراء، فقد كان رجل الله موقنًا أنّ الانقلابات المدوّية لا تأتي إلاّ عن يدها. ونفى الشابّ احتفاظه بأيّة ممارسةٍ تقويّةٍ. غير أنّ

الكاهن أَلحّ في حمله على التذكّر. ومرّ الشابّ بيده على صدره، فإِذا به يتحسّس إِيقونة سيّدة الآلام. فقال له الكاهن: «أَترى، إِذن، أَنّك مدينٌ للسيّدة العذراء بهذه النعمة؟ واعلم، أَيضًا، أَنّ هذه الكنيسة مكرّسةٌ لها».

ورقّ قلب الشابّ الذي ذاب توبةً، وأَجهش بالبكاء، ووسط الدموع، مضى قُدُمًا في الاعتراف بآثامه، ولكنّ حزنه كان يتفاقم إِلى أَن أُغمي عليه، وهوى عند قدَميْ معرّفه.

ولمّا استعاد وعيه، أَكمل اعترافه، ونال عزاء الغفران. ثمّ قفل عائدًا إِلى موطنه، تائبًا توبةً نصوحًا، بعد أَن سمح للكاهن برواية قصّته، للتدليل على عظمة رحمة أُمّ الله والبشر.

حماية العذراء

كان شابٌّ في مدينة بيروجيا الإِيطاليّة ينوي القيام بعملٍ أَثيمٍ، فالتمس معونة إِبليس، وتعهّد بتسليمه نفسه إِن هو نجح في ما وطّن عليه عزمه. وقد دوّن ذلك الشقيّ هذا التعهّد بيده، ووقّعه بمداد دمه. وعقب اقترافه الجريمة، طالبه إِبليس بتنفيذ تعهّده، ومضى به إِلى بئرٍ، وأَمره بالقفز إِلى أَعماقها، وإِلاّ جرّه جسدًا ونفسًا إِلى جهنّم.

وإِذ كان ذلك البائس موقنًا أَن لا مفرّ له من سطوة إِبليس، وقف عند مثابة البئر. ولكنّ هول الميتة التي كان مُقدمًا عليها أَمسكه، فأَعلن للشيطان عجزه عن الارتماء، وأَضاف: «إِن كنت تبتغي موتي، حقًّا، فتعالَ، وادفعني، أَنت، بنفسك». ولكنّ الشرّير ارتبك لأَنّ الشابّ المسكين كان يحمل إِيقونةً للسيّدة العذراء، فقال له إِبليس: «انزع عنك هذه الإِيقونة، كي آتي وأَدفعك!».

حينئذٍ، أَدرك الشابّ أَنّه، بفضل هذه الإِيقونة، كان لا يزال ينعم بحماية أُمّ الله، فأَبى التخلّي عنها. وبعد جدالٍ مستفيضٍ، انسحب إِبليس خاسئًا، وقفل الخاطئ عائدًا كي يؤدّي آيات الشكر للسيّدة التي أَنقذته. فتاب، وكفّر، وحرص على تخليد ذكرى خلاصه، بلوحةٍ أَثبتها عند هيكل السيّدة العذراء، في كنيسة القدّيسة مريم الجديدة في بيروجيا.

الجزء الثالث

باقة قصصٍ مريمّيّةٍ منوّعةٍ

الأُمّ السماويّة تجمع الأَعداء

في ١٢ أَيلول ١٩١٥، روى جنديٌّ مصابٌ في ساحة الوغى، القصّة التالية:

إِلى جانبي كان يرقد جنديّان مصابان إِصاباتٍ مميتةً. أَحدهما كان أَلمانيًّا وقد شقّت بطنه شظيَّةُ قذيفةٍ، والثاني كان فرنسيًّا، وقد أُصيب رأسه إِصابةً بليغةً، ونزف جنبه من جرحٍ خطيرٍ.

وبَغتةً شهدتُ الجنديّ الفرنسيّ يدسّ يده تحت قلنسوة معطفه، ويستلّ، بجهدٍ، صليبًا فضّيًّا صغيرًا، حملَه إِلى شفتيه بوَرَع، ثمّ، بصوتٍ ما زال ثابتًا، رغم وهنه، شرع يصلّي باللاتينيّة: «السلام عليك، يا مريم، يا ممتلئةً نعمةً...»

ولدى سماع الجنديّ الأَلمانيّ هذه الكلمات، فتح عينيه الزرقاويْن الكليلتين، الكابيتين، وكان، من قبلُ، لا يُظهر من علامات الحياة سوى تنفّسٍ قصيرٍ متهدّجٍ. ثمّ أَدار رأسه، بتؤدّةٍ، صوب الجنديّ الفرنسيّ، وحدّق إِليه، بلا حقدٍ، لا بل بشيءٍ من المودّة، وتابع باللغة اللاتينيّة أَيضًا: «يا قدّيسة مريم، يا والدة الله، صلّي لأَجلنا....»

وتشابكت أَنظارهما وتفاهمت. وحينئذٍ مدّ الجنديّ الفرنسيّ ذراعه، في مبادرة محبّةٍ رائعةٍ، وقدّم للأَلمانيّ الصليب، فقبّله. ثمّ أَمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، وأَغمضا عيونهما، وانتابت جسديهما رعشةٌ، ثمّ تجمّدا، وهجرتهما الحياة.

الرجل الذي نسي اسم مريم

روى مُرسلٌ في أَفريقيا الحدث التالي:

استُدعيتُ، يومًا، إِلى جانب رجلٍ عجوزٍ يناهز من العمر خمسةً وتسعين عامًا. وما إِن رآني حتّى قال: «يا أَبتِ، لقد استدعيتُك كي تقتلني. فيبدو أَنّ اللّه قد نسيني على الأَرض، وقيل لي أَنّ بوسعك إِنهاء حياتي. ولا بدّ لي من أَن أَمضي، فقد بلغت من العمر عتيًّا». وأَجبته:

– «بالتأكيد أَنا أَفهم رغبتك. ولكن ينبغي، أَوّلاً، إِعداد نفسك، وتقبّل العماد، وبعدئذٍ سيتمّ لك ما أَنت راغبٌ فيه».

– «علّمني، إِذن، وعمّدني، كي أَمضي في سبيلي».

ولقد علّمتُه على مدى بضعة أَيّامٍ، ثمّ عمّدتُه.

وفي اليوم التالي استدعاني وقال لي:

– «يا أَبتِ، في الليلة الماضية، وصلتُ، في الحلم، إِلى باب السماء، ولكن لم يؤذن لي بالدخول، لأَنّني كنت قد نسيتُ اسم أُمّ اللّه. وقيل لي: عُدْ إِلى الأَرض، واحفظ جيّدًا هذا الاسم، وبعدئذٍ، سيكون بوسعك أَن تعود». وجعلتُ ذلك العجوز الطيّب يكرّر عشر مرّاتٍ، بل عشرين مرّةً، بل مئة مرّةٍ، اسم مريم المقدّس.

وفي الغداة استدعاني ثانيةً، وقال: «أَبتِ، مثلتُ، من جديدٍ، أَمام باب السماء، وعندما تلفّظتُ باسم مريم، فُتح لي، وقال لي اللّه: «عدْ، ودّع الأَرض، واستعدّ جيّدًا، وتعالَ، فسأستقبلك في الفردوس».

وبعد أَيّامٍ معدوداتٍ، لقي نحبه، وهو يردّد، باستمرارٍ، اسم مريم المقدّس.

لو كنت تحبّ أُمّك

كان «پيير پيتوا» عريفًا في جيش ناپوليون الأوّل. وقد تميّز، دائمًا، ببسالةٍ نادرة المثال. فقد كان سبّاقًا في الهجوم، وفي تدمير استحكامات العدوّ، تحت وابلٍ من الرصاص. في معركة «واغرام»، بتاريخ الخامس والسادس من تمّوز ١٨٠٩، قاتل بشجاعةٍ، ثمّ، بغتةً، اختفى، وفرّ من الجيش.

بعد فترةٍ أُلقي القبض عليه، واقتيد إِلى مقرّ القيادة في ستراسبورغ، حيث حُكم عليه بالإِعدام.

كثيرون من رفاق الجنديّ المسكين سألوه: «يا پيير، كيف حدث لك، أنت الجنديّ الباسل، الحائز على الكثير من الأوسمة، أن تهجر الجيش مثل هذا الهجران الجبان؟» وكان يكتفي بإِجابة الجميع: «أنا لست نادمًا على ما فعلت!»

عند منتصف الليلة السابقة لموعد إِعدامه، فُتح باب سجنه، ودخل ضابطٌ، لم يكن في الواقع، سوى ناپوليون، شخصيًّا، ولكنّه كان مموّهًا بحيث لم يتعرَّفه الجنديّ.

وتناول الضابط يد الجنديّ المدان وقال له برقّةٍ: «يا صديقي، أنا، بصفتي ضابطًا، كثيرًا ما كنت شاهدًا على بسالتك، ومعجبًا بصلابة أعصابك. ولذلك جئت كي أَطّلع منك على الرغبات التي تودّ تحقيقها عقب موتك. فإِن كان لديك ما ترغب في تبليغه إِلى عائلتك سأُبلّغه بأَمانةٍ. ولكنّ الجنديّ أَجاب: «لا رغبات لديّ». فاستوضحه الضابط: «أَلست راغبًا في توديع والدك، وإِخوتك وأَخواتك؟»

– «أَبي متوفًّى، وليس لي إِخوةٌ أَو أَخواتٌ»

– «وماذا عن أُمّك؟»

– «أَرجوك ألاّ تلفظ هذه الكلمة. فعند سماعي لها تنتابني رغبةٌ في البكاء، وأَنت تعلم أَنّ البكاء لا يليق بالجنديّ».

– «ولمَ لا؟ فأَنا لست أَخجل من البكاء عندما أَذكر أُمّي».

وحينئذٍ تألّقت عينا الجنديّ فقال:

– «آه! أَتحبّ، أَنت أَيضًا، أُمّك؟ إِذن يسعني أَن أَبوح لك بكلّ شيءٍ».

وشرع في بوحه:

– «من كلّ ما هو موجودٌ في الدنيا، لم أُحبّ شيئًا أَو أَحدًا مثلما أَحببت أُمّي. عندما باشرت خدمتي العسكريّة، باركتْني قائلةً: يا بنيّ، إِن كنت تحبّني، أَدِّ واجبك. فودّعتها، ومنذ ذلك اليوم، لم تبارح أَقوالها ذهني وقلبي. وهي التي كانت تُمدّني بالشجاعة لمقاومة القنابل. كنت أَذكر وصيّة أُمّي، فأُجابه الموت بلا خوفٍ.

وذات يومٍ علمت أَنّ أُمّي تعاني مرضًا خطيرًا؛ والتمست إِذنًا كي أَزورها، فرُفض طلبي. والتمست الإِذن، ثانيةً، فرُفض أَيضًا. وأَخيرًا تلقّيت نبأ وفاتها. والتمست إِذنًا مجدّدًا، ولكن تكرّر الرفض، وحينئذٍ لم أَستطع الصمود، فكان لا بدّ لي من زيارة قبر أُمّي، ومن اقتطاف زهرةٍ فوق لحدها. وقد وجدتُ ثمّة زهرةً صغيرةً، اقتطفتها، وإِنّي الآن أَحملها فوق قلبي. وسأموت غدًا. ولكنّ الموت لا يخيفني».

وانسحب الإِمبراطور بعد أَن طيّب خاطر الجنديّ بكلماتٍ رقيقةٍ. وفي الغداة عندما جيء بالجنديّ من سجنه كي يُقتل بالرصاص، في تلك اللحظة وافى الإِمبراطور على صهوة حصانه، فعفا عن «پيير پيتوا»، ورفّعه إِلى رتبة ضابط.

سيّدة أَزهار «برا»

«برا» مدينةٌ إِيطاليّةٌ صغيرةٌ، في منطقة تورينو. كانت تعيش فيها زوجةٌ فتيّةٌ، حاملٌ، دنا موعد وضعها. وقد شخصت مساء التاسع والعشرين من كانون الأَوّل ١٣٣٦ إِلى مقامٍ مُكرّسٍ للسيّدة العذراء، عند أَطراف المدينة، حيث كان المؤمنون يقدّمون نذورهم. وكان اثنان من جنود المرتزقة الذين أَلِفوا عيث الفساد في البراري، كامِنَيْن في مخبإٍ في تلك البقعة، وقد حاولا الاعتداء عليها، غير عابئين بوضع حَمْلِها المتقدّم، فتشبّثت بصورةٍ للعذراء مرسومةٍ على أَحد الأَعمدة، واستغاثت بها.

وبغتةً انبعث من العمود نورٌ ساطعٌ بهر الجنديّين المرتزقين، اللّذين أَخذ منهما الرعب كلّ مأخذٍ، ولاذا بالفرار. ثمّ ظهرت العذراء للفتاة، وطيّبت خاطرها، مدى دقائق معدوداتٍ، وهدّأت روعها، وأَكّدت لها أَنّها باتت في مأمنٍ من كلّ خطرٍ. وما إِن تلاشت الرؤيا حتّى وضعت المرأة وليدها في المقام عينه، نتيجةً للخوف وللتأثّر. فلفّت الطفل بمنديلها، ثمّ هرعت إِلى أَقرب بيتٍ.

وسرعان ما ذاع النبأ العجيب في المدينة، ورغم الوقت المتأخّر تقاطرت الجموع صوب مكان الاعتداء والظهور، حيث كان ينتظرهم حدثٌ عجيبٌ. فقد كانت تحيق بالمكان شجيرات برقوقٍ شائكةٌ، فإِذا بها قد اكتست بغتةً بالزهور البيضاء، رغم البرد القارس السائد في مثل تلك الفترة من السنة. ومنذئذٍ، ما انفكّت تلك الزهور تتفتّح دائمًا في هذا الموعد غير المألوف، خارج موسمها.

هذا الإِزهار العجيب، المستمرّ منذ نحو سبع مئة سنةٍ، ما زال لغزًا يستعصي على العلم تفسيره. فالمعروف عن هذه الشجيرات أَنّها تزهر مرّةً واحدةً في

السنة، في شهر آذار، عندما يكون الطقس دافئًا، وفي شهر نيسان إِن كان الطقس باردًا.

ولطالما حاول علماء زراعيّون حلّ لغز هذا الإِزهار المبكّر، فلم يقفوا له على تفسيرٍ، ولا سيّما أنّ الشجيرات التي تطلع الزهور العجيبة هي من عين نوع مثيلاتها المنتشرة في المنطقة، وطبيعة تربتها لا تختلف عن تربة مثيلاتها، واتّجاهها شماليٌّ، وبالتالي لا تنعم إِلاّ بالقليل من الدفء.

وقد جرت، في ما بعد، أَحداثٌ غريبةٌ تبدو على صلةٍ بهذه الظاهرة. ففي شتاء ١٨٧٧–١٨٧٨، تأخّر إِزهار تلك الشجيرات، حتّى العشرين من شهر شباط، وفي اليوم التالي أُعلن انتخاب البابا لاون الثالث عشر.

ومع أَنّ من المألوف أَلاّ تتجاوز مدّة الإِزهار، عمومًا، عشرة أَيّامٍ، إِلاّ أَنّها في شتاء ١٨٩٨–١٨٩٩، استمرّت ثلاثة أَشهرٍ، إِذ توافق ذلك مع تصوير كفن تورينو، فوتوغرافيًّا، للمرَّة الأولى.

وفي **٢٣** تشرين الثاني عام **١٩٧٣**، عُرض الكفن المقدّس، للمرَّة الأولى على شاشات التلفزيون، نزولاً عند رغبة البابا بولس السادس. وبهذه المناسبة استبق إِزهار شجيرات البرقوق الشائكة موسمه، فحدث في ذلك الشهر عينه – أَي في تشرين الثاني – واستمرّ حتّى الربيع التالي.

وقد جرت أَحداثٌ غير مألوفةٍ، أَيضًا، أَثناء عرض الكفن المقدّس على شاشات التلفزيون عام ١٩٧٨، وقد شهده ثلاثة آلاف حاجٍّ، بينهم رئيس أساقفة كراكوفيا (بولونيا) آنذاك، الذي ما عتّم أَن أَصبح البابا يوحنّا بولس الثاني.

هزّةٌ أَرضيّةٌ

لسنواتٍ خلت، دمّرت هزّةٌ أَرضيّةٌ عنيفةٌ، تدميرًا شبه كاملٍ، مدينة كارتاغو في «كوستاريكا». وفي تلك المناسبة حدث أَمرٌ عجيبٌ روته جريدة «أَميركا» التي يصدرها الآباء اليسوعيّون، في نيويورك.

فقد كان السيّد «إِيزيشيل غوتيرّيز» رئيس جمهوريّة كوستاريكا السابق، في منزله، يتلو المسبحة مع أَفراد أُسرته، عندما حدثت الهزّات الأَرضيّة الأولى. وقد حاول بعض الموجودين في المنزل الفرار، والنجاة بأَنفسهم. ولكنّ رجل الدولة أَمرهم بالبقاء حتّى الفراغ من تلاوة المسبحة، فامتثلوا لطلبه. وكم كانت دهشتهم بالغة، عندما خرجوا، بعدئذٍ، إِلى الشارع، فتبيّنوا أَنّ المدينة بأَكملها قد أَمست أَكوام أَنقاضٍ، وأَنّ بيت الرئيس وحده ظلّ قائمًا، ولم يظهر فيه أَيّ تصدّعٍ!

لقد تبيّن، جليًّا، أَنّ العذراء قد أَحاطت بحمايةٍ خاصّةٍ المنزل الذي كان أَهله يتلون المسبحة.

مريم تدرأ بركان ڤيزوڤ

عام ١٩٠٦ ثار بركان ڤيزوڤ، وانطلق يتقيّأ أَمواج حممه، وتدفّقت الكتل الحارقة، نهرًا من نارٍ، على سفوحِ الجبل، باتّجاه قرية «تورّي أَنونسياتا» الصغيرة. وما لبثت أَنً بلغت أولى بيوت القرية، واتّضح للجميع أَنّ القرية بأَكملها صائرةٌ إِلى زوال. وشرع الأَهالي يلوذون بالفرار، غير أَنّ كاهن القرية لجأ إِلى وسيلةٍ مدهشةٍ إِذ جاء بتمثال العذراء القدّيسة من الكنيسة، وتقدّم في مواجهة سيل الحمم، ووضع التمثال أَرضًا، وهتف:

«أَيّتها العذراء الكلّيّة القداسة، أَنقذي نفسكِ وأَنقذينا! ، فإِن أَنتِ حوّلت مسار نهر النار هذا، انتهى كلّ شيءٍ إِلى خيرٍ، وإِلاّ فسندعك تحترقين مع قريتنا».

وتوقّفت الحمم عند أَقدام ملكة السماء، وتحوّلت عن المساكن، وانصبّت في البحر.

صورة العذراء التي نجت من الحريق

كان حريقٌ قد جاء على فندقٍ في مدينةٍ نمساويّةٍ. وفي ما بعد، روت صاحبة الفندق ما يلي:

فيما كان العمّال دائبين على رفع الأَنقاض، حاول أَحدهم استخراج شيءٍ لم يتبيّن ماهيّته. وظننتُ أَنّه من أَدوات المنزل التي لم تعد صالحةً، فأَوعزت للعامل أَن يهمله، ولكنّه، في تلك اللحظة، أَفلح في استخراجه، فإِذ به لفيفةٌ اسودّ قفاها، وتكلّست أَجزاء من أَطرافها. ودهشنا لمّا فتحناها؛ فإِذ بها صورة سيّدة الورديّة، التي كانت تزيّن إِحدى غرف الطبقة الثانية من الفندق، محاطةً بإِطارٍ خشبيٍّ جميل، ومغطّاةً بلوحٍ من الزجاج. وكان الإِطار قد احترق، والزجاج قد ذاب، أَمّا الصورة فقد اسودّ قفاها ولكنّها نجت من الحريق.

وقد أُحيطت الصورة بإِطارٍ جديدٍ، واستعادت مكانها السابق في الطبقة الثانية من الفندق الذي أُعيد بناؤه، بعد أَن دوّنت عليها إِشارةٌ إِلى ما تعرَّضت له.

إِيقونة العذراء المنقذة

لأُمّ الله قدرةٌ لامحدودةٌ تثبتها بمعجزاتها.

فقد استقلّ شابٌّ حافلةً قاصدًا مربع لهوٍ سيّئ السمعة. لقد استحوذت عليه قوى الظلمة، فأَنسته نصائح أُمّه التي كانت، دائمًا، حريصةً على طهر نفسه ونقائها.

وفيما هو مستغرقٌ في أَحلامه وتخيّلاته، أَيقظه صوت المفتّش الذي طالبه بثمن بطاقة الركوب. فارتبك ومدّ يده إِلى جيبه، واستخرج حفنةً من القطع المعدنيّة، سقطت إِحداها على أَرض الحافلة. وانحنى الشابّ لالتقاطها، فإِذا هي ليست نقدًا، بل كانت إِيقونةً للسيّدة العذراء زوّدته بها أُمّه. لاحظ بعض الركّاب ذلك، فمنهم من تبسّم، ومنهم من هزّ أَكتافه، ولكنّ الشابّ لم يعبأ بهم. بل كانت أَنظاره مثبّتةً على صورة السيّدة المنزّهة من الدنس. وقد حلّت في نفسه أَنوارٌ ساطعةٌ طاردةً الظلمات التي كانت تغشاها.

نزل من الحافلة عند المحطّة الأولى، واتّجه نحو كنيسةٍ حيث اعترف، وساد السلام نفسه، التي كانت الأُمّ السماويّة قد أَسبلت عليها معطف رحمتها، ووقَتْها من الدنس، ومن الهلاك.

مكافأة الوفاء

وافت امرأةٌ إلى مقرّ الرعيّة وقالت للواعظ: «أَمس، في عظتكَ، قلت، أَبتِ، إِنّ من يبقى وفيًّا للسيّدة العذراء يجد أَنّ العذراء هي، أَيضًا، وفيّةٌ له. وأَنا قد خَبرتُ ذلك شخصيًّا. فبما أَنّي كبرى عشرة إِخوةٍ اضطررت للعمل في سنٍّ مبكّرةٍ للمساعدة في إِعالتهم. ولكن لم يشأ أَحدٌ من مستخدميّ الاحتفاظ بي، بسبب ضعف عودي، وقلّة قدرتي على العمل الشاقّ. أَخيرًا عقدتُ العزم على الانتحار غرقًا، وخرجتُ كي أُنفّذ قراري. ومررت بكنيسةٍ فولجتها، وقصدت تلقائيًّا هيكلاً للسيّدة العذراء، وصارحتها: «ها أَنذا أَمثل أَمامك للمرَّة الأَخيرة، كي أَشكر لك كلّ مبادرات عطفك التي بادرتني بها سحابة حياتي»، وتلوتُ صلواتٍ قصيرةً، وخرجتُ، فإِذا بامرأةٍ تبادرني القول: «ها قد عثرت عليك، أَخيرًا. فقد وجدت لك عملاً». فاعترضت: «ولكن لن أَلبث أَن أُطرد، بسبب ضعفي». فردّت المرأة: «اطمئنّي بالاً، فالذي يرغب في استخدامك على علمٍ برقّة إِمكانيّاتك الجسديّة. اتبعيني».

وتبعتُها، واحتفظت بعملي الجديد ستّة عشر عامًا. وهكذا أَنقذني حبّي للعذراء القدّيسة.

أَنقذته مريم من المقصلة

في غمرة الثورة الفرنسيّة، لقي كثيرون من عليّة القوم حتفهم على منصّة الإِعدام، وكانت السجون تغصّ بنخبةٍ من أَبناء فرنسا، الذين كانوا يتوقّعون، بين ساعةٍ وأُخرى، قرار اقتيادهم إِلى المقصلة. وكان، بين السجناء كونتٌ طالت مدّة اعتقاله. وذات صباحٍ دخل سجّانٌ، وتلا قائمة أَسماء من صدر بحقّهم حكم الإِعدام، وكان الكونت واحدًا منهم. وخرج جميع الذين تُليت أَسماؤهم، ما خلا الكونت الذي كان منهمكًا في البحث، بين القشّ، عن غرضٍ مفقودٍ، وكان يرجو السجّان متوسّلاً: «خذني بصبرك، فقد فقدت، في هذه الليلة، غرضًا عزيزًا عليّ، ولستُ أُطيق أَن أَمثل إِلى منصّة الإِعدام محرومًا منه». واستوضح السجّان: «وما عساه يكون هذا الغرض الثمين؟» فأَجاب: «إِنّها إِيقونتي التي لم تبارح صدري، يومًا، والآن...» وخنق الحزن صوته، وتأثّر السجّان بحزنه، فقال: «حسنٌ ابقَ حيًّا اليوم بلا إِيقونتك، وفي الغد ستموت وأَنت تحملها». وأَغلق الباب ومضى. ولم يلبث الكونت أَن عثر على إِيقونته فقبّلها مبلّلاً إِيّاها بدموعه. وصباح اليوم التالي، فتح بابَ السجن سجّانٌ آخر، وتلا أَسماء المحكومين، ولم يكن اسم الكونت منهم، إِذ اعتُبر أَنّه لقي حتفه في اليوم السابق. وهكذا كان في الأَيّام التالية. وبعد أُسبوعٍ دوّت صيحةٌ في المعتقل: «النار، النار!»، إِذ كان حريقٌ قد شبّ ببناءٍ ملاصقٍ للسجن. وصاح السجّانون: «فلينجُ كلّ امرئٍ بنَفسه!»، وتمكّن الكونت من الفرار بمهارةٍ، إِلى أَن أَصبح في مأمنٍ، فشكر الربّ، وتضاعف تكريمه للسيّدة العذراء التي، بحمايتها، أَنقذت حياته.

معجزة «الڤيستول»

في أَوائل القرن العشرين اجتاحت روسيّا السوفيتيّةُ بولونيا، هازمةً جيشها شرّ هزيمةٍ. وفي مطلع شهر آب ١٩٢٠، تدفّقت أَمواج الجيوش البولشيفيَّة على الأَراضي البولونيّة. فدوّت أَصوات المدافع في ڤرسوڤيا، التي غادرتها البعثات الدبلوماسيّة الأَجنبيّة، ولم يتلبّث فيها سوى القاصد الرسوليّ، أَشيل راتّي، الذي أَصبح البابا بيّوس الحادي عشر.

وفي غمرة محنتها تذكّرت بولونيا سيّدتها ومليكتها، فاستهلّت حملة صلواتٍ متواصلةٍ، وبات يُشاهد الأَغنياء والفقراء راكعين متوسّلين في الكنائس، وعلى قارعات الطرقات، وجميعهم واثقون من أَنّ مريم ستنقذهم، وهي، في الواقع، لم تضنّ عليهم بغوثها.

ففي الخامس عشر من شهر آب، في ذكرى انتقالها المجيد إِلى السماء، مُنيَ السوفييتيّون بهزيمتهم الأولى، في «الڤيستول». وبعد أُسبوعٍ لم يبقَ جنديٌّ سوفييتيٌّ واحدٌ على الأَرض البولونيّة.

وقد دوّن تاريخ بولونيا هذا الحدث تحت اسم «معجزة الڤيستول»، وقد أَلِف البابا بيّوس الحادي عشر، الذي كان شاهدًا على ذلك الحدث، الإِشارة إِليه، والتذكير بتلك المعجزة كلّما استقبل حجّاجًا بولونيّين.

ومنذئذٍ، أَخذ البولونيّون يُسبغون على عيد انتقال العذراء، عظمةً فريدةً، ويحتفلون به بمظاهر تكريمٍ عارمٍ.

فحيث أَثبتت فنون الحرب عجزها الذريع، أَثبتت الاستغاثة بالسيّدة العذراء جدواها الفائقة.

مريم العذراء ملجأ الخطأة

كان القدّيس فرانسوا ريجيس في سجنٍ يضمّ، أَيضًا، مجرمًا محكومًا عليه بالإِعدام، وكان هذا المجرم يقاوم، بعنادٍ، كلّ محاولات النعمة. ولجأ القدّيس إِلى وسيلةٍ أَخيرةٍ، فتناول من ثنايا كتاب صلواته صورةً للسيّدة العذراء، ووضعها تحت عينيه، وسأله:

– «هل تعرف هذه المرأة؟».

وأَجاب المجرم بنبرةٍ غاضبةٍ:

– «أَجل أَعرفها».

– فاعلم، إِذن أَنّها تحبّك وتصلّي من أَجلك، فهي أُمّ الرحمة».

– «أَتحبّني وتصلّي من أَجلي! إِنّها، إِذن لا تعرفني، ولا تدري أَنّني أَنكرت الإِيمان، وخنت ديني، وأَهنت ابنها، ودسته بقدميّ؛ ولا تدري أَنّ يديّ ملوّثتان بدمٍ بريءٍ، وأَنّني وحشٌ، ومصيري الهلاك....».

– كفاك، يا بنيّ! إِنّ مريم تعرفك، وتحبّك، وتصلّي من أَجلك، مع كلّ ما فعلته». وأَفلتت تنهّدةٌ من صدر الرجل البائس، وقال:

– يا رجل الله، أَكّد لي أَنّ ما تقوله هو الحقيقة».

– «إِنّي أُؤكّد لك ذلك».

– «إِذن، أَنا راغبٌ في الاعتراف، والتكفير، وأَرتضي أَن أَترك حياتي على المقصلة، تكفيرًا عن جرائمي. يا قدّيسة مريم صلّي من أَجلي الآن، وفي ساعة موتي».

الإيمان والمسبحة

كان رجلٌ يتبوّأ، في المجتمع، مكانةً مرموقةً، وينعم بسمعةٍ طيّبةٍ، قد أَهمل كلّ ممارسةٍ دينيّةٍ. وذات يومٍ، ضمّه مجلسٌ اشترك فيه عددٌ من رجال الدين، وفيما كان يتجاذب معهم أَطراف الحديث، أَفلت منه هذا الاعتراف: «كم أَودّ أَن أَمتلك الإِيمان، ولكنّني لست أَجد إِلى ذلك السبيل». وهمس في أُذنه كاهنٌ كان يجلس بالقرب منه: «أَلست تملك الإِيمان؟ إِذن، اتلُ المسبحة!». وقفز الحديث إِلى مواضيع أُخرى.

بعد مضيّ ثلاث سنوات، تلقّى الكاهن الرسالة التالية:

«سيّدي الكاهن، ربّما تذكر أَنّه، لنحو ثلاث سنواتٍ خلت، وفي أَثناء حديثٍ كنتَ تشترك فيه، اعترفتُ بفقدي إِيماني، وأَعربتُ عن أَسفي لعجزي عن الإِيمان. فنصحتَني بتلاوة المسبحة. حينها، استهجنتُ قولك، ولكنّه ترسّخ في ذاكرتي، بحيث كان يبدو لي أَنّني أَستمعه باستمرارٍ، إِلى أَن أَصبح هاجسًا يواكبني. وشيئًا فشيئًا اعتدت عليه، واستحوذ على فؤادي، لا بل استعذبته، وشرعت أَتلو المسبحة.

«وها إِنّي، اليوم، أومن، وأَنا سعيدٌ بممارستي واجباتي الدينيّة».

المسبحة والمقصلة

أُعلن عن إِعدامٍ وشيكٍ لمجرمٍ شابٍّ لم يتخطّ الثانية والعشرين من العمر، واحتشد جمعٌ غفيرٌ في ساحة المدينة الفرنسيّة، حيث كان سيتمّ الإِعدام. وعندما تبيّن الشابّ دنوّ أَجله، التمس من الكاهن الذي كان يواكبه، خدمةً، إِذ استلّ من جيبه مسبحةً، وقال لرجل الله: «هذه هي المسبحة التي أَهدتني إِيّاها أُمّي، يوم مناولتي الأولى. في فترة فتوّتي كانت تشاركني تلاوتها اليوميّة، وفي الآن عينه، كانت تسدي لي مئات النصائح. وفي ما بعد، هجرتُ أُمّي، وانطلقتُ في العالم الواسع، ونهجتُ سُبُل الضلال، إِلى أن ارتكبتُ الجريمة التي أَدفع ثمنها حياتي، اليوم.

«في زنزانتي وطّنت العزم، طويلاً، على ألاّ أَتوب وأَندم. ولكنّني، ذات يومٍ، عثرتُ على هذه المسبحة في أَحد جيوبي. ولدى رؤيتها قفزتْ صورة أُمّي إِلى مخيّلتي، وتواردت إِلى ذاكرتي كلّ الدروس القيّمة التي كانت قد زوّدتني بها. وأَنا كنت، منذ سنواتٍ طويلةٍ، قد أَعرضت عن تلاوة المسبحة، فعدت أَتلوها. وإِذ بعينيّ تغرورقان بالدموع، ولا سيّما عندما جال بفكري ما سبّبته لأُمّي من خزيٍ ومن حزنٍ، من جرّاء سلوكي الإِجراميّ.

«فأرجوكَ، أَبتِ، أَن تعيد لها هذه المسبحة، وأَن تؤكّد لها توبتي، ودموعي، ومصالحتي مع الله، قبل موتي».

هاكم مسبحتي!

حدث ذلك في فلورنسا عام ١٩٠٠. كانت الدروس، في كلّيّة الحقوق، قد انتهت، وغُصّ الدرج العريض بالطلاّب الذين كانوا يهبطون في دويٍّ من الهرْج والمرْج. وسقطت مسبحةٌ من جيب أحد الطلاّب، ولحظ ذلك رفاقه، فتفجّروا ضحكًا، وسخريّةً، متسائلين: «لأيّ كاهنٍ محترمٍ هذا الشيء». كان الطالب ابن أخي أُسقفٍ مشهورٍ، ولكنّه كان يفتقر إِلى الجرأة. فاحمرّ محيّاه خجلاً، وكأنّه قُبض عليه متلبّسًا، في جرمٍ مشهودٍ، وقال متلعثمًا، محاولاً درء موجة السخريّة: «انظروا ما دسّته في جيبي أُمّي الدرويشة».

وردّ عليه صوتٌ جهوريٌّ: «بل أَنت، يا جبان، امرأةٌ درويشةٌ! إِنّ أُمّك تستأهل كلّ احترامٍ، أَمّا أَنت فلا تستأهل أَيّ احترامٍ!».

ثمّ التفت الطالب الذي تلفّظ بهذه الأَقوال إِلى أَترابه الذين كانوا قد سخروا بزميلهم، وقال متحدّيًا: «إِن لم تكونوا قد شاهدتم مسابح، فهاكم مسبحتي»، واستلّ من جيبه مسبحةً، لوّح بها عاليًا، بيده اليُسرى، فيما سدّد قبضته اليُمنى، وقد التمعت عيناه غضبًا، وصاح: «إِن كان لدى أَحدكم اعتراضٌ أَو تعليقٌ، فليتفضّل!».

هذا الموقف الجريء استثار إِعجاب الجميع، فتعالت صيحات التأييد والتهنئة، وتوالت. أَمّا الطالب الجبان، الذي استحيى من أُمّه الأَرضيّة، وبالتالي من أُمّه السماويّة، فقد ذاب خزيًا، وسرعان ما توارى عن الأَنظار.

أَمّا الطالب الجريء، فقد كبر في نظر رفاقه، وفي تقديرهم، وبات يلقى، حيثما ذهب، الاحترام والمحبّة.

شُفيت وهي تتلو المسبحة

روت صحيفة «أوسّيرڤاتوري رومانو» أَنّ السيّدة «فرانسواز راو» كانت قد خضعت لسلسلة عمليّاتٍ جراحيّةٍ في قدميها، ولكنّها لم تحصل على أَيّة نتيجةٍ مُرضيةٍ. وفي شهر آذار من عام **١٩٢٥** تفاقم وضعها سوءًا، بحيث اضطُرّت إِلى التزام السرير. ثمّ نقلت إِلى مستشفى القدّيس جاك في روما، حيث أَعلن الأَطبّاء فقدهم أَيّ أَملٍ في شفائها.

وفي إِحدى الليالي رغبت المريضة في تلاوة المسبحة برفقة إِحدى الراهبات الممرّضات. ولمّا انتهيتا إِلى السرّ الرابع من الأَسرار الأَليمة، انتابت المريضة آلامٌ مبرّحةٌ أَكرهتها على وقف الصلاة، وهرعت الراهبة التي كانت ترافقها إِلى استدعاء الطبيب.

ولكن لمّا حضر الطبيب، كان كلّ أَلمٍ قد اضمحلّ، وأَعلنت الفتاة: «ما عدتُ في حاجةٍ إِلى أَيّ شيءٍ، فقد شفتني السيّدة العذراء». ثمّ نزلت من سريرها الذي لم تكن قد غادرته منذ سنتين.

ولم يستطع الأَطبّاء المشرفون على علاجها، وكذلك طبيب قداسة البابا، سوى تأكيد شفاءٍ، لم يجدوا له تفسيرًا، ومن المحقّق أَنّه لم يكن طبيعيًّا.

مالٌ لبناء كنيسةٍ

في الحادي عشر من شهر آذار ١٨٧٥ انتقل إِلى رحمة اللّٰه أَكبر الأَساقفة الكاثوليك سنًّا في جزيرة «كيّو» اليونانيّة. وكان له من العمر أَربعٌ وثمانون سنةً، قضى منها ٦١ سنةً كاهنًا، وخمسين سنةً أُسقفًا. كان ينتمي إِلى أُسرة «جوستينياني» الإِيطاليّة النبيلة، التي ما زال لها ممثّلون في البندقيّة، وجنوا وروما. وقد قرن نبل المحتد بالفضائل المسيحيّة والكهنوتيّة.

وكان، وهو كاهنٌ شابٌّ، قد شهد الأَحداث الرهيبة التي يشير إِليها التاريخ باسم «مجزرة كيّو»، والتي اقترفها الأَتراك في أَعقاب انتفاضة عام ١٨٢١، وقد اقتسم كاثوليكيّو الجزيرة، وعددهم أَحد عشر أَلفًا، مع كونهم أَبرياء، مصير اليونانيّين الثائرين. فأُبيدوا، ولم ينجُ منهم سوى نحو ثلاث مئة فردٍ. وكان أَغناطيُس جوستينياني كاهنهم الوحيد، المتدفّق جرأةً. وقد لمّ شمل خرافه المشتّتين، وواساهم، ما استطاع إِلى المواساة سبيلاً، على أَنقاض كنائس كاثوليكيّي الجزيرة وبيوتهم، التي ما برحت أَدخنة الحرائق تتصاعد منها.

وما لبث أَن عُيّن أُسقفًا على الجزيرة، فشيّد كاتدرائيّةً صغيرةً جميلةً، وشرع ببناء ثلاث كنائس صغيرة. وقد أَغاثته العناية الإِلهيّة، بطريقةٍ عجيبةٍ وصفها بقوله: «في أَيّام الكوارث تلك، كان المال قد أَصبح في مثل ندرة دموعنا التي جفّت من كثرة البكاء. كنت حائرًا، أَبحث عن وسيلةٍ لإِتمام مشاريع البناء، وأَتضرّع إِلى العذراء القدّوسة، وأَستنجدها، وإِذا ببابي يُقرع. وإِذا بي أَمام رجلٍ مجهولٍ يسلّمني ظرفًا مدوَّنًا عليه عنواني، ويتوارى في الحال. وفي الظرف وجدت صورةً للقلب الأَقدس دُوّنت عليها هذه العبارة: «طوبى للّذين يتّكلون على الربّ!»، وإِلى جانب الصورة كان مبلغ ستّين أَلف فرنك»!

مسبحة الجنديّ العجوز

كان في مستشفى للأَمراض المستعصية في بلجيكا جنديٌّ عجوزٌ، أَنفق عمره في ساحات الوغى، وشاخ فيها، ولكنّه احتفظ بقلبٍ شابٍّ، منفتحٍ على الاعتبارات الدينيّة. وقد عاده كاهنٌ، يومًا، وحدّثه عن المسبحة، وعلّمه طريقة استعمالها. ووجد فيها الجنديّ من العزاء ما جعله يندم على عدم معرفته لها آنفًا، وكان يردّد: «ليتني عرفتها من قبل، لكنت تلوتها كلّ يوم».

ومنذئذٍ ما انفكّ يتلو المسبحة باطّراد، وكأَنّه يجهد في تعويض الوقت المهدور. وسأل الممرّضين المشرفين على علاجه كم يومًا في الستّين سنةً، فقيل له **٢١٩٠٠** يوم. واستفهم كم مسبحةً عليه أَن يتلو، يوميًّا، مدى ثلاث سنواتٍ، كي يبلغ هذا الرقم، فقيل له عشرون مسبحةً. ومنذئذٍ لم تبارح المسبحة يديه، لا ليلاً، ولا نهارًا. وبعد ثلاث سنوات من الآلام المبرّحة التي احتملها بصبرٍ وبطولةٍ، انتهى إِلى المسبحة الأَخيرة التي التزم بتلاوتها. وكان الموت بانتظاره، فلم يعش، بعد ذلك، نهارًا واحدًا، بل ولا ساعةً واحدةً، بل أَسلم نفسه إِلى خالقه وهو يتمتم آخر «سلام عليك يا مريم».

بطولة فتاةٍ

فيما كانت فتاةٌ تلعب، ملأت عينيها رملاً، ما سبّب لهما التهابًا. وأُجريت لها سلسلة عمليّاتٍ لم تؤتِ أيّة نتيجةٍ. فقصدت مع والدها الملحد أشهر أطبّاء العيون في السويد، سدًى، إذ كان نظر الفتاة يزداد ضعفًا، إلى أن كادت تفقده تمامًا.

ولدى مغادرتهما السويد، توقّف الأَب وابنته في تشيستوكويا. وفي الساعة السادسة، صباحًا، شخصا إلى مزارها الشهير، أَمام العذراء السوداء. وفي نهاية القدّاس الأَوّل، سأل الأَب ابنته: «هل شفتكِ السيّدة؟». فأَجابت الفتاة: «لقد قلت للعذراء القدّوسة إنّني لم أَعد راغبةً في رؤية العالم، وإنّما طلبت أَن أَراك، أَنت، يا بابا، راكعًا تصلّي».

هذا الجواب هزّ الوالد في الأَعماق، فتفجّر بكاءً. وعندما هدأ روعه قصد كاهنًا وقال: «أَرجوك أَن تسمع اعترافي».

قدرة صلاة «السلام»

استدُعي أُسقفٌ لعيادة امرأةٍ شابّةٍ محتضرةٍ، كان قد أَعدّها، لبضع سنواتٍ خلت، لمناولتها الأولى. كانت ابنة ماريشالٍ فرنسيٍّ، تتميّز بخصالٍ رفيعةٍ، وتنعم بحبّ والديها الجمّ، وبعشق زوجٍ غنيٍّ كانت قد أَنجبت له وريثًا. ولم ينقص من أَسباب سعادتها الأَرضيّة شيءٌ، وكان المستقبل يتألّق أَمامها بالآمال الزاهرة. لم تكن قد تجاوزت العشرين من العمر، ومع ذلك كانت مشرفةً على الموت.

يقول الأُسقف: «كُلّفتُ بإِبلاغها نبأ مصيرها المأساويّ. فدخلت البيت. أُمّها كانت تنتحب، وزوجها كان على شفا فقدان الصواب حزنًا، وأَبوها بدا يائسًا، ودهشت إِذ رأيتها، هي، مفترّة الشفتين، مبتسمةً. أَجل، كانت تبتسم، تلك المرأة الشابّة، وهي تهمّ بوداع أَجمل الآمال، وأَصفى سعادةٍ، مع أَنّها كانت مدركةً بأنّ الموت يدنو منها بخطًى حثيثةٍ. ومع ذلك كان السكون والبهجة يتغلّبان لديها على دواعي الحزن. قلت لها:

– «يا للفاجعة، يا ابنتي!» ـ فسأَلتْ بجرسٍ رقيقٍ:

– «ألا تظنّ أَنّي سأَمضي إِلى السماء؟».

– «أَرجو لك ذلك!».

– «ولكنّني، أَنا، واثقة».

– «ما الذي يبرّر ثقتكِ هذه؟».

– «نصيحةٌ أَسديتَها لي، عندما كنت تُعدّني لمناولتي الأولى، إِذ نصحتَني بتلاوة المسبحة كلّ يومٍ. وقد نفّذتُ نصيحتك، وهذا ما يزوّدني بالثقة بأَنّني سأَمضي إِلى السماء».

– «كيف؟».

– «لا أَستطيع أَن أُفكّر ـ وهذ اليقين يلازمني منذ بدء مرضي ـ أَلاّ تكون إلى جانبي أُمّي السماويّة العطوف، في ساعة موتي، بعد أَن كرّرت لها، خمسين مرَّةً، كلّ يومٍ، وعلى مدى أَربع سنوات: «يا قدّيسة مريم، يا أُمّ الله، صلّي من أَجلي، الآن، وفي ساعة موتي». وإِنّي لعلى يقينٍ بأَنّها إِلى جانبي الآن، وأَنّها ستقتادني، اليوم، إِلى السماء».

وردة ڤاستيراس

في مدينة ڤاستيراس السويديّة كاتدرائيّةٌ لوتيريّةٌ، تحتوي هيكلاً مكرّسًا للسيّدة العذراء، وكابيلاً جانبيّةً ينتصب فيها تمثالٌ للسيّدة العذراء يزوره العديدون من اللوتيريّين متضرّعين لأُمّ الله.

المشاعر العدائيّة حيال صور العذراء وتماثيلها لم تراود، قطّ، السويديّين، الذين، على نقيض ذلك، يكرّمون الأُمّ السماويّة بطريقةٍ فريدةٍ: أي بباقات وردٍ نديّةٍ، تزيّن هيكلها، وتتجدّد باستمرارٍ، ولا تغيب أبدًا، دليلاً حيًّا، دائمًا، على حبّ الشعب السويديّ للعذراء القدّيسة، الذي بقي مضطرمًا، على مدى التاريخ وتقلّباته.

وفي ذلك دليلٌ على أَنّ السويديّين اللوتيريّين ما انفكّوا يحبّون أُمّ الربّ ويكرّمونها، مثلما أَحبّها مارتن لوتير نفسه من كلّ قلبه.

فلتذكّر ورود ڤاستيراس جميع الذين يشهدونها، أو ربّما يلمسونها، أَنّ مريم هي أُمّ جميع المسيحيّين، وأَنّ قلبها يحيطهم، جميعًا، بالحبّ والحماية!

القيم التي تمثّلها العذراء

يروي كاهنٌ كاثوليكيٌّ ألمانيٌّ أنّه شاهد صورةً للعذراء القدّيسة مريم معلّقةً في مكانٍ بارزٍ من مكتب الماريشال هندينبورغ. ولم يُخفِ دهشته. غير أنّ الماريشال اللوتيريّ بيّن له: «إنّني أجد لدى العذراء القدّيسة تجسيدًا للقيم الإنسانيّة الضروريّة لحياتي».

وهل يمكن تخيّل تحديد أجمل من هذا لما وفّرته مريم للعالم؟ ففي عالمٍ مستسلمٍ، كلّيّةً، للكبرياء، تُعلّم مريم تواضع بيت لحم. ولعالَمٍ يسيطر عليه المال، تذكّر مريم بفقر الناصرة. ولعالمٍ معوجٍّ كذّابٍ، تؤتي الحقيقة والبساطة. ولعالمٍ يزيده البغض، كلّ يومٍ، قسوةً، تدلي بدروس وداعةٍ. ولعالمٍ مدنّسٍ غارقٍ في الأباطيل، تقدّم شهادة بتوليّتها الخصبة. ولعالمٍ متردٍّ إلى الشيخوخة تقدّم شبابها الأبديّ.

إيمان والدٍ

إِليكم شهادة أَحد الإِخوة المريميّين:

«لقد حمتني العذراء، منذ طفولتي، عندما كنت في سنّ الثانية، وكنت طريح سريري، ضحيّة شلَلٍ يمنعني من أَيّة حركةٍ. كلّ محاولةٍ منّي لتغيير جلستي كانت تفجّر دموعي، وتنتزع منّي صيحاتٍ حادّةً، ونحيبًا مدوّيًا.

وضاق أَبي ذرعًا بالأَمر، فنهض، ذات ليلةٍ، وقد وطّن عزمه. لم يبُحْ لأَحدٍ بكلمةٍ، بل انحدر إِلى الإِسطبل، وأَسرج الفرس «روجيلاّ»، وانطلق، فيما خيّم الصمت على أَهلِ البيت جميعهم. وبحسب ما روى لاحقًا لأُمّي، وما روته أُمّي لي، مرارًا عديدةً، ارتدى والدي سترته الجلديّة وامتطى دابّته، وغادر البيت، ميمّمًا شطر معبدٍ للعذراء، التي تحاط، في منطقتنا، بتكريمٍ فائقٍ. قرع باب مقرّ الأَبرشيّة، وطلب مفتاح المعبد وفانوسًا، وربط الفرس في الإِسطبل، وخلع نعليه، وشخص حافيًا، إِلى الكنيسة التي تبعد أَكثر من كيلومترٍ عن دار الكاهن. وبعد أَن قدّم للعذراء طلبه ووعده، شكر للكاهن دعوته لقضاء الليل في دار الرعيّة، وأَعاد له المفاتيح والفانوس، وانتعل حذاءه، وامتطى فرسه، وقفل عائدًا إِلى القرية، حيث وصل مع إِشراقة الشمس، نحو الساعة السابعة صباحًا، فربط الفرس بحديد نافذة المطبخ، وهرع نحو سرير ابنه، فتفجّرت دموعه لمّا شاهده واقفًا، مستندًا على الجدار، صامتًا مبتسمًا، لا يبكي: لقد شُفي.

واستيقظ الجميع كي يشاركوه دهشته وفرحه، وعاد السلام والهدوء إِلى المنزل.

هذا الحدَث كان له على مصيري أَثرٌ بالغٌ. وما انفكّت الأُمّ العطوف تحيطني بحمايتها، كلّما انتابتني أَزمات تردّدٍ، وكلّما اجتزت فتراتٍ عصيبةً في حياتي.

مُغامر العذراء القدّيسة

كان الإسبانيّون يحاصرون منطقةً محتلّةً من قبل الفرنسيّين، وبما أنّ الحصار كان مدعاةً للبطالة، فقد انصرفوا إلى أعمال النهب، وعيث الفساد. وذات يومٍ، شاهد الجنديّ «خوان شيوداد» رقيبًا يعتدي على فتاةٍ، فأنقذها منه، وأنزل به ضرباتٍ موجعةً. وقد سبّبت له هذه البسالة، لاحقًا، منغّصاتٍ جمّةً. فبُغيةَ الانتقام منه، غدا الرقيب يكلّفه بأكثر المهامّ مهانةً وخطرًا.

وقد أرسله، يومًا، في مهمّة استكشافٍ، على حصانٍ مستولًى عليه، بلا سرجٍ ولا عنانٍ... وإذ كان مارًّا بقرب الحدود الفرنسيّة، أُطلق، بغتةً، نفير بوقٍ، فاهتاج الحصان، ورمى فارسه على صخرةٍ، وسبّبت السقطة لخوان من الرضوض الموجعة ما جعله عاجزًا عن النهوض، وخُيِّل إليه أنّه قُضي عليه، فلن يلبث أن يلقي الفرنسيّون عليه القبض، ولن يرحموه.

وفي محنته هذه استغاث بتلك التي أَلِف، منذ صباه، أن يلتمس منها العون والعزاء، مريم العذراء كلّيّة العطف، وخاطبها قائلاً: «أنت وحدك، يا مليكة السماء، تستطيعين إنقاذي، فلا تدعيني أقع بين أيدي الأعداء». ثمّ غاب عن الوعي. وعندما استفاق وجد إلى جانبه فتاةً تكلّمه برقّةٍ وعطفٍ. كانت ترتدي زيّ راعيةٍ وتمسك بيدها عصًا، وقد انحنت عليه وقدّمت له إبريق ماءٍ، التهم بنهمٍ محتواه المنعش...

ثمّ مدّت له يدها، فتناولها متردّدًا، ونهض وهو يترنّح، إلى أن استقام واقفًا. اتّكأ على الفتاة التي ساعدته على السير بضع خطواتٍ، متعثّرًا، وكأنّه سكران. ثمّ أحسّ بقوّةٍ عجيبةٍ تنتصر على وهنه. واقتادته الراعية إلى نهاية الطريق، ثمّ

غادرته. وقد استقرّ في يقين خوان أَنّ تلك الراعية الغريبة لم تكن سوى العذراء مريم، أَو ملاكٍ مرسلٍ من قبلها.

وفي نوبةٍ أُخرى، إِثر استيلاء الإِسبانيّين على غنيمةٍ ثمينةٍ، عهد الرقيبُ إِلى خوان بحراستها، وكلّفه، خاصّةً، بالسهر على صندوقٍ مليءٍ بالجواهر. وامتثل خوان للأَمر، متجهّمًا، خائفًا. وفي صباح اليوم التالي اكتُشف تواري صندوق الجواهر. واستنطق خوان الحرس، فأُفيد أَنّ الرقيب وحده دخل الخيمة، قبل أَن يفرغ هو من مهمّة الحراسة.

واستصدر الرقيب حكمًا بإِعدام خوان شنقًا، عملاً بالنظام العسكريّ. فقُيّدت يدا خوان ورجلاه، وقضى ليلةً، لم يعهد فيها لحظة نومٍ. وتسلّل صديقه، أَلفونسو فيرّوس، بغية مساعدته على الفرار. ولكنّه رفض، لئلاّ يُشنق حارس الخيمة بديلاً عنه. وفي وحدته رأى حلمًا رائعًا، حيث تحوّلت الراعية الفرنسيّة، التي كانت قد ساعدته سالفًا، إِلى ملكة السماء، وقالت له: «ثق بي. سأُخلّصك». فاستعاد خوان كامل وعيه، وتلا صلاة «السلام عليك يا مريم» بحرارةٍ، وساد العزاء نفسه. وسار إِلى الموت بخطًى ثابتةٍ. ولكنّه وعد الأُمّ السماويّة بالتخلّي عن مهنة السلاح إِن هي أَنقذته من حبل المشنقة... ولم يراوده، لحظةً، شكٌّ في مساعدة مريم. ولمّا اعتلى المشنقة أَكّد، ثانيةً، براءته من التهمة المنسوبة إِليه، وأَضاف: «إِنّي واثقٌ من أَنّ العذراء القدّيسة ما زالت قادرةً على إِغاثتي».

وقُرعت الطبول للمرَّة الثانية... وأُدخل رأس خوان في عقدة الحبل، وعندئذٍ، وصل فارسٌ كالسهم. وكان الفارس الكولونيل ريبيرا، الذي أَلغى حكم الإِعدام، وحرص على أَن ينظر بنفسه في تلك القضيّة. وفي تلك الأَثناء وافى، أَيضًا، صديق خوان، أَلفونسو فيرّوس، الذي كان قد حاول مساعدته على الفرار، قدم حاملاً صندوق الجواهر الذي عثر عليه في خيمة الرقيب. وقد حُكم على هذا الرقيب بالشنق بديلاً عن خوان.

لقد وفت العذراء مريم بوعدها، وكذلك فعل خوان الذي تخلّى عن مهنة السلاح، وراح ينشد مشيئة الربّ، إِلى أَن أَصبح قدّيس الله الكبير، يوحنّا.

عبير الإِيقونة

تروي أُسطورةٌ أَنّ إِيقونةً طافيةً على مياه البحر، في القرن الثاني عشر، رست على شاطئ آثوس في اليونان. وهي تمثّل أُمّ اللّه حاملةً على ذراعٍ ابنها الإِلهيّ، بكلّ جلالةٍ، وبذراعها الثانية تشير إِليه على أَنّه «الطريق، والحقّ، والحياة».

حمل رهبان دير جبل آثوس الإِيقونة إِلى الكنيسة القائمة في وسط المناسك. ولكنّها، في الغداة، اختفت، ووُجدت عند عتبة بوّابة الدير. وتكرّر الحدث، فشيّد لها الرهبان هيكلاً، في المكان الذي كانت تفزع إِليه، وأَطلقوا على الإِيقونة اسم «بورتا إِتيسّا»: أَي التي تحمي العتبة.

وكرَّت القرون... ونحو العام ١٩٨٠، افتُتح مشغلٌ للإِيقونات، في أَحد مناسك الدير، المدعوّ منسك الميلاد. وكانت الإِيقونة الأولى التي رُسمت فيه نسخةً عن «البورتا إِتيسّا».

وفي ذلك التاريخ قدم إِلى دير جبل آثوس، رجلٌ شيليٌّ الأَصل يدعى «خوسّيه مونوس»، كان قد اعتنق الأُرثوذكسيّة، وأَصبح مدرّسًا للفنّ، في مدينة مونتريال الكنديّة، وقد وافى إِلى آثوس بغية الاتّصال بديرٍ تُرسم فيه الإِيقونات. واكتشف مرسم الميلاد، وفي أَثناء زيارته له، توقّف مذهولاً أَمام إِيقونة «البورتا إِتيسّا». فقد يُحدث لقاء إِيقونةٍ مثلما يُحدث لقاء محبَّيْن: صاعقة حبٍّ.

وتوسّل خوسّيه ضيوفه أَن يبيعوه الإِيقونة التي زلزلت كيانه. ولكنّهم رفضوا الاستجابة لطلبه، بحجّة أَنّ تلك الإِيقونة هي الإِيقونة الأولى التي رُسمت في ذلك المرسم، فهي بمثابة شفيعته.

في أَثناء صلاة المساء، أَنشد الرهبان «إِنّك تستحقّين كلّ مديحٍ يا أُمّ اللّه».

وقد جثا «خوسّيه مونوس»، واستفاض في الصلاة للعذراء. فخيّم السلام على نفسه. وعند الفجر انحدر إلى الشاطئ، حيث كان مركبٌ ينتظره. وإذ بمن يدعوه، ويجري وراءه: كان رئيس الدير آتيًا له بالإيقونة، وقد غُلِّفت بعنايةٍ. ففي أثناء الليل، كان قد تلقّى أمرًا داخليًّا بإهدائه إيّاها، وقال له الرئيس: «هذه الإيقونة ستكون، في الغرب، إشارةً». وقد رفض استيفاء أيّ مالٍ ثمنًا لها، مؤكّدًا أنّها هبةٌ، بل نعمةٌ.

وعاد «خوسّيه مونوس» إلى الدير، والتمس أن تلامس هذه الإيقونة، الإيقونة الأصليّة التي نُسِخت عنها. فالشعب يكرّم الإيقونة بتقبيلها، أو بإلقاء الجبين عليها بضع لحظاتٍ، أو بملامسة النسخة الأصليّة.

وها هي ذي الإيقونة في حجرة «خوسّيه مونوس» في مونتريال. وذات ليلةٍ في نهاية شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٢، استيقظ خوسّيه على شذًى نفّاذٍ، يشبه عبير الورد، لا بل يحاكي رائحة الميرون المقدّس المستخدم في سرّ العماد. ومعلومٌ أنّ هذا الميرون هو مزيجٌ عجيبٌ من عطورٍ متعدّدةٍ. وتبيّن «خوسّيه مونوس» أنّ الشذى نابعٌ من الإيقونة، ومن زيتٍ كانت تفرزه، وخاصّةً من جداول رقيقة من الميرون تنثال من يدي الطفل الإلهيّ.

ونُقلت الإيقونة، في احتفالٍ رسميٍّ، إلى كاتدرائيّة مونتريال. ومنذئذٍ ما برحت تفرز هذا الزيت العجيب، الذي يقتطفه المؤمنون بقطعٍ من القطن يجزّئونها ويقتسمونها. وغالبًا ما تكفي قطعةٌ مفرطة الصغر من القطن المبلّل بهذا الزيت لتعطير غرفةٍ كاملةٍ، بل نفسٍ بكاملها.

ومع حرصه الشديد على البورتا إيتيسّا، لا يتردّد «خوسّيه مونوس»، في استصحابها، أحيانًا، إلى ما وراء البحار، فهي تخصّ الجميع.

وقد استصنع كاثوليكيّو كيبيك نسخًا عديدةً من تلك الإيقونة التي انتشرت في الكنائس والبيوت.

وكثيرًا ما تكرّرت المعجزة، وانثال الزيت العطر من تلك النسخ. وغالبًا ما

تسهم قطعٌ صغيرةٌ من القطن المبلّل بالميرون السائل منها في شفاء الأَجساد، بل خاصّةً النفوس.

لقد روى اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ كليمان أوليڤيه هذا الحدث، وختم روايته بقوله:

«إِنّني أَرى مَغزَيَيْن لهذه الأُعجوبة: أَوّلهما العلاقة الوثيقة بين أُمّ الله والروح القدس. هذا ما تقوله بكلّ وضوحٍ الليتورجيّا البيزنطيّة، فهي تصف العذراء بكلّيّة القداسة «باناغيا»، وتصف الروح القدس بكلّيّ القداسة «باناغيون». المغزى الثاني قد يكون تدخّل أُمّ الله بين الكاثوليكيّين والأرثوذكسيّين في سبيل تسريع إِعادة الوحدة بين المسيحيّين».

* * * * *

أَنقذه دعاءٌ حارٌّ للعذراء

على متن مركبٍ عسكريٍّ مكلّفٍ بمهمّةٍ، اكتُشف غيابٌ حديثٌ لأَحد أَفراد الطاقم. وجرى، في الحال، بحثٌ منظّمٌ دقيقٌ، في جميع أَرجاء المركب، أَفضى إِلى تأكيد سقوط البحّار في اللجّة.

أُلغيت المهمّة، وعاد المركب أَدراجه، سالكًا الطريق عينه الذي كان قد اتّبعه في المجيء. وفي الآن عينه، أُمرت طائرة هيليكوبتر بالانطلاق للبحث عن الغريق، مزوّدةً بمخطّطٍ مسبّقٍ لمسير المركب. استغرق البحث ساعاتٍ طويلةً، وكانت ساحتُه لا تني تتّسع، بقدر ما كانت تتفاقم شكوك المراقبين على متن المركب، وعلى متن الهيليكوبتر.

وكان «كاديو»، أَحد أَفراد طاقم الهيليكوبتر، المكلّف بتشغيل آلة الانتشال، يراقب المحيط بدقّةٍ. وقد انتابه القلق عندما تبيّن أَنّ الشمس قد أَمست على مقربة من الأُفق، وشارفت على المغيب. ولم يكن خافيًا عليه أَنّ الإِنسان، ما لم يكن مرتديًا سترة نجاةٍ، لا يقوى على الصمود طويلاً، على سطح الماء. واتّضح له أَنّ دقائق معدوداتٍ ما زالت متاحةً للهيليكوبتر قبل أَن تضطرّ للعودة إِلى قاعدتها، من جرّاء تعذّر الرؤية، بعد الغياب.

واجتاحه شعورٌ بالعجز والقنوط، لطّفته، بغتةً، خاطرةٌ أَوحت له أَنّ ما يستحيل على البشر لا يستحيل على السماء. وتعالت، داخل نفسه، بحرارةٍ مضطرمةٍ، صلاة «السلام عليك يا مريم...».

وفيما كان يتمتم كلمات دعاء المتواضعين الأَخيرة، لفتت أَنظاره بقعةٌ صغيرةٌ تتأرجح بين موجتين. ومع ارتيابه بما تعنيه تلك البقعة، أوعز إِلى قائد الطائرة

بالاتّجاه نحو هذا الهدف المبهم. وبقدر ما كانت الطائرة تدنو منه، كان يحلّ في نفوس فريق البحث، رجاءٌ مجنونٌ. وما لبثت أن فرضت الحقيقة ذاتها، وبات من المحقّق أَنّ البقعة هي الغريق نفسه الذي ما زال حيًّا، مع كونه منهكًا.

ولم يجد فريق الإنقاذ، المدرّب تدريبًا ممتازًا، أَيّة مشقّةٍ في إِتمام مهمّته. فأُبقيت المروحيّة في حال طيرانٍ ثابتٍ، وأُنزل غطّاسٌ مزوّدٌ بحزامٍ وثّق به الغريق الذي بات عاجزًا عن أَيّ جهدٍ أَو حركةٍ، وانتُشل الرجلان معًا إِلى داخل الهيليكوبتر.

عندما روى «كورديو» لرفاقه ظروف هذا الإِنقاذ، لم تثِر روايته أَيّة سخريّةٍ، إِذ لم يكن أَحدٌ يتوقّع هذه النتيجة.

رسولة العناية الإِلهيّة

القدّيس «جوزيف بنوا كوتّولنغو» هو مؤسّس «بيت العناية الصغير»، لرعاية المعاقين.

وذات يومٍ من عام ١٨٣٧، خرج، نحو الساعة الحادية عشرة ظهرًا، وما لبث أَن عاد بعد نصف ساعة، شاحبًا، منهارًا.

دهشت حارسة بوّابة الدير، الأُخت غابرييلاّ، من عودته السريعة، على هذه الحال، فاستفسرته هل هو يعاني أَيّ أَلمٍ، أَو يحتاج إِلى أَيّ شيءٍ، فأَجاب: «أَحتاج فقط إِلى الراحة، وإِلى أَلاّ يزعجني أَحدٌ». ومع ذلك، جاءته الراهبة بشرابٍ منعشٍ، وعادت إِلى موقعها.

وسرعان ما قرعت باب الدير سيّدةٌ مجهولةٌ، وطلبت التحدّث إِلى الأَب كوتّولنغو، وحرَصت على التأكيد للراهبة، بصوتٍ عذبٍ، أَنّ زيارتها لن تسبّب له أَيّ إِزعاجٍ، بل ستكون مبعث فرحٍ، ودعتها إِلى التغاضي عن رغبته في أَلاّ تدع أَحدًا يزعجه، وإِلى إِبلاغه رغبتها في محادثته.

ذهلت الراهبة لدى سماعها هذه الأَقوال الرقيقة، وحدّقت إِلى الزائرة، فدهشت لمهابتها الفائقة، ولأَلَق عينيها، وامتلأت، حيالها، إِعجابًا واحترامًا، بحيث أَشاحت بأَنظارها عنها، وهرعت نحو الأَب كوتّولنغو، ووصفت له منظر الزائرة المهيب.

وما إِن دنا الأَب من تلك السيّدة حتّى بادرت إِلى مواساته، وشجّعته على المضيّ قدُمًا في الاتّكال على العناية الإِلهيّة. ثمّ أَهدته خاتمًا رُصّع فيه حجرٌ

كريمٌ ثمينٌ، قائلةً: «سيساعدك هذا على تسديد جزءٍ من ديونك، وسيتمّ تسديد الرصيد بوسيلةٍ أُخرى». ومرَّةً أُخرى، شدّدت عزيمته، ومضت.

في تلك الأَثناء، كانت الأُخت غابرييلاّ تجهد في معرفة هويّة تلك السيّدة، وتتمنّى أَن تملأ منها نظرها، قبل مغادرتها. غير أَنّ المهابة التي كانت قد أفعمت نفسها، منذ النظرة الأولى، كانت من العمق بحيث لم تجسر على رفع عينيها إِليها وتأمّلها.

ودفعتها رغبتها في التأكّد ممّا كان يراود خاطرها، للعودة إِلى الأب كوتّولنغو، ثانيةً، فإِذا به قد استعاد جأشه، وعزيمته، وفرحه. فسألته:

– أَبتِ من هي هذه السيّدة التي منعتني مهابتها من التحديق إِلى وجهها؟

– هذه السيّدة لم تأتِ من هذه الدنيا، كما قد يُخيّل إِليكِ، بل هي قدمت من السماء. إِنّها العذراء فائقة القداسة.

وحينئذٍ روى لها الأَب ما كان قد حدث له، واعترف لها أَنّ سبب عودته منهارًا هو أَنّ أَحد الدائنين كان قد تعرَّض له بعنفٍ، وأَمعن في إِهانته.

شفاء راهبةٍ

الراهبة الفرنسيّة الفرنسيسكانيّة القدّيسة «كوليت دي كوربي» (Colette de CORBIE) (١٣٨١–١٤٤٧)، التي أَقدمت على إِصلاح جمعيّة الراهبات الكلاريسّات، في أَعقاب ظهور العذراء، والقدّيس فرنسيس لها، تعرَّضت لحادثٍ عجيبٍ.

فمن جرّاء آلامٍ جسديّةٍ مبرّحةٍ، وآلامٍ نفسيّةٍ هاصرةٍ، كان لسانها قد انكفأ إِلى أَعماق حلقها، بحيث أَمست عاجزةً عن الكلام وعن الصلاة بصوتٍ عالٍ، وباتت تلقى صعوبةً في التنفّس.

وفيما كانت، يومًا، ماضيةً لتفقّد أَحد أَديرتها، تراءت لها فتاةٌ بارعة الجمال، تتجلّى عليها مخايل الوداعة والطيبة، وحيّتها برقّةٍ فائقةٍ، ودنت منها، وأَخذتها بين ذراعيها، وطبعت قبلةً عذبةً على فمها. وإِذ بلسانها يستعيد مكانه الطبيعيّ، وتبرأ برءًا تامًّا من علّتها.

وفي الحال توارت الفتاة الجميلة الرقيقة.

وقد أَكّد معرّفها الأب «هنري دي بوم»، الذي كان يعرفها عن كثب، أَنّ تلك الفتاة الشافية، إِنّما كانت السيّدة مريم العذراء.

العذراء تنقذ ولدًا يهوديًّا

هذه الحادثة جرت في إسطنبول حيث كان ولدٌ يهوديٌّ يتعلّم في مدرسةٍ مسيحيّةٍ. وفي يوم عيدٍ اقتيد الطلاّب إلى كاتدرائيّة أُمّ اللّه للمناولة. وكان حينئذٍ من المألوف أن يستهلك الأولاد كلّ ما تبقّى من القرابين المكرّسة.

وتقدّم الطالب اليهوديّ، أُسوةً برفاقه، من المائدة الإفخارستيّة. ثمّ عاد إلى البيت يتوثّب فرحًا، وروى لذويه ما جرى، فاستشاط والده غيظًا، وأنّبه بعنفٍ قائلاً: «تناولتَ مع أولادٍ مسيحيّين، ونسيت دين آبائك! سأُعاقب بصرامةٍ هذه الإهانة التي وجّهتها لشريعة موسى».

وكان ذلك الوالد يمتلك مصنعًا للزجاج، فأخذ الصبيّ وألقاه في الأتّون الملتهب. وسارعت أُمّه، علّها تنقذه من ذلك العقاب الرهيب، وإذ تبيّنت عجزها عن ذلك، شرعت تصرخ، يأسًا، وتستنجد. وهبّ مسيحيّو الحيّ لنجدتها، وتمكّنوا من إطفاء النار، وذُهلوا إذ وجدوا الفتى سليمًا، ولكأنّه مستلقٍ على سريرٍ من ريشٍ ناعمٍ. وقد أفاد: «إنّ السيّدة الجالسة على عرش في الكاتدرائيّة، حيث تناولتُ القربان، والتي تحمل في حضنها طفلاً، قد لفّتني بمعطفها، لكيلا تلتهمني النيران».

كومپوستيلّ

في القرون الوسطى، كان في مدينة كومبوستيلّ الإِسبانيّة، رجلٌ فرنسيٌّ يدعى جاكّ، لم يرزق أَبناءً، بعد خمسة عشر عامًا من الزواج. وقد تضرّع، هو وزوجته، إِلى السيّدة العذراء أَن تضع نهايةً لعقمهما. وقضيا ليلةً في كنيسةٍ، وهما يتوسّلان من أَجل هذه الغاية، أَمام صورةٍ للعذراء.

وما إِن أَخلدا إِلى النوم حتّى رأيا، في الحلم، امرأةً شديدة التألّق، قالت لهما: «لقد توسّلت اللّه من أَجلكما، وقد استجاب لطلبكما، وسيرزقكما صبيًّا، فانذراه لخدمة كنيسة القدّيس يعقوب بن زبدى، عندما سيبلغ سنّ الرشد. هذا ما أَمر به ابني».

ووُلد لهما صبيٌّ سمّياه جاكّ (يعقوب). ولمّا بلغ الثانية عشرة من العمر استصحباه إِلى مدينة كومپوستيلّ. وفي أَثناء الطريق توقّفا في فندقٍ. وحاولت ابنة صاحب الفندق إِغواء الفتى جاكّ، الذي أَعرض عنها. ولكنّها، هي، استسلمت لغواية إِبليس، ودسّت، خلسةً، في حقيبة أَمتعة الفتى، صحيفةً ذهبيّةً، بغية اتّهامه بالسرقة.

وفي الغداة واصلت الأُسرة طريقها. غير أَنّ صاحب الفندق وابنته لحقا بهم. وأُهين الفتى جاكّ، واقتيد إِلى المحكمة، وصدر حكمٌ بشنقه.

ولمّا انتهى والداه إِلى كومپوستيلّ، صلّيا طويلاً أَمام إِيقونةٍ للعذراء، وإِيقونةٍ أُخرى للقدّيس يعقوب، ثمّ عادا إِلى موقع الشنق، حيث كان ابنهما معلّقًا بشجرةٍ، وما إِن لمحهما حتّى هتف:

«يا قليلي الإِيمان لِمَ تنتحبان، وتشكّان؟... أَنا، جاكّ ابنكما، أُعلمكما أَنّه

مُذ عُلّقتُ وشُنقتُ، ظهرت لي سيّدتي، القدّيسة العذراء مريم، في هيئة امرأةٍ متألّقةٍ، متّشحةٍ بثوبٍ رائعٍ من الحرير المتلألئ نورًا. وكان بصحبتها القدّيس يعقوب، الذي ضمّني بين ذراعيه، وقال لي: «لا تخفْ». وحتّى اليوم الخامس ما انفكّت العذراء تزوّدني بالطعام والشراب في مواعيدها. واليوم كلّمتني قائلةً: «اليوم سيأتي إِليك أَبوك وأُمّك، وقومٌ آخرون، وسيشاهدون معجزة اللّه».

وفي وقتٍ لاحقٍ، سيم جاكٌ شمّاسًا إِنجيليًّا، ثمّ عُيّن أُسقفًا على مدينة كومپوستيلّ.

شفاءٌ عجيبٌ في تشيكيا

«ماجدلينا كادي» ولدت بتاريخ الخامس من حزيران، عام ١٨٣٥، في قريةٍ تقع شماليّ بوهيميا تابعةٍ لجمهوريّة تشيكيا، من أبوين حائكين، يتكلّمان الألمانيّة، ويعملان، صيفًا، في الحقول. طفولتها كانت فقيرةً، ولكنّها كانت سعيدةً. ومع كونها تلميذةً مجتهدةً، كانت تعين والديها في أعمالهما.

في الثالثة عشرة من عمرها، فقدت والدها. وفي التاسعة عشرة ابتُليت بسلسلةٍ من العلل: التهاباتٍ في الرئة، والتهاب السحايا. في أعقاب وفاة أُمّها التي كانت تتفانى في علاجها، تولّى شقيقها العناية بها، مع أنّه كان ربّ أُسرةٍ كبيرةٍ، ممّا سبّب لها حرجًا، وأوجاع ضميرٍ. ولذلك ارتضت أن تسكن لدى جيرانٍ لها، أُسرة كندرمان، حيث تطوّعت ابنتهم ڤيرونيك للعناية بها.

في نهاية عام ١٨٦٤ تفاقمت عللها سوءًا، وفي شهر شباط من عام ١٨٦٥، انتشرت على صدرها دمامل كانت تفرز قيحًا كريه الرائحة، وقد شهدت زوجة أخيها، لاحقًا، أنّ القيح كان ينفذ من خلال ثماني طبقاتٍ من الضمادات، وأنّ روائحه كانت مريعةً، لا تُحتَمل.

اعتبارًا من شهر تشرين الثاني ١٨٦٥، اضطرّت إلى ملازمة الفراش، وأكّد طبيباها استحالة شفائها، وشخّصا ضربًا من السرطان المستعصي على كلّ علاج.

الشخص الوحيد الذي كان يُسيل في نفسها بعض العزاء، هو الأب ستورش الذي كان يعودها باطّراد، ويوصيها بإيكال نفسها للسيّدة العذراء. وفي الحادي والعشرين من شهر كانون الأوّل ١٨٦٥، مسحها مسحة المحتضرين، وزوّدها بالأسرار الأخيرة، إذ كان الجميع يتوقّعون وفاتها بين ساعةٍ وأُخرى.

ولكن في الثالث عشر من كانون الثاني، في نهاية أُسبوع عيد الظهور الإِلهيّ، ظهرت لها العذراء، وشفتها. وقد روت تفاصيل هذا الحدث، تحت القسَم، أَمام لجنة التحقيق التي عيّنها الأُسقف، فقالت:

«رغبت ڤيرونيك في تعزيتي، بتسريح شعري، وفي نحو الساعة الثانية، ليلاً، طلبتُ منها أن ترشّني بالماء المقدّس، وأَن تشاركني الصلاة، التي ختمناها بدعاء: «اذكري، يا أُمّ الله»، الذي أَنشدته ڤيرونيك بصوتٍ عالٍ، وتلوتُه، أَنا صامتةً. وقلت لصديقتي: «لن يمتحنني الربّ فوق طاقتي على الاحتمال. وإِنّما هو يصبح أَوثق قربًا منّا عندما نتردّى إِلى أَقصى وهاد البؤس». وحاولت صديقتي مواساتي، ولكنّني رجوتها: «ليتك تستلقين، وتنالين قسطًا من النوم»...

وبغتةً أَشرق في غرفتنا نورٌ أَشدّ سطوعًا من ضوء وضَح النهار...

عند طرف السرير كان ينتصب طيفٌ منيرٌ يتأَلّق بياضًا ناصعًا، ويتوّج رأسه إِكليلٌ ذهبيٌّ، فهتفتُ: «يا ڤيرونيك، هذه هي السيّدة العذراء، فاركعي! أَلا تشاهدين العذراء القدّوسة؟».

ولكنّ صديقتي ازدادت تشبّثًا بي، ولم تركع. وبكينا كلتانا معًا. وحجبت وجهي بيديّ، كي أَقي عينيّ الكليلتين من الضوء الساطع. ولكنّ ڤيرونيك نزعت يديّ عن عينيّ، فضممتهما، وشرعت أُصلّي: «عظّمي يا نفسي الربّ... ولتبتهج روحي بالله مخلّصي». وحينئذٍ، علا صوتٌ غير مألوفٍ، ذو نبرةٍ غير بشريّةٍ، قائلاً: «يا ابنتي، منذ الآن أَنتِ برئتِ من علّتكِ».

وفي تلك اللحظة، توارى الطيف، وتلاشت آلامي كلّها... أَنهيت نشيدي، وشاركتني ڤيرونيك في إِنشاده، مع أَنّها لم تكن قد رأت شيئًا ممّا رأيتُه. وطلبت منها أَن توقظ ذويّ، لكي يقاسموني فرح الحدث السعيد. وقلتُ لهم: «لقد أَصبحتُ بخيرٍ، وشُفيتُ»... وإِذ لحظت ارتيابهم، نزعت أَضمدتي الملوَّثة، وإِذ بكلّ أَثرٍ لعلّتي قد تلاشى».

في اليوم التالي ذاع نبأ شفائها، فوافى، مستقصيًا، أَحد الطبيبين اللّذين كانا يشرفان على علاجها، الدكتور أولبريخ، الذي سبق له أَن أَعلن استحالة شفائها. فأجرى عليها فحصًا دقيقًا، أَعلن على إِثره: «سيبقى لي هذا الأَمر لغزًا مستعصيًا»!

وفي الخامس عشر من شهر كانون الثاني، وافى الأب ستورش، الذي كان قد زوّدها بالأَسرار الأَخيرة، فوجدها وراء نول الحياكة، وقد استعادت كلّ نشاطاتها السابقة لاعتلالها، وهي في سنّ التاسعة عشرة.

في يوم السبت الذي تلا المعجزة، أُقيم قدّاس شكرٍ، بناءً على طلب أَخيها، فغصّت الكنيسة بالحضور، كما يحدث في أَيّام الأَعياد الكبرى.

وفي السابع من شهر آذار عيّن الأُسقف لجنة تحقيقٍ، قوامها عمدة البلدة وسبعة مستشارين بلديّين. وبناءً على التقرير الذي وضعته تلك اللجنة سمح الأُسقف للجماهير بزيارة البيت الذي جرت فيه المعجزة، حيث حُوِّلت الحجرة التي ظهرت فيها السيّدة العذراء إِلى مصلًّى (كابيلاّ).

وقبَيْل الذكرى السنويّة الأولى للمعجزة، جيء إِلى تلك الغرفة بفتاةٍ مقعدةٍ منذ أَحد عشر عامًا، وهي تحتضر، فأُنعم عليها بشفاءٍ كاملٍ. وفي اليوم التالي أُقيم قدّاسٌ اشترك به جمعٌ غفيرٌ، انطلقوا في تطوافٍ حاشدٍ.

وإِذ تبيّن أَنّ المنزل لم يعد يتّسع لوفود الحجّاج، اشترى الأب ستورش الأَراضي المجاورة له. وتحوّل المنزل إِلى «كنيسة النعَم». وتبرّعت نبيلةٌ بولونيّةٌ بتمثالٍ من المرمر نُحِت حسب أوصاف السيّدة العذراء التي أَدلت بها ماجدلينا. وكُرِّس هذا التمثال، رسميًّا، بتاريخ الثالث عشر من كانون الثاني١٨٧٣، على اسم «العذراء القدّيسة مريم، معينة المرضى».

في غضون السنوات السبع التالية، أَمّ المزار أَكثر من عشرين أَلف حاجٍّ. وفي ١٣ كانون الثاني من عام ١٩٢٦، رقّيت الكنيسة إِلى مرتبة كاتدرائيّةٍ صغرى،

على إِثر زيارة القاصد الرسوليّ في أَلمانيا، الذي أَصبح، لاحقًا، البابا بيّوس الحادي عشر.

وما عتّمت أَن أَصبحت هذه الكنيسة، في ثلاثينيّات القرن المنصرم، من أَكثر أَماكن الحجّ، في أوروبّا الوسطى، استقطابًا للحجّاج.

وعاشت ماجدلينا، بعد شفائها، أَربعين سنةً، وقفتها على خدمة الحجّاج، والمرضى، والمسنّين. ولمّا أَزف يوم وفاتها، اعتبرته أَجمل يومٍ في حياتها.

العذراء تفرج عن معتقلٍ مجريٍّ

كان «جانوس» يذوي، منذ سنواتٍ، في معتقلٍ في أعماق سيبيريا. ولكان تردّى إلى قنوطٍ قاتلٍ لولا ذكرى زوجته الحبيبة «إيلونا»، التي كانت تزوّده بالرجاء، ولولا عودته إلى تلاوة الصلوات التي كان قد تلقّنها في صباه، والتي كانت تشدّ من عضده.

وقد كافأ الربّ إيمانه، وثقته ب«سيّدة المجريّين العظيمة»، مكافأةً معجزةً.

فذات ليلةٍ من عام ١٩٥٨، شعر بقوّةٍ تهزّ ذراعه، وبصوتٍ يخاطبه قائلاً: «قمْ، وارتدِ ثيابك». وإذ كان ما زال متردّدًا، كرّر الصوت: «قمْ، ارتدِ ثيابك، وانتعل أحذيتك العسكريّة». امتثل «جانوس» للأمر، ولم يستيقظ أحدٌ من رفاقه في الزنزانة.

وقال له الصوت: «تعالَ»، فشعر بقوّةٍ تشدّه من ذراعه. وفُتح الباب محدثًا صريرًا. على بُعد عشر خطواتٍ، كان حارسٌ واقفًا، ورشّاشه بكتفه. ولكنّه لم يسمع شيئًا، ولم يرَ شيئًا. وجرى «جانوس»، مع دليله السرّيّ، نحو باب المعتقل، وشعر «جانوس» أنّه وسط الضوء، فتوقّف تلقائيًّا، ولكنّ دليله السرّيّ قال له، بنبرةٍ واثقةٍ: «تعالَ، لا تخفْ».

حينئذٍ، فقط، شاهد «جانوس»، على ضوء المصابيح الكاشفة، منقذه: سيّدة مهيبة، ترتدي معطفًا كحليّ اللون، جميلة المحيّا. وبغتةً، انطفأت المصابيح الكشّافة، فلم يشاهد حرّاس المدخل شيئًا. بيُسرٍ فائقٍ، فتحت السيّدة البوّابة، فيما كان «جانوس» يكاد يموت جزعًا. وقالت السيّدة: «هيّا، أسرع»... وأغلقت

الباب على مهل، واجتازا بخطًى حثيثةٍ، قاصدين أَقرب محطّة قطاراتٍ. صادفا دوريّتين، غير أَنّ كلتيهما لم تستوقفهما أَيّة علامةٍ مشبوهةٍ.

في المحطّة، قالت له السيّدة: «بعد دقيقتين سيصل قطار بضائع، تتوسّط عرباته مقصورةٌ للركّاب. فاصعد واجلس فيها، بلا حاجةٍ لبطاقة ركوبٍ، ولا لبطاقة هويّة». وأَعطته السيّدة صرَّةً، وقالت له: «ستحتاج إِليها في أَثناء السفر». وأَضافت: «في بودابست، أَيضًا، ستسير الأُمور، على خير ما يُرام». وأَقبل القطار، وفيما كان «جانوس» شاخصًا بأَبصاره نحوه، توارت السيّدة، مخلّفةً في نفس «جانوس» أَسفًا شديدًا، فقد كان راغبًا في شكرها ووداعها.

توقّف القطار في المحطّة، فصعد إِليه «جانوس». وكان ركّابه، قليلو العدد، نيامًا، ووافى مراقبٌ، وقف أَمام «جانوس»، ولكنّه لم يطالبه بشيءٍ. وخيّل لجانوس أَنّه في حلمٍ. كلّ شيءٍ كان مبعث دهشةٍ واستغرابٍ. وكلّما دخل مراقبٌ إِلى المقصورة، كانت الرعدة تأخذ بجانوس كلّ مأخذٍ، ولكن، في كلّ مرَّةٍ، كان المراقب يبدو وكأَنّه لم يشاهده.

وشيئًا فشيئًا سكن جأش «جانوس»، الذي فتح، أَخيرًا، الصرَّة التي زوّدته السيّدة بها، فإِذ هي تحتوي على خبزٍ، وجبنٍ، ولحمٍ... وكان في المقصورة ماءٌ...

استغرقت الرحلة أَربعة أَيّامٍ، وأَربع ليالٍ. عند الحدود الهنغاريّة اضطرّ «جانوس» إِلى الانتقال إِلى قطارٍ آخر، ولكنّه لم يصادف أَيّة عقبةٍ، لا في القطار، ولا في المحطّة، ولا في شوارع بودابست، ولم يلفت نظرَ أَحدٍ، بزيّ المعتقل الذي كان يميّزه، وبأَحذيته الغليظة المحدّدة.

كان الليل قد خيّم، عندما وصل «جانوس» إِلى منزله. كان يتساءل هل زوجته «إِيلونا» ما زالت تسكن فيه. قرع الجرس، ففتحت له الباب امرأةٌ مجهولة. سألها: «هل ما زالت السيّدة «إِيلونا بالوغ» تقطن هنا؟».

–»أَجل، ولكنّها تقيم في السقيفة. وستعود بعد نصف ساعة».

واستلفتها زيّ ذلك الرجل الغريب، فتجرّأت واستوضحته: «هل لديك أخبارٌ عن السيّد «جانوس بالوغ»، الذي اختفى منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، غير أنّ زوجته «إيلونا» ما برحت تأمل عودته، يومًا ما. وهي تقصد كلّ يومٍ مزار «ميريمكّ»، وتدعو من أجل عودته. ولا ريب أنّها قصدت المزار اليوم، أيضًا». لم يجب «جانوس»، ولم يكشف عن هويّته،وبقي ينتظر، في الشارع.

بعد نصف ساعةٍ، عادت «إيلونا»، فتعرَّفها، في الحال. كانت محتشمةً، متخشّعةً، متواضعةً. وفيما كانت تهمّ بالدخول إلى البيت، صاح: «إيلونا».

– «جانوس»، «جانوس»! كنت واثقةً من عودتك».

في الغداة قصدا، معًا، مزار «ميريمكّ» بغية تقديم الشكر للسيّدة العذراء، معينة السجناء. لم يكن «جانوس» قد غشي ذلك المزار من قبلُ، غير أنّه ما إن رأى تمثال السيّدة حتّى هتف: «إنّها هي عينها، أجل إنّي أتعرّفها. فهي التي جاءت بي من سيبيريا».

بعد أيّامٍ معدوداتٍ، قصد «جانوس» مخفر الشرطة، حيث طُلبت منه أوراقه، فأجاب: «لست أملك أوراقًا، فأنا قادمٌ من روسيّا». وظنّ الشرطيّ أنّه عميلٌ روسيٌّ مرسلٌ لمراقبة سير العمل في هنغاريا. فزوّده بأوراقٍ نظاميّةٍ، ومع أنّ «جانوس» لم يلتمس منه أيّة مساعدةٍ أُخرى، أرشده إلى متعهّدٍ كفيلٍ بتوفير عملٍ له. وعندئذٍ لم يسأله أحدٌ كيف جاء من سيبيريا. ألم تكن السيّدة قد أكّدت له: «في بودابست أيضًا، ستسير الأُمور على خير وجه»؟

«اذكرينا»... في العاصفة

كان الطوباويّ الأَب «مارسيلاّن شامپانيا»، مؤسّس جمعيّة «الإِخوة المريميّين» يثق في العذراء ثقةً بلا حدودٍ.

وقد أَثبت ذلك، يوم كان راجعًا من عيادة مريضٍ، برفقة أَحد الإِخوة، وسط عاصفةٍ ثلجيّةٍ هوجاء، كانت قد محت كلّ معالم الطرقات...

كان الكاهن المسكين يسير منذ نحو ساعتين، في ليلٍ دامسٍ، والريح الصقيعيّة تلسع وجهه كالسوط، والثلج يحجب عنه الرؤية، بحيث اختلطت عليه وعلى رفيقه المسالك، فتاها على وجهيهما، ولا دليل لهما سوى العناية الإِلهيّة.

بعد بضع دقائق، أَخذ الإِرهاق كلّ مأخذٍ من الأَخ المرافق للأَب شامپانيا، فاضطرّ هذا الأَخير إِلى مساندته، ولكنّه ما لبث، هو نفسه، أَن تجمّد قرًّا، وكاد يختنق بالثلج المتساقط، فتوقّف، وقال لمرافقه: «يا صديقي، لقد هلكنا، ما لم تخفّ السيّدة العذراء إِلى نجدتنا، فلنتضرّع إِليها، ولنودع حياتنا بين يديها». وفيما كان يتكلّم هكذا، تهاوى الأَخ المرافق، كتلةً جامدةً.

جثا الأَب أَمام رفيقه المنهار، وتلا صلاة «اذكري». ثمّ جهد في إِنهاض رفيقه، وبمشقّةٍ بالغةٍ تمكّنا، معًا، من اجتياز بضع خطواتٍ.

وبغتةً ثقب حلكة الليل بصيص نورٍ، على مسافةٍ قريبةٍ منهما، ولكأنّه بشرى خلاصٍ. فجرّا نفسيهما نحوه جرًّا، فإِذا به صادرٌ من كوخ حطّابين استضافوهما، تلك الليلة، وتحقّقت لهما النجاة.

معجزةٌ في بوغوتا

كان الأخ «آنغن»، يعلّم مبادئ الدين المسيحيّ، في الغابات الكثيفة، المنتشرة جنوبيّ بوغوتا (كولومبيا).

وأُصيب بسرطانٍ في لسانه، فجيء به إلى المدينة حيث خضع لعمليّةٍ جراحيّةٍ. وإذ كان حريصًا على الاحتفاظ بلسانه كي يقوى على مواصلة مهمّته، اكتفى الجرّاحون باستئصال جزءٍ من اللسان. ولكن ما لبث السرطان أن انتشر، فأمسى الاستئصال الكلّيّ ضرورةً لا مفرّ منها. وفي عشيّة موعد العمليّة ظهرت العذراء للأخ «آنغن»، ولمسته، فشفته، وأوصته: «تابع التعليم المسيحيّ، ولقّن تلاميذك تلاوة المسبحة الورديّة. ولكن لا تُطلع أحدًا على هذا الأمر، حتّى تتحدّث إلى طبيبك».

صباح اليوم التالي، جيء بالأخ الذي كان يأبى الخضوع للتخدير، إلى الطبيب الذي بيّن له ضرورة الإبقاء على حياته، ولو كان ثمنه فقدان القدرة على النطق. ولكنّ الأخ فاجأه بتأكيده أنّ السرطان تلاشى، واتّضح للطبيب أنّ حتّى الجزء الذي كان قد استؤصل من اللسان قد تكوّن، من جديدٍ، تكوّنًا كاملاً.

وما برحت لوحةٌ مثبّتةٌ على أحد جدران المعهد اليسوعيّ في بوغوتا تشهد على هذه المعجزة. أمّا الأخ «آنغن»، فقد عاش، بعدها، سنواتٍ طويلةً، مواصلاً تعليم مبادئ المسيحيّة، مسبّحًا السيّدة العذراء، ومشيدًا بقدرات المسبحة الورديّة.

صراعٌ مع الموت بسلاح
«السلام عليك يا مريم»

روت امرأةٌ فرنسيَّةٌ ما يلي:

«حدث ذلك عام ١٩٥٨. وكنّا، حينذاك، نعيش في ضاحيةٍ يسود فيها البؤس. وفي ليلة الثاني عشر من تمّوز حلّ الحزن بأُسرتنا. كنت قد وضعت في فراشهما ابنتيّ الصغيرتين. وقد استسلمت للنوم ابنتنا الكبرى «جانين» البالغة من العمر ثمانيةً وعشرين شهرًا، أمّا الصغرى، «سوزي»، البالغة سبعة عشر شهرًا، فلم يجد الإغفاء إلى جفنيها سبيلاً، مع أنّ موعد نومها كان قد فات. كانت تبدو متوتّرةً... وبغتةً، حدثت المأساة، إذ اعترتها التشنّجات، فظهرت علامات التشوّه على جسدها الصغير، الذي تيبّس، وفقد كلّ مظهرٍ بشريٍّ....

استدعينا طبيبًا أكّد خطورة الحالة، وأنفق الليل كلّه معنا، محاولاً، سدًى، كلّ وسائل العلم. وخطر لي أن أستغيث بالسيّدة العذراء، ولكنّني لم أجسر، فلطالما جدَّفتُ!.. إذ إنّني كنت قد انتسبت إلى ملّةٍ تحظر تكريم العذراء، ورسم إشارة الصليب، والدخول إلى كنيسةٍ كاثوليكيّةٍ. غير أنّني، في صباي، كنت قد قضيتُ سنةً في مدرسةٍ رعويّةٍ، حيث تلقّيت مبادئ دينيّةً. وكنت أتساءل أين تكمن الحقيقة!

وتوجّهت إلى الله بهذا الدعاء: «يا خالق السماء والأرض، لست أعرف سوى صلاةٍ واحدةٍ للمشرفين على الموت، هي «السلام عليك، يا مريم» فهل أُخطئ إن دعوتُ تلك التي يدعوها الكاثوليكيّون العذراء؟ ارحمنا يا ربّ!...».

وشرعتُ أَتلو، في داخلي، أَوّلاً، ثمّ بصوتٍ خافتٍ، وبلا انقطاعٍ: «السلام عليك، يا مريم». كنت قد بلغت من الأَسى أَقصاه، وكانت ابنتي الملقاة على المنضدة، بلا حراكٍ، تبدو لي «مسمّرةً». وخطر الصليب ببالي، فقلت: «إِنّها مسمَّرةٌ، مثل يسوع، على الصليب».

عند الساعة الثالثة والربع، أَبلغني الطبيب أَنّ الوقت قد حان لإِعداد قميصٍ أَبيض للطفلة التي أَشرفت على الموت. وكنتُ في حالةٍ من الاضطراب لا أَستطيع، معها، التلفّظ بحرفٍ، ما خلا ترديد صلوات «السلام»، تتخلّلها أَدعية «أَبانا»، وتضرّعات: «أَنقذ ابنتي، يا ربّ!». فدللت والدتي إِلى مكان قمصان الطفلة، وظللت متشبّثة بتلاوة «السلام»، تشبّثي بطوق النجاة الوحيد.

وفي تلك اللحظات، تابعت، بفكري، درب الصليب، الذي كان قد ترك في نفسي أَبلغ أَثرٍ، عندما كنت أَتلقّن، في طفولتي، مبادئ التعليم المسيحيّ. فرأيت يسوع معرّضًا للجلد، والصفع، ورأيته يهوي على حجارة الطريق. وكان فكري من إِحكام التركيز بحيث خُيِّل إِليَّ سماع نحيب امرأةٍ. وقلت، في ذاتي: «من عساه ينتحب، على هذا النحو، سوى أُمٍّ تشهد موت ابنها؟». وعشت، بالفكر، مأساة الجلجلة، فأَدركتُ مدى آلام مريم، التي صُلبت مع ابنها، وارتضت أَن تبذله من أَجل خلاص العالم، في حين لم أَكن لأُضحّي بأَيّ ابنٍ من أَجل خلاص حياة أَيٍّ كان.

وأَدركتُ أَنّ مريم كانت تبكي من أَجلي، ومن أَجل طفلتي، ومن أَجلنا جميعًا، وتتشفّع بنا بفيض دموعها. وحينئذٍ نسيتُ أَلمي الخاصّ، وقلت ليسوع: «يا ربّ، ارحم أُمّك».

كنّا أَربعةً نحيق بالطفلة المحتضرة. كان الطبيب يحصي نبضاتها الخافتة التي لا تني تتضاءل. وبغتةً شعرنا بنسمةٍ، بحضورٍ مُحيٍ: لا شيء خارجيّ، بل يقين تدخُّلٍ فائق الطبيعة.

وقلت لزوجي: «إِن كنت تؤمن بأَيّ شيءٍ، فقل، فقط: «السلام عليك، يا

مريم»، فقد كان باديًا أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى. وضمّ الأَب يديه، ولم يقل شيئًا. ولكن، بغتةً، استعادت الطفلة وعيها، وشكلها البشريّ، وارتخت أَعضاؤها المتشنّجة، مستعيدةً وضعها الطبيعيّ. وفُتحت عيناها، فإِذا بهما تشعّان حيويّةً، وهتف الطبيب، وهو ما زال يتفقّد النبض: «معجزة! إِنّها تنطلق من جديدٍ، والحياة تعود».

عندما انتابتها التشنّجات، كنت قد استعرت من جارتنا تمثالاً صغيرًا للسيّدة العذراء، ودسسته تحت رأس الطفلة. وها إِنّ الأَزمة قد مرّت، وطفلتنا التي انتُزعت من الموت، تدلف نحو الشفاء الكامل. ومنذ ذلك الحادث، ثمّة تمثالٌ للسيّدة العذراء، منتصبٌ في غرفة جلوسنا.

لقد هجرتُ الملّة الضالّة، وشيئًا فشيئًا استعدت طريق الكنيسة الكاثوليكيّة والإِيمان الحقّ الذي بتُّ أُنشئ عليه أَولادي. أَضحيتُ أَخبَر منافع المسبحة، ولا سيّما مذ عرفتُ أَسرار الورديّة. وكم أَودّ أَن أُعلن للجميع قدرة أُمّ الله، وسطوة «السلام عليك، يا مريم» على قلبها الأُموميّ، الذي طالما تألّم! وما أَقدره على إِغاثة أَحزاننا!».

جنديٌّ بروتستانتيٌّ وإِيقونة مريم

روى جنديٌّ أَلمانيٌّ بروتستانتيٌّ ما يلي:

«عام **١٩٣٩**. كانت فرقٌ من جيشنا تحتلّ مدينةً صغيرةً قريبةً من ڤرسوڤيا. عقب مسيرةٍ شاقّةٍ وصلت فرقتنا، منهكةً، واحتلّت بيتًا بورجوازيًّا. لم نكن نرغب إِلاّ في النوم، رغم أَزيز الرصاص، وانفجارات القنابل، التي كانت لا تني تتكثّف، وتكتسب عنفًا.

بغتةً، سمعنا ضجّة تصدُّعٍ رهيبٍ، وانهار السقف، وسط دويّ انفجاراتٍ وشظايا قنابل... وسحُب غبارٍ كثيفةٍ... كنت محشورًا بين جسرٍ منهارٍ، وكراسٍ محطّمةٍ، إِلى جانب رفاقٍ قتلى، غير أَنّي أَفلحت في الإِفلات، واستعدت أَنفاسي...

كان البيت قد أَضحى ركام أَطلالٍ، ولم يبقَ قائمًا منه سوى جزءٍ من جدارٍ، عُلّقت عليه إِيقونة أُمّ اللّه التي تحظى بإِجلال الكاثوليكيّين وتكريمهم، ولم يكن قد أَصابها أَيّ أَذًى. كانت العذراء تمسك مسبحةً، وترنو إِليّ بحنانٍ...

أَنا بروتستانتيٌّ، وقد ترعرعت بعيدًا عن الدين... وقد لاحظتُ، في أَثناء الحرب، أَنّ معظم رفاقي الكاثوليكيّين كانوا يحملون صورةً للعذراء مريم، أَو مسبحةً يُمرّون أَصابعهم على حبّاتها، بثقةٍ، في الأَوقات الصعبة. وفيما كنت أَتأمّل الإِيقونة، أَنذرتْ قنبلةٌ بالانفجار، فهرعت تلقائيًّا إِلى زاوية الجدار الذي ظلّ قائمًا، وانتزعت منه الإِيقونة، وضغطت بها على قلبي. وانفجرت القنبلة محدثةً دويًّا مروّعًا، فقتلت شظاياها ثلاثةً من رفاقي.

عندما هدأ روعي، كنت ما برحتُ متشبّثًا بالإِيقونة، التي لم أَعد أُطيق

التخلّي عنها، ووطّنت عزمي على استصحابها إِلى منزلي، كي تذكّرني بالحماية الرائعة التي حظيتُ بها. وبحبٍّ، أَودعت كنزي هذا في جيب سترتي العسكريّة الداخليّة.

وفي تلك الليلة عينها استأنفنا الهجوم، فنشرت البنادق والمدافع الرشّاشة الموت في صفوفنا. واستغللت لحظة هدنةٍ، كي أَتلمّس، على صدري، الإِيقونة التي كانت تكسو ظهرها طبقةٌ صفيقةٌ من النحاس. وكم ذهلت عندما اكتشفت أَنّ رصاصةً كانت مغروسةً فيها، وكان من شأنها أَن تثقب قلبي! بكيتُ تأثّرًا، وشكرانًا، وأَعدت الإِيقونة العزيزة، إِلى مكانها، فوق قلبي.

وها قد كرّت السنون، ولكنّي لن أَنسى أَبدًا، كيف أَنقذت إِيقونة أُمّ الله حياتي. وقد رويت هذه الحادثة لزوجتي ولأَبنائي، الذين غدوا يحيطون بالحبّ والإِجلال تلك التي أَعادت سالمًا أَبًا إِلى أَبنائه، وزوجًا إِلى زوجته.

هذه الإِيقونة تحتلّ، الآن مركز الصدارة في بيتنا، وفي كلّ يومٍ، تزيّنها أُسرتي بالزهور والشموع المضاءة، وتلتفّ حولها كي تكرّمها.

وأَنا أَتساءل لماذا أُلغي لدينا، (نحن البروتستانتيّين)، تكريم مريم، أُمّ يسوع؟

إيقونة السينما

في مدينة روستوف الروسيّة، كنيسةٌ مكرّسةٌ على اسم القدّيس سيرافيم، وقد أُخليت قبيل الحرب العالميّة الثانية، وحُوّلت إلى سينما.

على جانب الكنيسة الأيمن كانت تشاهد لوحةٌ جداريّةٌ رائعةٌ، تمثّل السيّدة العذراء. ولكن عندما حُوّلت الكنيسة إلى سينما، غُطّيت هذه اللوحة بطبقة كلسٍ صفيقةٍ. غير أنّ أمرًا عجيبًا حدث، إذ كلّما كانت تُطفأ أضواء صالة السينما، كانت الإيقونة تتجلّى، وتتألّق بنورٍ من السطوع بحيث يجعل شاشة السينما معتمةً.

ووافت لجنةٌ رسميّةٌ للتحقّق ممّا كان يحدث، وتوالت زياراتها، وفي كلّ كرّةٍ كان الحَدَث الغريب يتكرّر. وخُيّل إلى اللجنة أنّ طبقة الكلس تحتاج إلى مزيدٍ من صفاقةٍ. ولكن رغم الطبقات المتعدّدة التي أُضيفت، لم تكفّ الإيقونة عن التجلّي والإضاءة، وعن جذب انتباه الجمهور. وشرع الأهالي الذين تتّهمهم السلطات بتصديق الخرافات يشيعون أمر الأعجوبة التي تحدث في السينما. وانتهى الأمر بالسلطات إلى إغلاق الصالة.

وفي أثناء الحرب، احتلّ الألمان مدينة روستوف، وفُتحت الكنيسة ثانيةً، وما زالت مفتوحةً حتّى الآن. وقد ارتأت السلطات السوفيتيّة، حينذاك، أنّ مجيء الناس إلى كنيسةٍ، من أجل تأمّل لوحةٍ عجائبيّةٍ، خيرٌ من توفير ذريعةٍ «لذوي الأفكار الظلاميّة»، للتحدّث جهارًا عن المعجزة.

شقيّا السيّدة

والدا الأَخوين «جيانّي» و«فرانكو» يعيشان في حيٍّ من أَفقر أَحياء مرفأ جنوا الإِيطاليّ، حيث يعمل الوالد حمّالاً. ولكنّه يرتاد الحانات باطّرادٍ، وينفق فيها كلّ موارده. فتضطرّ الأُمّ المعتلّة إِلى العمل غسّالةً في المنازل، كي تقوم بأَوَد الأُسرة. أَمّا الصبيّان فكانا يتشرّدان في شوارع المدينة، ويختلسان من المتاجر ما يشتهيان من فواكه. وفي ما عدا ذلك، كانا صبيَّين طيّبين.

ومع اقتراب موعد تطواف «سيّدة الحماية» الذي تحتفل به المدينة كلّ عامٍ، والذي يحبّانه حبًّا جمًّا، اشتدَّت رغبتهما في تزيين نوافذ بيتهما بالشموع المضاءة، أُسوةً بعموم أَهل المدينة. ولكن أَنّى لهما المال؟ فالأَب لا يأتي البيت بفلسٍ واحدٍ، وما تكسبه الأُمّ يكاد لا يكفي لإِطعامهم.

وخطرت لجيانّي خاطرةٌ عرضها على أَخيه فرانكو: «ما رأيك بأن نعمل؟ فما زال أَمامنا فسحة يومٍ قبل موعد التطواف. وبوسعنا أَن نكسب بضع ليراتٍ نبتاع بها شموعًا».

دهشت أُمّهما، صباح اليوم التالي، إِذ رأتهما يستيقظان قبل السابعة، ويندفعان خارجًا بلا تلكّؤٍ. فتساءلت: «أَيّة حماقةٍ عساهما يرتكبانها اليوم؟».

ودهش أَيضًا بائع الفحم الذي طلبا منه استخدامهما للعمل. وتضاعفت دهشته مع كرّ ساعات النهار، وهو يشهدهما يعملان بهمّةٍ وجدٍّ جديرين بأَفضل العمّال. وربّما شرع يوطّن نفسه لاستبقائهما في العمل لديه، غير أَنّهما فاجآه في المساء، بمطالبتهما بأَجرهما. فنقدهما مئة لير. إِنّه مبلغٌ ضئيلٌ، بيد أَنّ مجرّد اكتسابه بجهدهما أَشاع في نفسهما الفخر، وعلى وجهيهما مخايل البهجة.

بهذا المبلغ الضئيل كان بوسعهما ابتياع ثلاث أو أَربع شموع، وليس ذلك بالأمر السيّئ لأُسرةٍ فقيرةٍ مثل أُسرتهما. وفيما كانا يداعبان هذا المشروع، لم يلحظا المستعطي الذي مدّ لهما يده سائلاً حسنةً، وتجاوزاه...

ولكنّ منظر هذا الفقير استوقف «فرانكو»، فكلّم، في أمره، أَخاه «جيانّي»، قائلاً: «أليس من الأفضل أن نعطي المئة ليرًا لذلك البائس الذي صدفناه منذ لحظاتٍ؟ ألا تظنّ أنّنا نكرّم السيّدة العذراء خير تكريمٍ إن تصدّقنا بهذه الليرات؟ فقد يكون هذا المسكين عاطلاً عن العمل، ولا تملك أُسرته ما تسدّ به جوعها». كان «جيانّي» يؤثر تزيين نوافذ البيت بالشموع. ولكنّ حجج أَخيه «فرانكو» نفذت إلى قناعته، فوافق، مؤكّدًا أنّ السيّدة ستكون أكثر فرحًا بذلك...

فعادا أَدراجهما يجريان، ودسّا ورقة المئة ليرًا في يد المستعطي المذهول، وانطلقا يركضان، وهما يصفران فرحًا، إلى البيت، حيث فاجأهما مشهدٌ قطع عليهما أَنفاسهما. عينا «فرانكو» اغرورقتا بالدموع، و«جيانّي» فرك عينيه، قائلاً: «هذا لا يصدّق! هل أنا أحلم؟». فقد كانت شموعٌ غليظةٌ تزيّن نوافذ بيتهما، وكان داخل البيت مضاءً إضاءةً ساطعةً... اندفعا إلى الداخل، وعبّرا عن فرحهما الغامر بتقبيل والديهما...

كيف حدث ذلك؟ قُبَيْل الظهر، كُلِّف والدهما بمهمّةٍ في المدينة، فأُتيح له أَن يرى ابنيه يعملان بجهدٍ وجدٍّ في تحميل الفحم. وسرعان ما أَدرك دافعهما إلى ذلك... فخجل من سلوكه... وبعد الظهر حصل من مستخدِميه على سلفةٍ، ابتاع بها عشرين شمعةً..

وعندما وعد زوجته بالإقلاع عن الشرب، وروى لها ما شاهده من ابنيهما، عكفت الأُمّ على تزيين البيت من أَجل الاحتفال بالعيد. ومنذئذٍ، بات «جيانّي» و«فرانكو» يشاهَدان، غالبًا، في كنيسة المرفأ الصغيرة يحضران القدّاس بخشوعٍ، في الصباح الباكر.

ها هي ذي أَيضًا

كان قسٌّ إِسكوتلانديٌّ يخدم رعيّةً تضمّ عددًا من الأُسر الإِيرلنديّة المخلصة لمبادئها الكاثوليكيّة. وكان ذلك مصدر ضيقٍ له، إِذ كان متعصّبًا لمذهبه البروتستانتيّ. فوطّن العزم على محاربة عقائدهم، من خلال أَطفالهم.

وذات يومٍ، التقى، في الطريق، فتاةً إِيرلنديّةً في نحو الثامنة من عمرها. فأَوقفها، وتحدّث إِليها مطوّلاً، ثمّ طلب منها أَن تتلو بعض صلواتٍ، ووعدها بمكافأةٍ ماليّةٍ، إِن هي أَحسنت تلاوتها. وفي الحال تلت الفتاة «أَبانا»، فهنّأها القسّ، واستوضحها هل هي تجيد تلاوة صلواتٍ أُخرى. فشرعت تتلو «السلام عليك يا مريم...». ولكنّ القسّ أَوعز إِليها بالتوقّف عن التلاوة، بحجّة أَنّ تلك ليست صلاةً، إِذ لا يسوغ التوجّه بالدعاء إِلى امرأةٍ، ولا يجوز رفع الصلاة إِلاّ إِلى اللّه وحده. وارتبكت الفتاة وشرعت تتلو: «أومن بإِلهٍ واحد». فشجّعها القسّ على المضيّ قُدُمًا في تلاوتها إِلى أَن انتهت إِلى العبارة القائلة «المولود من مريم العذراء»، فتوقّفت، مرتبكةً، وهمست «ها هي ذي، أَيضًا! فما الذي يتوجّب عليّ قوله؟».

لاحقًا، اعترف القسّ أَنّ ملاحظة الطفلة الإِيرلنديّة كادت تخنقه. فنقدها المكافأة الماليّة التي وعدها بها، وأَمرها بالانصراف، وعاد هو إِلى مقرّه، وقد أَخذ الاضطراب بنفسه كلّ مأخذٍ. فها هي مريم العذراء ماثلةٌ في قانون الإِيمان الذي طالما تلاه، من غير أَن يلحظ حضورها الجوهريّ فيه! ها هي في صميم إِيماننا المسيحيّ! وكانت تلك بداية تأمّلاتٍ طويلةٍ انتهت به إِلى الارتداد عن البروتستانتيّة، بعد فترةٍ قصيرةٍ.

ولطالما روى هذه الحادثة التي كانت جوهريّةً وحاسمةً في مسيرته، بعد أَن أَصبح كاهنًا كاثوليكيًّا.

المسبحة المنقذة

روى رجلٌ أَلمانيٌّ:

كان جدّنا يعمل في منجمٍ، وكان يمضي إِلى عمله سيرًا على الأَقدام، وهو يتلو المسبحة، ففي تلك الحقبة لم تكن الحافلات موجودةً. كان ينفق نصف ساعةٍ للذهاب، ومثلها للإِياب، ويستخدم هذا الوقت للصلاة.

وذات صباحٍ، بعد أَن كان قد اجتاز مسافةً كبيرةً، تبيّن أَنّه نسي مسبحته، فاحتار: هل سيعود أَدراجه ويأتي بالمسبحة، أَم يواصل سيره؟ وسرعان ما وطّن العزم على العودة، جريًا، إِلى البيت، وعاد يحثّ الخُطى. ولكن، مع جريه، ومحاولته الإِسراع، في سبيل تعويض الوقت الضائع، وصل إِلى موقع العمل، متأخّرًا عشر دقائق عن الموعد، ووجد رفاقه بانتظاره. فقد كان هو المسؤول عن الموقع، والمفاتيح في عهدته.

وفيما كانوا يهمّون، معًا، بالهبوط إِلى المنجم، دوّى ضجيجٌ كالرعد. فتبادلوا نظرات الرعب. لا ريب أَنّ انهيارًا رهيبًا قد حدث، ولكن لحسن الطالع، لم يكن أَيّ عاملٍ داخل المنجم. وقد أَظهر التحقيق أَنّ كتلاً صخريّةً ضخمةً قد انهارت، وسدّت سراديب عديدةً.

لو لم يكن جدّنا قد تأخّر، في ذلك اليوم، لكان عمّالٌ كثُرٌ قضوا حتفهم، ولربّما لقي، هو أَيضًا، أَجله. وقد تبيّنوا، جميعهم، حماية الله والعذراء فائقة القداسة، في ذلك الحدث...

منذ ذلك اليوم، باتت المسبحة تحظى بأَعظم إِكرامٍ في أُسرتنا. ولقد وقَتْنا من مصائب كثيرةٍ.

سرّ رومانُس المنشد

كان رومانُس قد اعتزل في كنيسةٍ مكرّسةٍ للعذراء، ومن السيّدة العذراء تلقّى نعمة تأليف الأَناشيد الإِلهيّة.

فقد ظهرت له أُمّ اللّه عشيّة عيد الميلاد، وقدّمت له قطعةً من البرديّ، وأَمرته بابتلاعها. ولّما استيقظ، اعتلى منبر الكنيسة، وأَنشد: «اليوم العذراء تلد الفائق الجوهر، والأَرض تقدّم المغارة لمن لا يُدنى منه، الملائكة، مع الرعاة يمجّدون، والمجوس مع الكوكب يسيرون. فمن أَجلنا وُلد، طفلاً، من هو، قبل الدهور، إِلهٌ».

وبعد هذا النشيد الذي ارتجله، بمناسبة عيد الميلاد، أَلّف، من أَجل سائر الأَعياد السيِّديّة، وأَعياد القدّيسين، أَناشيد لا تحصى، حُفظت مخطوطات العديد منها، في الكنيسة التي أُودع فيها جثمانه. ومن المعروف أَنّه مؤلّف نشيد الأَكاثستن الأَوّل.

وجديرٌ بالتنويه أَنّه، قبل ظهور العذراء له، كان صوت رومانُس نشازًا، ولم يكن يتمتّع بأَيّة موهبةٍ للتأليف. وبعد الظهور، صار صوته من ذهبٍ، وكلامه من عسلٍ.

رسول أُمّ الله

في إِحدى ضواحي باريس، كان يَقطن الدكتور «لويس غرانبا» الذي كان يقرن المهارة المهنيّة بحدبه الرقيق على الفقراء. كان سليل أُسرةٍ ثريّةٍ، وتزوّج وريثة ثروةٍ طائلةٍ. إيمانه المسيحيّ الحارّ كان يحمله على معالجة الفقراء مجّانًا، وقد وقف كلّ لحظات وقته على خدمتهم، وحتّى في العطل النادرة التي كان ينعم بها، كان يجد وسيلةً لممارسة مهنته مجّانًا.

وفي يوم أَحدٍ، إذ كان عائدًا، في ساعةٍ متقدّمةٍ من الليل، من مؤتمرٍ طبّيٍّ، حاملاً حقيبةً ثقيلةً، أَشار إِلى سائق تكسي، وبيّن له عنوان منزله ورقمه. وكان السائق متجهّم الوجه، ويتمتّع بقوّةٍ عضليّةٍ فائقةٍ، فتناول حقيبة الطبيب بخفّةٍ، ورمى بها على المقعد بجواره، وقال للرجل بفظاظةٍ: «هيّا، اصعد!».

لم يكن من مألوف الدكتور «غرانبا» أن يحكم على الناس من خلال مظهرهم، غير أَنّه استهجن سلوك السائق. وتفاقم استهجانه، عندما انطلق الرجل بكلّ سرعة سيّارته في اتّجاهٍ معاكسٍ للاتّجاه الذي حدّده له. ففتح باب السيّارة، وأَوعز إِلى السائق بالتوقّف، بيد أَنَّ هذا الأَخير لم يُعِرْ طلبه أَيّ انتباهٍ، وواصل سيره بسرعةٍ تصيب بالدوار، ثمّ خرج من حدود المدينة، وانتهج طريقًا وعرًا لا نهاية له...

تلقائيًّا، خطر للطبيب الاستعانة بمسدّسه، ولكن سرعان ما تذكّر أَنّه قد أَودعه في حقيبته، القابعة إِلى جانب السائق. وحينئذٍ استلّ من جيبه مسبحته، التي لا تبارحه، وأَوكل إِلى أُمّ الله عاقبة هذه المغامرة.

وأَخيرًا توقّفت السيّارة أَمام بيتٍ مضاءٍ، وانحدر منها السائق، وفتح الباب

بعصبيّةٍ وقال: «تفضّل، يا دكتور، فابني في الداخل، يحتضر». حينئذٍ، أَدرك الطبيب سبب سلوك السائق الغريب. فخوفه على ابنه، وخشيته من الوصول بعد فوات الأَوان، هما اللّذان حملاه على التصرّف على هذا النحو.

في الداخل كانت امرأةٌ تعبّر كلّ قسمات وجهها عن القلق والاضطراب، منحنيةً على سرير طفلٍ، لم يتخطَّ بضعة أَشهرٍ من العمر، يتلوّى بفعل تشنّجاتٍ لا تنقطع. فاستقدم الطبيب حقيبته، وبذل أَقصى مهاراته، مستخدمًا كلّ الوسائل المتوفّرة لديه، كي يشيع السكون في ذلك الجسم الصغير، وأَخذ ينتظر نتائج مداخلته.

أَخيرًا تمكّن والد الطفل من الكلام، فاعتذر، وهو ينتحب، لخطفه الطبيب في تلك الساعة من الليل، التي كان يؤثر، فيها، العودة إِلى بيته. وأَوضح للطبيب أَنّه كان قد حاول استدعاء ثلاثة أَطبّاءٍ يعرفهم، ولكنّه لم يجد أَحدًا منهم. وحينئذٍ، ترك طفله، وقلبه ينوء بالأَلم، وتولّى مناوبته الليليّة. وعندما التقى الطبيب، لم تجُلْ في باله سوى فكرة إِنقاذ ابنه، ولا سيّما بعد أَن تبيّن، ممّا كان مدوّنًا على الحقيبة، أَنّ صاحبها طبيب.

وقاطعت الزوجة حديث زوجها، لتقول:

– «لست أَدري، يا دكتور، هل أَنت مؤمنٌ. ولكن عندما دخلتَ كنتُ أُكمل دعاء «تذكّري أَيّتها العذراء مريم، أَنّه لم يُسمع، قطُّ، أَنّ أَحدًا لجأ إِلى حمايتك وخُذِل»، وكنت أَتلوه من أَعماق نفسي».

فابتسم الطبيب، واستلّ من جيبه، مسبحته الورديّة، واعترف :

– «هذا هو السلاح الذي كنت أُداعبه، في أَثناء المغامرة المجنونة التي قادتني إِلى منزلكم، والتي لم أَكن أَشكّ بأَنّها ستنتهي إِلى مأزقٍ.»

وأَجابت الأُمّ الملهوفة متأثّرةً:

– «إِنّك، حقًّا، رسول أُمّ الله».

في أَثناء هذا الحوار الخافت، كان الطفل قد استسلم للرقاد، في سريره الصغير، وقد ساد السكون جسده. فأَعلن الطبيب زوال كلّ خطر، فلا داعٍ للقلق، بعد. وتأهّب للانطلاق. واستوضحه ذوو الطفل عمّا يتوجّب عليهم تجاهه لإنقاذ الطفل، فأَجاب الطبيب الكريم: «لا شيء إِطلاقًا. حسبي شرف كوني رسول أُمّ اللّه، تعويضًا وافيًا عن كلّ ما عانيته، في هذه الليلة المضطربة. ولكن الآن، أَعدني، أَيّها السائق، سريعًا، إِلى منزلي».

واستوضح الطبيب السائق عمّا يتوجّب عليه تجاهه، فأَجاب: «إِنّ فرحي باقتياد رسول أُمّ اللّه إِلى منزله يوفّيني حقّي أَكرم وفاء. وثقْ، يا دكتور، أَنّ زوجتي ستدعو لكم، كلّ يومٍ، وستسأل السيّدة العذراء أَن تسدّد لكم دين جميلكم عنّا».

وعاد الطبيب، لاحقًا، مرّاتٍ عديدةً، متفقّدًا الطفل الذي أَعاد له الحياة، من حيث لم يكن والداه يتوقّعان. وفي كلّ سنةٍ كان يتلقّى منهما باقة زهورٍ تعبيرًا عن عرفانهما بجميله.

حلم «دون بوسكو» الذي تحقّق

يقول القدّيس دون بوسكو:

في التاسعة من عمري راودني حلمٌ انحفر عميقًا في ذهني، طيلة حياتي. في ذلك الحلم رأيت، على مقربةٍ من بيتنا، ملعبًا فسيحًا تجمّع فيه حشدٌ من الأَولاد يلعبون. بعضهم كانوا يضحكون، ولكنّ كثيرين كانوا يجدّفون. ولّما تنامى تجديفهم إِلى سمعي اندفعتُ إِلى وسطهم وأَنا أَصيح وأَوزّع اللكمات كي أُخرسهم.

وفي تلك اللحظة تراءى لي رجلٌ مهيب الطلعة واللباس، ويشعّ محيّاه نورًا يعسر مواجهته. ناداني باسمي وقال لي: «عليك أَن تجعل من هؤلاء أَصدقاء لك، لا بالضرب، بل بالرقّة والمحبّة. وابدأ فأَظهِر لهم، في الحال، بشاعة الخطيئة، وقيمة الفضيلة».

فأَجبته، خائفًا، أَنّني ولدٌ بسيطٌ جاهلٌ. وحينئذٍ كفّ الفتيان عن العراك والصياح، وتحلّقوا حول الذي كان يكلّمني. وسأَلت الرجل: «من أَنت كي تأمرني بما يتعذّر عليّ فعله؟».

– لأَنّ هذه الأمور تبدو لك متعذّرة التحقيق، عليك أَن تجعلها ممكنةً بالطاعة والتعلّم!

– وكيف يسعني أَن أَتعلّم؟

– سأُعطيك معلّمةً، وبخضوعك لقيادتها يمكنك أَن تصبح عالمًا.

– ولكن من أَنت؟

– أَنا ابن المرأة التي لقَّنتك أُمّك أَن تصلّي لها ثلاث مرَّاتٍ يوميًّا. أَمّا اسمي، فاسأل عنه أُمّي.

وفي الحال شاهدتُ، إِلى جانبه، سيّدةً مهيبة المنظر ترتدي معطفًا يتألّق كالشمس، دنت نحوي، وأَشارت لي بالاقتراب منها، فأَمسكت بيدي، وقالت لي برقّةٍ وعطفٍ: «انظر»، فإِذا بالأَولاد قد اختفوا، جميعهم، وحلّ محلّهم جماعاتٌ من الماعز، والكلاب، والهررة، والدببة، والكثير من الحيوانات الأُخرى. وقالت السيّدة: «هذا هو ميدان عملك. كن متواضعًا، جريئًا، شديدًا. وما ستراه يحدث، الآن، لهذه الحيوانات، ستفعله لأَبنائي».

وأَدرت نظري، فإِذ قد حلّ محلّ الحيوانات البرّيّة المتوحّشة حملانٌ مسالمةٌ، تتوثّب، وتركض، وتثغو حول ذلك الرجل وتلك السيّدة، وكأَنّها تبتغي أَن تكرّمهما. فأَخذت أَبكي، في الحلم، ورجوت السيّدة أَن تفسّر لي تفسيرًا واضحًا معنى ما كان يحدث، والذي استغلق عليّ فهمه. فوضعت يدها على رأسي وقالت: «ستدرك كلّ شيءٍ في أَوانه».

وما كادت تنهي قولها حتّى أَيقظني ضجيجٌ في المنزل. واختفى كلّ شيءٍ، ووجدت نفسي مذهولاً. واعتراني انطباعٌ بأَنّ يديّ كانتا توجعاني، بسبب اللكمات التي وزّعتها في الحلم، وبأَنّ وجهي يلتهب من الصفعات التي أَلحقها بي أُولئك الأَولاد الأَشقياء.

مساومة مع سيّدة المعونة

كان على دون بوسكو أن يدفع، مساء السادس عشر من تشرين الثاني ١٨٦٦، لمتعهّدي مشاريعه، أَربعة آلاف ريال، ولم يكن يملك من هذا المبلغ فلسًا واحدًا. ومنذ الصباح، ما انفكّ محاسبه يلتمس المحسنين إِلى أَن جمع أَلف ريالٍ.

بعد الغداء، اعتمر دون بوسكو قبّعته، وخرج راجيًا أَن توجِد له العناية الإِلهيّة مخرجًا. وبعد عدّة جولاتٍ عشوائيّةٍ، وجد نفسه أَمام محطّة القطار. فتوقّف حائرًا في أَيّ اتّجاهٍ يقود خطاه. وإِذ بخادمٍ، في زيٍّ رسميٍّ، يبادره قائلاً: «أَيّها الأَب، أَلست دون بوسكو؟».

– أَجل، أَنا هو. بمَ يسعني أَن أَخدمك؟

– لقد أَرسلني سيّدي كي أَدعوك إِلى منزله.

– فلنمضِ إِذن، كي نرى سيّدك. ولكن هل منزله بعيد؟

– لا بل هو في نهاية هذا الشارع.

– وهل هذا الصرح له؟

– بالتأكيد. إِنّ سيّدي يمتلك ثروةً طائلةً، ولا ريب أَنّ بمكنته أَن يقدّم لكنيستك خدمةً ذات شأنٍ.

ووصلا إِلى حجرةٍ فاخرةٍ، حيث كان رجلٌ مسنٌّ راقدًا في سريره. وقد عبّر عن فرحٍ غامرٍ عندما رأى دون بوسكو، وبادره بالقول:

– «أبتِ المحترم، إنّني في حاجةٍ شديدةٍ إلى صلواتك، كي أستطيع الوقوف على قدميَّ.

– هل أنت معتلٌّ منذ زمنٍ طويلٍ؟

– منذ ثلاث سنواتٍ، لم أغادر سرير الألم هذا. فإن أنت حقّقت لي أيّ تحسّنٍ، لقدّمتُ مساعداتٍ لمشاريعك.

– إنّ عرضك يأتي في الوقت المناسب، إذ يتوجّب عليَّ، في هذا اليوم، أداء مبلغ ثلاثة آلاف ريالٍ من أجل كنيسة سيّدة المعونة.

– ثلاثة آلاف ريالٍ؟ هل تدرك معنى هذا، يا أبتِ؟ لو كان الأمر يتعلّق ببضع مئاتٍ، لكان الأمر ممكنًا. ولكن ثلاثة آلافٍ!

– إن كنت تجد المبلغ باهظًا، فلنصرف النظر عن الموضوع.

وجلس الكاهن، وبهدوءٍ تامٍّ، شرع يتحدّث في مواضيع سياسيّة. ولكنّ المريض اعترض:

– ليس هذا شأننا. إنّما أُريد الشفاء!

– لقد بيَّنتُ لك وسيلة شفائك، وأنت رفضتها.

– ولكن ليست ثلاثة آلاف ريالٍ بالأمر اليسير!

– فلننسَ الموضوع كلّه.

– احصل لي على هدنةٍ من آلامي، ومن المؤكّد أنّني لن أنساك، في نهاية السنة.

– في نهاية السنة؟ ألم أَقُل لك إنّنا بحاجةٍ إلى هذا المبلغ، في هذا المساء عينه؟

– هذا المساء! هذا المساء! وهل تظنّ أنّني أحتفظ بمثل هذا المبلغ في منزلي؟ بل عليّ المضيّ إلى المصرف، وإجراء معاملاتٍ معقّدةً.

– ولمَ لا تمضي إِلى المصرف، في الحال؟

– هل تمزح؟ إِنّني، منذ ثلاث سنواتٍ لم أَهبط من سريري. هذا محالٌ.

– لا شيء يستحيل على الله، وعلى مريم سيّدة المعونة!

جمع دون بوسكو، في غرفة السيّد، جميع القاطنين في بيته، وقد ناهز عددهم الثلاثين. ولقّنهم صلاةً للقربان المقدّس، وللعذراء، سيّدة المعونة، فتلوها، جميعهم معًا، وحينئذٍ أَمرهم بإِحضار ثياب السيّد المريض. فاعترضوا قائلين:

– منذ ثلاث سنواتٍ لم يرتدِ السيّد ثيابًا، ولم نعد نعرف أَين هي أَمتعته».

وصرخ المريض: «هيّوا اشتروا لي ثيابًا، بسرعة! ونفّذوا طلب الأَب».

في هذه الأَثناء وافى الطبيب، وجهد في الحؤول دون هذه المغامرة المجنونة. ولكنّ الثياب وُجدت، وارتداها السيّد المعتلّ، وراح يذرع الحجرة بخطًى واسعةٍ، وأَمر بإِعداد العربة، وبوجبة طعامٍ ترمّم قواه، تناولها بشهيّةٍ لم يعهدها منذ زمنٍ طويلٍ.

وهبط الدرج، نشيطًا، رافضًا كلّ مساعدةٍ، وصعد إِلى العربة.

وعاد دون بوسكو، بعد لحظاتٍ، حاملاً مبلغ الثلاثة آلاف ريالٍ، فيما كان الرجل يردّد بلا انقطاعٍ:

– «لقد شُفيتُ تمامًا!».

وقد أَجابه دون بوسكو:

– «أَنت أَخرجت الدراهم من البنك، وسيّدة المعونة أَخرجتك من سرير المرض».

ستّ دفعاتٍ كلٌّ منها أَلفا فرنكٍ

كان لدون بوسكو صديقٌ قديمٌ، عضو مجلس شيوخٍ في الثالثة والثمانين من العمر، يحبو نحو أَجله خطوةً خطوةً. وعاده القدّيس، ذات يومٍ، فشكا له العجوز حاله:

– لقد قُضي الأَمر، يا أَبتِ، وما هي سوى لحظاتٍ حتّى أُغادر إِلى الأَبديّة.

وردّ عليه القدّيس:

– ليس الأَمر كذلك. فالسيّدة العذراء ما زالت بحاجةٍ إِليك، في هذه الدنيا، من أَجل بناء كنيستها.

– وأَنا على أُهبةٍ لمساعدتك بكلّ طيب خاطرٍ. ولكن، كما ترى، ما من بصيص أَملٍ لي بالحياة.

– وما عساك ستفعل لو أَعادت لك سيّدة المعونة الصحّةَ؟

– سأؤدّي لمشاريعك أَلفي فرنكٍ شهريًّا، على مدى ستّة أَشهرٍ متعاقبةٍ.

– وإِذن، سأَعود إِلى أَبنائي، وسأدعوهم إِلى الصلاة، وسننتزع لك هذه النعمة. كن واثقًا!

بعد مضيّ ثلاثة أَيّامٍ، فيما كان دون بوسكو يكتب رسالةً، انتصب، في عتبة غرفته، العجوزُ المريض، وقد تعافى، وبدا مبتهجًا، نشيطًا، سعيدًا بجلب أولى الدفعات الستّ التي كان قد وعد بها القدّيس.

وعاش، بعد ذلك، ثلاث سنواتٍ، لم يكفَّ، خلالها، وحتّى ساعة موته، عن مساعدة مشاريع خادم الله.

قدرة المسبحة الورديّة

كان القدّيس «غرينيون دي مونفور» قد اعتزم الاضطلاع بمهمّة كرازةٍ، في جزيرةٍ تبعد نحو سبعة عشر كيلومترًا عن مدينة «لاروشيل». وفي تلك الحقبة، كان القراصنة البريطانيّون ناشطين، يعيثون في البحر فسادًا، ويجعلون الإِبحار خطرًا. وقد توسّل القدّيسَ رفاقُه أَن يعزف عن مشروعه، ولكن عبثًا، بل إِنّه راح يجهد إِلى أَن أَقنع بحّارةً متمرّسين بوضع مهاراتهم ومركبهم في خدمة رسالته.

ولكن ما كادت تنقضي ثلاث ساعاتٍ على إِبحارهم حتّى برز، في الأُفق، مركبان شراعيّان يقودهما قراصنةٌ متوجّهين نحو المرسلين ومركبهم. فأَطلق البحّارة صيحات رعبٍ، معلنين يأسهم، ومتوقّعين الهلاك، في حين راح رفاق القدّيس ينتحبون. أَمّا القدّيس فظلّ رابط الجأش، منشرح الصدر، منشدًا التراتيل، وداعيًا رفاقه إِلى حذو حذوه. ولكنّ هؤلاء ظلّوا صامتين كأَسماك البحر. حينئذٍ قال لهم: «إِن لم تكونوا راغبين في الترتيل، فاتلوا المسبحة معي!».

فركعوا جميعهم، وبصوت أَطفالٍ باكين راحوا يردّدون أَدعية «السلام، يا ممتلئةً نعمةً...»، التي رفرفت فوق المياه، ونفذت إِلى السماء.

ولمّا فرغوا من تلاوة المسبحة، هتف المرسل:

– «لا تخافوا، فأُمّنا السيّدة العذراء قد استجابت لصلاتنا، وقد بتنا في مأمنٍ من الخطر! وردّ عليه البحّارة:

– «تقول إِنّنا غدونا في مأمنٍ من الخطر، ونحن الآن في مرمى القراصنة؟

ولكنّ القدّيس أكّد:

- «ثقوا، فقط».

وفي تلك اللحظة هبّت ريحٌ شديدةٌ، أَجبرت مراكب القراصنة على التقهقر والفرار، تعبث بها الأَمواج وكأَنّها قشور جوزٍ، وما عتّمت أَن توارت في الأُفق. وأَرسى مركب المرسلين في الجزيرة على أَنغام «تعظّم نفسي الربّ...».

وعندما تنامى نبأ المعجزة إِلى سمع صيّادي الجزيرة، توافدوا، كُثُرًا، لسماع المواعظ، بكلّ اهتمامٍ. وقد أَصبحوا مسيحيّين أَتقياء، واعتادوا تلاوة المسبحة بانتظامٍ.

الصلاة المشتركة أَوفر جدوى

في أَثناء الحرب العالميّة الأَخيرة، أُسِر ابن طبيبٍ هنغاريٍّ، وبعد انقضاء اثنتي عشرة سنةً على غيابه، يئس أَبوه من رؤيته ثانيةً. أَمّا أُمّه التي كانت عميقة الإِيمان، فما انفكّت ترجو عودته، رغم تلاشي كلّ أَسباب الرجاء... وكانت تشخص، كلّ يوم سبتٍ، إِلى الكنيسة القريبة من المدينة، كي تتوسّل أُمّ الآلام تحقيق رجائها بعودة ابنها.

وفي الخامس والعشرين من شهر آذار، أَي في عيد البشارة، رجت زوجها أَن يرافقها إِلى الكنيسة، ولكنّه رفض، بحجّة مقته الظهور في الكنيسة، وعدم ارتياحه في الأَماكن العامّة المزدحمة. ولكنّ الزوجة أَلحّت في التماسها منه مرافقتها، قائلةً: «إِن صلّينا، كلانا، فلا ريب أَنّ الربّ والسيّدة العذراء سيستجيبان لنا». واستسلم الطبيب، أَخيرًا، ورافق زوجته.

انصرم شهرٌ على صلاتهما المشتركة، وفي الخامس والعشرين من نيسان فاجأهما ابنهما بعودته غير المتوقّعة. وإِليكم ما رواه:

«بعد أَن أَدّيت واجب الحراسة، أَردت العودة إِلى المهجع، حيث أُقيم مع رفيقٍ لي، وإِذ بامرأةٍ في زيّ فلاّحةٍ تسأَلنا:

– أَيّها الشابّان، أَلستما راغبيْن في العودة إِلى وطنكما ومنزلكما؟

– ليست الرغبة هي التي تنقصنا. ولكنّنا لا نحمل أَوراقًا ثبوتيّةً، تمكّننا من اجتياز الحدود.

– لا تقلقا لذلك، فلن يطالبكما أَحدٌ بأَوراق. فهيّا اجمعا أَمتعتكما، لأَنّ القطار سينطلق قريبًا.

وقد جرت الأُمور كلّها، على نحو ما تنبّأت به تلك المرأة. وها أنا ذا...».

يوم الأَحد التالي، انطلقوا، هم الثلاثة معًا، بغية تقديم الشكر لله، ولأُمّه القدّوسة، في كنيستها. ركع الأَسير الناجي، وصلّى بحرارةٍ أَمام تمثال العذراء، وعندما رفع نحوها نظره، أَطلق صيحةً حادّةً، وهوى مغميًّا عليه. فارتعب والداه، وساعدهما القوم في الخروج به إِلى الهواء الطلق، وهرع طبيبٌ صديقٌ، فحقنه بدواءٍ أَعاده إِلى وعيه...

استوضحه أَبوه عمّا جرى له، فقال له: «عندما حدّقت إِلى التمثال، تعرَّفتُ وجه الفلاّحة التي نصحتنا بالفرار... هي التي حمتنا، وبمساعدتها سافرنا بلا أَوراقٍ ثبوتيّة».

ظهور سيّدة السنابل الثلاث

في الساعة العاشرة من صباح الثالث من أيّار عام ١٩٤١، كان «تييرّي»، حدّاد قرية «أوربي»، قاصدًا السوق بالقرب من مدينة «كولمار» الفرنسيّة، فلمح صورةً مقدّسةً معلّقةً على شجرة سنديان. وبحسب التقاليد السائدة في تلك الحقبة كانت تلك الصورة دعوةً للصلاة من أجل راحة إنسانٍ توفّي حديثًا، في تلك المنطقة.

انحدر «تييرّي» عن متن راحلته، وجثا أمام الصورة، وصلّى بحرارةٍ من أجل راحة نفس المتوفّى. وبغتةً بهره نورٌ ساطعٌ، ظهر من خلاله طيفٌ رقيقٌ مبهمٌ، كان طيف السيّدة العذراء، وقد تدثّرت بحجبٍ بيضاء شفّافةٍ، وأمسكت في يمناها ثلاث سنابل نبتت على ساقٍ واحدةٍ، وقطعة جليدٍ صغيرةً في يُسراها، وقد خاطبته قائلةً:

– «انهض، أيّها الشابّ، واسمع. هذه السنابل هي رمزٌ للمواسم الوافرة التي تكافئ الأشخاص الفاضلين، الطيّبين، والكريمين، وتؤتي الرفاه والسعادة لأُسر المسيحيّين الأوفياء. أمّا قطعة الجليد، فهي تشير إلى البَرَد، والصقيع، والطوفان، والمجاعة، وكلّ الأسى والأرزاء، التي تعاقب الأشرار، الذين ضاقت رحمة الله ذرعًا بذنوبهم الجسيمة. امضِ، أيّها الشابّ الطيّب وفسّر معنى هذه النبوءة، لجميع سكّان القرى المجاورة».

توارى الطيف، وواصل «تييرّي» مشواره، ولكنّه، خشية التعرّض للسخريّة، عزم على الاحتفاظ بالظهور والنبوءات سرًّا. وفي السوق، ابتاع كيس حنطةٍ، ولكن عندما حاول حمله، تعذّر عليه ذلك، مثلما تعذّر على جميع الموجودين.

لقد بدا الكيس وكأنّه ممتلئٌ رصاصًا، واستحالت إِزاحته من مكانه. ودهش الفلاّحون الذين تحلّقوا حوله من القدرة السحريّة السرّيّة التي كانت تبقيه ملتصقًا بالأَرض، حتّى اتّهم بعضهم الحدَّاد المسكين بممارسة السحر.

وحينئذٍ أَدرك «تييرّي» سرّ ذلك الحدث، وفهم أَنّه إِنذارٌ إِلهيٌّ. فقد عهدت إِليه العذراء برسالةٍ، ووطّن هو العزم على عدم إِطاعتها. وإِذا به أَمام الحشد المحيق به، الذي عقد الذهول لسانه، يجثو، ويستسمح السيّدة العذراء، ويضطلع بالمهمّة التي أَوكلتها إِليه، راويًا للجميع حكاية السنابل الثلاث، وقطعة الجليد. وكان الجمع يصغي إِلى رواية «تييرّي»، في خشوعٍ، وذهولٍ، وتأثّرٍ، ولم يشكّ أَحدٌ منهم في صدقه. وحتّى أَكثرهم بعدًا عن الدين، أَعربوا عن ندمهم، ووطّنوا العزم على إِصلاح ذواتهم.

حينئذٍ، غمر الانشراح والبهجة نفس «تييرّي»، فعاد إِلى كيس الحنطة، وتناوله، فإِذا به، بين يديه، وكأنّه كيس ريشٍ، ولم يلقَ أَيّة مشقّةٍ في قذفه على متن راحلته، وسط صيحات فرح الحضور. وعاد رسول العذراء إِلى قريته وبيته، وقلبه يفيض سعادةً وحبورًا.

شومان يروي ارتداده عن اليهوديّة

«لقد تلقّيت أَعظم نعمةٍ في حياتي، في أَثناء نزهةٍ طويلةٍ قمت بها، في الطبيعة. كنت أَسير وحيدًا، مصغيًا إِلى زقزقات العصافير، قبل استيقاظ العالم، عندما «هبطتُ في السماء»، (لستُ أَجد عبارةً أَفضل لوصف ما حدث لي) فقد وجدتُ نفسي، وجدانيًّا وماديًّا، في حضور اللّه. رأيت حياتي، حتّى ذلك اليوم، منبسطةً أَمامي، وبكلّ ما من شأنه إِمتاعي، أَو بعث الندم فيّ. وأَدركت، في لحظةٍ، أَنّ غاية حياتي هي حبّ ربّي وإِلهي وخدمته؛ ورأيت كيف كان حبّه يلفّني ويساندني، في كلّ لحظةٍ من وجودي؛ وتبيّنت كيف كان كلّ عملٍ من أَعمالي يتضمّن محتوًى أَخلاقيًّا، للخير أَو للشرّ، وكيف أَنّ كلّ ما حدث في حياتي كان خير ما يمكن أَن يحدث لي، والأَمر الأَمثل الذي دبّره، لصالحي، إِلهٌ كلّيّ العطف والحبّ، ولا سيّما الأَحداث التي سبّبت لي القدر الأَكبر من الأَلم. ورأيت أَسباب الندم الكبرى التي سأواجهها في لحظاتي الأَخيرة: كلّ ساعةٍ بدّدتُها، ولم أَستخدمها لعمل ما له ثمنٌ في نظر اللّه، في حين كنتُ، في كلّ لحظةٍ من وجودي، أَسبح في بحر حبّ اللّه الجمّ، الذي لا يحيط به تصوُّرٌ.

كلّ تساؤلٍ كان يراودني كان يلقى جوابًا فوريًّا، ما خلا تساؤلاً واحدًا جوهريًّا: اسم اللّه الذي كان يعلن لي ذاته، معنى حياتي وغايتها. لم أَكن أَتخيّله شبيهًا بإِله العهد القديم الذي رسخت صورته في ذهني منذ طفولتي. كنت أُصلّي كي أَعرف اسمه، وأَتبيّن الدين الذي يتيح لي خدمته وتكريمه، مردّدًا: «أَعلمني اسمك، وسواءٌ لديّ إِن كنت بوذا، فيتعيّن عليّ أَن أُصبح بوذيًّا، أَو كنت أَبولون، ويتعيّن عليّ أَن أُصبح وثنيًّا، أَو كنت كريشنا، ويتعيّن

عليّ أن أُصبح هندوسيًّا؛ على ألاّ تكون المسيح، وألاّ أُضطرّ أن أُصبح مسيحيًّا». ومع أن الله استمع إلى صلاتي، لم أتلقَّ منه، حينئذٍ، أيّة إجابةٍ.

بعد مرور سنةٍ بالضبط على تجربتي تلك، تلقّيت، في الحلم، نعمة حياتي الثانية الكبرى. مع أنّي، عندما استسلمتُ للكرى، في تلك الليلة، لم أكن أَعلم سوى النزر اليسير عن المسيحيّة، ولم أكن أستسيغ أيّ شيءٍ ممّا يحيط بها. غير أنّني، عندما استيقظت أضحيتُ ولهًا بالعذراء مريم القدّيسة، ولا أرغب في شيءٍ أكثر من رغبتي في أن أكون مسيحيًّا إلى أبعد مدًى ممكنٍ.

«الحلم» الذي كان قد راودني، اندرج على النحو التالي: كنتُ قد اقتُدتُ إلى حجرةٍ حيث قيّض لي حوارٌ مع أجمل امرأةٍ يمكن تخيّلها. وقد أدركتُ، منذ الوهلة الأولى، ومن غير أن تعرّفني بنفسها، أنّها مريم العذراء. كانت متأهّبةً للردّ على كلّ سؤالٍ قد أطرحه عليها. كنت واقفًا أُجيل في ذهني عددًا من الأسئلة الممكنة، وقد طرحت عليها أربعةً أو خمسةً منها، أجابت عليها، ثمّ حدّثتني، مدى دقائق معدوداتٍ، وانتهى اللقاء.

إنّي أَميل إلى الاعتقاد بأنّ ما حدث لي لم يكن حلمًا، بل تمّ في حالة يقظةٍ: فأنا ما زلت أذكر كلّ التفاصيل، وبالطبع الأسئلة والإجابات عليها. ولكنّ كلّ ذلك يشحب أمام نشوة مجرّد المثول أمام العذراء، في طهر حبّها وكثافته».

هل قلبنا هو مثل قلبكم؟

عام ١٨٦٥، أَعاد اليابان فتح أَبوابه للأَجانب، بعد نحو قرنين من الإِغلاق التامّ. وحطّ الأَب «پوتيجان» Petitjean، وهو عضوٌ في الرسالات الأَجنبيّة، رحاله في مدينة ناكازاكي حيث أَشاد كنيسةً صغيرةً. وقد روى:

«ذات يومٍ، وقفت مجموعةٌ من نحو خمسة عشر شخصًا، تضمّ نساءً ورجالاً وأَولادًا، أَمامَ باب الكنيسة، فهرعت إِلى فتحه. فدنت منّي امرأةٌ، وقد وضعت يدها على صدرها وقالت لي: «هل قلبنا وقلب جميعنا نحن الحاضرين هنا هو مثل قلبكم؟». فأَجبتها: «نعم، بالتأكيد؛ ولكن من أَين أَنتم؟».

– «نحن جميعًا تقريبًا من أوراكامي. وقلوب معظم أَهالي أوراكامي هي مثل قلوبنا».

وفي الحال سأَلَت المرأة: «أَين صورة القدّيسة مريم؟».

«لدى سماعي هذا الاسم المقدّس، تبدّد كلّ شكٍّ كان يراودني، وتبيّنتُ أَنّني بين مسيحيّين يابانيّين قدامى. عددهم يناهز خمسة عشر أَلفًا، وقد حافظوا على إِيمانهم، طيلة قرنين ونصف، مع افتقادهم إِلى كهنة. وحينئذٍ، اقتدت الزائرين أَمام هيكل السيّدة العذراء، حيث صلّوا، وهم يفيضون فرحًا وتأثّرًا».

مريم في «ليزوتو» (أَفريقيا)

كان المرسل يتجوّل على صهوة جواده، بين جبال «ليزوتو» الشامخة، متسلّحًا بمسبحته، متفقّدًا المسيحيّين المبثوثين في القرى، هنا وهناك. وبغتةً أَوقعه هزيم رعدٍ مدوٍّ عن متن راحلته. نهض بمشقّةٍ، وبمساعدة معاونه الذي أَخذ يتوسّله ألاّ يتابع رحلته. ولكنّ المرسل أَصرّ على مواصلة مشواره مؤكّدًا لرفيقه: «إِنّ إِبليس يحاول إِعاقتنا، لكيلا نصل إِلى نفسٍ تحتاج إِلى مساعدتنا». تابعا، إِذن، مسيرتهما، وهما يصلّيان. وبعد فترةٍ غير قصيرةٍ، سمعا نداءً آتيًا من قريةٍ نائيةٍ.

توقّف المرسل وقال: «إِنّهم ينادوننا، فلنمضِ إِليهم!». وردّ معاونه: «حذارِ! فهذه قرية سحرةٍ، وهم ينصبون لنا فخًّا!».

– «بل ربّما هناك نفسٌ يتعيّن إِنقاذها، وأَنا ماضٍ». ومضى، يلحق به معاونه وقد أَخذ به الهلع كلّ مأخذٍ.

فور وصولهما إِلى القرية تحلّقت حولهما نساءٌ، واقتادتنَهما إِلى كوخٍ كانت تحتضر فيه فتاةٌ في نحو الثامنة عشرة من عمرها، قائلاتٍ: «إِنّها تطالب بكما، فهي ترغب في عمادٍ كاثوليكيٍّ يمكّنها من الذهاب إِلى سيّدةٍ جميلةٍ».

ركع المرسل أَمام المحتضرة التي سألته: «هل أَنت الكاهن الكاثوليكيّ؟».

– «أَجل. أَنا هو».

– «عمّدني، إِذن سريعًا!».

وفيما كان المعاون يعدّ أَدوات العماد، طرح المرسل على الفتاة بضع أَسئلةٍ أَجابت عليها بلا تردّدٍ. دهش المرسل ولكنّه ما عتّم أَن أَدرك سرّ معرفتها بشؤون

المسيحيّة، التي بلّغتها إيّاها رفيقاتٌ لها كنّ يختلفن إلى مدارس كاثوليكيّة، وسارع المرسل إلى منحها سرّ العماد، ولدى سماعها عبارة «يا ماري، إنّي أُعمّدك...» أَشرق محيّاها بفرحٍ غامرٍ، وأَنعشتها نسمة حياةٍ.

واستوضحها المرسل عن سبب رغبتها في العماد، فأَجابت: «لقد رأيت حلمًا، شهدت فيه سيّدةً بيضاء رائعة الجمال يشدّ وسطها زنّارٌ بلون السماء. كانت تبتسم لي، وتمدّ نحوي ذراعيها. حاولت الدنوّ منها، فقالت: «ليس الآن. بل اطلبي العماد الكاثوليكيّ، وعندها سأَحضر لاستصحابك».

كان تأَثّر المرسل بالغًا، وقدّم لها الإِيقونة العجائبيّة، فهتفت: «إِنّها هي! هي التي شاهدتها!». قبّلت الإِيقونة بحبٍّ جمٍّ، ثمّ استسلمت للإِغفاء، منهكةً. وباركها المرسل، ثمّ واصل مسيرة رسالته. وما كاد يبتعد بضع خطواتٍ، حتّى صاحت النساء في إِثره: «لقد رحلت!».

معجزة عذراء «البيلار» (إِسبانيا) الكبرى

«ميكيل خوان بيلليثير» عاملٌ زراعيٌّ إِسبانيٌّ، ينتمي إِلى أُسرةٍ تضمّ سبعة أَبناء، سقط، عام ١٦٣٧، وهو في العشرين من العمر، من عربةٍ، فكسر أَحدُ إِطاراتها فخذه اليُسرى، وسحق الظنبوب من وسطه. نُقّل من مشفًى إِلى آخر، وجُرّبت فيه كلّ أَنواع العلاج، بلا طائلٍ، وأَخيرًا بُترت فخذه، «أَربع أَصابع فوق الركبة».

تعاطى التسوّل فترةً قصيرةً، ثمّ قرّر العودة إِلى قريته، والإِقامة مع ذويه. وفي التاسع والعشرين من شهر آذار ١٦٤٠، بعد أَن استسلم للنوم في غرفة والديه، لاحظ أَبوه بروز قدمين، من تحت اللحاف: فقد عادت فخذه المبتورة. أَجرت السلطات الكنسيّة تحقيقًا اعتبارًا من ٥ حزيران ١٦٤٠، وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان١٦٤١، اختارت بلديّة «كالندا»، قريته، العذراءَ، سيّدة البيلار، شفيعةً لها. وفي السابع والعشرين من شهر نيسان أَعلن رئيس أَساقفة سراكوسا: «نعلن أَنّ السيّد ميكيل خوان بيلليثير»... قد استعاد، على نحوٍ عجيبٍ، فخذه اليسرى التي كانت قد بُترت. هذه الاستعادة، لا يسعها أَن تكون من عمل الطبيعة، بل إِنّها تمّت على نحوٍ معجزٍ، ولا بدّ من تسجيلها عجيبة».

ولا بدّ من التنويه بأنّ ميكيل المذكور، كان، قبل إِخلاده إِلى النوم في تلك الليلة، قد صلّى، بحرارةٍ، للعذراء سيّدة البيلار، وقد رأى في الحلم نفسه في كنيسة سَراكوسا، يدهن جدعته الموجعة بزيت المصابيح المشعلة أمام العذراء.

وقد سُكّت عام ١٦٧١ إِيقونةٌ تذكّر بتلك الأُعجوبة.

السلسلة التي تقود إِلى السماء

في إِحدى ضواحي طوكيو، تدعى ضاحية «الجسر الخشبيّ»، كان يعيش نحو أَلفٍ من المهمّشين، في مهاجع خشبيّة كان يستخدمها الجيش، سالفًا.

وفي نحو الساعة الثانية من إِحدى الليالي، تلقّى الأَب «جيريون» اتّصالاً هاتفيًّا يدعوه إِلى غوث امرأةٍ عجوزٍ محتضرةٍ، كانت تقيم بين أولئك المساكين.

واتّضح لذلك الكاهن أَنّ تلك المرأة، عندما كانت شابّةً، قد غشت مدرسةً كاثوليكيّةً، حيث حظيت بتعليم راهبةٍ كاثوليكيّةٍ، على امتداد ثلاث سنواتٍ، وأَصبحت مسيحيّةً، في سنّ السابعة عشرة. وقد باحت للكاهن بقولها: «تلقّيت الماء المقدّس، وخبز الله». ولكن، لاحقًا، أَجبرتها أُسرتها على الزواج من كاهنٍ بوذيٍّ، كان يملك معبدًا، بعيدًا، في الجبل. وقد تعيّن عليها العناية بذلك المعبد، وبقبورٍ كثيرةٍ، وحرق البخور في بعض الأَعياد. لم يحظر عليها زوجها البوذيّ الشخوص إِلى الكنيسة، ولكن لم يكن هناك كنائس. وقد أَنجبت ثمانية أَولاد. وبعد سبعين سنةً، توفّي زوجها، وتوفّي جميع أَبنائها، وقد سقط خمسةٌ منهم في الحرب. ثمّ وافى إِلى المعبد كاهنٌ بوذيٌّ آخر، فكان لا بدّ لها من مغادرة المكان.

استفسرها الكاهن هل كانت تفكّر في الله، سحابة تلك السنين كلّها. فحدّقت إِليه باستغراب، ثمّ سحبت، بمشقّةٍ، يدها من تحت غطاء سريرها، فإِذا بها تمسك مسبحةً، وتقول: «سحابة تلك السنوات، كنت، كلّ يومٍ، وأَحيانًا عديدةً في النهار، أُصلّي، وأَنا أَضطلع بعملي، ولم أُهمل هذه الصلاة، يومًا واحدًا. كانت سلسلة مريم بين يديّ أَو في جيبي، وقد التمست منها، كلّ يومٍ، أَن أَلتقي، قبل وفاتي، كاهنًا كاثوليكيًّا، يمنحني خبز الله».

اهتدى بفضل المسبحة العائليّة

«لويس فرنسوا بودينز»، أَحد زعماء الحركة الشيوعيّة في الولايات المتّحدة، كان قد وُلد في ولاية إِنديانا، في أَحضان أُسرةٍ مسيحيّةٍ معروفةٍ بتقواها الحارّة. في العشرين من عمره عشق امرأةً مطلّقةً، وهجر بيت الأُسرة. ثمّ كَلِف بالقضيّة الاجتماعيّة، وما لبث أَن أَمسى خطيب جميع المطالبات البروليتاريّة، ومنظّر جميع الصراعات العمّاليّة. وقد سُجن أَكثر من عشرين مرّةً. وبين العام **١٩٣٥** والعام **١٩٤٥**، خاض كفاحه الشيوعيّ من خلال تحريره صحيفة «ديلي وُركر»، صحيفة نيويورك الحمراء الكبرى، وبصفته عضوًا في اللجنة الوطنيّة للحزب الشيوعيّ، في الولايات المتّحدة.

ذات يومٍ من عام **١٩٣٦** التقى الأُسقفَ الشهير «فولتون شين»، في أَحد بارات نيويورك. وقد حاول كلٌّ منهما إِقناع الآخر بوجهة نظره، وكلٌّ منهما موقنٌ أَنّ اليد الممدودة هي خير وسيلةٍ للنصر. وبغتةً وضع الأُسقف حدًّا لعبارات المناضل الشيوعيّ الطنّانة، قائلاً: «والآن، فلنتحدّث قليلاً عن السيّدة العذراء».

تلك الساعة المريميّة أَعادت للمناضل الشيوعيّ السلام الداخليّ الذي هيمن على نفسه، في لحظة مناولته الأولى. غير أَنّ عودة الابن الضالّ الكاملة قد استغرقت تسع سنواتٍ، لم تكفّ، في أَثنائها، سيّدة الورديّة عن إِزعاجه. وقد اعترف، لاحقًا، أَنّه غالبًا ما كان، وهو يشرع في وضع الخطوط الرئيسة لمقالته الصحفيّة، يفاجئ ذاته، وقد دسّ يده، على غير وعيٍ، في جيب سترته، وراح ينقّل أَنامله فوق حبّات المسبحة، مردّدًا «السلام عليك يا مريم».

في الواقع، كان حواره مع الأُسقف قد أَعاد اتّصالاً مقطوعًا، وتواصل خواطر

سرّيًّا، بين نيويورك وإِنديانا حيث دأبت أُسرة الصحافيّ، كلّ مساءٍ، وعلى مدى تلك السنوات الثلاثين، على الركوع أَمام صورة «رجل الآلام» مردّدةً، أَكثر من خمسين مرَّةً: «صلّي من أَجلنا، نحن الخطأة البائسين».

وبعد أَن اكتمل ارتداد الصحافيّ، وضع كتابًا بعنوان: «هذه هي قصّتي»، حيث أَظهر، بجلاءٍ، أَنّ هدايته تحقّقت في أَعقاب مسيرةٍ دامت خمسًا وثلاثين سنةً، تحت نجمة مريم الرقيقة. وقد أَهدى كتابه إِلى سيّدة الحبل بلا دنس.

مسبحة أُمٍّ

طالبٌ كان، سابقًا، دائبًا على الصلاة، وفقد شيئًا فشيئًا، تقوى طفولته، عثر، يومًا، على مسبحةٍ مرميّةٍ على حافّة طريقٍ. للوهلة الأولى خطر له أَن يتجاهلها ويواصل سيره. غير أَنّ حبّه للسيّدة العذراء استيقظ، فالتقط المسبحة، ونظّفها، وهو يقول في نفسه: «إِن لم أَستطع إِعادتها إِلى من فقدها، فسأُعطيها للسيّدة العذراء، إِذ إِنّ جميع المسابح مصنوعةٌ لتكريمها. سأُودعها على هيكلها، في أَوّل كنيسةٍ سأُصادفها».

دخل إِلى أَوّل كنيسةٍ صادفها في طريقه، وتوجّه مباشرةً إِلى هيكل السيّدة العذراء التي كانت تنتظر ابنها العائد، وهي أَلهمته ما يلي: «اتلُ مسبحتك، قبل أَن تودعها فوق الهيكل». تأثّر الشابّ، فركع، وكما كان يفعل سالفًا، تلا المسبحة بكلّ خشوعٍ وانتباهٍ، وإِذ بفيضٍ من الأَفكار يجتاح ذهنه. وسمع هاتفًا داخليًّا يقول له بوضوحٍ: «أَصبح كاهنًا، يا بنيّ. صحيحٌ أَنّك لم تصغِ إِلى دعوة ابني، غير أَنّ الكَهنوت هو دعوتك الوحيدة. فعُدْ إِلى حبّك القديم، واتبع دعوتك».

هذه الكلمات كانت بمثابة سهمٍ من نورٍ نفذ إِلى أَعماق نفس الشابّ. فاستغرق في مزيدٍ من التفكير والصلاة، وهتف: «أَجل، يا أُمّاه، إِنّي موافقٌ، وعائدٌ إِليك. وبعونك سأَكون كاهن يسوع المسيح».

والتزم بوعده، وأَصبح كاهنًا ممتازًا. وكان، فضلاً عن سائر صلواته، كَلِفًا بتلاوة المسبحة التي عثر عليها مرميّةً في الطريق، والتي كان مدينًا لها بدعوته الكهنوتيّة.

بعد بضع سنواتٍ، دعت المشيئة الإلهيّة ذلك الكاهن الشابّ إلى العمل بصفة مرشدٍ روحيٍّ في مشفًى. وذات يومٍ، جيء إلى ذلك المستشفى بمريضٍ بائسٍ كان يصيح، وهو داخلٌ: «لا يحدّثْني أحدٌ في أُمور الدين. فأَنا لا أُومن بشيءٍ!». ومع ذلك عاده رجل الدين بكثيرٍ من العطف، فقابله بفظاظةٍ وازدراءٍ. ولكنّ الكاهن قال له:

– إذن، يا صديقي، سأتلو مسبحةً من أَجلك!

– إيّاك أَن تذكر المسبحة!

– ولكنّ هذه الصلاة لا يمكن أَن تؤتيك إلاّ خيرًا.

– بل على نقيض ما تقول، المسبحة، أَيّها الأَب، هي مصدر كلّ تعاستي.

– وكيف ذلك، يا صديقي؟ ما الذي تعنيه بقولك هذا؟

– سأَشرح لك، بما أَنّك راغبٌ في معرفة ذلك. في صباي كانت والدتي تشركني معها في تلاوة المسبحة، كلّ يومٍ. ولمّا كبرت، كان عليّ المثول إلى المدينة من أَجل تعلّم مهنةٍ. وهناك جرّني رفاق السوء إلى سبُل الشرّ، خلافًا لوصايا الله. وقد كنت على هذه الحال، عندما استُدعيت إلى البيت حيث كانت والدتي تحتضر. ولكي لا أُكدّرها أَخفيت عنها حقيقة ما وصلت إليه، ووعدتها بتلاوة ولو جزءٍ من المسبحة، كلّ يومٍ، بقدر استطاعتي. وحينئذٍ أَعطتني مسبحتها. وفي أَعقاب دفنها، عدت إلى العمل في المصنع. ولكن، وأَنا في طريق العودة، وسوس لي إبليس: «تخلّص من هذه المسبحة، وأَلقِ بها أَرضًا». وقد أَلقيتها، باحتقارٍ، في الطريق. ومنذئذٍ لم تبارحني التعاسة، حتّى بتّ أَظنّ نفسي ملعونًا.

أَخذ بالكاهن تأَثّرٌ بالغٌ، وسأل المريض: «في أَيّة سنةٍ، وفي أَيّ شهرٍ حدث لك ذلك؟». وما إن سمع جوابه الدقيق حتّى استلّ المسبحة من جيبه، قائلاً: «يا صديقي، هل تتعرّف هذه المسبحة؟» وصرخ المريض: «إنّها هي، مسبحة أُمّي!». وردّ الكاهن:

– «اعلم، إِذن، يا صديقي، أَنّ هذه المسبحة التي ترى فيها مصدر بؤسك، كانت سبب سعادتي، وأَنّي مدينٌ لها بكوني كاهنًا. وها هي الآن ستصبح سبب سعادتك، أَيضًا.

– أَجل، أَبتِ، إِنّي أُريد أَن أَعترف.

– غدًا سآتيك بالأَسرار الأَخيرة. في هذه الأَثناء، أَترك معك هذه المسبحة، كي تصلح خطأك. وسأستعيدها لاحقًا.

بعد أَيّامٍ معدوداتٍ، مات المريض، وهو يقبّل مسبحة أُمّه، سعيدًا، نظيف النفس. واستعاد الكاهن مسبحته، ذكرى لم تبارحه من بعد، قطّ.

مسبحة القدّيس غرينيون دي مونفور

كان المرسل القدّيس غرينيون دي مونفور، عائدًا من مهمّةٍ رسوليّةٍ، على متن مركبٍ يمخر نهر السين، وقد تراصّ عليه أَكثر من مئتي راكبٍ سوقيّين، معظمهم من سماسرة المواشي، وبائعات الأَسماك، يتبادلون النكات البذيئة، وينشدون الأَغاني الماجنة. فأَثبت الأَب صليبه على طرف عصاه، ورفعه عاليًا، ثمّ سجد وصاح: «على من يحبّون يسوع المسيح أَن ينضمّوا إِليّ في عبادته».

وردّ عليه الحضور بهزّ الأَكتاف تعبيرًا عن لامبالاتهم، وبالضحكات الهازئة. وحينئذٍ التفت الأَب إِلى رفيقه الأَخ نيقولا قائلاً: «فلنركع ونتلُ المسبحة الورديّة». وراح الرجلان يردّدان «السلام عليك يا مريم»، مكشوفَي الرأس، خاشعَي المحيّا، هادئَين، تحت وابلٍ من السخريّة.

فرغ القدّيس من تلاوة المسبحة الأولى، ونهض، وبنبرة رقيقةٍ، دعا الحضور إِلى مشاركته التضرّع إِلى مريم. لم يستجب له أَحدٌ، ولكنّ صيحات التهكّم صمتت عندما بدأت الصلاة. وبقدر ما كانت تضرّعات «يا قدّيسة مريم، يا أُمّ الله، صلّي من أَجلنا، نحن الخطأة» تتكرّر، كان وجه القدّيس يشعّ نورًا.

ولمّا انتهى من تلاوة الأَبيات الخمسة الجديدة، كان في نظره من التوسّل، وفي صوته من العذوبة والسطوة، ما جعل الحضور، عندما دعاهم إِلى تلاوة مسبحةٍ ثالثةٍ معًا، يهبطون، جميعهم، راكعين، ويشتركون في ترديد الكلمات العذبة، التي تلقّنوها في طفولتهم، وكادوا ينسَونها.

وحقّ للقدّيس أَن يبتهج، فقد حوّل مسرح بذاءةٍ إِلى معبدٍ، وأَعاد إِلى شفاهٍ اعتادت التجديف، اسم مريم.

القدّيس سمعان القبطيّ الذي نقل جبل المقطّم

في أَواخر القرن العاشر، وفي عهد أَوّل حاكمٍ فاطميٍّ، المعزّ لدين الله، والبطريرك، السوريّ الأَصل، القدّيس أَبرام بن زرعا، الذي تبوّأ كرسيّ الكرازة المرقسيّة عام ٩٧٥، ورقد في الربّ عام ٩٧٩، كان يعيش في ضواحي القاهرة رجلٌ بسيطٌ، دبّاغٌ وإِسكافيٌّ، يدعى سمعان الإِسكافيّ. اشتهر، مع تواضعه وبساطته، بإِيمانٍ راسخٍ قادرٍ على نقل الجبال، وبطهر قلبه، وتقشّفه، وعيشه الشبيه بعيش النسّاك. كان يرتدي ثيابًا رثّةً، وينفق معظم وقته في الصلاة، وقد اعترف للبطريرك أَبرام أنّه كان يقتصر على الزهيد من الطعام الكفيل بإِبقائه على قيد الحياة. عند الغروب كان يتوقّف عن العمل، ويتناول الزهيد القشف من الطعام، وينصرف إِلى الصلاة، مُنفقًا عليها معظم آناء ليله. ثمّ يستفيق باكرًا، فيأتي بماء الشرب للمسنّين وللمرضى العاجزين عن التزوّد بالماء بأَنفسهم، ويوزّع الخبز والطعام على النسّاك الحبيسين في أَديرتهم، وعلى الرهبان والراهبات، قبل أَن يمضي إِلى عمله.

إِيمانه كان، عملاً بنصائح الإِنجيل، حرفيًّا، وقد أَثبت ذلك فعلاً، عندما وافت امرأةٌ إِلى محترفه، ذات يومٍ، كي تصلح أَحذيتها، وفيما كانت تخلعها كي تمكنّه من إِصلاحها، كشفت عن جزءٍ من ساقها، فنظر إِليها نظرةً تشوبها الشهوة، وما إِن لحظ ذلك، حتّى غرس المخرز في عينه واقتلعها، وظلّ بقيّة عمره، أَعور، عملاً بقول الربّ: «إِنّ من نظر إِلى امرأةٍ في شهوةٍ، فقد زنى بها في قلبه. فإِن عثّرتك عينك فاقلعها وأَلقها عنك بعيدًا».

هذا الرجل البسيط، الورع، هو الذي اختاره الله كي يحقّق بواسطته معجزةً

كبرى، معجزة نقل جبل المقطّم من مكانه، وبذلك أَنقذ الكنيسة القبطيّة، ورفع الصليب عاليًا.

ذلك أَنّ المعزّ لدين الله كان كلِفًا بالسجالات الأَدبيّة، وبالجدالات الدينيّة. وقد أَلف أَن يدعو إِلى مجلسه الرؤساء الدينيّين المختلفين من مسلمين، ومسيحيّين، ويهود، كي يتجادلوا في حضوره. وذات يومٍ دعا إِلى جدالٍ بين ممثّلي المسيحيّين وممثّلي اليهود، وكان أَحد أَفراد البلاط قد اقترح على الخليفة المعزّ اختبار إِيمان المسيحيّين بقول المسيح: «الحقّ أَقول لكم إِنّه لو كان لكم إِيمانٌ بقدر حبّة خردلٍ لقلتم لهذا الجبل: انتقل من هنا إِلى هناك لانتقل، ولما استحال عليكم شيءٌ».

واستدعى الخليفة الأَمبا أَبرام السوريّ، وطلب منه إِثبات صحّة قول المسيح هذا، وبالتالي صحّة الدين المسيحيّ، بجعل جبل المقطّم ينتقل نحو الشرق، بحيث يتيح توسيع مدينة القاهرة الجديدة. فإِن رفض تحقيق هذا الأَمر، أَو عجز عنه، ترتّب على جماعة المسيحيّين الخيار بين اعتناق الإِسلام أَو الرحيل عن مصر.

ذُعر البطريرك وارتبك، فاستمهل ثلاثة أَيّامٍ، ريثما يدلي بجوابه. وتضرّع إِلى الله أَن يلهمه ما يتوجّب عليه عمله، ودعا جماعة الأَقباط والكنيسة المصريّة جمعاء إِلى مشاركته الصيام، ثلاثة أَيّامٍ، منذ الفجر حتّى الغروب، والصلاة الحارّة لاجتياز تلك المحنة.

وفي فجر اليوم الثالث ظهرت السيّدة العذراء، في الحلم، للأَنبا أَبرام، وقالت له: «لا تخفْ، أَيّها الراعي الأَمين. فالدموع التي ذرفتها في هذه الكنيسة، والأَصوام والصلوات التي قدّمتها أَنت وشعبك، لن تكون عديمة الجدوى. انهض، وامضِ إِلى باب الحديد المؤدّي إِلى ساحة السوق. هناك ستجد رجلاً أَعور، حاملاً جرّة ماء. فبواسطته ستتحقّق المعجزة».

وجد البطريرك الرجل حيث دلّته العذراء مريم، وبلّغه أَقوالها، فأَجاب القدّيس

سمعان: «سامحني، يا أَبتِ، فلست سوى رجلٍ خاطئٍ». ولكنّ الأَنبا أَبرام أَلحّ: «إِنّها أَوامر أُمّ النور». حينئذٍ استسلم القدّيس سمعان، وأَجاب بتواضعٍ: «إِن كانت أُمّ النور هي التي أَرتأَت تكليفي بهذه المهمّة، فأَنا أَضع ذاتي، كلّيّةً، بتصرّفك».

وبما أَن البطريرك لم يكن يعرف سمعان الإِسكافيّ، استوضحه عن اسمه وهويّته، وعمله، وسلوكه، وعن سبب وجوده في ساحة السوق، في ذلك الوقت المبكّر، فيما الناس نيامٌ. وأَماط القدّيس سمعان للبطريرك اللثام عن سلوكه، ونمط عيشه، طالبًا منه، بإِصرارٍ، أَلاّ يطلع أَحدًا على سرّه، قبل مغادرته هذه الدنيا.

ثمّ بيّن للبطريرك الظروف والشروط التي ستتحقّق بها المعجزة، قائلاً: «ستصعدون إِلى التلّة مع الأَساقفة والكهنة والشمامسة، حاملين، عاليًا، الكتب المقدّسة، والصلبان، والمشاعل، والمباخر المشعلة. وستطلبون من الخليفة أَن يصعد، هو أَيضًا، مع موكبه، ويقفوا إِزاءكم على الجانب الآخر من القمّة. أَمّا أَنا فسأَكون مع الشعب، خلفكم، بحيث لن يلحظني أَحد. حينئذٍ احتفلوا بالذبيحة الإِلهيّة، وبعد المناولة الإِفخارستيّة، ردّدوا مع الشعب كلّه، بروحٍ متواضعٍ، وقلبٍ منكسرٍ، مئة مرّةٍ وأَنتم متّجهون صوب الشرق، ومئة مرّةٍ وأَنتم متّجهون صوب الغرب، ومئة مرّةٍ وأَنتم متّجهون صوب الشمال، ومئة مرّةٍ، وأَنتم متّجهون صوب الجنوب: «كيريي إِليئسون»، ارحمنا يا ربّ.

بعدئذٍ اعبدوا اللّه، أَنت وإِكليروسك، بصمتٍ، راكعين، مادّين الأَيدي نحو العليّ ثمّ انهضوا وارسموا إِشارة الصليب على الجبل. افعلوا ذلك ثلاث مرّاتٍ، فتروا مجد اللّه».

ومضى البطريرك فأَبلغ الخليفة استعداده لتلبية طلبه، بنعمة اللّه. وصعد الخليفة على صهوة فرسه إِلى قمّة التلّة يصحبه بلاطه، وأَعيانه، وجنده. وإِزاءه وقف البطريرك أَبرام مع إِكليروسه، والعديد من المؤمنين، وبينهم سمعان الإِسكافيّ. وسارت الأُمور وفقًا لما حدّده هذا القدّيس. ولدى أَوّل إِشارة صليب رسمها

البطريرك حدثت هزّةٌ أَرضيّةٌ عنيفةٌ، فارتفعت التلّة، ثمّ هبطت. وتكرّر هذا الحدث عقب كلّ إِشارة صليب، مؤكّدًا قدرة الإِيمان التي عبّر عنها القدّيس بولس بقوله: «إِنّي أَستطيع كلّ شيءٍ في الذي يقوّيني».

وأَخذ الذعر بالخليفة وبمن حوله، فهتف: «اللّٰه أَكبر! فليبارك اسمه». ثمّ توسّل الأَنبا أَبرام أَن يتوقّف عمّا كان يفعله خشيةً من أَن يسحق الجبلُ المدينةَ. ولمّا توقّف كلّ شيءٍ، أَعرب له عن احترامه، وأَكّد له حقّ البقاء في مصر، وسمح له ببناء وترميم العديد من الكنائس، منها كنيسة القدّيس ماركوريُس أَبو سيفين في القاهرة القديمة.

والتفت البطريرك باحثًا عن القدّيس سمعان، فلم يقف له على أَثرٍ، ومنذئذٍ لم يسمع به أَحدٌ حتّى هذه السنوات الأَخيرة.

إِثر هذا الحدث قرّر البطريرك أَبرام السوريّ أَن يكرّس صوم ثلاثة أَيّام، تضاف إِلى الصوم الأَربعينيّ الذي يسبق عيد الميلاد.

هناك إِيقونةٌ تزيّن الجدار الشماليّ من فناء كنيسة العذراء مريم، المعروفة بالكنيسة المعلّقة، في القاهرة القديمة، يعود تاريخها إِلى القرن الخامس عشر، وهي تمثّل الأَنبا أَبرام، والقدّيس سمعان، مع السيّدة العذراء. ويُعتقد أَنّ هذه الأَيقونة هي نسخةٌ عن إِيقونةٍ أَقدم، فُقِدت.

واحتفظت التلّة باسم «جبل المقطّم» أَي المقطّع، إِذ إِنّ ثلاثة فوالق تخترقه. وقد أَصبح عام **١٩٦٩** مكبًّا لنفايات القاهرة فغزاه الفقراء الذين استقرّوا فيه، ينتزعون من أَكوام النفايات ما يمكنهم بيعه أَو الاستفادة منه، وقد التحقت بهم الراهبة الفرنسيّة البلجيكيّة «الأُخت إِيمّانويل» فأَدخلت إِليهم الروح، والمرافق الصحيّة، وعملت جاهدةً على تحسين ظروف معيشتهم.

وفي السبعينات من القرن الماضي حُفرت أَساسات كنيسة القدّيس سمعان الكبرى، لكي ترعى تقوى الأَقباط الفقراء الذين بقوا أَوفياء لإِيمان آبائهم.

كنيسة «سيّدة النعمة الفائقة» في جمهوريّة الدومينيكان

كان رجلٌ إسبانيٌّ يقطن في جمهوريّة الدومينيكان، قد اعتاد المثول إلى مدينة «أوزاما» للتسوّق. وقد كلّفته، يومًا، ابنته الكبرى «نينا» البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، أن يأتيها من المدينة بصورةٍ للعذراء، سيّدة النعمة الفائقة، إذ إنّ العذراء تلقّت فيضًا من النعم، وامتلأت نعمةً، وكانت أكبر نعمها أنّها اختيرت لتكون أُمّ الله.

فشل الوالد في العثور على الصورة المطلوبة، وتوقّف في طريق عودته، في فندقٍ حيث التقى صديقًا قديمًا، وأخذ يشكو له همّه، وإذا بشخصٍ آخر لم يكونا يعرفانه يدنو منهما، ويخرج من حقيبته لوحةً لسيّدة النعمة الفائقة، تمثّل العذراء مستغرقةً في الصلاة أمام يسوع الطفل، وخلفها القدّيس يوسف. أبدى الرجل رغبةً في شرائها، ولكنّ الغريب أصرّ على إهدائها له، وفي صباح الغد ضاع أثر ذلك الغريب السرّيّ.

والتقى الأب ابنته «نينا» في الطريق، وقد جاءت مدفوعةً برغبة الظفر بالهديّة الثمينة. وكان ذلك في ٢١ كانون الثاني.

في مكان لقاء الأب وابنته شيّدت كنيسة سيّدة النعمة الفائقة، وهي أكبر كنيسةٍ مريميّةٍ، في جمهوريّة الدومينيكان. وقد حُدّد موعد عيد تلك الكنيسة في ٢١ كانون الثاني من كلّ عام.

كنيسة «سيّدة النذر» في شيربورغ

عام١١٤٠، فيما كانت ماتيلد، ملكة إنكلترا، تساعد ابنها هنري الثاني، في إحدى حروبه، اضطرّت إلى اجتياز نهر المانش، وسط أنواءٍ عاصفةٍ منذرةٍ، وقد انقضّت عاصفةٌ هوجاء، بعنفٍ، على الباخرة التي كانت تستقلّها، حتّى بدا كلّ أملٍ في النجاة مفقودًا.

وفيما كان مرافقوها يتضرّعون، بحرارةٍ، إلى الله وإلى القدّيسين، كانت الملكة ماتيلد واقفةً على سطح الباخرة، شاحبة المحيّا، ولكن ثابتة القدمين. وفجأةً صاحت، مخاطبةً البحّارة: «تشجّعوا، فسيّدتنا العذراء طيّبةٌ وقديرةٌ، ومن المؤكّد أنّها ستغيثنا. فليتولَّ أحدكم المراقبة، وحالما سيلمح اليابسة، فليعلمني كي أُنشد لها نشيدًا. وإنّي أنذُر أن أبني لها كنيسةً في المكان من الشاطئ الذي سنرسو فيه».

وما كادت الملكة تعلن عن هذا النذر، حتّى هتف الراصد، بعد أن لمح شاطئًا مبهمًا: «أنشدي، أيّتها الملكة، أنشدي، فها هي اليابسة!». وانطلقت الملكة ترتّل، بصوتٍ عذبٍ وجليلٍ، نشيدًا للسيّدة العذراء، وقد ضمّت يديها، وحنت رأسها المكشوف.

وما لبثت السفينة أن بلغت، بسلامٍ، خليجًا آمنًا، بهدايةٍ من العذراء «نجمة البحار». وكان أوّل ما اهتمّت به الملكة هو تحديد مكان الكنيسة التي نذرت بناءها، قريبًا من مرفأ شيربورغ. غير أنّ تنفيذ هذا المشروع اقتضى سنواتٍ، بل قرونًا. وأخيرًا نهضت كنيسة «سيّدة النذر»، بحلّتها الرائعة، عام ١٨٥٠.

ظهورات في سجنٍ روسيٍّ

«جوزيپ تيريليا»، المولود عام ١٩٤٣ في أوكرانيا، ربّته جدّته لأُمّه، وكانت كاثوليكيّةً حارّة التقوى، فأَصبح مناضلاً في العمل الكاثوليكيّ، وعابدًا للافخارستيّا بحرارة. وقد عقد خطوبته على فتاةٍ وهو في التاسعة عشرة من عمره، ولكنّه سُجن مدى ١٥ سنة بين (١٩٦٢–١٩٧٦).

وطوال هذه الفترة ما انفكّت خطيبته تنتظره، ولمّا أُفرج عنه تزوّجا. وحينئذٍ استطاع البوح بظهورين حدثا له في أَثناء سجنه. فقد ظهرت له العذراء، أَوّلاً، بتارخ ١٢ شباط ١٩٧٠، في سجن ڤلاديمير، الواقع على مسافة ١٦٥ كيلومترًا شماليّ موسكو، ودعته إِلى الصفح بلا شرطٍ، ولا سيّما عن أَعدائه الروس.

وأَفضت إِليه بالنبوءة التالية: «ما زالت أَمامكم سنواتٌ من المِحَن والمهانات. فروسيّا ما زالت في الظلام والضلال، إِلى أَن يتوب الشعب الروسيّ وينفّذ عمل ابني. في هذه الأَثناء لن يحلّ السلام، فالسلام لا يتحقّق إِلاّ باستتباب العدل. صلّوا من أَجل أَعدائكم، وانسوا مساوئهم، وسيُشرع أَمامكم دربٌ من نورٍ».

بعد سنتين (أَي في ١٢ شباط ١٩٧٢)، حدث له ظهورٌ آخر رواه كما يلي:

«كنت محتجزًا في غرفةٍ يسود فيها بردٌ قاتلٌ. وكنت أَتألّم حتّى جذور شعري. وكان يُضيء غرفتي مصباحٌ معلّقٌ على الجدار، فخلعت قفّازيّ كي أُدفئ يديّ. وشاهدني الحارس من نافذة تعلو باب الغرفة فأطفأ المصباح...وبتّ عاجزًا عن تحريك أَيّ عضوٍ من أَعضائي. فاستلقيت على السرير، منتظرًا الموت. وفي هذه اللحظة شعرت بلمسةٍ دافئةٍ من يد امرأةٍ، لمسةٍ عذبةٍ كالحليب. اجتاح الدفء جسمي، وشعرت به يملأ الغرفة. وخُيّل إِليّ أَنّني ضحيّة هلوسةٍ تسبق الموت.

غير أَنّني، في تلك اللحظة، سمعتُ صوتًا يقول: «لقد دعوتَني، فجئتك. أَلا تعتقد أَنّني أنا هي؟». وحينئذٍ شاهدتُ، أَمامي، امرأةً قالت لي: «لن تُحرَّر، الآن، من هذا السجن، فلم تجتزْ، بعدُ، سوى نصف شوطك. ولكن لا تخف. أَنا معك».

سيّدة الرأفة في أوليتّا (كورسيكا)

في عهد حروب الاستقلال في كورسيكا، كان يقطن في قريةٍ تابعةٍ لمنطقة «أوليتّا»، رجلٌ يُدعى «ميشيل بارتولو»، وكان يملك في بيته لوحةً للعذراء من القرن الخامس عشر، تلقّاها هديّةً من كاهن المنطقة.

كان ميشيل وطنيًّا متحمّسًا، وقد غدا منزله ملجأً للمقاومة ضدّ جيوش جنوى. وكانت زوجته المتميّزة بتقواها، عاكفةً، يوم الجمعة العظيمة من عام ١٧٣٤، على إعداد عجينةٍ لصنع حلويات عيد الفصح، وجريًا على عادتها، كانت تصلّي وهي تعجن.

وبغتةً، فيما كانت منهمكةً في عملها، سمعت اسمها يتلفّظ به صوتٌ قويٌّ، وكأنّه نداءٌ ملحٌّ. فالتفتت إلى كلّ صوبٍ، ولم ترَ أَحدًا، فاستأنفت عملها، غير مدركةٍ ما كان يحدث. وإذا بالصوت عينه ينادي ثانيةً: «ماريّا» ويضيف: «إنّ ابنك يحترق». فوثبت ماريّا نحو مهد الطفل الموضوع تحت إيقونة العذراء. وكانت قد انزلقت من الموقد المصنوع من الحجر، والقائم وسط الغرفة، حطبةٌ مشتعلةٌ، وأَخذت النار تسري في مهد الطفل. وتناولت الأُمّ ابنها، وضمّته إلى صدرها، وأطبقت عليه بذراعيها، وبعد أَن أطفأت الحريق الآخذ بالانتشار، وفي ذروة التأثّر، هبطت راكعةً أَمام صورة السيّدة العذراء.

كانت موقنةً أَنّ العذراء هي التي أَنقذت ابنها، ولم يكن يخالط يقينَها أَيُّ شكٍّ. ولكن، فيما كانت ممعنةً في تأمّل صورة العذراء، بحبٍّ جمٍّ، دُهشت لرؤية الدموع تغطّي وجه العذراء. ولكي تتأكّد من الأمر، وضعت إصبعها على اللوحة، فتركت فيها بصمةً ما زالت حتّى الآن ظاهرةً.

وسرعان ما ذاع نبأ الأُعجوبة في المنطقة كلّها.

وقد أَجرى الأُسقف تحقيقًا دقيقًا، أَمر، في أَعقابه بنقل اللوحة إِلى كنيسة القدّيس أَندراوس التي أَمست، اليوم، أَطلالاً. وكانت اللوحة قد نُقلت إِلى كنيسةٍ أُخرى، في ١٤ نيسان ١٨٢٠، حيث ما برحت تُكرَّم سيّدة الرأفة.

لستُ، بعدُ، مستعدًّا للموت

كان أُسقفٌ إسكتلنديٌّ يجوب جبال رعيّته، سيرًا على الأَقدام، وباغته الليل في غابةٍ كان تائهًا فيها. إِثر بحثٍ طويلٍ اهتدى، أَخيرًا، إِلى كوخٍ تسكنه أُسرةٌ فقيرةٌ. وقد استقبله أولئك القوم الطيّبون، وهم لا يعرفون هويّة ذاك الذي استضافوه تحت سقفهم، فقد كان الغريب، في زيٍّ مدنيٍّ، ومتدثّرًا معطفًا واسعًا.

وكان الأُسقف، من جانبه، يجهل هويّة مضيفيه، متسائلاً هل هم كاثوليكيّون أَم بروتستانتيّون. ولم يتبيّن أَيّ دليلٍ يمكّنه من استجلاء الأَمر. غير أَنّه، عقب لحظات تحفّظٍ متبادلٍ، اتّضح للأُسقف أَنّ حزنًا عميقًا كان يُثقل قلوبَ أولئك القوم الطيّبين. فتجرّأ وقال: «...إِنّكم في غاية الطيب معي، ولكنّكم تبدون حزانى». فأَجابته الأُمّ، ولكأنّها كانت تنتظر هذا السؤال كي تفيض بما يؤرّقها:

– «أَجل، وا أَسفاه! نحن حزانى! فهنا، في الغرفة المجاورة، والدنا على شفا الموت. وما يضاعف حزننا هو ادّعاؤه بأَنّه لا زال أَمامه متّسعٌ من الحياة، ويرفض رفضًا قاطعًا أَن يتأهّب للموت».

تأثّر الأُسقف، ودهش، فسأل: «هل بوسعي أَن أُقابله؟». وأَجابت المرأة بثقةٍ تميّز النفوس المفجوعة:

– «بطيب خاطرٍ».

وفي الحال أَدخلت الضيف غرفة المريض الصغيرة.

ووجد الأُسقف أَنّ العجوز كان قد انتهى، فعلاً، إِلى غاية شوطه، ولم يعد

للموت سوى خطوةٍ واحدةٍ كي ينال منه. وما كاد الأُسقف يلمّح إِلى هذا الأَمر، حتّى بدا المريض وكأَنّه استعاد كلّ عافيته، وأَجاب بحزمٍ:

– «لا، لم يحن، بعدُ، أَوان موتي».

وظلّ ذاك جوابه الذي لا يتراجع عنه، ردًّا على كلّ محاولات إِقناعه.

وأَخيرًا سأله الأُسقف: «هل لك أَن تبيّن لي سبب توقّعك الشفاء؟». وأَجاب العجوز المحتضر، بتأثّرٍ بالغٍ:

– «هل أَنت كاثوليكيّ، يا سيّدي؟».

– «أَجل أَنا كاثوليكيّ».

– «إِذن، سأوضح لك لماذا لم يحنْ، بعدُ، أَوان موتي. فأَنا أَيضًا كاثوليكيّ. ومنذ مناولتي الأولى حتّى اليوم، ما انفككت أَسأل العذراء القدّيسة، كلّ يومٍ، نعمة أَلاّ أَموت إِلاّ بحضور كاهنٍ عند سرير موتي. فهل تظنّ أَنّ بوسع أُمّنا السماويّة أَلاّ تستجيب لطلبي؟ هذا مستحيلٌ. ولذلك لم يحنْ، بعدُ، أَوان موتي».

تأثّر الأُسقف حتّى أَعماق قلبه، وقال له:

– «يا ابني، لقد استجابت الأُمّ السماويّة لطلبك. فالذي يكلّمك هو أَكثر من كاهنٍ، إِنّه أُسقفك. وقد جاءتك به السيّدة العذراء نفسها عبر الغابات، لكي يتلقّى نفَسك الأَخير».

وأَفرج معطفه، فالتمع الصليب الرعويّ في عيني الشيخ الذي أَخذ به الفرح كلّ مأخذٍ لرؤيته، وهتف: «يا مريم، يا أُمّي العطوف. أَشكرك». ثمّ التفت صوب الأُسقف وقال: «اسمع اعترافي. فالآن أومن أَنّني سأموت». ولم يلبث أَن مات وهو يفيض فرحًا وثقةً، بعد أَن تطهّر للمرّة الأَخيرة.

اهتداء روبير حسين

يُلاحَظ أَنّ الممثّل والمخرج روبير حسين يُكثر من إِنتاج الأَعمال الفنّيّة ذات الطابع الدينيّ، بعد أَن اكتشف الإِيمان المسيحيّ فجأَةً، في «سان داميانو»، وهي قريةٌ صغيرةٌ في مقاطعة لومبارديا الإِيطاليّة، حيث يُذكر أَنّ السيّدة العذراء ظهرت للمرَّة الأولى، في ١٦ تشرين الأَوَّل ١٩٦٤.

وكانت «الرائية» قرويّةً في الرابعة والخمسين من العمر، يُطلق عليها لقب «ماما روزا»، وقد تُوفّيت عام ١٩٨٤. وكانت قد صرّحت أَنّ العذراء طلبت منها تحويل حديقتها إِلى مكان صلاةٍ، ودعوةَ أَكبر عددٍ من الناس للصلاة فيها. وفي كلّ شهرٍ كان يقدم من فرنسا إِلى ذلك المكان قطاراتٌ كاملةٌ، وحافلاتٌ ملأى بالحجّاج، فيقضون ثلاثة أَيّامٍ في التأمّل والصلاة.

لم ينضمّ روبير حسين إِلى إِحدى تلك الرحلات المنظّمة. ولكنّه في أَثناء رحلةٍ عابرةٍ إِلى منطقة «بليزانس» الإِيطاليّة، زار سان داميانو.

ومنذ ذلك الحين يحتفظ، في جيبه، بصورةٍ فوتوغرافيّةٍ التقطها عام ١٩٧١ أَحد الهواة، تُظهر تشوّهًا في الشمس، يبدو وكأَنّه يعلو ما يدعوه مؤمنو سان داميانو، بلا تردّدٍ، ظهورًا للعذراء. وقد فحص خبراء شركة «ليز» في فرنسا، تلك الصورة، وأَكّدوا خلوّها من كلّ ضروب التركيب الخدّاع.

ومنذئذٍ عُمّد روبير حسين، وهو يؤكّد أَنّه يحيا إِيمانه بكثافةٍ.

احترموا أُمّي

على الدرب المصعّد من مدينة «هونفلير» (Honfleur) صوب معبد سيّدة النعمة، كان شابٌّ في السابعة عشرة من العمر، تنمّ ملامحه عن كرم المحتد، وينطق هندامه بالأناقة، يمسك بيده مسبحةً، يرتقي السفح ببطءٍ، زاحفًا على ركبتيه، مصلّيًا، وباكيًا.

عندما وصل إلى مزار مريم، بعد أَن اجتاز نحو كيلومترٍ، بعناءٍ شديدٍ، بدت من خلال بنطاله الممزّق ركبتاه النازفتان. كان يتقدّم، هكذا، نحو قدم التمثال، حيث تلبّث طويلاً، ساجدًا، خاشعًا.

استوضحه كاهنٌ عن سبب مثل هذا الحجّ غير المألوف، فأجاب: «لا بدّ أنّكم سمعتم بالحادث المأسويّ الذي جرى، في البحر، أمس الأوّل، حيث هلك شابّان من ثلاثةٍ غرقوا. الناجي الوحيد هو أنا. كان رفيقاي قد نجحا مثلي، في امتحان البكالوريا. وكنّا نحتفل، معًا، بنجاحنا السعيد. ولكي ننهي نهارنا قرّرنا القيام برحلةٍ بحريّةٍ. كان البحر هائجًا، صاخبًا، وقد أَنذرنا القبطان، ولكنّنا لم نأخذ بتحذيراته.

على أَرجحة الأَمواج كنّا نغنّي، ونمزح. وقد أَطلق أَحد رفيقيّ كلماتٍ ماجنةً، وما عتّمت أَن امتزجت بالمزاح أَقوالٌ ساخرةٌ عن السيّدة العذراء. فاعترضتُ: «لا بأس أَن نضحك ونمزح، ولكن فلنحترم أُمّنا!». وما كدت أُنهي قولي حتّى أَطاحت موجةٌ قويّةٌ بمركبنا الصغير. ولم يكن أَحدٌ منّا يجيد السباحة. رفيقاي هلكا، ونجوتُ أَنا وحدي. وإِنّي أَعزو نجاتي إِلى مريم التي كنت أُدافع عنها. وها أَنا آتٍ زحفًا على ركبتيّ كي أَشكرها. فلو كان الموت قد غدر بي لما وجدني مستعدًّا للدينونة».

السلّم الذهبيّة والسلّم الفضّيّة

كانت ملكة السماء قد وعدت: «سأهرع لمساعدة خدّامي الأَتقياء في ساعة موتهم كي أُعينهم على اجتياز سور هذا العالم، وأَقيهم من جراح الأَعداء الذين يحيقون بهم. ولذلك سمّى القدّيس بيرنار مريم «سلّم الخطأة». هذا ما تظهره الحكاية التالية المستقاة من مجموعة «أَزاهير» للقدّيس فرنسيس الأَسّيزي:

فقد رأى الأَخ ليون، وهو أَحد رفاق القدّيس فرنسيس، في الحلم، مسيرة الدينونة، في برّيّةٍ شاسعةٍ، حيث جمع الملائكة، على نفير الأَبواق، حشدًا كثيفًا من الخلق. في أَطراف البرّيّة انتصبت سلّمٌ ذهبيّةٌ صاعدةٌ من الأَرض.

وشاهد الأَخ ليون، عند قمّة السلّم الذهبيّة، يسوع المسيح، في ملامح قاضٍ صارم، وكان يقف، تحت هذا القاضي الغاضب، القدّيس فرنسيس، الذي ما لبث أَن انحدر قليلاً، ونادى إِخوته قائلاً: «تعالوا، يا إِخوتي، بلا خوفٍ، إِلى هذا المخلّص الرقيق. تقدّموا بثقةٍ، فهو يدعوكم. وتقدّم الرهبان، وأَخذوا يرتقون درجات السلّم بثقة. ولكنّ أَحدهم سقط من درجة السلّم الثالثة، وسقط آخرُ عن الدرجة الرابعة، وسقط آخر عن الدرجة الخامسة، وآخر عن الدرجة السادسة، وآخر عن الدرجة العاشرة، بحيث لم يبقَ على السلّم أَحدٌ من الإِخوة المصعّدين عليه. والتفت القدّيس فرنسيس إِلى الربّ وتوسّل إِليه أَلاّ يبعدهم عنه. ولكنّ يسوع أَظهر لخادمه جراحه النازفة وقال: «هذا ما فعله إِخوتك بي!». حينئذٍ هبط القدّيس فرنسيس بضع درجات، وخاطب إِخوته، ثانيةً، قائلاً: «لا تقنطوا، بل ثقوا يا إِخوتي. هاكم، هناك، السلّم البيضاء، فخفّوا نحوها، وبواسطتها ستصعدون إِلى السماء».

وفي الحال، ظهرت، عند قمّة السلّم الفضّيّة، العذراء المجيدة، فائقة العطف، والرقّة والرحمة. وهكذا، بواسطة العذراء النقيّة، بلغ أَبناء القدّيس فرنسيس عتبة الفردوس.

رسالة إلى العذراء

الفتى جان في السادسة من العمر، بنطاله ممزّقٌ عند الركبتين، وشعره أشقر مجعّد، وعيناه الزرقاوان الكبيرتان تحاولان أحيانًا الابتسام، رغم كلّ ما ذرفتا من دموعٍ! سترته القديمة، الأنيقة التفصيل، أصبحت أسمالاً مهترئةً. كان مقرورًا وجائعًا، في ذلك المساء الشتويّ، إذ لم يتناول أيَّ طعامٍ منذ ظهر الأمس.

وخطر له أن يكتب رسالةً... إلى السيّدة العذراء الطيّبة. وإذ لم يكن قد تعلّم، بعدُ، الكتابة والقراءة، قصد حانوت «محرّرٍ»، وكان المحرّر جنديًّا متقاعدًا، فقير الحال، حادّ الطباع. وقد شاهده الفتى، من خلال النافذة يدخّن غليونه، فتجرّأ، ودخل، وقال له: «هل تتكرّم، يا سيّدي، وتكتب لي رسالة؟».

– «إنّها تكلّفك عشرة فلوس».

وأجاب الفتى بأدبٍ، وهو يفتح الباب كي يخرج:

– «إذن، اعذرني».

غير أنّ المحرّر أُخذ بلطفه. فسأله:

– «هل أنت ابن جنديّ؟».

– «كلاّ، بل أنا ابن أُمّي».

– «حسنٌ، وألا تملك عشرة فلوس؟ ولا أُمّك تملكها، كما يتّضح من هندامك، فهي حريصةٌ على الفلوس لكي تعدّ الحساء. تعالَ! إنّ كتابة عشرة أسطرٍ، على نصف ورقةٍ، لن تزيدني فقرًا».

وأَخذ المحرّر ورقةً كان قد دوّن عليها:

«باريس في ١٧ كانون الثاني١٨٥٧

إِلى السيّد...

وسأل الصبيّ: «ما اسم السيّد الذي ستبعث له بالرسالة؟».

– «ليس سيّدًا

– هل هو سيّدة إِذن؟

– نعم ...لا...يعني....

– أَلا تعرف لمن ستكتب؟

– بلى، إِنّي أُريد كتابة رسالة إِلى السيّدة العذراء!

لم يضحك المحرّر، بل قال بقسوةٍ:

– أَفترض أَنّك لا تسخر من جنديٍّ عجوزٍ. هيّا انصرف وابحث في الخارج.

واستدار الفتى، صامتًا، كي يخرج، ولمح المحرّر كاحليه العاريين، فرقّت نفسه لبؤسه، واستدعاه ثانيةً وسأله: «ما اسمك؟».

– اسمي «جان».

– جان ماذا؟

– جان، فقط.

هزّ المحرّر كتفيه، وسأل: «ماذا تريد أَن تقول للسيّدة العذراء؟».

– أُريد أَن أَقول لها إِنّ أُمّي نائمةٌ منذ الساعة الرابعة من مساء أَمس، ولم أَستطع إِيقاظها، فهل لها أَن تتكرّم وتوقظها؟

أَحسّ المحرّر بانقباضٍ في صدره، وخشي أَن يكون ما استنتجه من كلامٍ الفتى صحيحًا. فسأله ثانيةً:

– كنت قبل قليلٍ تتكلّم عن الحساء...

– ذلك أَنّنا بحاجةٍ إِلى حساء. فقد أَعطتني أُمّي آخر كسرة خبزٍ لدينا، قبل أَن تنام.

– وهي ماذا تناولت من طعامٍ، يا صديقي؟

– منذ يومين ما انفكّت تقول لي إِنّها ليست جائعة.

– وماذا فعلتَ كي توقظها؟

– قبّلتها، كما أَفعل دائمًا.

– ولم تلاحظ شيئًا؟

– كانت باردةً جدًّا. فالبرد يسود في بيتنا.

– وهل كانت ترتجف؟

– كلاّ! كانت جميلةً، جميلةً. وكانت يداها اللّتان لا تتحرّكان مضمومتين فوق صدرها شديدتي البياض.

وجال في خاطر المحرّر:

– «لطالما حسدت الأَغنياء، مع أَنّي آكل وأَشرب كفايتي. وها هي ذي امرأةٌ ماتت جوعًا...أَجل جوعًا!».

ثمّ استدعى الفتى، وأَجلسه على ركبتيه، وقال له برقّةٍ: «يا صغيري، لقد كُتبت رسالتك، وأُرسلت، ووصلت إِلى المرسَلة إِليها. والآن، اقتدني إِلى أُمّك.

– بطيب خاطرٍ. ولكن لمَ تبكي؟

وأَجابه الجنديّ العجوز، وهو يقبّله بحرارةٍ، حتّى يكاد يخنقه بقبلاته، ويغرّقه بدموعه:

– وهل يبكي الرجال؟

ثمّ نهض، وأَضاف، وكأَنّه يكلّم شخصًا غير مرئيٍّ:

– أَجل، أَيّتها الأُمّ. كوني سعيدة. فليسخر منّي الرفاق إِن شاؤوا. إِنّي أَرغب في الذهاب إِلى حيث أَنت موجودةٌ. وسآتيك بصغيرك، الملاك المسكين الذي لن يبارحني بعد، أَبدًا. فرسالته التي لم تُكتَب قد أَصابت هدفين: أَعطته أَبًا، وأَعطتني قلبًا.

المرأة المسكينة التي قتلها البؤس، لم يُقيَّض لها القيامة على هذه الأَرض. من هي؟ لستُ أَدري. ولكنّني أَدري أَنّ ثمّة، في باريس، شابًّا، لا يملك دكّان «محرّر رسائل»، بل هو يدبّج أَقوالاً فصيحةً رائعةً، والجميع يعرفون اسمه. أَمّا المحرّر العجوز، فهو شيخٌ سعيدٌ، فاضلٌ كما كان دائمًا، ولكنّه الآن مسيحيٌّ حقٌّ، ويفخر بأَمجاد «الصغير»، كما لا يزال يسمّي الكاتب الشهير الذي تبنّاه. وهو الذي روى هذه القصّة، ملاحظًا: «لست أَدري من هو ساعي البريد الذي يحمل مثل هذه الرسائل، التي تصل دائمًا إِلى عنوانها في السماء».

في أَزمات الحيرة، فلنستشر السيّدة العذراء

كان الطوباويّ «شانيل» قد بلغ الخامسة عشرة، وهو يتابع دروسه لدى كاهن قريته، عندما اعتراه نفورٌ شديدٌ من العمل، لم يجد إِلى التغلّب عليه سبيلاً، رغم جهودٍ جادّةٍ. وأَخيرًا، جمع كتبه، ومضى، ولم يخبر بأمره أَحدًا.

ولم يكد يتخطّى فناء الأَبرشيّة، حتّى التقى امرأةً مسيحيّةً فاضلةً، استشفّت مقاصده، وسأَلته: «إِلى أَين أَنت ماضٍ، يا پيير؟» فاكتفى بالإِجابة: «أَنا ماضٍ». فسأَلته: «هل استشرت، على الأَقلّ، السيّدة العذراء؟». وأَطرق شانيل، ولم يُجبْ بحرفٍ. فاستأنفت المرأة الفاضلة القول: «صدّقني يا پيير، اذهب، أَوّلاً، إِلى الكنيسة، وصلّ للسيّدة العذراء». وامتثل الشابّ لنصيحتها، وما لبث أَن عاد يضجّ فرحًا، وأَعلن: «سأبقى».

بعد مضيّ عشرين سنةً، إِذ كان يجيل في خلده تلك الحقبة من حياته، التي كان يصفها بحقبة ارتداده، كان يقول: «حقًّا لست أَعلم ما الذي كان يدور في رأسي. أَظنّ أَنّ الشيطان الخبيث كان قد تسلّل إِليه، وكاد يودي بي إِلى كارثةٍ. كنت غارقًا في الهواجس وفي ضربٍ من النزاع يلامس القنوط، ولا أدرك لكلّ ذلك تفسيرًا. وإِن كنت قد استعدت الهدوء والشجاعة، فإِنّي مدينٌ بذلك للسيّدة العذراء».

وحرصت العذراء مريم على إِكمال صنيعها، فحصلت لخادمها لا على الثبات فحسب، وعلى نعمة الوصول إِلى الكهنوت، بل اقتادته إِلى الدعوة الرهبانيّة وإِلى مجد الشهادة السنيّ. فقد أَصبح الطوباويّ «شانيل» عضوًا في جمعيّة مريم، ورسولاً في البلدان النائية، حيث، عقب سنواتٍ من الرسالة الشاقّة، أُوتي شرف الريادة في إِثبات كرازته بشهادة دمه.

عودة ابنٍ ضالٍّ

كان إِكليركيٌّ شابٌّ قد تخلّى عن دعوته، استجابةً لنصائح ماكرةٍ أَغواه بها رجلٌ من أَقاربه، بعيدٌ عن الدين، ولكنّه طويل الباع في ميدان التجارة، وعبادة المال. وقد جهد معلّمو الشابّ البائس وذووه في تحذيره، وفتح عينيه، ومحاولة إِبقائه في الإِكليريكيّة، ولكن بلا طائلٍ. فقد كان مصرًّا على هجر دعوته، وعلى المثول إِلى باريس، حيث، بفضل علمه ومؤهّلاته، أَصاب منصبًا مرموقًا، واكتسب مالاً وفيرًا. ولكن، لسوء طالعه، انجرّ لتأثير رفاق السوء، وانزلق إِلى مرابع الخلاعة، وتاه في مطالعة الكتب السيّئة، والصحف الملحدة. وما لبث أَن لم يبقَ له، من كلّ الممارسات التقويّة، سوى تلاوة «اذكريني، أَيّتها العذراء»، التي كان يردّدها آليًّا، كلّ مساءٍ، التزامًا بوعدٍ كان قد قطعه لأَحد رؤساء الإِكليريكيّة، يوم هجره لها.

عقب بضع سنواتٍ من الازدهار، فقد منصبه، وتردّى إِلى دركات البؤس. وبما أَنّه كان قد فقد الدعم الدينيّ المنيع الكفيل بإِنعاش همّته المنهارة، استولى عليه القنوط، ووطّن العزم على الانتحار. وفي السادس والعشرين من شهر آب ١٨٤٧، في نحو منتصف النهار، يمّم شطر قنال «سان مارتان» بقصد إِغراق نفسه. ولكن، بفضل مفارقةٍ غريبةٍ، وفي لحظة إِقدامه على تنفيذ مخطّطه الرهيب، جثا على ركبتيه، وتلا، ثانيةً، صلاته إِلى مريم، ثمّ نهض، وتقدّم نحو الهوّة. وإِذ همّ بقذف نفسه، صاح به ربّان سفينةٍ، لم يكن الشابّ قد لحظه: «حذارِ، حذارِ!». فتيقّن أَنّ ثمّة من يراقبه، وابتعد بضع خطواتٍ، وجلس على حافّة القنال.

وفيما كان يراقب سطح الهوّة التي كانت ستبتلعه، خُيّل إِليه رؤية هوّةٍ من

نارٍ تنفتح، بغتةً، أَمامه، وسمع صوتًا داخليًّا يقول له: «انظر، وفكّر، وارتعد!».
فهبّ مذعورًا، فاقد الوعي، وفرّ من ذلك المكان المشؤوم، هائمًا، على وجهه، نحو المدينة الكبيرة. ولكنّه في الواقع، لم يكن هائمًا، إِذ كانت السيّدة العذراء تقود خطاه، حتّى انتهت به، مع حلول المساء، أَمام كنيسةٍ لم يكن يعرفها، فدخلها وكأنّ قوّةً خفيّةً تدفعه. وإِنّما كانت الدافعة هي سيّدة الانتصارات.

كان رهطٌ من المؤمنين راكعين، خاشعين، يصلّون عند أَقدام هيكل العذراء مريم، المتلألئ بالأنوار، والشابّ البائس، منطويًا على ذاته في زاويةٍ، يتأمّل المشهد المنبسط أَمامه. كان يشعر أَنّ الثقة تستيقظ، شيئًا فشيئًا، في داخله. ولحظ كاهنًا جليلاً يدخل إِلى كرسيّ اعترافٍ على مقربةٍ من الهيكل. فتوجّه نحوه، منتظرًا دوره، وما لبث أَن وجد نفسه راكعًا أَمامه، مع أَنّ نيّة الاعتراف لم تراوده، وأَنّه لم يكن راغبًا إِلاّ في التخفّف من العبء الذي يثقل صدره، وفي رواية سيرة حياته. وقد استقبله الكاهن برقّة الأب، وبعطفه.

ولمّا فرغ الابن الضالّ من سرد روايته، قال له الكاهن: «يا ابني، عليّ أَن أُكمل قصّتك. فمنذ بضعة أَشهر كان أُسقفٌ يعظ في كنيسة رعيّتي. وقد أَوصى المؤمنين بالصلاة من أَجل شابٍّ، كان قد أَحبّه حبّ أَبٍ لابنه، يوم كان مدرّسًا في إِكليريكيّةٍ، وقد سبّب له فقدانه حزنًا بالغًا. هذا الشاب الضالّ موجودٌ في باريس، ولكن، يؤسفني أَن لم أَعثر على مخبئه. غير أَنّ السيّدة العذراء تعرفه، وتعرف مكانه. فلنوحّد صلواتنا كي يعود إِلى الله.»

وتابع الكاهن الجليل القول: «هذا الأُسقف، يا ابني، هو معلّمك سابقًا، وهو أَبوك وصديقك. والابن الضالّ هو أَنت».

لدى سماعه هذه الأَقوال أَجهش الشابّ الضالّ بالبكاء، ودفن وجهه بين يديه. وواصل الكاهن قوله: «يا ابني، إِنّ السيّدة العذراء تبتغي خلاصك، فاستسلم لها. ولا يخامرنّك أَيّ شكٍّ في أَنّها هي التي أَمسكت بك على شفا الهاوية، وقادت خطاك صوب هذه الكنيسة».

ثمّ سمع الكاهن اعتراف الخاطئ التائب، وصالحه مع الله، وأَعاد له السلام، وأَعدّه لتتويج ارتداده بمناولةٍ حارّةٍ.

وأَصلح الشابّ التائب معثرة حياته الماضية، فاستصفح ذويه، وأَساتذته السابقين، وخاصّةً أُسقفه الطيّب، وبموافقتهم انضمّ إِلى جمعيّة توبةٍ مكرّسةٍ للعذراء مريم.

شفاءٌ عجيبٌ

روى الكاهن القدّيس «دون بياجّيو» عن الأَب الطوباويّ «كاسپار دي بوفالو» الذي توفّي عام ١٨٣٩، بعد أَن قضى حياةً حافلةً بالمعجزات، ما يلي:

منذ طفولتي كنت أُونس رغبةً في اعتناق الكهنوت، وعام١٨١٤، وأنا في الثالثة والعشرين من العمر، كنت قد رُسمتُ شمّاسًا إِنجيليًّا، غير أَنّ دأبي على الدرس والعمل كان قد نال من صحّتي نيلاً ذريعًا، فاعتلّت رئتاي، ولم تعد الحمّى تفارقني، بحيث بات الأَطبّاء يخشون على حياتي. وأَيقنت أَنّ نهايتي قد دنت، وحصلت على ترخيصٍ خاصٍّ بأَن أُسام كاهنًا، قبل بلوغي السنّ القانونيّة. وقد قضى الاستعداد للامتحان، والرياضة الروحيّة التي تسبق الرسامة الكهنوتيّة على ما تبقّى لي من قوًى، وتفاقم مرضي. وأَجمع الأَطبّاء الذين استُدعوا للتشاور بشأني، على أَنّي قد انتهيت إِلى الدرجة الثالثة من السلّ الرئويّ، التي لا يُرجى معها أَيّ شفاء.

وقرّرت المثول إِلى مدينة «لوريتّ» كي أَموت في ظلّ «البيت المقدّس». كان السفر شاقًّا، ولكن المحتضر لا يبالي إِن تفاقم أَلمه قليلاً، أَو تضاءل قليلاً. ومنذ وصولي إِلى «لوريتّ» جررت نفسي إِلى البيت المقدّس، ورجوت العذراء، بحرارةٍ، أَن ترعى عبوري الرهيب.

كنت هناك منذ أَيّامٍ، وحالتي تتفاقم سوءًا. وذات صباحٍ أَحسست بشيءٍ من التحسّن، وباستعادة بعض قواي، فهرعت، منذ الصباح، الباكر إِلى مزار العذراء. وإِذ بكاهنٍ لم أَكن أَعرفه، ولم أُشاهده من قبلُ، قطُّ، يأتي ويركع قريبًا منّي. ربّما لم يكن سوانا في المزار. وأَخذ الكاهن يدعو، بصوتٍ

منخفضٍ، وهو يرنو إلى صورة العذراء العجائبيّة، ويبدو وكأنّه يشير إليّ: «ينبغي أن ينطلق هذا، أيضًا، لمهامّ الرسالة». أجلت نظري، وتبيّن لي أنّ جاري إنّما كان يعنيني. فأجبته، وأنا ما زلت جاثيًا على ركبتيّ: «لكنتُ فعلت ذلك بكلّ طيبة خاطرٍ، لو كان الأمر بوسعي. ولكنّني لم آتِ إلى هنا كي أُبشّر، بل لكي أموت». وأجاب الكاهن، بابتسامةٍ عذبةٍ: «ثق بالعذراء مريم!». ثمّ أردف: «اتلُ معي «السلام يا مريم» فتلوت معه السلام الملائكيّ، وأنا لا أُدرك قصده. وما إن فرغنا من التلاوة، حتّى نهض الكاهن - وكان في الواقع الأب كاسپار دي بوفالو – وأشار إليّ أن أتبعه. فخرجنا معًا من «البيت المقدّس»، واجتزنا الكاتدرائيّة الكبيرة صامتَيْن، وعندما انتهينا إلى الفناء الخارجيّ، التفت نحوي بمحيّاه الجليل، السماويّ، وأخبرني أنّ الحبر الأعظم كان قد عهد إليه، حديثًا، بمهمّة الوعظ المستمرّ، والنهوض بأعمال الرسالة، والسعي إلى محو الآثار الوبيلة التي خلّفتها الثورة، وانتشار الفكر الڤولتيريّ، والاحتلال الأجنبيّ. وكان الأب كاسبار راغبًا في بدء الوعظ من مدينة لوريتّ التماسًا لدعم السيّدة العذراء وعونها. وبما أنّه كان ما زال وحيدًا، فقد كان في حاجةٍ إلى رفاقٍ. وقد أعلن، بسلطةٍ فريدةٍ: «ستأتي معي، وسنبدأ رسالتنا غدًا، وستعظ، أنت في الساعة الفلانيّة، وأنا في الساعة الفلانيّة». وفي الحال، حدّد نظام العمل. وخُيّل إليّ أنّني أحلم، ولا سيّما أنّني لم أشعر بأيّ ألمٍ، لا في أثناء تلاوة «السلام» ولا بعدها.

كنت أسيرَ قوّةٍ خفيّةٍ، واثقًا بمريم القادرة على الظفر بكلّ ما تبتغي من ابنها الإلهيّ؛ ولذلك لم أُدلِ بأيّ اعتراضٍ. ومنذ اليوم التالي، بعون الله والعذراء مريم، استهللت سلسلة رسالاتٍ استمرّت، بلا انقطاعٍ، نحو أربعةٍ وعشرين عامًا، أي حتّى وفاة الطوباويّ الأب «ديل بوفالو». ومنذ ذلك اليوم لم أعهد المرض، يومًا.

بروستانتيٌّ يتلو «السلام عليك يا مريم»

عقد كاثوليكيّون أتقياء، في مدينة «ليلّ» الفرنسيّة مؤتمرًا، تكلّم في جلسته الأخيرة، أحد أبرز المؤتمرين، وسط صمتٍ مقدّسٍ، وانتباهٍ مشدودٍ، وروى الحدث التالي تمجيدًا للعذراء مريم:

كانت تعيش في إنكلترا أُسرةٌ بروتستانتيّةٌ عديدة الأبناء. وكان الابن البكر البالغ من العمر ستّ سنواتٍ، قد سمع تلاوة «السلام عليك يا مريم». وذات مساء ردّدها، بسذاجةٍ، على مسامع والدته التي أنّبته، وقالت له بنبرةٍ صارمةٍ: «إيّاك أن تردّد هذه الأقوال، فما هي سوى خرافةٍ كاثوليكيّةٍ، تجعل من مريم إلهةً، في حين أنّها امرأةٌ مثل سائر النساء».

امتثل الفتى للتهديد، ونفى من فكره صلاة «السلام». ولكنّه بعد فترةٍ من الزمن، إذ كان ينتظر ذويه، من أجل مرافقتهم إلى المعبد البروتستانتيّ، رأى كتابًا مقدّسًا، وفتحه عشوائيًّا، فوقع على نصّ الإنجيليّ لوقا، الذي يروي بشارة الملاك لمريم. فغمره الفرح لهذا الاكتشاف، وجرى نحو أُمّه، وسألها: «إنّ «السلام» موجودٌ في الإنجيل، فعلامَ تعدّين تلاوته خرافةً؟». واكتفت الأُمّ، بمثابة جوابٍ، أن انتزعت الكتاب، بعنفٍ، من يديه، وأمرته، بحزمٍ، ألاّ ينوّه، أبدًا، بالأمر. غير أنّ الفتى، منذ ذلك اليوم، لم يكفّ عن ترديد الكلمات التي خلّفت في نفسه أعمق أثرٍ: «السلام عليك يا ممتلئةً نعمةً، الربّ معكِ، مباركةٌ أنتِ بين النساء قاطبةً».

كبر الفتى واشتدّ حبّه لأُمّ الله، التي لم يستطع أن يعدّها امرأةً تحاكي جميع

النساء، إِذ إِنّ اللّٰه قد غمرها بملء نعمه. فضلاً عن أَنّ مدائحها موجودةٌ في الكتاب المقدّس الذي يعدّه البرتستانتيّون أَنفسهم حاويًا كلام اللّٰه...

ولّما بلغ الثالثة عشرة، حملته عناية اللّٰه ورحمة العذراء على مطالعة إِنجيل القدّيس لوقا حيث قرأ «تعظيمة» العذراء (تعظّم نفسي الربّ). وقد أَثّرت فيه، تأثيرًا خاصًّا نبوءتها: «بعد اليوم تطوّبني جميع الأَجيال، لأَنّ القدير صنع فيّ عظائم».

وذات يومٍ، إِذ كان أَفراد أُسرته يعلنون، ثانيةً، أَنّ العذراء لا تتفوّق على أَيّ مخلوقٍ بشريّ، وأَنّ أَيّة ربّة أُسرةٍ فاضلةٍ، تعادلها، التهب الشابّ استنكارًا مقدّسًا، وهتف: «كلاّ، فالعذراء كلّيّة القداسة تختلف عن سائر أَبناء آدم الملوّثين. فاللّٰه قد وضع كلماته الملهمة على شفتي جبرائيل الذي دعاها «ممتلئةً نعمةً». إِنّها أُمّ يسوع، وبالتالي أُمّ اللّٰه. ويبدو أَنّكم، معشر البروتستانتيّين، كَلِفون باحتقار أَقدس المخلوقات وأَسماها، وحريصون على إِهانتها. ويا للمفارقة التي تقعون فيها! تدّعون أَنّ الكتاب المقدّس هو أَساس مذهبكم وشريعته. فعلامَ تُعرِضون عنه عندما يدعوكم ويدعو الأَجيال كلّها إِلى تمجيد مريم وإِلى تطويبها؟».

لو أَنّ صاعقةً كانت، في تلك اللحظة، قد ضربت ردهة البيت، لما كان وقعها أَبلغ من وقع كلام الشابّ؛ وقد صرخت والدته، في لحظة سخطٍ ويأسٍ: «يا إِلهي، هذا الولد سيصبح، ذات يومٍ، كاثوليكيًّا!».

ولم يكن بوسع الشابّ، وهو، بعد في سنّ الرابعة عشرة، سوى ترسيخ قناعاته، والصلاة، والتوجّع.

وكرّت السنون، وأَزاح الزمن كلّ عائقٍ، فبعد أَن بلغ الشابّ سنّ الرشد، أَصبح بطل الحقيقة التي اعتنقها، جهارًا، مضطرمًا اندفاعًا.

وقد عبّر، ذات يومٍ، لأُخته عن أَلمه، وهو يراها بعيدةً عن الحقيقة، هي

وجميع ذويها. ولكنّ شقيقته أَجابت بعنفٍ: «أترى أبنائي هؤلاء؟ أَنت تعرف كم أَنا أُحبّهم. ومع ذلك، أوثر غرس خنجرٍ في قلوبهم، على أن أَسمح لهم بالانضواء إِلى مذهبك!».

صمت الشابّ. ولكن، بعد فترةٍ قصيرةٍ، أُصيب أَحد أَبناء أُخته المذكورة بمرضٍ عضالٍ، حتّى غدا يصارع الموت، وتلاشى كلّ أَملٍ في شفائه. وحينئذٍ قال الشابّ لأُخته: «اسمعي أُختاه: وافقي على تلاوة «السلام عليك يا مريم»، معي، ولنعِد الله، أَنّكِ، إِن نال ابنك الشفاء، بشفاعة مريم، ستكبّين على دراسة المذهب الكاثوليكيّ دراسةً جادّةً. فإِن اقتنعتِ بصحّة مبادئه، ستعتنقينه، مهما كلّفك ذلك من تضحياتٍ».

كان عدوّ خلاص البشريّة يسرّب إِلى نفس الأُمّ الفتيّة كلّ ضروب المخاوف. غير أَنّ عمل النعمة، والرجاء الذي لوّحت به أَقوال أَخيها، جعلاها تركع، وتتلو معه «السلام عليك يا مريم».

وشفي ابنها في الغداة، ومضت الأُمّ، وقد أَفعم العزاء قلبها، كي تقدّم الشكر للعذراء القديرة معزّية الحزانى. وبعد ثلاثة أَشهرٍ، أَمست هي، وأُختها الكبرى، وأَبناؤها، في أَحضان الكنيسة الكاثوليكيّة.

هكذا تكلّم خطيب المؤتمر، الذي فاجأ الحضور بخاتمةٍ غير متوقّعةٍ، إِذ قال:

«إِنّ بطل العقيدة المريميّة ذاك، بعد أَن وقف عشرين سنةً من حياته على خدمة صاحبة الجلالة البريطانيّة، كرّس ذاته بالكامل لخدمة الله، وهو، اليوم، كاهنٌ، وهو، أَيّها السادة، من يتشرّف الآن بمخاطبتكم».

الموت ولا الدنس

عام ٧٨٠ كان الدانماركيّون يعيثون في إنكلترا فسادًا مروّعًا. وعندما شاع نبأ اقترابهم، انتابت راهبات «كولدنغهام» خشيةٌ مميتةٌ، ولكنّ اللّه والعذراء مريم ارتقيا بشجاعتهنّ إِلى مستوى الخطر الداهم. رئيسة الدير، القدّيسة «إِيبّ» التي كانت أَشدّ حرصًا على وقاية عفّتها وعفّة أَخواتها، من حرصها على إِنقاذ حياتها وحياتهنّ، استدعتهنّ، جميعًا، إِلى مُصلّى (كابيلاّ) مكرّسٍ للسيّدة العذراء، وهناك خاطبت الأُمّ الطاهرة قائلةً: «يا مريم، أَطهر العذارى، أَغيثي خادمتك المتواضعة، وأَلهميها وسيلةً لوقاية عفّتها وعفّة أَخواتها. ابسطي فوقنا يدك التي تبدّد العواصف، هبينا القوّة على إِيثار الموت، إِن اقتضت الظروف، على الموافقة على فقدان تاج البتوليّة...».

وما كادت تفرغ من صلاتها، حتّى سمعت صيحات أولئك النمور الهائجة، وتعالى زعيق شتائمهم وتجديفهم. وفي الحال نهضت الرئيسة القدّيسة، وتكلّمت بهذه العبارات: «اللواتي منكنّ يحببنَ اللّه، ويحرصن على كنز براءتهنّ الثمين فليحذونّ حذوي. لا تخشينّ شيئًا... فالموت ذاته عذبٌ لمن يعرف كيف يبذل حياته حمايةً لفضيلته». وتناولت قطعة حديد حادّةً مزّقت بها وجهها. ودفع مثالها البطوليّ سائر الأَخوات إِلى الاقتداء بها، بلا تردّدٍ، وواجهن المضطهدين الأَنذال بوجوهٍ مشوّهةٍ داميةٍ.

أَمام هذا المشهد تراجع البرابرة، مذهولين. ولكنّ هذه الخيبة زادتهم شراسةً وهياجًا، مثل أَسدٍ يرى فريسته تُنتزع منه، فأَضرموا النار في الدير، وانسحبوا مخلّفين وراءهم أَكوامًا من الجثث المحترقة، والأَطلال.

ولا ريب أَنّ الربّ عوَّض تلك الضحايا النبيلة، التي ضحّت بجمالٍ زائلٍ، تضحيةً سخيّةً، حفاظًا على الفضيلة السنيّة، مئات الأَضعاف، ولا ريب أَنّ وجوههنّ تتألّق الآن مثل شموسٍ في البهاء الأَبديّ.

رؤيا القدّيس إِيلديفونس

من الفضائل العديدة التي كان القدّيس إِيلديفونس، أُسقف طليطلة، نموذجًا لها، كان أَلمعها حبّه الفائق للسيّدة العذراء، كلّيّة القداسة، حبٌّ كان قد رضعه من أُمّه. وقد برهن عنه أَسطع برهانٍ، بدفاعه الباسل عن طهر تلك الملكة السامية، وعن نزاهتها من كلّ دنسٍ. وقد تصدّى، مثل جدارٍ من فولاذ، للهراطقة الذين كانوا ينكرون بتوليّتها الدائمة، وذاد عن شرف تلك العذراء فائقة القداسة، بكتاباتٍ بليغةٍ.

وقد حرصت ملكة السماء، التي تأبى أَن يبذّها أَحدٌ سخاءً، على مكافأته بنفسها عمّا قدّمه لها. ففي أَحد أَيّام الأُسبوع السابق لعيد الميلاد، نهض الأُسقف، في عزّ الليل، كي يشخص إِلى الكنيسة، ويقيم صلاة الفجر. وفتح الشمامسة والكهنة، الذين سبقوه، أَبواب الكنيسة، ولكنّهم بُهتوا، بغتةً، بالأَنوار الساطعة المتوهّجة في المكان المقدّس، وأَخذ بهم الذعر أَمام تلك المعجزة، فلاذوا بالفرار. ولكنّ الأُسقف القدّيس كان أَثبت منهم جأشًا. ورنا إِلى الأَنوار المتوهّجة بنظرة صقرٍ، ثمّ دنا من الهيكل، وفيما كان يصلّي ظهرت له العذراء، في المنبر الذي أَلِف مُخاطبة الشعب منه.

لا يستطيع أَحدٌ وصف الشعور الذي انتابه حيال هذه الرؤيا، غير أَنّه ثبت في مكانه حائرًا هل عليه أَن يخطو إِلى الأَمام أَم أَن يتقهقر. فيما كانت مريم العذراء ترنو إِلى خادمها الممزّق بين الرجاء والخشية، وبادرت هي بمخاطبته: «مكافأةً لك على طهارة جسدك وفكرك، وعلى حرارة إِيمانك، وغيرتك في الذود عن بتوليّتي، جئتك بهذه الهديّة من كنوز السماء». وناولته حلّةً كهنوتيّةً

كي يرتديها في أَعيادها. ثمّ حلّقت عائدةً إِلى السماء، مخلّفةً، في كل أَرجاء الكنيسة، عبق عطرٍ فائق العذوبة.

وقد احتُفظ بالحلّة التي أَهدتها السيّدة العذراء للقدّيس إِيلديفونس. وما زالت مدينة طليطلة تحتفل في الحادي والعشرين من كانون الأَوّل بذكرى ذلك الظهور السماويّ.

القسّ والفلاّح

كان قسٌّ بروتستانتيٌّ يتنزّه على شاطئ ساحلٍ متوسّطيٍّ، فلمح فلاّحًا من معارفه عاكفًا على تطعيم شجرة تين.

فدنا منه، وحيّاه، واستوضحه: «هل استمعت، يا پيير، إِلى موعظة كاهنك، يوم الأَحد الفائت؟».

– «أَجل، سيّدي».

– «وما كان موضوعها؟».

– «عن العذراء مريم. وقد حرَّضنا الكاهن على حبّها حبًّا جزيلاً، لأَنّها أُمّ الله وأُمّنا، ولأَنّها تنال من ابنها كلّ شيءٍ.

– ولكنّ كلّ ذلك خطأ، يا پيير. أَلا تعلم أَنّ العذراء ليست أُمّ الله؟

واستفاض القسّ في التنديد بالمغالاة في التكريم الذي يحيط به الكاثوليكيّون السيّدة العذراء. وكان الفلاّح الورِع، يعضّ شفتيه، وهو يستمع مُكرهًا، ساخطًا، إِلى هرطقة القسّ. ولمّا ضاق ذرعًا، قاطعه مستفسرًا:

– هل تحبّ التين، أَيّها القسّ؟

– يا لوقاحتك! وما هي العلاقة بين التين وما أَقول؟ دعني، أَوّلاً، أُقنعك.

– إِنّي أَسألك هل تحبّ التين؟

– نعم، مؤكّد!

– إِذن، أَيّها القسّ، عندما يحبّ المرء التين، لا يتكلّم بالسوء عن شجرة التين. وعندما يُحبّ الابن، يحرص على عدم الحطّ من قدر الأُمّ، وعلى التحاشي عن ازدرائها.

عمادٌ تحقّق بمساعدة مريم

رُزق رجلٌ، أَو بالحريّ وحشٌ بشريٌّ كانت شراسته تشيع الرعب، ابنةً سمّاها «لوكريس»، وأَقام، احتفالاً بمولد تلك المخلوقة المنكودة الطالع، مأدبةً ماجنةً، ضمّت عصابةً من الأَصدقاء يضارعونه رذيلةً. وفي ميعة بهجةٍ حافلةٍ بالشتائم الموجّهة إِلى الدين ورجاله، نهض الرجل، بغتةً، واستلّ خنجرًا كبيرًا، وصاح مهتاجًا: «أُقسم بهذا الخنجر الذي طالما طعن كهنةً أَن أَنحر به، بلا رحمةٍ ولا تردّدٍ، أَوّل من يتجرّأ ويكلّمني عن تعميد الطفلة».

وترعرعت الابنة، ومع أَنّها كانت محرومةً من عناية الأُمّ التي توفّيت وهي، بعدُ، شابّةٌ، ولم تسعد بمعرفتها، ومع أَنّها نشأت بين يدي أَبٍ زنديقٍ شرسٍ، كانت تتمتّع بطويّةٍ طيّبةٍ، وتضمر، خاصّةً، تقوًى رقيقةً حيال السيّدة العذراء، التي كانت تتوسّلها، بلا انقطاعٍ، وتوكل إِلى عنايتها مصيرها البائس.

وسرعان ما أَلمّ بها داءٌ عضالٌ مضنٍ، وكانت تلك الفتاة المسكينة الملقاة على سرير الآلام، لا تني تلتمس عون الدين الذي دأب والدها المتوحّش على حرمانها منه بلا رحمةٍ، بإِبعاده عن بيته كلّ شخصٍ كفيلٍ بتوفير هذا العون لها.

وكانت الفتاة المسكينة لا تني تهتف، وهي تذرّف دموعًا حرّى: «يا مريم، يا أُمّي الطيّبة، يا مريم ملاذ البائسين، لا تتخلّي عنّي، ولا تسمحي أَن أَموت محرومةً من المعموديّة». هذه الصلاة التي تضجّ ثقةً، ما كان لها أَن تظلّ غير مستجابةٍ. وقد شاءت العذراء أَن يتنامى وضع تلك الفتاة البائسة، وسلوك والدها المخزي إِلى مسامع كاهنٍ ورعٍ. فحثّته محبّته الحارّة إِلى العزم على إِنقاذ تلك النفس بأيّ ثمنٍ. كان يحدّث نفسه: «أَعلم أَنّي أُعرّض حياتي. ولكنّي لستُ

أُبالي. فإِن متّ كنت شهيد المحبّة. وستكون صلاتي الأَخيرة، وأَنا أَقع بطعنة خنجر ذلك الأَب القاتل، من أَجل خلاص هذه الصغيرة».

غيّر، إِذن، الكاهن زيّه، لكي يموّه هويّته، وشخص إِلى منزل الفتاة، وقال لوالدها: «سمعت، يا سيّد، أَنّ لك ابنةً مبتلاةً بعلّةٍ خطيرةٍ، فهل لي أَن أَراها؟ وقد يكون بوسعي أَن أُقدّم لها بعض العون».

– هل أَنت طبيب؟

– لي معرفةٌ ببعض الأَدوية.

– وهل تظنّ أَنّ بوسعك تخفيف آلامها؟

– آمل ذلك.

وأَصعده الوالد إِلى غرفة ابنته، فشاهد الكاهن، على فراشٍ حقيرٍ، فتاةً في الرابعة عشرة من العمر، شديدة النحول، مطفأة العينين، وقد حُفرت وجنتاها وفقدتا كلّ لونٍ، وشحبت شفتاها، وتجلّت عليها كلّ أَمارات الموت الوشيك، وبدأ الطبيب المزيّف بجسّ نبضها، ثمّ سقاها جرعةً من قارورةٍ كان قد جاء بها، وأَمر أَن تؤتى بشيءٍ من الشاي. وانحدر الوالد كي يعدّ الشاي، فانتهز الكاهن السانحة كي يطلع الفتاة على هويّته، وقال لها: «يا ابنتي، قد جئت لكي أَفتح لك أَبواب السماء، ولكي أَهبك سرّ العماد».

– آه! يا أَبتِ، لطالما تقت إِليه! ولطالما توسّلت العذراء أَن تحصل لي على هذه النعمة!وفي الحال، تناول الكاهن قارورته، وسكب محتواها على جبين الفتاة مانحًا إِيّاها سرّ العماد.

في تلك اللحظة عاد الوالد، وإِذ شاهد على محيّا الفتاة فرحًا سماويًّا يتأَلّق، سأَلها: «هل تحسّنت حالك؟». فأَجابت: «أَجل يا أَبي، لقد آتاني دواء السيّد خيرًا ونفعًا». ثمّ التفتت إِلى الكاهن وقالت: «وداعًا، يا سيّدي، أَشكر لك الخدمة التي أَسديتني إِيّاها. ولن أَنساك أَبدًا».

ثمّ، بعد لحظةٍ، قالت لوالدها: «وداعًا، يا أَبي. إِنّي أَشعر بأَنّي أَموت. ولكنّني سعيدةٌ. وداعًا. وفكّر في خلاصك».

وفيما كانت تتفوّه بهذه الكلمات، لفظت أَنفاسها الأَخيرة، وطارت نفسها، التي طهّرها ماء العماد المقدّس، إِلى السماء.

محبّة جنديّ

حدث ذلك عام ١٨٢٦، إِذ صادف جنديٌّ طيّبٌ، ذات يومٍ، في زاوية شارعٍ، فتًى في التاسعة من العمر، يذرف دموعًا غزيرةً حرّى. فسأله:

– علامَ تبكي، يا بنيّ؟

– إِنّي تعيسٌ جدًّا.

– وأيّ خطبٍ دهاك؟

– منذ يومين فقدت أَبي وأُمّي معًا، ولم يبقَ لي في الدنيا أَحدٌ، ولست أَدري أَين أَقصد.

– وهل تقول الحقيقة؟

– أَجل، يا سيّد. وإِن شئت، فاكتب إِلى كاهن محلّتي فيؤكّد لك أَقوالي.

أَخذ العطف بمجامع قلب الجنديّ الكريم، فأمسك بيد الصبيّ، ومضى به إِلى فندقٍ حسن السمعة، ودفع لأَصحابه مسبَّقًا، ورجاهم أَن يحتفظوا به لديهم ويعنوا به. ثمّ كتب إِلى الكاهن، كي يتثبّت من الأَمر، فجاءه الجواب: «وا أَسفاه! هذه هي الحقيقة كاملةً. لم يعد للولد أَبٌ ولا أُمٌّ. فأَرسله إِليّ، عساني أَجد نفسًا كريمةً ترتضي تولّي أَمره».

وفي الحال أَجاب الجنديّ أَنّه سيتعهّد به بنفسه، مؤكّدًا استعداده لتبنّيه، ولأَن يكون له الأَب والأُمّ. ثمّ مضى إِلى قيادته، وتطوّع لقاء مبلغ أَلفٍ وثماني مئة فرنك، أَدّاها إِلى رئيس معهدٍ تربويٍّ، قائلاً: «هذا المبلغ لقاء مكوث هذا الفتى

في مؤسَّستكم، مدى ستّ سنوات. إِنّه ابني بالتبنّي. فزوّدوه بثقافةٍ منيعةٍ، وأَنشئوه تنشئةً مسيحيّةً».

ثمّ راح الجنديّ فسجد أَمام تمثالٍ للسيّدة العذراء، متضرّعًا: «أَيّتها العذراء القدّيسة، إِنّي أَهبك، وأُكرّس لك فتاي. فاسهري أَنت على نفسه، وأَنا سأسهر على جسده. إِنّه وحيدٌ، ويتيمٌ، فكوني له الأُمّ».

كرّت سنةٌ، وعاد الجنديّ متفقّدًا أُمور الفتى، وكم كانت خيبته بالغةً! فالصبيّ لم يقابل المعروف بما يستحقّه، بل كان كسولاً، طائشًا، كثير العيوب والرذائل. وقد بادره رئيس المؤسّسة بالقول: «استعِدْ ابنك، فأَنا لم أَستطع أَن أَفعل له شيئًا، وهو، بسلوكه المخزي، يفسد مؤسّستي».

أَطرق الجنديّ، برهةً، وقد ارتسمت على محيّاه، مخايل حزنٍ عميقٍ، وسالت على وجنتيه الدموع، ثمّ خاطب رئيس المؤسّسة بصوتٍ مرتجفٍ يخنقه التأثّر: «أَرجوك أَن تحتفظ به ستّة أَشهرٍ أُخرى. وإِنّي لأَرجو أَن يرأف اللّٰه به وبي، وأَنّه سيصلح نفسه، وسيغيّر سلوكه».

وافق الرئيس، وعاد الجنديّ الورع فاطّرح عند أَقدام العذراء، وبنبرةٍ تعبّر عن إِيمانٍ عسكريٍّ قال: «ما الذي دهاك يا مريم؟ أَنا كنت قد أَوكلت ابني إِلى عنايتك، ورجوتك أَن تكوني له الأُمّ، وها أَنت تدعينه يهلك... لقد بعتُ نفسي من أَجله، وأَنت ألا تفعلين شيئًا من أَجل خلاصه؟ هيّي، أَيّتها الأُمّ الطيّبة. أَرجو أَنّك ستقومين الآن بحمايته. ومن جهتي لن أَكفّ أَبدًا عن توسُّلك، وعن حبّك».

انصرمت سنةٌ أُخرى، وعاد الجنديّ ثانيةً؛ وكانت مريم قد حقّقت أَمانيه. فالفتى قد اصطلح حالاً، وغدا، باستقامة سلوكه، مثالاً صالحًا للمؤسّسة كلّها.

وقد انضوى، لاحقًا، إِلى إِكليريكيّةٍ كبرى، كي يترسّخ في العلم والفضيلة؛ وأُولي شرف الكهنوت، وأَصبح نموذجًا لإِخوانه، مثلما كان، في المعهد، نموذجًا لأَترابه.

كم أَنا بحاجةٍ إِلى أُمٍّ!

ذات يومٍ لمح كاهنٌ، خادم رعيّةٍ في ضواحي باريس، وجود ولدٍ غريبٍ يجلس على المقعد الأَخير، في القاعة التي كان يلقي فيها تعاليم المبادئ المسيحيّة. كان الولد الدخيل نحيلاً، شاحب المحيّا، وأَعمل الكاهن ذاكرته قليلاً، فتذكّر أَنّه ابن مراقب المصنع الذي تولّى مهمّته حديثًا، والمعروف بمبادئه العنيفة المتطرّفة، وبخطاباته الديماغوجيّة، وبكرهه الشديد للكهنة.

وبدا الولد مستغربًا كلّ شيءٍ، متضايقًا وهو قابعٌ في طرف القاعة، يجيل أَنظاره الحيرى في كلّ صوبٍ. بادئ الأَمر، تجاهل الكاهن وجودَه. غير أَنّه، بعد أَن فرغ من طرح أَسئلته على جميع الطلاّب، اتّجه نحوه، وسأله:

– لا ريب أَنّك تغشى المدرسة، فهل سمعت شيئًا عن اللّه؟

صمت الفتى، واكتفى بإِشارةٍ مبهمةٍ، لامباليةٍ. وسأله الكاهن أَيضًا:

– وهل سمعت شيئًا عن السيّدة العذراء؟

حينئذٍ رفع الفتى رأسه، وأَشرق وجهه بغتةً، وقال بصوتٍ خافتٍ:

– أَجل سمعت أَنّ لطلاّب التعليم الدينيّ المسيحيّ أُمًّا تُدعى مريم العذراء. ولهذا أَتيت إِلى هنا.

وتدحرجت الدموع على وجنتيه، فيما كان يضيف القول: «كم أَنا بحاجةٍ إِلى أُمٍّ!». هذه الصيحة أَثّرت أَبلغ تأثيرٍ في نفس الكاهن، الذي صرف تلاميذه، وعاد إِلى الولد الغريب، وقال له: «تعالَ، سأقتادك إِلى أُمّك». رمقه الفتى بنظرةٍ عميقةٍ، مستوضحةٍ، فأضاف الكاهن: «أَعني إِلى تلك التي ستقوم

مقام أُمّك». واقتاده إِلى «الكابيلاّ» البيضاء التي يحرص أبناء مريم على تزيينها بعنايةٍ وتقوى. ولمّا شاهد الفتى الإِيقونة المقدّسة مكلّلةً بتاجٍ من ذهبٍ، محاطةً بالزهور، ومُشعّةً بانعكاس زجاج النوافذ المتعدّد الأَلوان، ضمّ يديه، وهتف: «آه! ها هي! ما أَجملها! هل تعتقد أَنّها سترضى أَن تتّخذني ابنًا صغيرًا لها؟ انظر، إِنّ لها ابنًا آخر بين يديها. فربّما لا حاجة بها إِليّ. أَمّا أَنا فما أَشدّ حاجتي إِلى أُمٍّ، خاصّةً بعد أَن ابتليتُ بالمرض!».

وسأله الكاهن: «أَنت، إِذن مريضٌ؛ يا ابني المسكين؟».

وأَشار الفتى إِلى جنبه الأَيسر، وقال:

– أَنا موجوعٌ هنا، ليس وجعًا شديدًا، ولكنّي لا أَستطيع اللعب والركض مع سائر الأولاد. لذلك منعني الأَطبّاء من الذهاب إِلى المدرسة. وأَنا تعيسٌ بالمكوث، وحيدًا، في البيت. إِنّ أَبي يحبّني كثيرًا، ولكنّه دائمًا في الخارج. وقد قيل لي إِنّ الأَولاد الذين يأتون إِلى هنا يجدون أُمًّا كلّيّة العطف والقدرة. ولذلك فررت من البيت وجئت إِليكم». ثمّ سأل ثانيةً:

– «هل تظنّ أَنّ السيّدة العذراء ستقبلني؟».

– «لا ريب، يا صديقي. ولكن عليك أَن تفعل ما يفعله الأَولاد الآخرون الذين يغشون هذا المكان، ويتعلّمون مبادئ التعليم المسيحيّ.

ووضع الكاهن كتاب التعليم المسيحيّ بين يدي الفتى الذي قال:

– شكرًا، يا سيّدي. سأطالعه بلا ريب.

ولم يقتصر الفتى على مطالعة الكتاب، بل درسه دراسةً جادّةً، بحيث تمكّن من اللحاق بالآخرين، لا بل بذّ بعضًا منهم.

وكان الكاهن يلحظه قادمًا إِلى كلّ درسٍ، وقد ازداد شحوبًا، ونحولاً، وغدا تنفّسه أَشدّ لهاثًا. وذات صباحٍ، لم يحضر، فشخص الكاهن إِليه، مخاطرًا بإِمكان انقضاض والده عليه. لحسن الطالع وجده وحيدًا، مستلقيًا على السرير،

وحالما شاهده الفتى أَراه كتاب التعليم المسيحيّ موضوعًا على الوسادة، قرب رأسه، وبادر بالقول:

– يا أَبتِ، إِنّي أَعرف الدرس، وقد ساعدني أَبي على حفظه».

– هل هذا ممكنٌ يا بنيّ العزيز؟ وكيف حدث ذلك؟

– ذلك أَنّني شديد الوهن. فنظري مشوّشٌ، وبمشقّةٍ أَقرأ. كنت قلقًا جدًّا بشأن الدرس، وإِذ لحظ أَبي أَنّ ذلك يزعجني، تناول الكتاب، وأَخذ يردّد الدرس على مسامعي، بلا كلل، حتّى تمكّنت من تلاوته بلا خطأ... أَعتقد أَنّ موتي بات وشيكًا، فعليّ أَن أَستعجل...

وانعطف الكاهن عليه، كي يشيع الطمأنينة في قلبه، ويحول دون إِتعابه نفسه، عندما سمع نحيبًا مكتومًا، ورفع طرفه، فإِذا بوالد الفتى، عند رأس السرير. وقال المريض الصغير:

– لا تبكِ، يا بابا. سأكون شديد السعادة إِن ساعدتَني على استذكار التعليم المسيحيّ، كما فعلت أَمسِ، بحيث يُتاح لي أَن أَحتفل بالمناولة الأولى، وأَمضي إِلى السماء. وستقتادني العذراء إِليها. وستلحق أَنت بي، لاحقًا، أَليس كذلك؟

ظلّ الوالد معتصمًا بالصمت، وقد دفن وجهه بين راحتيه، بحيث لم يلحظ خروج الكاهن الذي عاد في الغداة، ثمّ في كلّ يومٍ. وكلّما وافى، كان يجد المريض الصغير مع حارسٍ يبادر إِلى الانسحاب حالما يدخل الكاهن. وكان الوالد يحضر، أَحيانًا، بغتةً، ويتّكئ على مقدّمة السرير، حاجبًا وجهه براحتيه.

وكان الفتى لا يني يزداد وهنًا، واعتلالاً، ونوبات الاختناق، تتكاثر ويزداد أمدها طولاً.

وأَسرّ الفتى للكاهن، في لحظةٍ لم يكن في الغرفة سواهما:

– «أَتعرف، يا أبتِ، ما قاله لي أَبي؟ لقد قال: بما أَنّك تحبّ السيّدة العذراء، كلّ هذا الحبّ، إسألها أَن تشفيك، وانذر لها، كما يشرح كتاب

التعليم المسيحيّ. وأَنا سأمضي بك إِلى لورد، وإِلى «لاساليتّ»، وإِلى بونمان، وحيثما تشاء. وأَجابه الكاهن: «إِنّ أَباك لعلى حقٍّ، يا صديقي الصغير، وعليك أَن تلبّي رغبته». ولكنّ الفتى هزّ رأسه معترضًا: «علينا أَلاّ نطلب استرداد ما أَعطينا. وأَنا قد أَعطيت حياتي ليسوع، كي يعطيني أُمّه في السماء، وكي يأتي بأبي إِلى السماء، يومًا ما... وهذا هو الأَفضل. متى سيكون بوسعي الاحتفال بمناولتي الأولى، يا أَبتِ؟».

وقد احتفل بهذه المناولة، في أَحد أَيّام شهر أَيّار. وبهذه المناسبة بُسط على سريره غطاءٌ أَبيض نثرت فوقه بواكير ورود الربيع، وكانت غرفته تغصّ برفاقه في دروس التعليم المسيحيّ. وعقب المناولة مات الفتى ميتة القدّيسين.

ولم تكن النعمة قد انتظرت تلك الساعة كي تؤتي ثمارها في نفس الوالد المفجوع. فقد كانت جميع الاعتراضات، وجميع الإِنكارات، وكلّ سورات الثورة والكراهيّة التي يلهبها شيطان الكبرياء، قد تبدّدت من نفسه، بفضل الكتاب الصغير الذي جاء به ابنه المحتضر، أَو بالحريّ الذي وضعته العذراء نفسها بين يديه.

وقد أَصابت العذراء بحجرٍ واحدٍ هدفين، لا بل أَكثر. فالأَب المرتدّ حديثًا، أَضحى أَكثر اندفاعًا، ودفاعًا عن القضيّة الصالحة ممّا كان حيال قضيّته الماضية، وقد جرّ في إِثره رهطًا كبيرًا من العمّال، ومن الفقراء الذين كانوا ضحايا الجهل والخداع. وقد تحقّق كلّ هذا التغيير بفضل مريم، الأُمّ المحبّة، الأُمّ الرائعة، التي لا يسوغ اليأس من غوثها.

حمايةٌ مؤثّرةٌ

لسنواتٍ خلت، حدث انفجارٌ مروّعٌ في مدينة برلين، حصد نحو عشرين ضحيّةً. وفي اليوم الذي تلا الانفجار، عقب الاحتفال بصلوات الشهر المريميّ، شوهدت خادمةٌ فقيرةٌ تدنو من هيكل السيّدة العذراء، وتقدّم لأُمّ اللّه طاقةً رائعةً تضمّ أَجمل الأَزاهير، وهي تسكب وابلاً من الدموع. وقد أَجابت الذين استوضحوها عن سبب هذه التقدمة: «أَمس صباحًا، أَرسلتني سيّدتي إِلى هذه المصبنة التي لم تعد اليوم سوى كومة أَنقاض. وفيما كنت مارّةً بالقرب من الكنيسة، خطر لي أَنّه لن يتاح لي في المساء أَن أُشارك في الاحتفال بصلوات الشهر المريميّ، فلأدخل، إِذن، وأَتلُ «السلام عليك يا مريم»».

دخلت، وتلوت «السلام»، ثمّ قصدت المصبنة، وفيما كنت أَهمّ بالدخول إِليها دوّى الانفجار، فلو لم أَكن قد تلبَّثتُ لتلاوة السلام، لكنتُ داخل المصبنة، حين حدث الانفجار، ولكانت أَضحت المقبرة مثواي الآن.

كم حماية العذراء مؤثّرةٌ!

نعمة خلاصٍ تحقّقت بوساطة مريم

كان أَميرٌ ينتمي إِلى أُسرةٍ مالكةٍ في أَلمانيا قد نُشِّئ على الإِلحاد، على يد مربٍّ زنديقٍ ماجنٍ.

وكان الإِلحاد يترسّخ في نفسه كلّما تقدّم في السنّ. ولمّا بلغ الحادية والسبعين أَضحى لا يتمالك نفسه عن قذف أَقذعِ تجديفٍ كلّما سمع اسم الله. وقد رقّت لحاله امرأةٌ كانت تشهده منذ عشرين سنةً، فأوصت قلب مريم المنزّه من الدنس، بالصلاة من أَجله.

أَيّامٌ معدوداتٌ كرّت، وإِذ بذلك الرجل الذي لم تساوره، قطُّ، فكرةٌ دينيّةٌ، أَصبح مهووسًا بأُمور الدين. فقد بدأت النعمة عملها. وفي الأَحد التالي، صلّى أَعضاء الجمعيّة، أَيضًا، من أَجله. ومنذ تلك اللحظة لم يذق للراحة طعمًا، لا نهارًا، ولا ليلاً. فعندما كان، بفعل الإِرهاق والنعاس، يغفو لحظاتٍ، كان حلمٌ مزعجٌ يوقظه مذعورًا: فقد كان يُخيّل إِليه أَنّه كان يُقبض عليه، ويُجرّ إِلى محكمة الله، كي يؤدّي حساب سلوكه. هذه الفكرة كانت تطارده حتّى في أَثناء النهار، وتعذّبه أَشدّ عذابٍ.

في تلك الأَثناء، تنامى إِلى علمه أَنّ إِيقونة السيّدة العذراء تُحدث في من يحملونها تأثيرًا عجيبًا، فالتمسها بإِلحاحٍ، وجيء بإِيقونةٍ سبق تبريكها، فتلقّاها بحميّةٍ، وقبّلها باحترامٍ، وعلّقها في عنقه قائلاً: «لن تبارحني أَبدًا».

واستمرّ أَعضاء جمعيّة قلب مريم المنزّه من الدنس يصلّون من أَجله، ويتناولون عن نيّته، إِلى أَن استقرّ في نفسه السلام والفرح، وأَمسى نومه أَوفر هدوءًا وراحةً. وأَسبغت عليه العذراء، التي كانت تبتغي خلاصه، فيضًا من النعم

الأُخرى. ففي ليلة الإِثنين الثلاثاء أُوقظ برقّةٍ، ورأى غرفته مغمورةً بنورٍ ساطعٍ. دُهش، والتمس تفسيرًا لهذه الظاهرة، فظهرت له سيّدةٌ جليلة الطلعة، ذات محيًّا يقطر رقّةً ورفعةً، ترتدي ثوبًا أَبيض، ودنت منه، وأَنذرته بأَنّ الأَوان قد حان، كي يضع لخطاياه نهايةً، فلو هو مات، على حاله الراهنة، لكان مصيره الهلاك الأَبديّ. ولكنّه، إِن ارتدّ وتقبّل سرّ التوبة، لأَنعم عليه اللّه بسعادةٍ لا نهاية لها. وما إِن فرغت السيّدة من كلامها هذا حتّى توارت وتوارى معها النور.

في ليلة الثلاثاء الأَربعاء تكرّر الاستيقاظ عينه، والظهور عينه، والإِنذار عينه من قبل السيّدة السرّيّة.

وتجدّدت الظاهرة ذاتها ليلة الأَربعاء الخميس، ولكنّ السيّدة أَعلنت آنذاك أَنّ ذلك الظهور هو الأَخير، وأَهابت به أَن يحمل إِنذارتها على محمل الجدّ، لأَنّ خلاصه متعلّقٌ باستجابته لها. ثمّ توارت عن أَنظاره، ولم تعد تظهر ثانيةً.

هذه المعجزات الكثيرة نالت منه، فطلب كاهنًا يلقنّه مبادئ الكاثوليكيّة، وتلقّى سرّ التوبة، والمناولة الأولى، وتغيّر تغيّرًا جذريًّا بفضل عناية مريم العجيبة.

ورغب في العودة إِلى موطنه، كي يردّ الهراطقة إِلى اللّه، بعد أَن يروي لهم النعمة التي أَغدقتها عليه السيّدة العذراء. ولكنّ اللّه اكتفى بنواياه الطيّبة، فلقي حتفه قبل بلوغ غاية سفره.

مريم رجاء البائسين

كان رجلٌ، بعد أَن قضى عمره في الاستقامة والصلاح، قد ارتكب خطيئةً فظيعةً. ولمّا عاد إِلى نفسه، وتبيّن جسامة إِثمه، خطر له، في الحال، اللجوء إِلى علاج التوبة الخلاصيّة. ولكنّه لشدّة الخجل من فعلته النكراء، لم يقوَ على توطين نفسه على الاعتراف. وعندما أَرهقه تبكيت الضمير، الذي لم يكن يفسح له لحظة سكونٍ، اتّخذ قرارًا أَحمق بإِغراق نفسه، راجيًا، بذلك، وضع نهايةٍ لأَزمته النفسيّة المضنية. غير أَنّه، عندما انتهى إِلى ضفّة النهر، ارتعد وهو يفكّر بالهلاك الأَبديّ الذي سيودي بنفسه إِليه. وعاد يذرّف دموعًا حرّى، ويتضرّع إِلى الربّ أَن يغفر له خطيئته، من غير أَن يضطّر إِلى الاعتراف. وخُيّل إِليه أَنّه، بفضل زيارة عدّة كنائس، وبالاستبحار بالصلاة، وممارسة أَعمال التوبة، سيظفر بسلام النفس. ولكنّ كلّ ذلك لم يُجدِهِ نفعًا.

وذات ليلةٍ، إِذ كان غارقًا في لجّةٍ من الكآبة، شعر بدافعٍ شديدٍ يحدوه إِلى الاعتراف. فنهض منذ الصباح الباكر، وشخص إِلى الكنيسة. ولكنّه عندما همّ بالدخول إِلى كرسيّ الاعتراف، استولت عليه، أَكثر من أَيّ يومٍ، مشاعر الخجل، ولم يقوَ على تنفيذ ما أَلهمته النعمة فعله. وبعد مضيّ وقتٍ قصيرٍ، عاد إِلى الكنيسة ذاتها يحدوه القصد عينه، ولكنّ الخوف والخجل لجماه، ثانيةً، عن تنفيذ مقصده. وآثر الموت على إِعلان خطيئته.

ولكن جال بخاطره أَن يوكل نفسه إِلى السيّدة العذراء، قبل العودة إِلى بيته. فمضى وسجد أَمام هيكل أَمّ الله، معبّرًا لها عن حاجته اللازبة لها، ويتوسّلها بإِلحاحٍ أَلاّ تهمله. وقد تأَثّرت أُمّ الرحمة بتأَوّهات الخاطئ المسكين، ونالت له من ابنها التغلّب على التجربة التي كانت تحاصره. فما كاد يهوي على ركبتيه

حتّى شعر بتغيير كبيرٍ يغزو قلبه. فنهض يضجّ عزيمةً، وجاء إلى معرّفه، وباح له بجميع خطاياه، وهو يسكب وابلاً من الدموع. وانتابه إحساسٌ بأَنّ عبئًا باهظًا ينزاح عن ضميره. وقد اعترف، لاحقًا، أَنّه لمّا نال حلّة الغفران، غمره من البهجة أَكثر ممّا لو كان ربح أَموال العالم.

السيف الثامن

كان شابٌّ تقيٌّ قد ألف أَن يتأمّل، كلّ يومٍ، صورة أُمّ الآلام، وقد غُرست سبعة سيوفٍ في قلبها.

وذات يومٍ داهمته التجربة، فسقط، وارتكب خطيئةً جسيمةً، وبات في وضعٍ وبيلٍ. وفي الغداة عندما قام بزيارته المعهودة لصورة العذراء، لحظ سيفًا آخر مغروسًا في فؤادها، بحيث ارتفع عدد السيوف التي تطعنه من سبعةٍ إِلى ثمانيةٍ. وفيما كان يتأمّل، بدهشةٍ، هذه المعجزة، جاءه هاتفٌ داخليٌّ مؤكّدًا أَنّ خطيئته هي التي كانت سبب السيف الثامن. فأَخذ به، بغتةً، ندمٌ صادقٌ، ومضى فاطّرح أَمام معرّفٍ، ملتمسًا الغفران.

وبعد أَن تصالح مع الله، أَراد شكر المحسنة الرؤوف، وعاد فخرّ ساجدًا أَمام صورتها المقدّسة، فتبيّن غياب السيف الثامن. فتوسّل، بتواضعٍ، شفيعته القديرة أَن تنال له نعمة إِيثار الموت على طعن قلبها الأموميّ، ثانيةً، بالخطيئة.

مريم معزّية الحزانى

كانت امرأةٌ قد فُجعت بفقدان ابنها، ولم يفلح أيّ شيءٍ في تعزيتها أو في التخفيف من وطأة حزنها الذي كاد يودي بها إلى القنوط، وقد عزفت عن كلّ راحةٍ، وعافت الطعام، حتّى انتاب كلّ أُسرتها القلق عليها. وخطر لفنّانٍ ورعٍ أن يثبت بأَمانةٍ ودقّةٍ، على لوحةٍ، ملامح الابن الذي كانت قد فقدته، عسى أن يريحها ذلك. غير أنّه، في الآن عينه، خشي أن تضاعف رؤية تلك اللوحة أَحزانها وقنوطها. ودلّه إيمانه إلى رسم لوحتين متساويتين حجمًا، تُظهر إحداهما صورة الابن الفقيد، والأُخرى صورة أُمّ الآلام، مريم، عند أَقدام الصليب، حاملةً يسوع بين ذراعيها، شاحبًا، مغطًّى بالنجيع، فاقدًا الحياة. وقد دوّن الفنّان التقيّ، في أَسفل هذه اللوحة: «لقد فقدتِ أَكثر ممّا فقدنا».

لدى رؤيتها لوحة ابنها أَطلقت المرأة المسكينة صيحةً تفتّت الأَكباد، وسقطت مغميًّا عليها، ولكنّها سقطت عند أَقدام معزّية الحزانى. ولمّا عادت إلى وعيها، وتأمّلت، في اللوحة الأُخرى، عمق أَلم مريم، وسموّ استسلامها للمشيئة الإِلهيّة، هتفت: «أَجل لقد فقدتْ أَكثر ممّا فقدتُ، ولم تتهاوَ». وفي الحال، هبّت ناهضةً، ومسحت دموعها، ومنذ تلك اللحظة لم يُسمع لها نحيبٌ.

كلّما انقضّت علينا الخطوب، واجتاحتنا الأَحزان، فلنحدّق إلى مريم، واقفةً عند أَقدام الصليب، وهي ستلهمنا الاستسلام، وستهبنا العزيمة.

قدرة الصلاة الكلّيّة

السيّد «د....» نجّارٌ قديمٌ، ورجلٌ مستقيمٌ، في نحو الخمسين من عمره. ولكنّ علاقته بالدين لا تتخطّى هذا الحدّ. كان يمقت الكهنة، ولم يتلقَّ من الأَسرار سوى العماد، وتزوّج بلا اعترافٍ. وكان قد اعتلّ منذ سنواتٍ، وما انفكّت علّته تتفاقم، إِلى أَن لزم الفراش، وأَعلن الأَطبّاء يأسهم من شفائه.

وكانت ابنته التي نشأت في ديرٍ للراهبات، قد احتفلت بمناولتها الأولى منذ أَشهرٍ، وهمّها الأَكبر داء والدها. غالبًا ما كانت تُشاهَد باكيةً، وعندما تُستَوضح عن سبب حزنها تجيب: «إِنّ والدي مريضٌ، وأَخشى أَن يرحل محرومًا من الأَسرار الخلاصيّة». يوم مناولتها الأولى لم تلتمس سوى نعمة ارتداده، وقد انضمّت إِليها رفيقاتها طالباتٍ من السماء هذه النعمة، وقد استمررن في التماسها ثمانية أَشهرٍ. وكانت السيّدة العذراء هي قناة هذه النعمة.

راهبةٌ، ذات صلة قربى بالمريض، بعثت له برسالةٍ، ومع أَنّها لم تتطرّق إِلى قضيّة الدين الجوهريّة، توجّس الرجل من أَن تمهّد الرسالة لما هو أَكثر جديّةً، قائلاً: «ترغب قريبتي أَن أَعترف وأَتناول، وأَنا لا أُومن بكلّ هذه الممارسات، فما هي سوى اختراعات كهنة. وعلى أَيّ حالٍ، أَنا لم أَسرق، ولم أَقتل، وقضيت عمري بشرفٍ واستقامةٍ، ولي ملء الثقة في الرحمة الإِلهيّة».

ثمّ أَوفدت إِليه قريبته الراهبة، تلك، زميلةً لها، بيّنت له أَنّه إِن وافق على مقابلة كاهنٍ، لكان من شأن رجل الله إِقناعه بأَنّ الاستقامة ليست كافيةً للخلاص. ولكنّه ردّ بجفوةٍ: «إِيّاكم وأَن تأتوني بمثل هؤلاء القوم، الذين لا

أَريد رؤيتهم». وكانت الراهبة تعوده، كلّ يومين، ولا تُفلح في تغيير موقفه، قيد أُنملة.

واتّضح أَن لا مفرّ من اللجوء إِلى الله وحده. فأُقيمت تساعيّة «تذكّري يا أُمّ الله»، وقدّمت ابنة المريض لأَبيها إِيقونةً عجائبيّةً راجيةً منه تعليقها في عنقه مدّة خمسة عشر يومًا، على أَن يعيدها لها بعد انقضاء هذه المهلة، كي تحتفظ بها ذكرى غالية. فقال ضاحكًا: «لا تخفى عليّ خديعتكم، ولكنّ هذه الإِيقونة لن تكون أَكثر من فلسين في جيبي، ولكي أُثبت لكم أَنّني متحرّرٌ من الأَحكام المسبّقة، سأُعلّقها في عنقي».

وقد آتت وساطة العذراء ثمارها بلا تلكّؤ. ففي الغداة طرأ تغييرٌ واضحٌ على موقف المريض وعلى أَقواله، فأَعلن: «أَظنّ أَنّني لن أَغضب إِن جئتموني بكاهنٍ، بل إِنّي سأُقابله بسرور». وجاء كاهنٌ، وشرع بمحادثته عن شؤون الدين التي كانت موضع تساؤلاته: الأَسرار، وسلوك بعض المسيحيّين الذي يمثّل عثرةً. وقد بدّد حديث الكاهن الكثير من شكوك المريض، الذي صرّح للراهبة التي زارته: «لقد أَكّد لي الكاهن أَنّه ليس أَكثر منّي إِدراكًا للأَسرار، وأَن فهمها ليس شرطًا للخلاص. ولكم يؤسفني أَنّني لم أُحِطْ، من قبلُ، بشؤون الدين. كنت أرى الدين وحشًا، وإِذ به مصدر عزاءٍ. وأَضاف قائلاً: «إِنّي متأهّبٌ لتنفيذ كلّ ما يأمر به الدين. لقد أَطلعت الكاهن على سيرة حياتي بكاملها، ولكن يبدو أَنّ ذلك غير كافٍ».

لم يكن قد اعترف، بعدُ، ولكنّ الله شاء أَن تجتاحه، بعد أَيّامٍ قلائل، نوبة مرضٍ حادّةٌ، وخشي ذووه أَن تودي بحياته. واستدعي الكاهن على جناح السرعة، فعرّفه، ومنحه بركة الغفران. حينها قال المريض للكاهن: «إِن كان لديك بضع لحظاتٍ تودّ إِضاعتها، فتعالَ واقضِها إِلى جانب هذا الخاطئ المسكين».

في الغداة جاءه الكاهن بزيت المحتضرين، وبالزاد الأَخير، الذي كان، في الآن عينه، مناولته الأولى. وكان قد طلب من ابنته أَن تلقّنه، في هذه الأَثناء،

أَفعال التوبة، والمناولة، والشكر. وعندما رأى المريض الاستعدادات الجارية لإِقامة مائدة القربان طالب بأن يُؤتى، أَيضًا، بصورة العذراء التي تخصّ ابنته وأَن توضع على المائدة. فقد كان حريصًا على أَن ترأس الاحتفال السيّدة العذراء القدّيسة التي يدين لها بسعادته. وقد حرص، أَيضًا، على حضور قريبةٍ له، طالما ناقشها بشؤون الدين، وكان سبب عثرةٍ لها، فاستدعاها لتكون شاهدةً على عودته إِلى اللّه.

ترقّب، بخشوعٍ عميقٍ، مجيء الكاهن. وبعد أَن استمع إِلى إِرشاداته، قدّم يديه كي تُمسحا بالزيت، في قناعةٍ وخشوعٍ انتزعا دموع المشاهدين، ثمّ تناول القربان المقدّس.

ولدى توديعه الكاهن والراهبة قال لهما: «لست أَستطيع التعبير عن سعادتي، وعن امتناني لما قدّمتماه لي من عونٍ».

وصرّح الكاهن، من جانبه، أَنّه، منذ مباشرته رسالته الكهنوتيّة، لم يشهد، قطّ، ارتدادًا إِلى اللّه، على فراش الموت، مثل ذلك الارتداد، ولم يداخله مثل العزاء الذي غمر نفسه آنذاك، وهو يمنح الأَسرار الأَخيرة.

خدّام مريم يستعذبون الموت

كان القدّيس «ستانسلاس كوستكا» من أَكثر المكرّمين لمريم اندفاعًا، ولم يكن يتوجّس من الموت أَيّة خشيةٍ، بل كان يرى فيه السعادة الكبرى التي قد يظفر بها. وقد استمع، في الأَوّل من شهر آب، إِلى عظةٍ حضّ فيها الخطيب مستمعيه على عيش كلّ يومٍ، وكأَنّه اليوم الأَخير في حياتهم، في تأَهّبٍ دائمٍ للمثول أَمام محكمة يسوع المسيح. ولمّا خرج من الكنيسة، قال لمن كانوا بجانبه: «إِنّ هذه النصيحة هي لي صوت الله، إِذ إِنّني سأودّع هذه الدنيا في غضون هذا الشهر».

بعد أَربعة أَيّامٍ، وبمناسبة اقتراب عيد انتقال السيّدة العذراء، قال لكاهنٍ يسوعيٍّ: «ما أَجمل اليوم الذي تُوّجت فيه العذراء ملكةً على السماء، ورُقّيت فوق مصافّ الملائكة! وإِن كان صحيحًا ما سمعت أَنّ سكّان السماء يجدّدون كلّ سنةٍ الاحتفال بهذا التتويج، فلكم أَودّ مشاهدة الذكرى الأولى القادمة لهذا التتويج!». وكانت نبرة قوله معبّرةً عن شدّة رغبته هذه.

في العاشر من ذلك الشهر كتب رسالةً إِلى السيّدة العذراء يتوسّلها أَن تنال له نعمة الموت قبل عيد انتقالها، كي يُتاح له مشاهدة الاحتفال بهذا العيد في السماء. كان يحمل هذه الرسالة وهو يتقدّم إِلى المناولة. وفي مساء ذلك اليوم أَلّمت به حمّى خفيفةٌ، فحدّث نفسه، وهو يهمّ بالإِيواء إِلى فراشه، بفرحٍ يتعذّر التعبير عنه: «لن أَنهض من هذا السرير» وأَضاف مبتسمًا: «أَظنّ أَنّ العذراء قد لبّت أُمنيّتي، وأَنّني سأكون في السماء، في يوم عيد انتقالها».

حتّى الرابع عشر من آب، لم يبدُ أَنّ علّته كانت تتفاقم. ولكنّه، بعد ظهر

ذلك اليوم عينه خارت قواه، بغتةً، وتردّى إِلى وَهن مميتٍ. ولمّا استعاد بعض قواه طلب أَن يسجّى فوق الرماد، على غرار التائبين، فلُبّي طلبه. وتلقّى الأَسرار الأَخيرة، في مثل تقوى ملاكٍ، وقد اقتصر نشاطه، بعدئذٍ، على الصلاة، والتحديق إِلى السماء، وإِلى صورةٍ للعذراء، لم يكن يني يتأمّلها، ويقبّلها، ويضمّها بحبٍّ إِلى قلبه.

قُبيل وفاته ظهرت له العذراء، كما اتّضح من ملامح محيّاه المتوهّجة، ومن نظراته المفعمة بهجةً سماويّةً. وأَخيرًا ثبّت أَنظاره صوب السماء، وبمنأًى عن أَيّ جهدٍ، أَو نزاعٍ، بسكونٍ وابتسامٍ، أَسلم نفسه بين يدي أُمّه السماويّة، فجر يوم الخامس عشر من آب، وهو في الثامنة عشرة من عمره.

هذه التفاصيل أَدلى بها شهود عيانٍ وهم يهتفون: «ما أَعذب الموت بين يدَيْ مريم!».

عتابٌ وتوبةٌ

طبيبٌ فرنسيٌّ طويل الباع في العلم، وذائع الصيت، جاءه، يومًا، رجلٌ يحملُ، في ساقه، جرحًا ناجمًا عن طلقةٍ ناريّةٍ، جرحًا قديمًا، ولكنّه يتّسم بطابعٍ خاصٍّ، إذ كانت تنمو فيه الديدان. وسعى النطاسيّ إلى إزالة هذه الديدان، على الأقلّ. غير أنّ جميع مساعيه باءت بالفشل، إلى أن قال له المريض، يومًا: «كفانا محاولاتٍ، فلا ريب أنّني سأموت وأنا أُقاسي من هذه العلّة المخزية». وأجابه الطبيب: «في الواقع، ثمَّة أمرٌ غير طبيعيٍّ. وأنا لم أشهد لهذه الحالة نظيرًا، مع أنّ لي عهدًا طويلاً في ممارسة الطبّ، وقد مررت بالعديد من الحالات الغريبة». وعاد فطرح على مريضه سؤالاً طالما طرحه سابقًا، مستفسرًا كيف حدث ذلك الجرح. فأجاب المريض:

– «حدث ذلك في إسبانيا، كما أخبرتك آنفًا. ولكنّني لم أذكر السبب الذي يجعلني على يقينٍ من استحالة شفائي. وها إنّي أبوح لك به، أخيرًا: كنت في العشرين من عمري، وأُمرت بالالتحاق بفوجي في الجيش، وبالذهاب إلى إسبانيا. وقد رافقني اثنان آخران من قريتي هما توما وفرنسوا. كانت تسكننا آراء ذلك الزمن. كنّا ملحدين، بل زناديق، فخورين بالانجرار مع التيّار الجاري. سافرنا فرحين، وقُبَيْل بلوغنا غايتنا إذ كنّا نجتاز قريةً جبليّةً، شاهدنا تمثالاً للعذراء تبيّن لنا أنّه يحظى باحترامٍ جمٍّ، إذ إنّه، رغم الثورة والثوّار، ما برح قائمًا على قاعدته، عند باب الكنيسة، ولم ينله أحدٌ بتشويهٍ. وخطر لواحدٍ منّا أن يسيء إليه، تحدّيًا لخرافات القرويّين. وإذ كانت بنادقنا معنا اقترح توما أن نطلق الرصاص على التمثال. وتلقّى فرنسوا الاقتراح بضحكةٍ مدوّيةٍ. أمّا أنا فقد بتّ، متردّدًا خجولاً، خاشيًا أن أبدو لرفيقيّ جبانًا، وحاولت أن أصرفهما عن ذلك

المشروع الذي كان يرعبني، في أَعماقي، وقد خطرت صورة أُمّي ببالي، فسخر رفيقاي منّي.

وبدأ توما بإِطلاق النار، فأصاب جبين التمثال، وأَصابه فرنسوا في صدره، وقالا لي: هيّا، إِنّه دورك الآن. فلم أَجرؤ على الرفض، وصوّبت مرتجفًا، وقد أَغمضت عينيّ، لا إِراديًّا، واستقرّت رصاصتي.... في ساق التمثال، فوق الركبة، حيث هي إِصابتي، ولذلك أَنا موقنٌ بأَنّني لن أَشفى.

كنّا نتأهّب لمتابعة مسيرتنا، عندما قالت لنا امرأةٌ عجوزٌ كانت شاهدةً على فعلتنا الأَثيمة: «ما فعلتموه سينقلب عليكم شؤمًا». فهدّدها توما، فيما كنت حزينًا، بسبب ما فعلنا. أَمّا فرانسوا فلم يكن متأثّرًا بقدر ما كنتُ، ولكنّه لم يكن سعيدًا. وتابعنا مسيرتنا بمشقّةٍ، وكثيرًا ما تشاجرنا. في ذلك المساء عينه التحقنا بفوجنا، وبعد بضعة أَيّامٍ التحمنا بالعدوّ. وأَعترف بأَنّني اندفعت إِلى ساحة الوغى فرحًا، مع أَنّ تمثال العذراء لم يكن يبارح فكري. وتمّ كلّ شيءٍ على خير وجهٍ. وقد تميّز توما ونال وسامًا، وتقهقر العدوّ، وأَوقف قائدنا الهجوم، غير أَنّ طلقةً ناريّةً دوّت من وراء صخرةٍ، ولكأنّها آتيةٌ من السماء. ودار توما على نفسه، وهوى ميتًا، ووجهه في الرغام. وخففنا أَنا وفرنسوا لإِنهاضه، ولكنّ الحياة كانت قد فارقته، إِذ كانت الرصاصة قد اخترقت جبينه، بين عينيه حيث كان قد أَصاب التمثال، قبل أَيّامٍ. وكنّا، أَنا وفرنسوا، يحدج أَحدنا الآخر، صامتين، وقد كسا وجهينا شحوب الموت.

في المخيّم كان فرنسوا إِلى جانبي، وقد جفاه النوم. توقّعت أَن يكلّمني، كي أَنصحه بتلاوة صلاةٍ، ولكنّه التزم الصمت، وأَنا لم أَجسر على التحدُّث عن الهاجس الذي كان يطرد عنّا النوم.

في الغداة، هجم العدوّ ثانيةً، بقوّةٍ، فشدّ فرنسوا على يدي وقال: «لقد آن دوري، اليوم، أَمّا أَنت فمحظوظٌ، لأَنّك أَسأت التصويب. وكان المسكين مصيبًا في توقّعاته. ففي هذه النوبة دُحرنا، ولكن، بعد ساعاتٍ من تقهقرنا، لم يكن أَيٌّ منّا قد أُصيب. وإِذ برصاصةٍ تنطلق من خندقٍ كان قد هوى فيه جنديٌّ

إسبانيٌّ مصابٌ إصابةً قاتلةً. سقط فرنسوا، وقد اخترقت الرصاصة صدره من جانبٍ إلى آخر. ويا لها من ميتةٍ! كان يتدحرج على الأرض، طالبًا كاهنًا، فيما كان الرفاق المحيقون به، يهزّون أكتافهم تعبيرًا عن لامبالاتهم. وقد تركوه على الطريق، ومضوا.

ومنذ تلك اللحظة بتّ متيقّنًا من أنّني لن ألبث أن أُصاب، أنا أيضًا، وعزمت على الاعتراف بفعلتي التدنيسيّة لأوّل كاهنٍ قد أُصادفه. ولكن لسوء طالعي لم أعثر على أيّ كاهنٍ. ولكن بما أنّ الأُمور سارت، بعد ذلك، بلا إشكالٍ، تبدّدت، شيئًا فشيئًا، هواجسي، وتبدّدت معها مقاصد توبتي.

وقُرّرت عودتنا إلى الوطن. وقد نلت ترقيةً، وغابت عن ذهني كلّ فكرة إثمٍ، وتوبةٍ، وعقابٍ. ولكنّني تذكّرت كلّ ذلك عند الحدود، على مسافة مسيرة يومٍ من القرية التي دنّسنا فيها التمثال. فبنتيجة حادثٍ يتعذّر تفسيره، انطلقت رصاصةٌ من صفوفنا، وأصابتني حيث ترى، أيّها الطبيب. وتحقّقت نبوءة المرأة العجوز، فقد لقي رفيقاي حتفهما، وأنا عدت جريحًا. جرحي لم يوحِ بالخطورة، بادئ الأمر، وقد أكّد لي الجرّاح أنّي سأبرأ منه في غضون أيّامٍ معدوداتٍ، وصدّقته. ولكن، كم كانت دهشته تعادل خوفي، عندما شهد توالد ديدانٍ لا ينقطع، داخل الجرح، ممّا حيّر علمكَ أيضًا!

وها إنّي، منذ عشرين سنةً، أُعاني من هذا الجرح الذي عجزت جميع العلاجات عن شفائه. ورغم جميع توسّلاتي إلى الله، ومع رجائي في رحمته، لست أشكو. فقد كان جرحي دواءً لنفوسٍ عديدةٍ، وخاصّةً لنفسي. وإنّي لواثقٌ من أنّني إذا بلغت نهاية حياتي، كما يجب عليّ أن أبلغها، أي بسيرةٍ مسيحيّةٍ، وبالتوبة، فإنّي سأكون مدينًا بذلك لجرحي المريع. إنّني أشكّ في إمكانيّة شفائي، ولكن لا يخامرني أيّ شكٍّ في الرحمة الإلهيّة، وآمل أن أموت محاطًا بنعمة الله، بشفاعة تلك التي أهنتها».

جدوى الصلاة إلى مريم

كانت امرأةٌ تميّزت، سابقًا، بتقواها الحارّة، قد سمّمت نفسها بمشاعر الحقد على أَخيها، بحيث أَقسمت أَلاّ تغفر له، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة. ومن جرّاء ذلك، هجرت الأَسرار، وتخلّت حتّى عن الصلاة.

ومُنيت بمرضٍ عضالٍ كان يهدّ صحّتها بلا رحمةٍ. وقد بذل كاهن الرعيّة كلّ كنوز غيرته وإِقناعه لعلّه ينتزع منها كلمة صفحٍ، ولكن بلا طائلٍ. وحينئذٍ أَوكل إِلى مرسلٍ أَن يتولّى المهمّة عنه، وقد روى هذا المرسل:

«لقد أَدلت تلك المرأة المسكينة بأَقوالٍ مخيفةٍ، وصرّحت: أُريد أَن تُحفر على قبري هذه الكلمات: «هنا ترقد امرأةٌ انتقمت». فاعترضت:

– وأَلا تخشين عقاب جهنّم؟

– جهنّم! إِنّ مجرّد التفكير بأَنّني استطعت الانتقام يعزّيني عن جميع العذابات.

بعد أَن فشلت جميع حججي في إِقناعها، نصحتُ تلك البائسة بالصلاة كي تنال نعمة القدرة على المسامحة. فأَجابت:

– أَعلم أَنّني قد أَظفر بتلك النعمة، ولكنّني لا أُريد الظفر بها.

فقلت:

– هل توافقين، أَقلّه، على أَن أُصلّي، أَنا، نيابةً عنك؟

– صلِّ بقدر ما تشاء.

فجثوت، وانتزعت من كتاب صلواتي صورةً للعذراء، سيّدة المعونة الدائمة، وأَودعتها بين يدي المرأة، وشرعت أَتلو «السلام يا ممتلئةً نعمةً....» وما إِن بدأت تلاوةً ثانيةً لهذه الصلاة، حتّى أَوقفتني المرأة قائلةً:

– كفى، أَبتِ، إِنّي أَصفح! وأَرجوك أَن تسمع اعترافي!».

إِنّه ليتعذّر وصف الإِشراق الذي أَضاء وجهها حينئذٍ. ولكنّني أَودّ الإِقرار، لمجد السيّدة العذراء، أَنّني في ذلك اليوم، شهدتُ، بأُمّ عينيّ، كيف أَنّ الصلاة، ولا سيّما تلك المقدّمة بواسطة العذراء القدّيسة، هي سهمٌ تخترق السماوات.

مريم تنتصر على عناد الخطيئة

في نهاية عام ١٨٧٩، اعتلّ أَحد زعماء الماسونيّة في مدينةٍ فرنسيّةٍ. كان قد نأى عن الدين منذ صباه، ولم يعرف الربّ. ولكنّ إِله العطف، الذي يأبى هلاك الخاطئ، بل يبتغي عودته إِليه وخلاصه، أَرسل إليه الأَلم كي يفتح عينيه على الحقيقة.

وقد رقّ لحاله صديقٌ مؤمنٌ كان يصلّي من أَجل ارتداده، وبوحيٍ من العذراء المباركة تمكّن من إِقناعه بتعليق الإِيقونة العجائبيّة في عنقه. وكانت تلك له طريق دمشق، وسهم النعمة التي جعلت ذلك الرجل الذي قضى عمرًا بأكمله يجرّ النفوس إِلى الانضواء في صفوف الجمعيّات السرّيّة، يتوب إِلى ذاك الذي ثار عليه مدى سنواتٍ طويلةٍ.

فقد أَشرق على نفسه نورٌ ساطعٌ، وآمن إِيمانًا كاملاً، وأَدرك جوهر الحقيقة، الحقيقة المسيحيّة، بكلّ عظمتها وبهائها. لقد أَحدثت إِيقونة العذراء العجائبيّة المعجزة، وأَطاحت بكلّ العوائق. فاعترف، وتلقّى، وهو على فراش الموت، سرّ الغفران الأَوّل، الذي كان مصالحته الأَخيرة مع اللّه. لقد تغيّر تغيّرًا جذريًّا، وكان لا يني يصرّح، بفرحٍ: «هذه أَوّل لحظة سلامٍ أَتذوّقها مذ كنت في الخامسة عشرة».

كان قد فقد القدرة على الشخوص إِلى المائدة الإفخارستيّة، والركوع أَمامها، ولكنّ يسوع جاء إِليه. استجاب للنعمة، وبعد أَن تطهّر قلبه وتجدّد، تلقّى يسوعَ في القربان المقدّس. ويا لها من مناولةٍ أولى، كانت، أَيضًا، الأَخيرة!

ووافى خادم الرعيّة الأَوّل كي يمنحه سرّ التثبيت، الذي زوّده بقوّةٍ متجدّدةٍ،

وبنعمةٍ جديدةٍ، قبل بلوغه المرفأ. وكان، بعد هذه القيامة الروحيّة، يهيب بأَصدقائه: «سيروا في إِثري، احتذوا بمثالي، وستجدون، في ممارسة الدين المسيحيّ، السلام، والفرح، والسعادة».

وقد فارق ذلك الخاطئ التائب هذه الدنيا، والإِيقونة العجائبيّة جاثمةٌ على صدره، والصليب في يده. وتحوّل نفَسه الأَخير إِلى فعل حبٍّ.

الفتى البحّار الذي حمته مريم

في الخامس والعشرين من شهر نيسان ١٨٥٥، باغتت عاصفةٌ هوجاء مركب صيّادين مرسيليّين، وأطاحت الريح الشديدة بابن صاحب المركب، البالغ من العمر خمسةً وعشرين عامًا. وقد حاول البحّاران اللّذان بقيا في السفينة إنقاذه، وألقيا إليه، مرّاتٍ متتاليةً، حبل نجاةٍ، غير أنّ جميع محاولاته للتعلّق به باءت بالفشل. كان البحّار الفتى يتقن السباحة، فظلّ، أكثر من ساعةٍ، يصارع البحر الهائج. وفي غمرة محنته لمح على تلّةٍ، بحذاء الشاطئ، تمثالاً للسيّدة العذراء، فصرخ نحوها: «يا مريم، يا أُمّي الطيّبة، لا تدعيني أهلك».

وما عتّمت أن تجلّت معونة تلك التي استغاث بها. فقد كان، من جرّاء الإنهاك، قد اختفى في أعماق اللجّة، ولامس القعر، وإذ به يُدفع إلى فوق، ويطفو على السطح. وفجأةً دفعت نحوه هبّةُ ريحٍ قويّةٌ المركبَ حيث كان رفيقاه يبكيان غيابه، فأسرعا بإلقاء حبل الإنقاذ صوبه، ولكنّه لم يتمكّن من التقاطه، فقد كانت أصابعه متشنّجةً، ومشلولةً بفعل البرد والإعياء. ولكن، بفعل العناية الإلهيّة لامس الحبلُ، فجأةً، فمه، فالتقطه بأسنانه، وجرّه رفيقاه بتؤدّةٍ ورفقٍ إلى المركب.

عشرين مرّةً كادت الأمواج المتوثّبة تنتزع الحبل من ممسكه الواهي، وتدفن الفتى في الهوّة. ولكنّ الأُمّ السماويّة ظلّت تحيطه بوقايتها إلى أن بلغ المركب.

وما إن هبط على الشاطئ حتّى هرع، مع ذويه، إلى مزار السيّدة العذراء وهو يهتف، وسط الكنيسة: «ماذا فعلت لك، أيّتها العذراء القدّيسة الكلّيّة العطف، فتكرّمت بإنقاذي؟».

وكان والداه يقاسمانه هذه المشاعر. ويسكبان دموع الفرح، ويقدّمان آلاف آيات الشكر.

ستحضر...

كان نبيلٌ بولونيٌّ هو الكونت «سولنسكي»، قد أُلقي القبض عليه متلبّسًا بحمل السلاح، في غمرة مقاومة بولونيا للاحتلال الروسيّ، وحُكم عليه بالإِعدام. ولمّا أُنبئت زوجته بالأَمر، استصحبت ابنها البالغ من العمر عشر سنواتٍ، وركعت معه، في مصلاّها، أَمام إِيقونةٍ لسيّدة الآلام السبعة، متضرّعةً: «يا مريم العذراء القدّيسة، صلّي لأَجلنا، واحمينا، وخلّصينا. أَعيدي زوجًا لزوجته، وأَبًا لابنه. لا ريب أَنّك سترأفين بدموعنا، أَنتِ التي لم يتوسّل إِليها أَحدٌ وخاب».

ثمّ نهضت المرأة وابنها ستانسلاس، وقد هدّأ رجاءٌ خفيٌّ آلامهما، ويمّما، برفقة خادمهما إِلى السجن الذي كان الكونت قد أودع فيه. وبفضل بضع نقودٍ ذهبيّةٍ، تمكّنا من الولوج إِلى الزنزانة المظلمة التي كان قابعًا فيها. بعد نحو ساعةٍ خرجت المرأة حزينةً، باكيةً، مخفيةً وجهها، ممسكةً بيد ابنها الذي كان، هو أَيضًا، يذرّف الدموع.

لم تُفتح زنزانة السجين، ثانيةً، إِلاّ في المساء، ولدى تفقّدها أَطلق السجّان صيحاتٍ حادّةً، معلنًا الخديعة، ومستنجدًا، إِذ تبيّن أَنّ الكونتيسّة قد حلّت مكان زوجها الكونت المحكوم عليه بالإِعدام، الذي فرَّ إِلى باريس برفقة ابنه ستانسلاس.

انقضت سنةٌ ونصف، والكونت يجهل كلّ شيءٍ عن مصير زوجته الشجاعة. ولم يكن بمقدوره الإِجابة على أَسئلة ابنه الملحّة: «متى ستعود أُمّي؟». إِلاّ بعباراتٍ مبهَمةٍ، تخفي قلقه المضني.

وأُودع الصبيّ في معهدٍ يديره كهنةٌ. وكان ينمو في العلم، والتقوى، والفضائل. ومع دنوّ موعد مناولته الأولى، كانت فكرة أُمّه تطارده بلا انقطاعٍ، ولا يني يقول لوالده: «إِنّي أُريد أَن تحضر أُمّي لمشاهدة مناولتي الأولى، ومن المؤكّد أَنّها ستحضر».

وذات مساءٍ، رسم على نفسه، إِشارة الصليب، وسطّر الرسالة التالية، موجّهةً إِلى پيير، خادم الكونتيسّة، الذي تلبّث في ڤرسوڤيا: «هل لك، يا پيير، أَن تقول لأُمّي إِنّي سأحتفل بمناولتي الأولى بعد شهرٍ من الآن، فلا بدّ من حضورها. لم أَكتب لها مباشرةً لأَنّ الرسائل الموجّهة لها تُصادر، ولكنّني أَعتمد عليك كي تبلّغها رغبتي، وإِنّي واثقٌ من أَنّك ستتّخذ جميع التدابير، في هذا السبيل.

أُقبّلك من كلّ قلبي».

ملحق: قُل لوالدتي إِنّني مقيمُ في المدرسة الداخليّة... في الشارع....».

ودسّ ستانسلاس، إِلى جانب رسالته، صورةً للعذراء مريم، تيمّنًا بحسن وصولها، وأَغلق المغلّف، وختمه وأَودعه علبة البريد. وفي هذه الأَثناء كان والده الكونت قد تلقّى من مجهولٍ بطاقةً لا تحتوي سوى هذه الكلمات: «لا أَملَ بعدُ، نفيٌ إِلى سيبيريا، استسلامٌ».

كان موعد المناولة الأولى يدنو، ولم يكن ستانسلاس قد أَطلع أَحدًا على شأن رسالته، لا أَباه، ولا معلّميه. ولكنّه حدّث اللّه عنها. كان يعدّ الأَيّام والساعات، وقد عاهد نفسه: «قبل مناولتي الأولى سأُصلّي تساعيّةً للسيّدة العذراء، وسأَتدبّر أَمري بحيث تنتهي التساعيّة لحظة حصولي على حلّة الغفران، وستكون صلاتي من الحرارة بحيث ستضطرّ السيّدة العذراء إِلى أَن تعيد لنا أُمّي».

عشيّة اليوم الموعود، وافى ذوو الأولاد المحتفلين بالمناولة الأولى، كي يباركوهم، عملاً بتقليدٍ تقويٍّ. وجاء الكونت سكولنسكي مع سائر الوالدين. وقفز ستانسلاس إِلى عنقه مقبّلاً، ثمّ ركع، وتلقّى بركته الأَبويّة، وقال: «هذه

هي بركتك، وإِنّي لأَرجو أَن أَنال، أَيضًا، بركة أُمّي». صمت الوالد، ولكنّ ستانسلاس واصل القول: «هل تعلم أَنّ والدتي ستحضر؟». فأطرق والده، حزينًا، واجمًا. ولكنّ الصبيّ أَضاف: «إِنّي حريصٌ على مشاركتها في مناولتي الأولى، وستشارك. لقد أَقمت تساعيّةً للسيّدة العذراء، وهذه التساعيّة ستنتهي في الساعة الخامسة من مساء اليوم. وأَنا سأتلقّى حلّة الغفران في الساعة الرابعة، وسأكون، حينئذٍ، ناصعًا كالملائكة، وسأتوسّل أُمّ اللّه أَن تعيد لي أُمّي، هذا المساء، أَو، أَقلّه، صباح الغد، بالتأكيد!».

حاول الكونت أَن يبتسم، ولكنّه لم يقوَ على الصمود أَمام حديث ابنه، فتركه ومضى.

في الساعة الخامسة من ذلك المساء، كان ستانسلاس قاصدًا بوّاب المعهد، عندما اعترضه أَحد الكهنة، وسأله: «إِلى أَين أَنت ماضٍ، يا ابني؟».

– كي استوضح هل سأل أَحدٌ عنّي.

– لقد جاء والدك، هذا الصباح.

– ولكنّي أَنتظر زيارةً أُخرى. أَنتظر أُمّي.

– ليست أُمّك في باريس.

– ولكنّها ستوافي. أَنا متيقّنٌ من ذلك.

– هيّا، يا بنيّ! إِنّي أُدرك رغباتك، وصلواتك. ولكن احذر تشتّت الفكر، في هذا المساء، بل عدْ إِلى أَترابك.

كان ستانسلاس قد انتهى من التساعيّة، وهو واثقٌ أَنّ ملكة السماء، كي تتمّم الأُمور على خير وجهٍ، ستعيد له أُمّه في الحال. وكان عزوفه عن تفقّد البوّاب تضحيةً كبيرةً له. ولكنّه تقبّلها بسخاءٍ، وهو يردّد في سرّه: «على أَيّة حالٍ، عندما ستحضر أُمّي، ستطلب مقابلتي».

دقّت الساعة السادسة، فالسابعة، فالثامنة... ولم يحضر أَحدٌ... وتعشّى

الأَولاد، وكانوا يتأهّبون للانصراف إِلى النوم، وأَخذت الخيبة تتسلّل إِلى نفس ستانسلاس... وفي هذه الأَثناء، دخلت إِلى حجرة البوّاب امرأةٌ مهملة الهندام، متعبة المحيّا، وطلبت رؤية ستانسلاس سكولنسكي. توجّس البوّاب ريبةً من تلك الزيارة المتأخّرة، ورفض، رفضًا قاطعًا، استدعاء الفتى. ولكن، لمّا أَعياه إِلحاح المرأة، سمح لها أَن تقترب من النافذة، وتشاهد الطلاب مصطفّين في فناء المعهد. وخرج ستانسلاس، الذي ما برح يتوقّع عودة أُمّه، من الصفّ، كي يلقي نظرةً على حجرة البوّاب. وما إِن وقع نظر أُمّه عليه، حتّى هتفت: «ها هو ذا»، وهوت مغميًّا عليها.

كيف حدث أَن وصلت الكونتيسّة، في الساعة التي كان ابنها يتوقّعها؟ كانت قد فرّت من أَيدي الحرّاس الذين كانوا يقتادونها إِلى سيبيريا، ويمّمت شطر فرنسا، وبلغت باريس مموّهةً، بلا موردٍ، ولا مالٍ. وبفضل الرسالة التي كان ستانسلاس قد أَنفذها إِلى الخادم پيير، ودوّن فيها عنوان إِقامته، انتهت الأُمّ إِلى ابنها، مباشرةً.

في الغداة، التأم شمل الكونت والكونتيسّة سكولنسكي، وبسعادةٍ غامرةٍ، واندفاعٍ حارٍّ، شهدا معًا مناولة ستانسلاس الأولى.

القدّيس يوحنّا الدمشقيّ وإِيقونات مريم

القدّيس يوحنّا الدمشقيّ هو بطل الدفاع عن الإِيقونات المقدّسة ضدّ محطّميها. ومن جرّاء ذلك حُكم عليه ببتر يده اليُمنى. وهو، فورًا بعد تنفيذ هذا الحكم، سجد أَمام إِيقونة القدّيسة، التي أَلف اللجوء إِلى عونها، مقدّمًا للّه، بواسطة مريم، آلامه التي لا تطاق. وبثقةٍ لا يشوبها شكٌّ، خاطب الأُمّ السماويّة قائلاً: «أَنت تعلمين، أَيّتها العذراء القدّوسة، لماذا بُترت يدي التي كانت مكرّسةً لخدمتك. فيا ملكة الملائكة والبشر، إِن لم يكن مطلبي مخالفًا لمشيئة اللّه، أَرجو من قدرتك أَن تعيدي لي اليد التي حُرمتُ منها».

وفيما كان يصلّي هكذا، سكنت آلامه وتلاشت... ثمّ اعتراه سباتٌ، ظهرت له العذراء في أَثنائه، وحضّته على الاستمرار في الكتابة دفاعًا عن الكنيسة، وأَعادت له يده، التي لم يبقَ من آثار قطعها سوى ندبةٍ حمراء حول معصمه، بمثابة شهادةٍ على حقيقة المعجزة.

ارتدّ مكرَهًا

روى كاهنٌ الحدَث التالي:

«في ٢١ كانون الأوّل من عام ١٨٤٧، استُدعيتُ إلى سرير محتضر، مرضه كان مميتًا، ولكنّه لم يكن قد بلغ غاية شوطه، كما كان قد قيل لي.

كنت عالمًا بمواقفه العدائيّة من الدين، وخاصَّةً بكرهه الشخصيّ لي. وكنت أهمّ بالاستفسار عن أحوال صحّته، باهتمامٍ بادٍ، ولكنّه لم يفسح لاستفساري مجالاً، إذ سارع إلى قذفي بأقذع الشتائم، حالما لمحني. فاضطررت إلى الخروج، بقلبٍ يحطّمه الحزن، ولكن عازمًا على ألاّ أستسلم.

عدتُ إلى كنيستي، واطّرحت عند أقدام أُمّنا الحنون، متضرّعًا إليها منحي العزيمة على خوض معركةٍ أُخرى. وعدت إليه في اليوم التالي، فلم ألقَ سوى الرفض والصدود. ولحظتُه يبحث عن شيءٍ ما. فسألته عمّا يبحث، وأجاب: «إنّي أبحث عن عصًا، كي أطردك». وإذ لم يعثر على مبتغاه، بصق في وجهي، وهو يقول، بلهجةٍ حافلةٍ بالسخط: «بما أنّه ليس بوسعي أن أفعل لك هذا، فخذ، هذه البصقة لك». شكرت له إهانته، وانصرفت.

في المساء، دعوت أعضاء جمعيّة قلب مريم المقدّس إلى الصلاة من أجل ارتداده. ورجعت، بعد ذلك، إلى بيت المحتضر المسكين، فألفيته هادئًا، ساكنًا. ولدى رؤيته لي، افترّت شفتاه عن بسمةٍ عذبةٍ، وقال: «هل جئتَ كي تسمع اعترافي، أيّها الكاهن؟». فأجبت: «أجل، يا صديقي. ففي هذا المساء دعونا أُمّ الله القدّيسة، من أجلك. وإنّي أرى أنّها استجابت لدعواتنا، أليس كذلك؟». فأجاب: «لست أدري، ولكنّني أُريد الآن أن أعترف»، وانثالت دموعٌ كثيفةٌ

على وجنتيه. ثمّ قال للأَشخاص الثلاثة الذين كانوا، معي، في غرفته: «لا تنسحبوا. لقد سبق لي أَن أَهنت حضرة الكاهن هذا، في هذا الصباح، ولا بدّ لي من أَن أُعوّض عن هذه الإِهانة».

سمعت اعترافه، ومنحته الزاد الأَخير. وبعد أَربعة أَيّام، فيما كنت أُزوّده بمسحة المرضى، لفظ نفسه الأَخير».

تقوًى وحسن تدبيرٍ

في مدينةٍ صغيرةٍ بضواحي باريس، كانت قد جرت العادة، بين المُقدِمين على المناولة الأولى، أَن يتضامنوا فيسهموا، كلٌّ وفق طاقته، في تجميع مبلغٍ من المال، من أَجل شراء هديّةٍ تُقدَّم لمصلّى السيّدة العذراء. واتّفق، في إِحدى السنوات، أَنّ فتاةً مقدمةً على المناولة الأولى، كانت من فقر الحال بحيث لم تستطِع الإِسهام، ولو بفلسٍ واحدٍ.

كانت تدعى ماري، وهي يتيمة الأَب، وأُمّها المريضة تستعين على القيام بأَودها وأَوَد ابنتها، بتوزيع الماء المقدّس، عند باب الكنيسة، لقاء صدقاتٍ ضئيلةٍ يجود بها المؤمنون.

اغتمّت ماري غمًّا شديدًا، من جرّاء عجزها عن الإِسهام بأَيّ شيءٍ في صندوق رفيقاتها المشترك. ولم يكن كدَرها ناجمًا عن كبرياءَ جريحٍ، إِذ كانت تتحلّى بتقوًى عميقةٍ، وبتواضعٍ صادقٍ. كانت تحبّ الله المخلّص، وتحتفظ، في قلبها، بتكريمٍ رقيقٍ للسيّدة العذراء، شفيعتها المحبوبة. ولكنّها حزنت لأَنّها لم تتمكّن من المساهمة في تقدمةٍ لمصلاَّها، حيث كانت تأتي كلّ يومٍ وتصلّي، في دنيا من السعادة والثقة.

غير أَنّ ماري كانت تتّصف بالجرأة، والصبر، والعزيمة الثابتة. وكان عزاؤها أَنّها وطّنت العزم، على أَن تقدّم، لاحقًا، بمفردها، هديّةً للعذراء الحنون. وتلكم كانت خطّتها من أَجل تنفيذ ما عقدت عليه عزمها:

غداة مناولتها الأولى، قدّمت فلاّحةٌ طيّبةٌ لأُمّها بيضةً طازجةً. وقدّمت الأُمّ الفقيرة البيضة لابنتها، كي تسلقها وتتغدّاها. أَخذت ماري البيضة في يدها

وأعملت فكرها، وما عتّمت أن افترّت شفتاها عن بسمة رضًى. وعوضًا عن سلق البيضة وتناولها، هرعت بها إِلى الفلاّحة، ورجتها أَن تضعها تحت دجاجةٍ حاضنةٍ، على أَن تعطيها الفرخ الذي تنتجه، عندما يفقسها. وكانت الفلاّحة تضمر لماري محبّةً صادقةً، فاستجابت لطلبها.

وكبرت الفرخة وأَعطت بيضًا، أَطعمت ماري بعضًا منها لأُمّها، ووضعت بعضًا تحت حاضنةٍ. ومع أَنّ الفلاّحة لم تكن ملّمةً بمشاريع ماري، إِلاّ أَنّها كانت تساعدها بكلّ طيبة خاطرٍ. وهكذا تمكّنت الفتاة من جمع مبلغ عشرين فرنكًا، وبلغت غايتها التي لم تخطر لأَحدٍ ببالٍ.

وضعت ماري المبلغ في جيبها، وشخصت إِلى أَفخر حانوت آنيةٍ من الكريستال والخزف، وطلبت أَفضل إِناءين مزوّدين بأَجمل الزهور يمكن الحصول عليهما لقاء عشرين فرنكًا. دهش البائع لرؤية المال بين يدي فتاةٍ على هذا القدر من الفقر، فاستوضحها كيف حصلت عليه. وإِذ لم تكن ماري قد توقّعت هذا الاستجواب، خجلت، بادئ الأمر، واضطربت. ولكن بما أَنّها أَلِفت دائمًا أَلاّ تقول إِلاّ الحقيقة، روت كلّ شيءٍ للبائع، ورجته أَن يُبقي الأَمر سرًّا. وقد تأثّر الرجل بتقوى الفتاة أَبلغ تأثّرٍ، فأَمسك يدها وقال لها: «لن أَكتفي بكتمان سرّك يا ابنتي، بل سأُساعدك على تقديم أَجمل هديّةٍ للسيّدة العذراء». وأَعطاها إِناءين رائعين مزيّنين بأَجمل الأَزهار، يساويان أَكثر من ضعف المبلغ الذي دفعته.

طفحت ماري فرحًا، وأَخفت الإِنائين، بقدر ما استطاعت، وجرت مسرعةً إِلى الكنيسة. كان الوقت مساءً، وقد شرع الظلام يخيّم، والكنيسة خاويةٌ تمامًا. وخرّت الفتاة ساجدةً أَمام هيكل العذراء، ورجتها، بحرارةٍ ملائكيّةٍ، أَن تتقبّل تقدمتها، وأَن تسهر عليها، وتقيها من الشرّ، وتقوّيها على فعل الخير. ثمّ وضعت الإِنائين على الهيكل، وانسحبت، خلسةً.

صباح اليوم التالي، دهش الكاهن، وهو يفتح باب الكنيسة لرؤية تلك التقدمة الرائعة على هيكل العذراء، فاستدعى الواهف (خادم الكنيسة) واستوضحه عن الأَمر. ولم يكن الواهف أَقلّ دهشةً، وأَفاد أَنّه لم يرَ سوى

الصغيرة ماري، التي وافت مساءً كي تصلّي، كما أَلِفت غالبًا أَن تفعل، ولكنّه استبعد أَن تكون هي المتبرّعة بالمزهريّتين الجميلتين، فالجميع يعرفون فقرها. وأَطرق الكاهن برهةً، مفكّرًا. وبعد أَن احتفل بالقدّاس الإِلهيّ، اعتمر قبّعته، وتناول عكّازه، ويمّم شطر منزل موزّعة الماء المقدّس. وصادف في الطريق ماري الصغيرة، التي كانت، كلّما شاهدته، تجري صوبه باندفاعٍ. ولكنّها، في ذلك اليوم، حاولت التواري عنه، فاستدعاها، فأَقبلت مرتبكةً. وقال لها الكاهن الطيّب: «صباح الخير، يا ماري، أَخبريني بما فعلتِ أَمسِ مساءً». واحمرّت الفتاة حياءً، وانخرطت بالبكاء. وسارع الكاهن إِلى تهدئة روعها قائلاً: «لا تقلقي، يا ابنتي المسكينة، ولا تخافي منّي. فأَنا، الآن، متيقّنٌ بأَنّك أَنت من أَتى بالمزهريّتين إِلى هيكل السيّدة العذراء القدّيسة. ولكن أَخبريني كيف تمكّنتِ من ابتياع هذه التقدمة». وروت الفتاة بصدقٍ وسذاجةٍ، حكايتها كاملةً. وأَخذ التأثّر بالكاهن كلّ مأخذٍ، بعد ما سمع عن نوايا الفتاة، وعن عملها، وما لمس من بساطة روايتها. وقال لها: «إِنّك فتاةٌ طيّبةٌ وتقيّةٌ. غدًا سأُقيم القدّاس، على هيكل السيّدة العذراء، عن نيّتك ونيّة أُمّك».

لدى سماعها هذه الكلمات استفاضت ماري في البكاء، غير أَنّ دموعها، حينئذٍ، كانت دموع فرحٍ وشكرانٍ. وفي الغداة حضرت الأُمّ وابنتها للمشاركة في قدّاس الشكر.

وفي يوم الأَحد التالي، إِثر تلاوة الإِنجيل، اعتلى الكاهن المنبر، جريًا على عادته، وبُغية تقديم مثلٍ صالحٍ لرعيّته، روى قصّة ماري الصغيرة. فاستحيت الفتاة، حيالَ هذا الإِعلان، وتوارت خلف عمودٍ ضخمٍ، ساهمةً، مذرّفةً الدموع. وسُرّ جميع الحاضرين بما سمعوا، ورقّت قلوبهم. وفي ختام القدّاس تلقّت موزّعة الماء المقدّس، في ذلك اليوم، حسناتٍ سخيّةً.

وكان بين الحضور سيّدةٌ متقدّمةٌ في السنّ، تنعم بثروةٍ تفيض عن احتياجاتها، كانت تستخدمها لأَعمال الخير. ولم يكن لتلك المرأة الكريمة أُسرةٌ. بل كانت تعيش وحيدةً مع خادمتين. ولمّا علمت، من رواية الكاهن، فعلة ماري الصغيرة،

اهتمّت بها أَشدّ اهتمامٍ، فاستدعتها، وقالت لها: «إِنّك فتاةٌ طيّبةٌ وأنا أَثق بك، وأَودّ أَن تكوني إِلى جانبي، كي تساعديني في توزيع الصدقات الصغيرة التي وفّر لي اللّه القدرة على القيام بها. ومع ذلك لست راغبةً في فصلك عن أُمّكِ، المحتاجة إِلى عنايتك بها. أَترين، في فناء بيتي، هذا البناء الخالي من السكّان؟ فإِن شئتما، يمكنكما، أَنت وأُمّك، أَن تقيما فيه؛ لن تدفعا إِيجارًا، وقد يمكنكما الإِفادة منه. إِنّني أَشيخ، وأَنا، غالبًا، متوعّكةٌ، ولا أَستطيع، دائمًا، زيارة أَشخاصٍ أَعلم أَنّهم في ضيقٍ، رغم رغبتي في ذلك. فستقومين بهذه الزيارات عوضًا عنّي، وستطلعيني على ما شاهدتِ، وعلى احتياجات أولئك القوم، وعلى ما يسعني فعله من أَجل مساعدتهم، وستمرّ معوناتي الضئيلة، عبر يديك، كي تصل إِليهم. وإِنّي لعلى يقينٍ بأَنّهم سيرحّبون بوساطتك، إِذ إِنّك ستسبغين على الحسنات لطف طفولتك، وعذوبة أَقوالك وتعاطفك، وصلواتك إِلى اللّه، وإِلى شفيعتك العذراء. امضي وبلّغي اقتراحي هذا لأُمّك، ثمّ عودي، وأَكّدي لي موافقتكما على إِسدائي هذه الخدمة. وهتفت ماري، وهي تقبّل، باحترامٍ، يد السيّدة الكريمة:

– تقولين خدمة؟ بل دعيني أَقول هذا الإِحسان، هذه النعمة. ها إِنّي ماضيةٌ وسأَعود بأُمّي، كي تشكر فضلك.

كانت الفتاة من شدّة التأثّر، وهي تفكّر بسعادة أُمّها، بحيث كانت الدموع تخالط كلماتها، وبحيث كانت تتماسك بمشقّةٍ.

وجرت الأُمور وفق اقتراح المرأة الكريمة. واستقرّت ماري وأُمّها في البناء الصغير حيث توفّرت لهما كلّ احتياجات الحياة. أَصبحت ماري هي أَداة توزيع صدقات المرأة الكريمة، وكما توقّعت تلك المحسنة، بدا للفقراء أَنّ إِحساناتها وصدقاتها كانت تأتيهم بواسطة ملاكٍ من السماء.

ومع ذلك كانت تلك المهامّ تدع لماري فسحةً من الوقت، كي تعمل لتوفير احتياجات أُمّها، وكانت تستغلّ كلّ لحظةٍ كي لا تكون عالةً على المحسنة الكريمة.

بعد بضع سنواتٍ قضت السيّدة المحسنة نحبها، تاركةً وصيّةً، حدّدت فيها ريعًا يمكّن من الاستمرار في تقديم المساعدات للفقراء، وكلّفت ماري بمهمّة إدارة الريع، وتنفيذ الوصيّة. وفي الآن عينه، خصّت تلك الفتاة بقسطٍ كبيرٍ من ثروتها.

وهكذا تهيّأت لماري الفرصة كي تصبح ثريّةً، لو هي شاءت. ولكنّها لم تقبل تلك الهبة، التي لم تكن تنتقص من حقّ أيٍّ من الورثة الشرعيّين، إلاّ من أَجل استخدامها لمشروعٍ خيريٍّ. فاحتفظت بمبلغٍ ضئيلٍ قد تحتاجه إِن حال المرض دون متابعتها العمل في سبيل كسب العيش، ووقفت كلّ ما تبقّى، من أَجل تأسيس مشغلٍ تعاونيٍّ للفتيات الفقيرات، اضطلعت، هي بإِدارته، فجعلت منه نموذجًا للمؤسّسات المشابهة. ولطالما كان هذا المشغل محطّ إِعجاب جميع زائريه.

إِحدى بنات مريم ردّت أَباها إِلى اللّٰه

كان لعسكريٍّ ابنةٌ تُدعى كارولين، نشأت في مدرسةٍ داخليّةٍ تديرها راهباتٌ، وأَصبحت رئيسة أَخويّة بنات مريم. وكانت، بفضائلها وتقواها، مثالاً يُحتذى لجميع بنات المدرسة.

لمّا بلغت الثامنة عشرة، تعيّن عليها مغادرة المدرسة، وكان الوداع موجعًا. فقد شقّ عليها الانفصال عن ذلك المكان الذي قضت فيه أَحلى سنوات صباها، في سلامٍ، ووسط صداقاتٍ عذبةٍ. كانت تتنقّل بين صويحباتها ومعلّماتها، وما تكاد تغادرهنّ حتّى تعود إِليهنّ، وهي أَشدّ شوقًا إِليهنّ، والدموع المدرارة تنساح من هنا وهناك. إِلى أَن ضاق والدها الجنديّ ذرعًا بالانتظار، فسأَلها متى ستنتهي هذه المساخر. وقد أَدركت الفتاة أَنّ استفهام أَبيها إِنّما كان أَمرًا، فكتمت عواطفها، وتبعت أَباها.

ولمّا حلّ المساء، ركعت الفتاة، وأَخذت تصلّي، فتجلّت أَمارات السخط على محيّا والدها الذي أَعلن لها أَنّه لا يتقبّل، في منزله، مظاهر المغالاة في التقوى. فأَجابته الفتاة إِنّها تصلّي من أَجله، وتسأَل اللّٰه أَن يفيض عليه بركاته. فردّ الوالد على جوابها بالشتيمة، وحظر عليها الصلاة، بعد ذلك. اعتصمت الفتاة بالصمت، وغدت تصلّي في الخلوة والصمت والكتمان. غير أَنّها كانت تبذل، في إِدارة المنزل، حنكةً ونشاطًا جديريْن بالإِعجاب، وكانت تتقبّل فظاظة أَبيها برقّةٍ ملائكيّةٍ، وتحيطه بعنايةٍ فائقةٍ، وتغدق عليه دلائل احترامها وحبّها. وكان ذلك الوالد يهنّئ نفسه، لزعمه أَنّه توفّق إِلى شفاء ابنته ممّا كان يدعوه خرافات.

وذات يومٍ، إِذ كان في مقهًى بصحبة ثلاثةٍ من رفاقه العسكريّين القدامى،

نشب بينهم شجارٌ حادٌّ، دعاه، فيه، أَحدهم، بلهجةٍ معبّرةٍ عن تلميحٍ ماكرٍ، إِلى الكفّ عن الاهتمام بشؤون الآخرين، والسهر، بالحريّ، عمّا يجري في بيته. وانتفض والد كارولين، الذي كان، في أَعماقه، يكنّ لابنته حبًّا شديدًا. فسأل مخاطبه: «هل تتكلّم عن ابنتي؟».

– «أَجل».

شعر الوالد كأنّ خنجرًا غُرس في قلبه، فاستفسر: «وما الذي فعلته ابنتي؟ وما الذي يمكن أن يُقال فيها؟».

– «إِنّ ابنتك مسرفةٌ في العبادة والتقوى».

هذا الجواب فجّر ضحكةً مدوّيةً، من الوالد الذي تحدّى محدّثه أَن يثبت له ادّعاءه. وأَجاب الآخر: «ليس أَسهل من هذا الإِثبات، فما عليك إِلاّ أَن تأتي معي غدًا إِلى كنيسة «سان سولبيس».

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كان العسكريّان الصديقان في الكنيسة المذكورة. ولمّا حان موعد المناولة، برزت من وراء أَحد عواميد الكنيسة، فتاةٌ تقدّمت من المائدة المقدّسة. كانت تبدو ملاكًا، أَكثر ممّا كانت من بني البشر. وكانت هي، في الواقع، كارولين.

يستحيل وصف الشعور الذي اعترى الوالد، لدى رؤيته ابنته، في ذلك الموقف، وعلى هذه الحال. وعاد إِلى المنزل، حالمًا، ساهمًا، غير قادرٍ عن انتزاع، من ذهنه، منظر ذلك المحيّا الذي يقطر طهرًا، وبراءةً، المحيّا الذي شهده يشخص إِلى المائدة المقدّسة، ثمّ يعود مشعًّا بنورٍ سماويٍّ.

سأل ابنته: «أَين كنتِ، هذا الصباح؟».

– «هل أَنت غاضبٌ منّي، يا أَبتاه؟

– إِنّما أَسألك أَين كنتِ هذا الصباح؟

– هل لحظت، يا أَبتاه، أَيّة فوضى في المنزل؟

– إِنّك تلتفّين حول سؤالي، كي لا تجيبي عليه. سأجيب، أنا، إِذن. فقد كنتُ، هذا الصباح، في كنيسة «سان سولپيس».

ارتعشت كارولين لدى سماعها هذه الأقوال، والتمست من الله أَن يضع في قلبها وعلى شفتيها الصبر على الاحتمال، والعذوبة التي تروّض كلّ عداوةٍ. وقال أَبوها:

– «أَراك تحمرّين خجلاً. إِذن، الأَمر صحيح... أَجل، يا ابنتي الحبيبة، إِنّي أَعلم الآن أَين تستقين القدرة كي تغفري لي فظاظتي ومظالمي. لقد كان لي صبرك ورقّتك لغزًا: فلا ريب أَنّ في السرّ المقدّس الذي يحقّق مثل هذه المعجزة شيئًا سماويًّا. وعندما ستشخصين إِلى كرسيّ الاعتراف، سأُرافقك، راجيًا أَن أَجد، ثمّة، قوّة التحوّل إِلى رجلٍ فاضل».

فتاةٌ صامَتْ حتّى عاد والدها إِلى الصراط القويم

قال كاهنٌ مخاطبًا فتيانًا: «إِن رغبتم في عودة نفسٍ عزيزةٍ عليكم إِلى دروب الله، تألّموا من أَجلها».

وكانت، بين الحضور، فتاةٌ في نحو الثانية عشرة، قد احتفلت، حديثًا، بمناولتها الأولى. ولطالما شاهدت أُمّها تبكي، ولطالما هي احمرَّت خجلاً، عندما كان والدها يعود إِلى البيت، كلّ مساءٍ، وقد تعتعه السكر.

ذات مساء، قبّلت والدتها بإِندفاعٍ، قائلةً: «ابتهجي، يا أُمّاه، فعمّا قريب، لن تعودي تبكين بسبب سلوك أَبي». وفي اليوم التالي، في أَثناء الغداء، وهو الوجبة الوحيدة التي كانت تلمّ شمل الأُسرة، اكتفت بالزهيد من الحساء، وبكسرة خبزٍ، ورفضت كلّ طعامٍ آخر. فقالت لها أُمّها: «أَمريضةٌ أَنتِ!».

– «كلاّ، يا أُمّاه». وأَلحّ والدها كي تكمل وجبتها. ولكنّها أَجابته: «اعفني اليوم من ذلك».

خُيّل إِلى الوالدين أَنّ الفتاة انساقت لنزوةٍ، وخطر لهما معاقبتها، بتركها تعاني الجوع. وفي المساء، عاد الأَب ثملاً، جريًا على عادته. وكانت الفتاة مستلقيةً على فراشها، ولكن غير مستسلمةٍ للنوم، فسمعته يكيل الشتائم، وانخرطت بالبكاء. للمرَّة الأولى، كان التجديف ينتزع منها سكب الدموع.

في الغداة، كما في اليوم السابق، لم تتناول الفتاة سوى القليل من الماء والخبز، فأَخذ القلق بأَمّها، والسخط بوالدها، الذي أَمرها، غاضبًا، بتناول وجبتها. ولكنّ الفتاة رفضت بحزمٍ، قائلةً له: «سأستمرّ على هذه الحال، طالما بقيتَ أَنت تعود إِلى البيت ثملاً، وتُحزن أُمّي وتجعلها تبكي، وطالما لم تُقلع

عن التجديف. لقد وعدت العذراء بذلك، وإِنّي عازمةٌ على تحمّل الأَلم، لكي لا يعاقبك الله، ولكي تكون أُمّي سعيدةً».

استشاط الأَب غيظًا، ثمّ أَطرق، وخرج، بغتةً، من البيت. وعاد، في المساء، هادئًا، صاحيًا. فتدفّقت الفتاة بهجةً، واندفاعًا، وشهيّةً للطعام.

ولكنّ العادة تغلّبت على الوالد، مجدّدًا، فاستأنفت ابنته صيامها. وفي هذه النوبة لم يجسر الوالد على أَن يقول لها شيئًا. إِنّما تدحرجت دمعةٌ كبيرةٌ على وجنتيه، وكفّ عن الطعام، فيما كانت الأُمّ تبكي، وبقيت الفتاة وحدها ساكنةً. وأَخيرًا نهض الوالد، وعانق ابنته بحرارةٍ، قائلاً: «يا ابنتي الحبيبة، هل ستفعلين هكذا دائمًا؟».

- «أَجل، يا أَبتاه، حتّى الموت، أَو إِلى أَن تُقلع أَنت عن عادتك السيّئة».
- «إِذن لن أَكون، بعد الآن، سببًا لبكاء أُمّك».

... وفي ساعة موتنا

كان قد صدر حكم إِعدامٍ بحقّ مجرمٍ، على أَن يتمّ تنفيذ الحكم في ساحةٍ عامّةٍ. وعشيّة الإِعدام، كان المرشد الروحيّ قد بذل كلّ وسائل إِقناعه، كي يحمل المجرم على التوبة، ولكنّ الرجل ظلّ سادرًا في غيّه، وجفوته، وعناده، ويأسه، رافضًا الغفران الذي كان اللّه يقدّمه له عند عتبة الأَبديّة. وقد أَخذت الرأفة كلّ مأخذٍ بممثّل النيابة العامّة، الذي كان مسيحيًّا راسخ الإِيمان، والذي شقّ عليه مصير الرجل المأسويّ، فقام بمحاولةٍ أَخيرةٍ، ودخل إِلى زنزانة ذلك البائس الذي كان ينتظر، في ثورةٍ وإِصرارٍ على جريمته، ساعة موته. وكلّمه برقّةٍ وعطفٍ، وتسلّلت نبرة كلماته إِلى تلك النفس التي كانت، حتّئذٍ، منغلقةً بعنادٍ، موقظةً فيها مشاعر كادت حياة الجريمة تخنقها. واضطرب المجرم لدى سماعه مثل تلك الأَقوال على لسان رجل القانون، وانتابته الحيرة، وتبدّد غضبه، واعتراه التأثّر، وتفجّرت من مآقيه الدموع، وهبط راكعًا على ركبتيه. ولم يبقَ للمرشد الروحيّ الذي كان ينتظر عند الباب، سوى التلفّظ بكلمات الغفران، كي يكمل انتصار الرحمة الإِلهيّة.

بيد أَنّ ممثّل النيابة، المسيحيّ، لم يكتفِ بهذا القدر، فقد كان يتطلّع إِلى مثالٍ مؤثّرٍ، إِلى أُمثولةٍ كبرى يستفيد منها سواد الشعب. وبالفعل، جرى مشهدٌ رهيبٌ، جليلٌ. فقد كان حشدٌ كثيفٌ من الناس يغشى الساحة العامّة، حيثُ نُصبت المشنقة. وظهر السجين، الذي ارتقى الدرجات الحاسمة المشؤومة، يسانده الكاهن. كان عليه أَن يلقى حتفه تكفيرًا عن ذنوبه. ولكن، في اللحظة التي تقدّم منه منفّذ الإِعدام، أَمسك الكاهن بيده، بتأييدٍ من رجال القضاء، والتفت المحكوم عليه نحو الشعب، وركع على ركبتيه، والتمس الغفران، وشرع

يتلو، بصوتٍ مرتفعٍ: «السلام عليك، يا مريم». وسرت في الجمع المحتشد رعشةٌ، وغزا التأثّر النفوس؛ ركع الجميع، وقد كشف الرجال رؤوسهم، وردّ عشرة آلاف صدر، مكملين دعاء المشرف على الموت، مشاركينه القول: «يا قدّيسة مريم، يا أُمّ الله، صلّي من أَجلنا، نحن الخطأة المساكين، الآن، وفي ساعة موتنا».

في تلك الأَثناء، كان ممثّل النيابة العامّة، هو أَيضًا، راكعًا، مذرِّفًا دموع الشكران، مصلّيًا من أَجل تلك النفس التائبة، التي فضحتها عدالة البشر، ولكنّها نالت صفح الله، وكانت السماء تتأهّب لاستقبالها.

مسبحة في معهد البوليتكنيك

في معهد البوليتكنيك، في باريس، وهو من أَشهر معاهد أوروبّا، عند نهاية السنة المدرسيّة، وفي غمرة الاستعداد للامتحانات، وجد طالبٌ، فيما كان يجول بين قاعات الدرس، مسبحةً على الأَرض. ويا لدهشته! مسبحةٌ في معقل العلم! وكان ذلك الطالب من أولئك المغترّين بعلمهم، الساخرين بكلّ ما يمتّ إِلى الدين بسبب، والذين يعدّون أَنفسهم عباقرةً، لمجرّد ازدرائهم لنصائح أُمّهاتهم، ولتعاليم الكنيسة.

لقد عدّ ذلك الطالب المدّعي وجود مسبحةٍ في ذلك المعهد، وبالتالي وجود طالبٍ ما برح يؤمن بمثل تلك الخزعبلات، إِهانةً للعلم لا بدّ من الانتقام لها. وكانت الفرصة مؤاتيةً، فالامتحانات جاريةٌ، ولا بدّ من الحكم على من يتجرّأ على تلاوة المسبحة، بالرسوب. وقد أَطلع ذلك الطالب أَترابه الذين يقاسمونه عقائده وادّعاءاته العلميّة، على نواياه، ومخطّطاته، التي كانوا واثقين من نجاحها.

بعد الامتحانات، أَشرف ماريشالٌ يمثّل تقليد فرنسا النبيل الأَصيل على إِعلان النتائج، وبعد أَن استعرض الطلاّبَ الناجحين واحدًا، واحدًا، برز من الطابور الطالب المدّعي، رافعًا المسبحة عاليًا، ثمّ علّقها على غصن شجرةٍ تزيّن الباحة، ووضع يده على مقبض سيفه، وأَعلن في بسمةٍ شيطانيّةٍ: «من هو صاحب هذه المسبحة؟»، وكأَنّه كان يتحدّى الجَسور الذي قد يتجرّأ ويعلن عن نفسه. ولكن ما كاد يطلق تحدّيه هذا، حتّى برز من الطابور، طالبٌ أَعلن: «إِنّ المسبحة لي. لقد تلقّيتها من والدتي عندما جئت إِلى باريس، وقد حزنت حزنًا شديدًا عندما فقدتها».

واتّفق أَنّ ذلك الطالب الجريء كان قد أَحرز نجاحًا باهرًا، واحتلّ المركز الأَوّل، متفوّقًا على جميع رفاقه. وما إِن استعاد مسبحته حتّى التفت صوب أَساتذة المعهد، وقال، بنبرةٍ واثقةٍ استلفتت انتباه المارشال والجمهور الحاضر: «منذ لحظاتٍ، تلقّيت تهانيكم بنجاحي، فإِن رأيتم أَنّ مسبحتي تناقضها فاسترجعوها؛ فإِنّي أوثر العزوف عن التهاني خيرًا من ارتكاب عمل جبنٍ، ومن الاستحياء من فعل تقوًى تعلّمته من أُمّي، ومن الكنيسة».

وتصاعدت من كلّ صوبٍ صيحات التأييد، ودوّى تصفيقٌ جماعيٌّ حافلٌ بالحماس. واقترب المارشال المسنّ من الشابّ، وشدّ على يده قائلاً، بتأثّرٍ ظاهرٍ: «أَيّها الشابّ، احتفظ دائمًا بهذا القلب الشهم الكريم. وكن شجاعًا في الدفاع عن الوطن مثلما أَنت شجاعٌ في الدفاع عن دينك. إِنّي أُهنّئك». ودوّت عاصفةٌ جديدةٌ من التصفيق.

وما عتّم ذلك الشابّ الموهوب أَن ارتقى أَرفع المناصب، وأَصبح رئيس مهندسين في مدينةٍ فرنسيّةٍ كبرى.

جرس باب السماء

روى الدكتور جول ماسّي:

عام ١٨٣٢، كنت أعود الكونت «دي مالّي» (de Mallet)، الذي بعد أن كان ضابطًا رفيعًا في سلك الخيّالة، اعتنق الكهنوت. وفيما كان، في ذلك اليوم، راقدًا في فراشه، بسبب علّةٍ انتابته، فتح، بغتةً، الخادم باب غرفته، وأعلن عن وصول الدكتور ريكامييه، ذائع الصيت، الذي كان يُعَدّ طبيب العظماء، والأُمراء، والملوك، ويتمتّع بشهرةٍ أوروبّيّةٍ واسعةٍ.

بعد أن قام بفحص الكاهن المتوعّك، نهض الطبيب، وتأهّب للذهاب، ولكنّه بغتةً، تذكّر أمرًا سها عنه، فأعاد وضع قبّعته على المنضدة، ووضع عكّازه جانبًا، وغرس يده في أحد جيوبه، وهو يقول: «كدتُ أذهل عن أمرٍ هامٍّ». فسأله الكاهن: «وما هو؟»، فأجابه:

– «لقد حدث لي خطبٌ، يا سيّدي الكاهن، وأنت وحدك قادرٌ على إصلاحه. إنّه كسرٌ بوسعك جبره على أكمل وجهٍ، إنّها عمليّةٌ طفيفةٌ، أرجوك القيام بها». وأخرج البروفسّور الشهير يده من جيبه، وأظهر، بفخرٍ، مسبحةً!

أعترف أنّني ذهلتُ.

هو، الدكتور ريكامييه العظيم، كان يتلو المسبحة مثل طالبٍ إكليريكيّ، مثل امرأةٍ بسيطةٍ من عامّة الشعب. وحيال دهشتنا، صرّح، والبسمة تغمر محيّاه:

– «أجل إنّي أتلو مسبحتي. كلّما انتابني القلق على وضع مريضٍ، وكلّما وجدت الطبّ عاجزًا، ألتفت إلى من يستطيع وحده شفاء كلّ علّةٍ، وأتوسّله.

ولكنّني أَفعل ذلك بدبلوماسيّة. فبما أَنّ فيض مشاغلي لا يتيح لي وقتًا كافيًا للتوسّل، أَتّخذ من العذراء العطوف وسيطةً. وفيما أنا في طريقي إِلى مرضاي، أَتلو بيتًا أَو بيتين من المسبحة. أَفعل ذلك بمنتهى اليُسر. فأَنا أَكون، حينئذٍ، جالسًا بسكونٍ، في سيّارتي، فأَدسّ يدي في جيبي... وأشرع في الحوار. المسبحة هي ترجماني. وبما أَنّي أَلجأ إِليه غالبًا، فقد تعب، واعتلّ، ولذلك أَرجو حضرة الكاهن فحصه، وإِجراء عمليّةٍ تعيد له عافيته».

وتناول الكونت المسبحة، ووعد بإِصلاحها، وغادرنا البروفسّور ريكاميه، الذي أَوضح لي، لاحقًا: «المسبحة جرسٌ صغيرٌ. كلّ «سلامٍ» هو إِنذارٌ، أَو، إِن شئت، عريضةٌ، فلكي تُستقبَل في وزارةٍ، لا بدّ من التماس موعدٍ، وحمايةٍ، وأَحيانًا عون موظّفي المكتب. ولكن لا أَسهل من مخاطبة العذراء. نقرع الجرس، ونتناول المسبحة، وسرعان ما يُفتح الباب، فنقدّم عريضتنا، ولدى العذراء من العطف بحيث إِن لم تكن، هناك، أَسبابٌ خاصّةٌ، يُستجاب دعاؤنا في الحال».

العذراء، معونة المسيحيّين

كم من المداخلات السماويّة توفّر دليل سهر العذراء على أبنائها المؤمنين! وإليكم إحدى تلك المداخلات:

في مدينة «أوسترابراما» البولونيّة، تمثالٌ لسيّدة الآلام، يُحاط، منذ القدَم، بتكريمٍ جمٍّ. هذا التمثال العجائبيّ، الذي يجتذب زرافات الحجّاج، محفوظٌ داخل كنيسةٍ جميلةٍ في تلك المدينة.

واتّفق أنّ غريبًا، تدلّ لهجته على جنسيّته الروسيّة، جاء واهف الكنيسة، في مساء يومٍ من شهر آذار، عام ١٨٩٦، وقال له: «إنّي أودّ إشعال هاتين الشمعتين أمام تمثال العذراء». وفي الحال، استلّ من ثنايا معطفه شمعتين ضخمتين، وهو يقول: «ينبغي أن تُشعلا في هذا المساء، وأن تظلاّ مشتعلتين طيلة الليل، حتّى بعد القدّاس الرعويّ، صباح الغد. فلديّ قضيّةٌ خطيرةٌ وملحّةٌ، سيُقرّر مصيرها غدًا، ولا بدّ من إيكال أمرها إلى العذراء العجائبيّة. فليتنا نشخص معًا، في الحال، إلى الكنيسة، فأنا حريصٌ على وضع الشمعتين، بنفسي على الهيكل». وأجابه خادم الكنيسة: «سأصحبك، بطيبة خاطرٍ. ولكن عندما يُطلب منّي إبقاء شموعٍ مشتعلةً في أثناء الليل، يتوجّب عليّ، قضاء الليل داخل الكنيسة، تحسّبًا لنشوب حريقٍ».

– «إنّي أعلم ذلك، ولذلك هاك روبلَيْن تعويضًا عن عناء سهرك».

وهرعت ابنة واهف الكنيسة فأعدّت لوالدها بعض طعام، وثيابًا دافئةً، وشخص الرجلان إلى الكنيسة. ووضع الروسيّ، بنفسه، الشمعتين على جانبَي الهيكل، وأسرجهما، وركع بضع دقائق، وانسحب، بعد أن أوصى الواهف

ثانيةً، بإِبقاء الشمعتين مشتعلتين، إِلى ما بعد قدّاس الغد، وإِن أَمكن حتّى ذوبانهما الكامل. وأَضاف:

– «إِن نجحت قضيّتي، فستكون أَوّل متلقّي أَخباري».

ولمّا بات الواهف وحيدًا، قام بجولته المعتادة في أَرجاء الكنيسة، وقرع ناقوس التبشير الليليّ، وأَوصد الأَبواب. وبعد أَن تلا صلواته اتّخذ لنفسه موقع مراقبةٍ في الموهف (السكرستيّا) المحاذي للهيكل. وما لبث أَن غلبه الكرى، فغفا على كرسيّه. وبغتةً سمع صوتًا يقول له: «هيّا أَطفئ الشمعتين!»، فاستيقظ، وأَجال بصره، وبحث في كلّ مكانٍ، ولم يعثر على أَحدٍ، وظنّ أَنّه كان ضحيّة حلمٍ. فاستعاد مكانه، واستأنف مراقبته، وشيئًا فشيئًا، تسرّب النُعاس إِلى جفنيه، فأَطبقا، وغفا ثانيةً. وما كاد يستسلم للكرى، حتّى أَيقظه الصوت عينه، أَشدّ وضوحًا «هيّا، أَطفئ الشمعتين!». فجال مرَّةً أُخرى في الكنيسة، متفقّدًا، ولم يعثر على أَحدٍ. وتساءل أَليس من الأَجدى له، درءًا لإِزعاج الأَحلام، إِطفاء الشمعتين، وإِشعالهما فقط عند بدء القدّاس. ولكنّه تذكّر وعده للرجل الغريب، والمال الذي تلقّاه، وأَشار عليه ضميره بإِبقاء الشمعتين موقدتين، أَقلّه حتّى ما بعد قدّاس الغد. وفيما كان يُعملُ في الأَمر فكره، استلّ مسبحته، وتلاها، في الموهف، إِلى أَن غلبه النعاس مرَّةً أُخرى، فهوى إِلى سباتٍ عميقٍ. وإِذا بالصوت السرّيّ عينه يوقظه، للنوبة الثالثة، آمرًا إِيّاه بحزمٍ: «أَطفئ الشمعتين، هيّا أَطفئهما!».

حينئذٍ أَدرك الرجل أَنّ عليه الخضوع للأَمر، وقد تيقّن أَنّه أَمرٌ قادمٌ من السماء. فخفّ لإِطفاء شمعتي الرجل الغريب.

وأَشرق النهار، فقرع الواهف ناقوس التبشير الصباحيّ، وفتح أَبواب الكنيسة، وأَعدّ الهيكل، موقدًا الشموع الموضوعة عليه، ما خلا شمعتي الرجل الغريب، وفي الساعة الثامنة التأم المؤمنون للاشتراك بالذبيحة الإِلهيّة. وكانت ابنة الواهف بين الحضور، فجاءت إِلى أَبيها، عقب القدّاس، وسأَلته لماذا لم يُبقِ الشمعتين موقدتين، استجابةً لطلب الغريب. فأَجاب: «يا ابنتي، لقد مُنعتُ

من ذلك بطريقةٍ غريبة». وروى لها ما حدث له في أثناء الليل، وأضاف: «لا ريب أنّ في الأمر سرًّا. فعندما ستخلو الكنيسة، سنأخذ الشمعتين إلى البيت، وسنتفحّصهما. وقد نكتشف سبب رفض العذراء إشعالهما أمامها».

وما إن خلت الكنيسة حتّى رفع الأب وابنته الشمعتين، ودهشا، في الحال، من ثقلهما غير الطبيعيّ. وأدركا أنّ هذا الثقل لم يكن ناجمًا عن مجرّد شمعٍ، وأنّ ثمّة، بلا ريبٍ، شيئًا آخر، لا مفرّ من اكتشافه.

في منزلهما، شرع الواهب يحفر بسكّينه الجزء العلويّ من الشمعتين، فلم يعثر على أيّ شيءٍ مريبٍ. وتابع الحفر، وإذ بسكّينه تصدم، في نحو منتصف الشمعة بجسمٍ قاسٍ، وأزاح طبقة الشمع، بكثيرٍ من الحيطة، فتبيّن أنّ فتيل الشمعة قد أُدخل في أُنبوبٍ معدنيٍّ، وتأكّد أنّ، ثمّة، مكيدةً أثيمةً. فوضع الواهف وابنته الشمعتين في دلوي ماءٍ، وهرعا لإخطار الكاهن بالأمر.

وبعد لحظات، شخص الكاهن وخادم الكنيسة إلى مكتب مفوَّض الشرطة، الذي، لدى سماعه رواية الواهف، هُرِع إلى منزله لتبيّن حقيقة الأمر. وبكثيرٍ من الحيطة انتُزِع الأُنبوبان المخفيّان داخل الشمعتين، فإذا بهما محشوّان بالديناميت.

كان كلّ شيءٍ قد أُعدّ بحيث تدمّر المادّةُ المتفجّرةُ الكنيسةَ في أثناء القدّاس الرعويّ، محدثةً كارثةً رهيبةً تطيح بمئات مؤمني «أوسترابراما». غير أنّ السيّدة العذراء كانت ساهرةً على أبنائها، وبفضل تدخّلها المباشر فشل مخطّط العدميّين الجهنّميّ. ولطالما أنقذ تدخّلها مسيحيّين كثيرين من مؤامراتٍ ومخاطر محدقةٍ!

فعسانا نضاعف ثقتنا في مريم. ويا غوث المسيحيّين، صلّي لأجلنا!

سيّدة العجائب

يوم السبت الواقع في السادس عشر من شهر تشرين الأوّل، عام ١٨٩٧، جرى في مدينة أَڤينيوني (Avignonet)، التي تؤوي كنيسةً مكرّسةً للعذراء سيّدة العجائب، حادثٌ مذهلٌ، بقدر ما هو مريعٌ.

فقد كان قطاران، أَحدهما سريعٌ، يسيران، خطأً، في اتّجاهٍ معاكسٍ على سكّةٍ واحدةٍ، فتصادما، على مقربةٍ من محطّة تلك المدينة. وكانت الصدمة مروّعةً، شديدة العنف، مزلزلةً. وتراكض أَهل المدينة إلى مسرح الحادث، وذهلوا لرؤية أكوام المقطورات التي تراكب بعضها فوق بعض، حتّى بلغت ارتفاعًا شاهقًا، وقد بُعج بعضها، وأَصبح معظمها محدّبًا، ممزّقًا، وخردةً شوهاء؛ وقد التوَت الأَبواب، وتحطّمت النوافذ. ذلك المشهد المروّع كان يوحي بأَنّ الركّاب جميعهم قد لقوا حتفهم، ولم يخرج أَحدٌ منهم حيًّا.

لقد كان مثل هذا المصير محتومًا، لولا حماية العذراء، سيّدة المعجزات، وشفيعة تلك المدينة. وقد أَجمع الركّاب على الإِقرار بأَنّهم نعموا بحمايةٍ سماويّةٍ. واعترف، جهارًا، طبيبٌ ماهرٌ، ذو مكانةٍ مرموقةٍ: «لم أَكن أومن بالعجائب، ولكنّني، في هذا المساء، شهدتُ بأُمّ عينيّ معجزةً، فمن وجهة نظرٍ بشريّةٍ، كان علينا أَن نُسحَق جميعنا».

وقد بات الجميع الآن يعرفون ما الذي جرى في تلك الساعة الرهيبة. فقد كانت سيّدةٌ على رصيف المحطّة، ورأت القطارين يسيران مسرعين أَحدهما باتّجاه الآخر، وتبيّنت حتميّة صدامهما، فالتفتت، في الحال، صوب الكنيسة، المواجهة للمحطّة، منتحبةً، وبسطت ذراعيها على شكل صليب، وهتفت،

مفعمةً ثقةً: «يا سيّدة العجائب، أَنقذيهم جميعًا! أَنقذيهم جميعًا!». وقد مسّ هذا الدعاء الملهوف شغاف قلب أُمّ الله، فأَنقذت جميع الركّاب، وبذلك برّرت اللقب الذي أَضفاه عليها أَجداد تلك المدينة، وآباؤها في الإِيمان، وفي الآن عينه علّمتنا، أَنّ التماسنا غوثها يلقى، دائمًا، استجابةً، وأَنّ استغاثتنا بقدرتها وعطفها تؤتي، دائمًا، ثمارًا وفيرةً.

غداة ذلك الحادث أُقيم احتفالٌ مؤثّرٌ في كنيسة سيّدة العجائب، شكرًا لها، وعرض تمثالها لتكريم المؤمنين، وأَنشد أَبناء المدينة لها أَناشيد شكرٍ وحبٍّ. إِنّه يطيب للعذراء أَن تُظهر، كلّ يومٍ، لمكرّميها معجزات رأفتها وقدرتها».

مسبحة العالم الفيزيائيّ، أَمپير

لا يجهل أَحدٌ كيف وجد هذا العبقريّ الفذّ، هذا العالم المبدع، في الدموع، لا الإِيمان الذي لم يفقده يومًا، بل ملء النور، وسنى حرارة الإِيمان. وقد أَصبح رجلاً عظيمًا، ومسيحيًّا عظيمًا.

واتّفق أَنّ شابًّا من ليون، يُدعى فريدريك أوزانام، في الثامنة عشرة من العمر، قدم إِلى باريس، وهو يعاني أَزمة إِيمانٍ، وولج الكنيسة، فشاهد رجلاً شيخًا، جاثيًا في زاويةٍ، قرب الهيكل، يتلو مسبحته بوَرَعٍ وخشوعٍ. ودنا منه، فإِذا به العالم أَمپير، الذي كان يرى فيه تجسيدًا للعلم وللعبقريّة. هذا المشهد أَثّر فيه حتّى أَعماق نفسه، فركع بصمتٍ، خلف العالم، وفاض أَدعيةً ودموعًا.

كان ذلك انتصار الإِيمان وحبّ الله الباهر.

وفي ما بعد، كان يطيب له أَنّ يردّد: «لقد فعلت فيّ مسبحة أَمپير، أَكثر ممّا فعلت جميع الكتب والعظات».

ولا بدّ من التنويه بأَنّ فريدريك أوزانام هو مؤسّس جمعيّة القدّيس منصور الخيريّة.

مسبحةٌ في المسرح

مع أَنّ نابّوليون الأَوّل لم يكن بارعًا في شؤون الدين، إِلاّ أَنّه كان قد احتفظ من الثقافة الدينيّة التي تلقّاها في صباه وشبابه، مبادئ واضحةً. وكان، ذات يومٍ، يحضر مسرحيّةً في باريس، وإِلى جانبه شابٌّ، نبيل المحتد، يكنّ له مودّةً، ويعتزم ضمّه إِلى بلاطه.

وكان الإِمبراطور أَكثر اهتمامًا بمراقبة الجمهور، من اهتمامه بمتابعة التمثيليّة. وتوقّفت أَنظاره، مرَّةً تلو مرَّةٍ، على الدوق الشابّ، الذي بدا مفكّرًا، قليل الاهتمام بما يجري على المسرح، حريصًا على إِخفاء يديه في ثنايا شالٍ من الفرو، مطويٍّ فوق ركبتيه. وبغتةً انحنى الإِمبراطور، ودسّ يده اليمنى داخل شال الفرو، وقبض، في يد الدوق الشابّ على... مسبحةٍ.

في تلك الحقبة لم تكن المظاهر الدينيّة مستحبّةً، أو مرحَّبًا بها، وتوقّع الحاجب الشابّ تأنيبًا حادًّا، وقد اعتراه الخجل. غير أَنّ الإِمبراطور قال له، باسمًا: «ها قد قبضت عليك متلبّسًا. ولكنّ ذلك يسرّني. فأَنت فوق ترّهات المسرح. ولك قلبٌ، وستصبح، يومًا، رجلاً عظيمًا». ثمّ أَعاد له مسبحته، قائلاً: «تابع، لن أُزعجك بعد الآن».

وفي الواقع أَصبح الدوق الشابّ رجلاً خطير الشأن، ومات كردينالاً، ورئيس أَساقفةٍ على مدينة بيزانسون، وخلّف، في رعيّته، ذكرياتٍ باقيةً عن تقواه وإِحسانه.

انتصارٌ على الحياء البشريّ

انخرط فتًى، لم يكمل، بعدُ، الرابعة عشرة، في مؤسّسةٍ، بغية الحصول على تأهيلٍ مهنيٍّ. وكان قد تلقّى تربيةً مسيحيّةً منيعةً، وتثقّف بفعل قدوة ذويه ومعلّميه، على الوفاء لإيمانه، وحرصه على الاستقامة.

غير أنّ أترابه في المركز المهنيّ حاولوا، منذ اللحظة الأولى، تحويله عن كلّ ما تعلّمه وأَلِفه، وهم واثقون من قدرتهم على بلوغ مأربهم بلا عناءٍ، نظرًا لصغر سنّه، وطراوة عوده. ولكن، لا سخرية أولئك الرفاق استطاعت ضعضعة مبادئه، ولا تخرّصاتهم الفلسفيّة أَضعفت إِيمانه.

وذات يومٍ استفسره أَحد رفاقه كم هي الساعة، فأَوعز إِليه أَن يستشير ساعة يده التي كان قد أَودعها في جيب سترته. واتّفق أَنّ ذلك الجيب كان يحتوي، أَيضًا، مسبحة الفتى، إِلى جانب ساعته. ويمكن تصوّر الهرج الذي ساد، عندما رفع رفيق الفتى تلك المسبحة عاليًا، وسط جمهور عمّال لا دينيّين، لا بل مناوئين للدين، والتعليقات الساخرة التي انطلقت من هنا وهناك.

غير أَنّ الفتى لم يجزع، ولم يضطرب، بل شخص نحو رفيقه السيّئ، وقال له بحزمٍ: «إِنّ هذه المسبحة غرَضٌ مقدّسٌ، ولا أَسمح لأَحدٍ بانتهاك حرمته. فأَعدها لي فورًا». وعلا صوتٌ هازئٌ قائلاً:

– «هل تستخدم هذه الأَداة التي تستخدمها النساء الجاهلات؟».

– «إِنّي أَستخدم ما يروق لي. أَجل، إِنّي أَستخدم المسبحة، وإِنّي لأَفخر بتلاوتها كلّ يوم».

وهدّد الرفيق الذي كان وجد المسبحة في جيب الفتى، بعد أَن انتزعها هذا الأَخير من قبضته: «حذارِ، فلو عادت الثورة، لأَعدمتك، بسبب هذه المسبحة».

- «بطيبة خاطرٍ، سأموت شهادةً لإِيماني».

واعترض أَحد الرفاق: «ليست القضيّة قضيّة موتٍ، بل دعنا نتفاهم، ونقضِ على كلّ خلافٍ. أنا لا أَتلو المسبحة، ولكنّني أَرى أَنّ الذين يتلونها هم قومٌ طيّبون ومستقيمون. وهذا الرفيق يستأهل التقدير، إِذ لديه الجرأة على الدفاع عن قناعاته. وكلّ من يقول نقيض ذلك، سأَتولّى أنا، وسيتولّى معي جميع الشرفاء، الردّ عليه».

وتعالت أَصوات الحضور مردّدةً: «إِنّ الرفيق أوغست على حقٍّ!». وتقدّم الرفاق، واحدًا واحدًا، للشدّ على يد الفتى، مهنّئين. ومنذئذٍ، بات بمقدوره أَداء شعائره المسيحيّة، من غير إِثارة عواصف الاستنكار والسخريّة، وبمعزلٍ عن الحياء البشريّ الذي غالبًا ما تغرق في مستنقعه أَسمى النوايا.

ورودٌ للعذراء في «ليما»

لجمعيّة العمّال المرسلين مؤسّسةٌ تدعى «الماء الحيّ» تستثمر مطاعم في مختلف أنحاء المعمورة.

وكانت قد افتتحت فرعًا حديثًا في «ليما»، عاصمة البيرو، ومطعمًا حجزت أجمل مائدةٍ فيه أُسرةٌ جاءت لتحتفل باليوبيل الأربعين لزواج الوالدين، في جوٍّ بدا طافحًا بالفرح. ولكن، في أثناء المأدبة، علم المشرفون على المطعم أنّ ربّ الأُسرة كان مصابًا بسرطانٍ في الحنجرة، فضاعفوا اهتمامهم بالأُسرة المحتفِلة، وأَسرفوا في تكريمهم، وفاجأوهم، في نهاية الوجبة، وعند تقديم الحلوى، بوضعهم بين الوالد والوالدة المحتفى بهما حمامتين من الزجاج، مصحوبتين بصورة السيّدة العذراء.

واشتعلت أكفّ الحضور بالتصفيق، واغرورقت مآقٍ كثيرةٌ بالدموع. وأَنشد الجميع صلاة «السلام عليك يا مريم». وفيما كان المرسلون يوزّعون أوراق صلاة المساء، قال لهم ابن الأسرة البكر، في شيءٍ من الخَفَر: «نحن يهودٌ». ومع ذلك قبلوا الانضمام إلى جميع الآخرين في الإنشاد لابنة جلدتهم. وقد أخذ بهم التأثّر كلّ مأخذٍ، عندما سمعوا، من خلال مكبّر الصوت، أنّ الجميع صلّوا، في ذلك المساء، من أجلهم.

ويتابع العمّال المرسلون رواية ما حدث بقولهم:

«كم كانت دهشتنا بالغةً، في اليوم التالي، عندما وافانا ابن الأسرة البكر، في نحو الساعة العاشرة صباحًا، حاملاً باقةً رائعةً من الزنبق الأبيض، وقال: «هذه الزهور هي للسيّدة العذراء، تعبيرًا عن شكرنا لها. فقد بلغ سرور والديّ

بسهرة الأمس، بحيث دار كلّ حديثهما، هذا الصباح، في أثناء الإفطار، حول مؤسّسة «الماء الحيّ». وأمس مساءً، في طريق عودتنا إلى المنزل قال لي والدي، وهو يهوديٌّ، ولكنّه، في الواقع، ملحدٌ: «لو استطعت لأنشدت للسيّدة العذراء، مع الآخرين!».

وكرّت الأيّام والشهور، وبين الفينة والفينة، كان ابن الأسرة البكر يتوقّف، لحظاتٍ، في مركز «الماء الحيّ»، كي يضع باقات الزهور عند أقدام السيّدة العذراء، ويلتمس الصلاة من أجل والده، الذي كانت حالته تتفاقم سوءًا، يومًا إثر يومٍ. وقد جاء، في نهاية شهر تمّوز، وقد بلغ منه القلق أقصاه، وقال: «لقد أمسى والدي على شفا الموت، فأرجوكم أن تكثّفوا الصلاة من أجله». وفيما كان يضع باقةً من الزهور الحمراء، عند قدمي سيّدة الفقراء، وعدناه بالصلاة، خاصّةً، من أجل والده، مساءً، في أثناء إنشادنا «السلام عليك، يا مريم».

ثمّ عاد إلينا، بمناسبة عيد سيّدة الورديّة، وروى لنا:

«هل تذكرون زيارتي الأخيرة لكم؟ ... في ذلك اليوم عينه، وفي نحو الساعة السابعة مساءً، دخل والدي مرحلة النزاع. ولم أكن أدري ما يتوجّب عليّ فعله، مع أنّي كنت راغبًا في مساعدته على الموت ميتةً حسنةً. وفي اضطرابي وحيرتي أخذتُ أتلو، بتؤدةٍ، صلاة «أبانا»، قريبًا من أُذنه، لعلّه يسمع صلاتي. وإذ كنت أشدّ، برقّةٍ، على يده، كي أبثّه بعض الثقة، ردّ يدي، ثلاث مرّات، ولكأنّه كان يودّ إشعاري بأنّه غير راغبٍ في سماعي، بعد أن فقد القدرة على الكلام. ولكنّني واصلت الصلاة، إذ كنت واثقًا من أنّكم، في مركز «الماء الحيّ» تصلّون معي.

«وبغتةً، ذُهلت، عندما سمعت والدي يقول بكلّ هدوءٍ: » اغفر لي، يا ربّ!». وكانت الساعة العاشرة مساءً. وفي الحال أشرق محيّاه بسجوٍّ مذهلٍ، وبعد نصف ساعةٍ، في الساعة التي ألفتم، فيها، إنشاد «السلام عليك، يا مريم» غادرَنا بسكونٍ».

ثمّ تابع متسائلاً: «ألاّ تظنّون أنّ والدي نال غفران الله، وأنّ مريم هي التي حصلت له عليه؟ فبفضل «السلام عليك، يا مريم» شرعنا، هو وأنا، منذ سنةٍ ونصف السنة، نألف أُمور الله. وبما أنّني تبيّنتُ كيف دخل أبي حياة الحقّ، حين كنتم تنشدون ترنيمة «السلام عليك، يا مريم»، فإنّي راغبٌ في تلقّي العماد المقدّس. فهل لكم أن تساعدوني على التقاء كاهنٍ كاثوليكيٍّ؟».

وفي اليوم التالي، ارتضى كاهن رعيّتنا، الذي فتنه عمل السيّدة العذراء، من خلال صلاة «السلام»، أن يُعدّه لتقبّل الأسرار. وقد مرّ بنا الشابّ منذ أيّامٍ، فإذا به مشرق المحيّا، يضجّ فرحًا.

عيد الأمّهات

كان ميشيل الصغير يعيش، مذ كان في الثالثة من العمر، في بيت مزارعين طيّبين، أوكلته إليهم المؤسّسة الاجتماعيّة. وكان لتلك الأُسرة ولدان في مثل عمره: صبيٌّ وبنتٌ. وكان يلقى من الجميع معاملةً ودّيّةً طيّبةً. غير أنّه ما لبث أن لحظ، مع الأيّام، ولا سيّما عندما بلغ التاسعة، أنّه ليس ابن الأُسرة عينها. وكلّ ما قيل له عن والديه أنّهما لقيا حتفهما، فيما كان طفلاً.

وعشيّة عيد الأُمّهات قالت له أمّه بالتبنّي إنّه يحسن به، في الغداة، أن يحمل باقة زهورٍ إلى الكنيسة، ويضعها على هيكل السيّدة العذراء، فهي أمّ اليتامى.

وفي الصباح، اقتطف باقةً شبيهةً بالباقتين اللّتين نظّمهما الولدان الآخران، ومضى بها إلى الكنيسة. كان يتمنّى أن يختلي، وحيدًا. ولكن، كانت، ثمّة، أمام الهيكل، سيّدةٌ تتلو المسبحة. وضع باقته على الهيكل، وحاول أن يبقيها واقفةً، ولكن تعذّر عليه ذلك. فدنت منه السيّدة التي كانت تصلّي، وكلّمته، ثمّ قصدت الموهف (السكرستيّا) وعادت بمزهريّةٍ زجاجيّةٍ، وأوعزت إليه أن يملأها ماءً من النبع الموجود في الساحة. ووضعا المزهريّة والزهور على الهيكل، وعقب صلاةٍ قصيرةٍ، خرجت السيّدة والفتى من الكنيسة، معًا.

كانت تلك السيّدة قد جاءت بُغيةَ الصلاة من أجل زوجها وابنها الصغير اللّذين كانا قد لقيا حتفهما، منذ ستّة أشهرٍ، في حادث سيرٍ. وجال في بالها أنّه لم يبقَ من يقدّم لها، في تلك السنة، باقة زهورٍ، بمناسبة عيد الأمّهات.

ولكن، بغتةً، ومضت، في ذهنها، فكرةٌ: أفلا يجدر بها أن تتبنّى ميشيل الصغير، هذا ؟

ومنذئذٍ، شرعت في إجراء معاملات التبنّي. وهكذا نال ميشيل من أمّه السماويّة، أُمًّا أرضيّةً تحيطه بكلّ حبّها الأموميّ.

هكذا تفعل الأمّ السماويّة لجميع أولاد الأرض الذين يتطلّعون إلى عطفها برجاءٍ وثقةٍ.

إيقونة الغريق

تزدهي منطقة «هال» البلجيكيّة، الجاثمة على ضفاف قنال شارلروا، على مسافة بضعة كيلومتراتٍ من العاصمة بروكسيل، بكنيستها الجميلة، الغوطيّة الطراز، التي تؤوي تمثالاً للعذراء السوداء الصغيرة، من القرن الثالث عشر، والمعروف بالتمثال العجائبيّ.

هناك عاشت امرأةٌ مسيحيّةٌ مأساةً رهيبةً. كانت أرملةً، وكلّ ثروتها في الدنيا، ابنها الصغير. وذات يومٍ، فيما كان ذلك الولد يلعب مع أحد أترابه، زلّت قدمه، فانزلق وسقط في عباب مياه القنال القاتمة. ولم يكن بوسع رفيقه سوى إطلاق صيحاتٍ حادّةٍ، استقدمت والدته، التي راحت تطلق، هي أيضًا، صيحات استغاثةٍ قلقةً.

لحسن الطالع، كان رجلٌ مارًّا في ذلك الاتّجاه، وسرعان ما تبيّن حقيقة الأمر، فانقضّ إلى مياه القنال، وبحركةٍ سريعةٍ، وواثقةٍ، استطاع التقاط الفتى، وأعاده إلى أُمّه.

وفيما كان الرجل ينتظر أن تجفّ ثيابه، لم تجد المرأة ما تكافئ به منقذ ابنها سوى شرابٍ ساخنٍ، واعتذارٍ لافتقارها إلى ما تستطيع تقديمه، غير أنّها أهدته، بمثابة تذكارٍ، إيقونةً صغيرةً جميلةً لسيّدة «هال»، قائلةً:

– «لا ريب أنّها هي التي استجابت لدعائي، ووضعتك على طريقنا كي تنقذ ابني». وردّ الرجل:

– «لست أدري إن كان الأمر كذلك. اعذريني، فأنا لا أومن».

غير أنّه، حيال نظرة المرأة الحافلة بالحزن، قَبِل الميداليّة، ووعد بالاستجابة لرغبتها في حملها، كذكرى لإنقاذه ابنها، واستجلابًا للسعادة وحسن الطالع.

وكرّت السنوات، وقُيِّض لذلك الرجل أن ينهي أيّامه في سويسرا، وهناك أُدخل إلى مستشفًى، حيث كانت راهباتٌ يتفانين في العناية بالمحتضرين، وحيث كان كاهنٌ بلجيكيٌّ يعود المرضى، بين حينٍ وآخر، كلّما وافى بلد القمم االثلجيّة، زائرًا. وذات يومٍ، أشارت له، من بعيدٍ، راهبةٌ، داعيةً إيّاه إلى المجيء، عاجلاً، ولمّا دنا، قالت له: «أسرع، فهناك، في الطابق الثاني رجلٌ يهذي».

كانت كلمات الرجل اليائسة، التي تتخلّلها شهقات الفواق، باللغة الفلامندريّة، (إحدى اللغات البلجيكيّة)، تعني رفضه لكلّ صلاةٍ، ولكلّ عونٍ دينيٍّ. وحاول الكاهن تهدئة روعه قائلاً:

– «كن مطمئنًّا، فلن يُكرهك أحدٌ على شيءٍ، بل سنقتصر، نحن، على الصلاة من أجلك».

وفيما كان الكاهن ينحني نحوه كي يطمئنه، لمح، بغتةً، في عنقه، النازّ عرقًا، إيقونةً صغيرةً تلتمع. فقال له، لا شعوريًّا، وعن غير قصدٍ: «أتحمل إيقونةً جميلةً، ومع ذلك، تأبى أن أحدّثك عن يسوع المسيح، وعن العذراء، أمّه وأمّنا!».

فاعترى المحتضر شيءٌ من السكون، وروى، بعباراتٍ متقطّعةٍ، غير مكتملةٍ، قصّة تلك الإيقونة، والوعد الذي كان قد قطعه بعدم التخلّي عنها، الوعد الذي التزم به. وكم كانت دهشته واضطرابه، عندما سمع الكاهن يعلن له، بعباراتٍ شديدة التأثّر، تحاكي شهقات النحيب:

– «إنّ الصبيّ الذي أنقذته من مياه القنال... هو أنا... وإنّي لأتذكّر ما طالما روته لي أُمّي عن ذلك الحادث... لقد كنتَ أنت، إذن، منقذي، ولم يتسنّ

لي، يومًا، أن أعبّر لك عن عرفاني بجميلك!... ألا ترى أنّ سيّدة مدينتنا «هال»، هي التي قادتني، اليوم، إليك كي أساعدك، بدوري؟».

وتبادل الرجلان القبلات. ومات المنقذ موتًا هادئًا، بعد أن اعترف اعترافًا صادقًا، وتناول بورعٍ. ولا ريب أنّ بسمة العذراء الذهبيّة القلب، قد اكتنفت بإشعاعها كلاًّ من الرجل الذي كان يلفظ أنفاسه، والكاهن الشابّ.

البستانيّ الذي أنقذ رأس تمثال العذراء

روى مرشدٌ روحيٌّ في مأوًى خيريٍّ ما يلي:

«يوم عُيّنتُ في ذلك المركز، سعيتُ إلى تعرّف جميع العاملين فيه. وقد أُنذرت بأنّ هناك شخصًا سيكون من العسير عليّ التعامل معه، بسبب موقفه العدائيّ من رجال الدين. وكان المعنيّ بستانيّ المركز، وقد أمضى سنواتٍ طويلةً محاربًا في فرقة الأجانب التابعة للجيش الفرنسيّ، المعروفة بعدائها للدين.

بعد بضعة أيّامٍ، انحدرتُ إلى الحديقة، ولا مناص لي من الاعتراف بأنّها كانت تحظى بعنايةٍ ممتازةٍ. كان البستانيّ هناك. ومذ لمحني انتهرني بفظاظةٍ، مستهجنًا حضوري إلى الحديقة، فأجبتُ أنّني راغبٌ في تنشّق بعض النسيم العليل، وأنّني كلِفٌ بمنظر الورود. لم يردّ البستانيّ بكلمةٍ، وعند ذلك توقّف حوارنا.

في الأسبوع التالي، تلقّيت نفس الاستقبال الجافي. ولكن، بعد بضعة أسابيع، بدأ ينعقد بيننا حوارٌ أكثر كياسةً ولطفًا. وأخيرًا، أقرّ لي البستانيّ، ذات يومٍ، أنّني أوّل كاهنٍ أظهر له اهتمامًا. وإذ كنت أستفيض في التعبير عن إعجابي بزهوره، وبعمله، توثّقت بيننا أواصر الصداقة. بيد أنّه ما انفكّ متحرّزًا، معتصمًا بالحيطة، وأنذرني بألاّ أُفكّر، يومًا، بدفعه إلى كرسيّ الاعتراف.

وفي أحد الأمسية باح لي بسرٍّ، وقال: «تعالَ كي أريك عذراء أُخفيها». فقد كان، في إحدى زوايا الحديقة، ما يشبه مشكاةً، مخفيّةً وراء شجيراتٍ، وفي المشكاة رأيت رأس تمثالٍ. وأوضح البستانيّ قائلاً: «لقد وجدته مهشّمًا، كما

ترى، وتأثّرت برؤية تلك السيّدة المسكينة، فلممتُه، وأقمت له مأوى حيث تراه الآن. وكما يمكنك أن تتبيّن، لا أكفّ أزيّنه بالزهور، فهي دائمًا متوفّرة».

ومنذ ذلك اليوم، باتت زيارتي إلى الحديقة، تُختَتم بصلاةٍ موجزةٍ للسيّدة العذراء المشّوهة، برفقة البستانيّ.

إلى أن أُصيب الرجل بذات الرئة، وأشفى على الموت. وعدتُه، فقال لي:

– «من المحقّق الآن أنّني قد أشرفتُ على العبور. فأرجوك أن تأتيني غدًا، «مستصحبًا عدّتك»، وتدبّر وضعي».

وهكذا كان، وخلّصت العذراء ذاك الذي أنقذ رأس تمثالها.

يا أُمّاه، أَهبك ابني

كان للعامل الباسكيّ إيشيغاري، ابنٌ في الثالثة عشرة، فظّ الطباع، سيّئ السلوك، عنيدٌ، متمرّدٌ على والده، حتّى يئس من إصلاحه.

وذات يومٍ، قال له والده: «اتبعني»، واقتاده إلى كنيسةٍ صغيرةٍ مكرّسةٍ لسيّدة الرجاء الصالح، فتوجّه مباشرةً نحو الهيكل، ووضع يده على كتف ابنه، وخاطب مريم قائلاً: «يا أمّاه، لقد جئت كي أوكله إلى رعايتك. فليكن ابنك، وأنت أحيطيه بحمايتك!». ثمّ هوى على ركبتيه راكعًا، وتابع الصلاة، صامتًا، فيما كانت الدموع تنساب على وجنتيه النحيلتين...

ظلّ ابنه الواقف إلى جانبه، جامدًا في مكانه. بادئ الأمر بدا لا مباليًا، غير متأثّرٍ، ثمّ اعتراه الاضطراب، فأخذ يرنو تارةً إلى العذراء، وطورًا إلى والده الذي كان يصلّي بحرارةٍ. وكان شيءٌ يعتمل في قرارة نفسه، وإذ به يهوي راكعًا، هو أيضًا. فقد كانت صلاة أَبيه ودموعه شديدة المفعول لدى أمّ الآلام.

وفيما كانت تضرّعات أبيه تتصاعد نحو السماء، كانت النعمة والتوبة تهبطان على نفس الصبيّ. وأفسد صمتَ الكنيسة تنهّدٌ عميقٌ، تلاه انتحاب الفتى الذي أَسند جبينه على كتف أبيه، متوسّلاً: «اغفر لي، يا بابا، اغفر لي!». وأجابه الوالد بفرحٍ وتأثّرٍ: «أجل، أَصفح عنك». ثمّ أَمسك بيد ابنه، وأَشار إلى تمثال مريم، قائلاً: «كن جديرًا بها!».

وكرّت السنوات، وبلغ الفتى السابعة عشرة، وكفّر عن أخطاء صباه، وبات مثالاً في السلوك القويم... وذات يومٍ، في أعقاب أسبوعٍ من العمل الشاقّ، قال لأبيه: «تعالَ معي إلى سيّدة الرجاء الصالح». وفي هذه المرّة، دخل الابن،

أوّلاً، إلى الكنيسة، عالي الجبين، واثق النظرة، وجثا، وصلّى بصوتٍ مرتفعٍ: «أُمّاه، أخبري أبي ما الذي تطلبينه منّي. وبيّني له المكان الذي تعدّينه لي. أفهميه أنّكِ تريدينني بالكامل، وأنّ عليّ أن أُغادره كي أُلقي البذار في حقولٍ غير حقولنا. قولي لأبي إنّك اخترتني، مع عدم استئهالي، لكي أُكرّس ذاتي لأمّ الله».

حينئذٍ قاطع الوالد ابنه، وأَعلن بوقار: «ما أعطيتُه، لن أستردّه، فليُبارَك كاهنُ الربّ العتيد!».

تبادل المسابح

روى جنديٌّ باﭬاريٌّ:

قُبيْل نهاية الحرب، عام ١٩٤٤، استُدعيتُ إلى الخدمة العسكريّة، وعشيّة مغادرتي إلى الثكنة، انتحت بي والدتي التقيّة التي كانت تجمعنا، كلّ مساءٍ، حول تلاوة المسبحة، وقالت لي: «أنت تعرف، يا ابني، كم أُحبّك، ويمكنك أن تقدّر مدى قلقي وانشغالي عليك، في أثناء غيابك. سأرجو السيّدة العذراء أن تحميك، وتعيدك لي سالمًا، معافًى. ولذلك إليك هذه المسبحة، فعدني أن تتلوها كلّ يومٍ. وهكذا سنكون متّحدين في تلاوتها، وستستجيب لنا السيّدة العذراء».

وَعَدْتُ أُمّي بتلبية طلبها، ووفيتُ، تقريبًا، بوعدي. أقول «تقريبًا»، لأنّ تلاوة المسبحة ليست، دائمًا، أمرًا متيسّرًا. وكنت حريصًا على تلاوتها كاملةً، كلّما تولّيت الحراسة، نهارًا أو ليلاً.

قُبَيْل نهاية الحرب، أُسِرتُ، وجيءَ بي إلى معسكرٍ بريطانيٍّ في هولاّندا، حيث تولّى أمري ضابطٌ إسكوتلنديٌّ، غمس يده في جيبي، منبّشًا، فاستلّ منه مسبحتي، وتأمّلها بُرهةً، ثمّ سألني، بلهجةٍ متعاطفةٍ: «أكاثوليكيٌّ أنت؟». وبالطبع أجبته بالإيجاب، فردّ: «أنا كذلك»، واستلّ من جيبه مسبحته. ثمّ استوضحني: «هل تتلو مسبحتك؟».

– «بقدر ما يتسنّى لي، وما يتّسع لي الوقت، وخاصّةً في ساعات الحراسة».

– «وأنا كذلك».

ومنذئذٍ أمسينا أصدقاء، وقد أسدى لي ذلك الضابط الإسكوتلنديّ ما استطاع من خدمات، خلال الشهرين اللّذين أمضيتهما في المعسكر.

ولّما حان الفراق، قدّم لي مسبحته طالبًا تبادلها بمسبحتي. فوافقتُ، وتواعدنا على الصلاة أحدنا من أجل الآخر. وهذا ما أفعله بانتظام.

لَكَم من أعداء ينقلبون أصدقاء، عندما تجمعهم المسبحة على التكريم الواحد لأمّ اللّه!

«سيّدة أپاريسيدا» والقسّ البروتستانتيّ

في البرازيل مزارٌ شهيرٌ، يؤمّه المؤمنون من كلّ أرجاء البلاد، ويتخشّعون فيه أمام تمثالٍ للسيّدة السوداء، المعروفة بـ «سيّدة أپاريسيدا»، شفيعة البرازيل، التي يفيض وجهها حنانًا وعطفًا، وكأنّها تحمل كلّ آلام الشعب، ومعاناة فقرائه. والشعب يحيطها بكلّ حبّه وتكريمه، ويلتمس شفاعتها وغوثها، في مواجهة مِحَنه وضيقاته.

وعنها يروي الأستاذ فؤاد أنيس الخوري، سفير لبنان في البرازيل سابقًا، القصّة التالية:

في أثناء خطبةٍ تبشيريّةٍ تيليفزيونيّةٍ، صبّ القسّ الإنجيليّ «فون هيلدر» (Von Helder) جام حقده على الإيقونات وصُوَر القدّيسين، وأخذ به الانفعال كلّ مأخذٍ، فركل، برجله اليمنى، إيقونة «سيّدة أپاريسيدا»، مثيرًا عاصفةً من السخط والاحتجاج.

وما لبث القسّ المذكور أن شعر بألمٍ مبرّحٍ في ساقه اليمنى، فاضطرّ إلى قصد الولايات المتّحدة الأميركيّة للاستشفاء. ومكث، أشهرًا، في أحد مستشفياتها، وطوال إقامته هناك، دأبت ممرّضةٌ سوداء البشرة على زيارته ليلاً، ومؤاساته، ومعالجته، إلى أن تحقّق له الشفاء التامّ.

وقبل مغادرته المستشفى، أقام حفلةً دعا إليها المدير والأطبّاء والممرّضات للتعبير عن شكره لما أحاطوه به من عنايةٍ، ولم تحضر الممرّضة السوداء التي كانت تعوده، ليلاً، فاستوضح عن سبب غيابها، وأثار استيضاحه الدهشة. وبيّن له

مدير المشفى أنّ قوانين المؤسّسة لا تسمح للممرّضات بدخول غرف المرضى، ليلاً، فضلاً عن عدم وجود أيّة ممرّضةٍ سوداء في ذلك المشفى.

حينئذٍ، أدرك القسّ أنّ التي كانت تزوره وتعالجه وتواسيه إن هي إلاّ العذراء التي ركل صورتها برجله، فأجهش بالكباء.

وينهي السفير فؤاد الخوري روايته بالقول: «وفي اليوم التالي، عاد القسّ إلى البرازيل، وأعلن توبته، واعتناقه الديانة الكاثوليكيّة، ثمّ راح يجوب العالم، راويًا حكايته، وحاثًّا المؤمنين على تكريم أمّ يسوع، والاحتماء بكنفها، والابتهال إليها دومًا».

الجزء الرابع

من معجزات لورد

في بدايات ظاهرة لورد، كثرت الأشفية المعجزة التي كانت للظاهرة مصداقًا، ولمكانة العذراء لدى الله دليلاً دامغًا.

وكان كثيرون ممّن تحول أوضاعهم الصحّيَّة دون الحجّ إلى مغادرة مسّابييل يستقدمون بعضًا من ماء نبعها، وبواسطته، وبفضل إيمانهم، وشفاعة سيّدة لورد، ينالون الشفاء.

وفي ما يلي، نماذج من هذه الأشفية:

هنري بوسكيه (Henri Busquet)

كان في مدينة «ني» (Ney)، في جوار جبال البيرينيه، فتًى في الخامسة عشرة، يدعى «هنري بوسكيه»، مبتُلًى بعلّةٍ خطيرةٍ، حكم الأطبّاء باستحالة شفائه منها. فقد أُصيب، عام ١٨٥٦، بحمّى تيفيّةٍ حادّةٍ وطويلة الأمد، وعلى أثرها تكوّن في الجانب الأيمن من عنقه دمّلٌ امتدّ، رويدًا رويدًا، حتّى أعلى صدره، وأسفل خدّه. كان الدمّل بحجم قبضة اليد. وكان الألم يجعل الفتى يتمرّغ، أحيانًا، على الحضيض. وبعد نحو أربعة أشهر على تكوّن هذا الدمّل، شقّه طبيبٌ شهيرٌ في تلك المدينة، واستخرج منه كمّيةً كبيرةً من القيح. ولكنّ ذلك لم يساعد الفتى على الشفاء. وعقب عدّة علاجاتٍ فاشلةٍ، نصح الطبيب الفتى بالاستحمام في المياه المعدنيّة المتوفّرة في تلك المنطقة، وفي شهر تشرين الأوّل من عام ١٨٥٧، أي في الفترة من السنة التي يهجر فيها الأغنياء مناطق المياه المعدنيّة، فيؤمّها الفقراء، جاءها هنري بوسكيه، واستحمّ فيها نحو خمسة عشرة مرّةً، ولكنّ هذا الاستحمام لم يؤتِه أيّة فائدةٍ، بل زاد قروحه التهابًا وتقيّحًا. وبات كلّ صدره، وجانبٌ من عنقه قرحًا مفتوحًا، ينزّ صديدًا، ويهدّد وجهه. وفضلاً عن ذلك برزَ ورمٌ شديد النتوء إلى جانب القرحة المريعة.

تلك كانت حالة الفتى المسكين عندما ترامت إليه أنباء المفاعيل الرائعة التي تحدثها مياه مغارة لورد، فتاق إلى الاستشفاء بها. خطر له، بادئ الأمر، أن يحجّ إلى مسّابييل، سيرًا على الأقدام، ولكنّ والديه اللّذين كانا يعلمان عجزه عن الاضطلاع بهذه المغامرة، ثنياه عنها.

ولكنّ هنري كان شديد التقوى، وراسخ الاقتناع بأنّ العذراء التي ظهرت لبيرناديتّ لن تتأخّر عن شفائه، فالتمس من جارةٍ لذويه، كانت حاجّةً إلى

لورد، أن تأتيه بشيءٍ من ماء نبعها. فجاءته بقارورةٍ مليئةٍ به، مساء يوم الأربعاء، الموافق ٢٨ نيسان.

في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، قبل أن يأوي إلى فراشه، ركع الفتى وتضرّع، بحرارةٍ، إلى السيّدة العذراء. وقد اشترك معه، في الصلاة، أبوه وأمّه وإخوته وأَخواته، وجميعهم قومٌ بسطاء، مؤمنون، طيّبون، وقد أضحت إحدى أخواته، لاحقًا، راهبةً.

كان طبيبه قد حذّره من الاستحمام بالماء البارد، تفاديًا لتفاقم علّته. غير أنّ هنري، في تلك اللحظات الحاسمة، لم يكن يحفل بنصائح الطبيب. بل نزع الضمادات عن قروحه، التي غسلها بواسطة قماشٍ مبلّلٍ بماء النبع المبارك، وهو يحدّث نفسه: «يستحيل ألاّ تشفيني العذراء». وأخلد إلى النوم يواكبه هذا الرجاء، مستسلمًا إلى سباتٍ عميقٍ.

عندما استيقظ، كان رجاؤه قد تحوّل واقعًا راهنًا: فقد تلاشت آلامه كلّها، وأُغلقت قروحه، مخلّفةً ندبةً قاسيةً، وكأنّ يد الزمن هي التي ختمتها ببطءٍ، واضمحلّ كلّ ورمٍ. القدرة السماويّة التي تدخّلت وشفت، كانت قد أنجزت، في غضون لحظاتٍ، عمل شهورٍ، بل سنواتٍ طوالٍ. كان البرء كاملاً، فوريًّا، بغير حاجةٍ إلى فترة نقاهةٍ.

وقد أكّد الأطبّاء أنّ الإصابات من هذا النمط بطيئة الشفاء، لأنّها تستلزم تبدّلاً عميقًا في أعضاء الجسم، وأنّ الشفاء الفوريّ يخرج عن نطاق الطبيعة.

لم يستطِع منكرو فائق الطبيعة إنكار واقعٍ راهنٍ، ولكنّهم ادّعوا أنّ الداء قد يظهر مجدّدًا قبل أن يتخطّى الفتى الثامنة عشرة. ولكنّه تخطّى العقد الثالث، وظلّ داؤه ذكرى غابرة.

وعندما كان يُسأل عن شفائه العجيب، لم يكن يرى فيه أيّة غرابةٍ، لأنّه يؤمن أنّ خالق الكون هو واضع سُنَنِهِ، وقادرٌ على التحكّم بها كما يشاء.

قيامةٌ

في مدينة «ني» عينها، التي أُنعم فيها على الشابّ «هنري بوسكيه» بشفاء عجيبٍ، كانت تعيش أرملةٌ عجوزٌ، تدعى «مادلين ريزان»، وقد انتهت إلى شفا الموت. ولم تكن حياتها، أقلّه سحابة السنوات الخمس والعشرين الأخيرة منها، سوى سلسلةٍ متّصلةٍ من الآلام. فعلى إِثر إصابتها بالكوليرا، عام ١٨٣٢، مُني جانبها الأيسر بشللٍ شبه كاملٍ، فأضحت تعرج، ولا تستطيع السير بضع خطواتٍ داخل المنزل، إلاّ متّكئةً على الجدران، أو على أثاث البيت. ونادرًا ما كانت، في عزّ الصيف، وبمساعدة الغير، تُحمَل إلى الكنيسة المحاذية لبيتها، لكي تحضر القدّاس. ولم تكن تقوى على الركوع أو النهوض بمفردها، وبمعزلٍ عن مساعدة آخرين. كانت إحدى يديها قد ضمرت ضمورًا كلّيًّا، وغدت عاجزةً عن الحركة. وكانت لعلّتها آثارٌ بليغةٌ على نفسها، لا تقلّ وبالاً عن آثارها الجسديّة. فكانت تتقيّأ دمًا، بلا انقطاعٍ، من جرّاء عجز معدتها عن هضم الأطعمة الصلبة، فاقتصر غذاؤها على مرق اللحم، والحساء، والخضار المهروسة، والقهوة، التي كانت تُبقي فيها شعلة الحياة المترنّحة، متّقدةً، ولكن هزيلةً، لا تفلح في تزويد ذلك الجسد المسكين بشيءٍ من الدفء، فكانت المرأة العليلة، مقرورةً دائمًا، وحتّى عندما يبلغ قيظ تمّوز وآب أشدّه، كانت تقتضي إشعال نار الموقد ووضع مقعد مرضها أقرب ما يمكن من لهيبها.

وكان وضعها قد تفاقم سوءًا منذ نحو ثمانية عشر شهرًا، فأضحى شلل جانبها اليساريّ كاملاً، وأخذ الشلل يغزو ساقها اليمنى. وكانت أعضاؤها المصابة تتورّم تورّمًا مريعًا. واضطرّت السيّدة ريزان إلى استبدال مقعدها العتيق بالسرير الذي لازمته، وكانت علّتها تمنعها من القيام بأيّة حركةٍ في فراشها، فيسهر آخرون على

تغيير وضع رقادها، بين حينٍ وآخر. وما لبثت أن أضحت كتلةً هامدةً، وفقدت الشعور، إضافةً إلى فقدها القدرة على الحركة، بحيث كانت تسأل الذين يساعدونها على تغيير وضع رقادها: «أين هما ساقاي الآن؟».

وكان يشرف على علاجها طبيبان، أحدهما كان قد حكم باستحالة شفائها، وأقلع عن وصف أيّ دواءٍ لها، إذ كان يرى أنّ الأدوية، أيّةً كانت، كفليةٌ بإضعافها، وإنهاك جسدها الذاوي، وبإحداث عواقب وبيلةٍ. ولكنّ ذلك الطبيب لم يكفّ عن عيادتها، بصفة صديقٍ، ورغبةً في الاطمئنان عن حالتها. وكان طبيبٌ آخر، نزولاً عند إلحاحها، قد وصف لها أدويةً سرعان ما أثبتت عدم جدواها، فتخلّى، هو أيضًا، عن كلّ رجاءٍ في شفائها.

ومع أنّ أعضاءها المشلولة كانت قد فقدت الإحساس، غير أنّ آلامًا مضنيةً كانت تنتابها تارةً في معدتها وبطنها، وطورًا في رأسها. وقد أحدث وضع الرقاد الدائم قروحًا في مواضع مختلفةٍ من جسمها، وسُلخ جلدها في عدّة أماكن، وبات جرحًا نازفًا. وكانت نهايتها تدنو ساعةً فساعةً.

وكان للسيّدة ريزان ابنةٌ تُدعى «لوبين»، تسكن معها، وتعنى بها، بتفانٍ لا يفتر، وابنٌ يُدعى «رومان» موظّفٌ في محلٍّ تجاريٍّ، بمدينة بوردو.

وعندما أعلن الطبيب فقدان كلّ رجاءٍ في الشفاء، وأنّ أيّام المريضة أمست معدودةً، استُدعي ابنها للحضور، بالسرعة القصوى. فجاء، وقبّل أُمّه، ونال بركتها، وودّعها الوداع الأخير، وسرعان ما استدعاه مستخدِموه، فاضطرّ إلى الانسلاخ عن سرير الموت، وهو موقنٌ، يقينًا جارحًا، أنّه لن يرى أُمّه، بعدُ.

تلقّت العجوز مسحة المرضى، غير أنّ نزاعها تمادى، وسط آلامٍ لا تُحتَمل. وغالبًا ما كانت تصيح:

– رحماك، إلهي، ضع حدًّا لآلامي. وهبني، يا ربّ، الشفاء أو الموت!

وقد التمست من راهبات الصليب، اللواتي كانت إحدى قريباتها رئيسةً على ديرهنَّ، إقامة تساعيّة صلوات إلى السيّدة العذراء، ملتمساتٍ منها للمريضة الشفاء أو الموت.

وأعربت المريضة، يومًا، عن رغبتها في الشرب من ماء المغارة، فوعدتها جارةٌ لها، كانت مزمعةً على الحجّ إلى لورد، بأن تأتيها بشيءٍ منه.

وكان تفاقمُ حالتها سوءًا قد استلزم، منذ فترةٍ، السهر عليها ليلَ نهار. ويوم السبت الواقع في ١٦ تشرين الأوّل، انتابتها أزمةٌ حادّةٌ، منذرةً بنهايتها، وأصبح بصقها للدم مستمرًّا؛ وانتشرت مسحة شحوبٍ على وجهها الذي أصابه الهزال، وامتدّت فوق عينيها طبقةٌ شبه زجاجيّةٍ. ولم تعد تتلفّظ بكلمةٍ، سوى الشكوى من فداحة آلامها، هاتفةً: «يا ربّ، كم أنا أتألّم! ألا تمنّ عليّ بالموت!»

وقال الطبيب الذي كان يعودها، بعد أن سمع شكواها:

– ستتحقّق أمنيّتها قريبًا. وستلقى حتفها في هذه الليلة، أو في مهلةٍ أقصاها طلوع النهار، فقد نفد مصباحها من الزيت.

وبين حينٍ وآخر، كان باب حجرتها يُفتح، ويطلّ أصدقاء، أو جيرانٌ، أو كهنةٌ، ويستوضحون هل ما زالت المحتضرة حيّةً. وعندما غادرها، مساءً، الأب أندريه دوبون، الذي كان لها صديقًا، ومؤاسيًا، لم يقوَ على حبس دموعه، وتمتم:

– قبل إِشراقة الشمس، ستكون قد غادرتنا، ولن أراها ثانيةً، إلاّ في الفردوس.

خيّم الليل، ورويدًا رويدًا سادت الوحدة في المنزل. كانت ابنة العجوز المحتضرة «لوبين» راكعةً أمام تمثالٍ للسيّدة العذراء، لا يساندها أيّ رجاءٍ أرضيٍّ. وكان الصمت عميقًا، لا يقطعه سوى تنفّس المريضة الشاقّ. وعند منتصف الليل، نادت العجوز ابنتها، فنهضت ودنت من سريرها، وأمسكت بيدها، وسألتها:

– ماذا تريدين، يا أُمّاه؟

فأجابتها، بصوتٍ غريبٍ، وكأنّه خارجٌ من حلمٍ بعيدٍ:

– يا ابنتي العزيزة، اذهبي إلى صديقتنا وجارتنا، فلا بدّ أنّها عادت من لورد، واطلبي منها كأسًا من ماء المغارة. فهذا الماء هو الذي سيشفيني. هذا ما تريده العذراء.

– ولكن، يا أُمّاه، لقد أمسى الوقت متأخّرًا جدًّا، أنا لا أستطيع أن أدعك وحيدةً، وفي بيت جارتنا الجميع، الآن، نيامٌ. ولكن، غدًا، سأذهب، منذ الفجر، وسآتيك بالماء.

– فلننتظر، إذن.

ومرّ الليل، طويلاً. وأَعلنت نواقيس الأحد الجذلى إشراقة النهار. وحمل جرس التبشير الصباحيّ للعذراء مريم، صلوات الأرض، مشيدًا بقدرة أُمومتها الكلّيّة، الأبديّة. وهرعت لوبين إلى بيت الجارة، وما لبثت أن عادت بقارورةٍ ملأى بماء المغارة، وقدّمتها لأُمّها، قائلةً:

– اشربي، يا أُمّاه، ولتكن العذراء في عونك.

وما كادت السيّدة ريزان ترتشف بضع جرعاتٍ، حتّى صاحت:

– آه، يا ابنتي، إنّني إنّما أشرب الحياة. الحياة تضجّ في هذا الماء. دلّكي به وجهي، ودلّكي به ذراعي، ودلّكي به كلّ جسمي.

بلّلت لوبين قماشًا في الماء العجائبيّ، وبرعدةٍ وذهولٍ، غسلت وجه أُمّها به. وإذا بأمّها تهتف، بصوتٍ استعاد وضوحه وقوّته:

– إنّني أشعر بالشفاء، يتملكّني شعورٌ بأنّني شفيتُ.

غير أنّ «لوبين» استمرّت تمسح بالقماش المبلّل بماء المغارة أعضاء المريضة الضامرة والمتورّمة. وكانت تشهد، وهي سكرى سعادةً ممزوجةً برعشة رعدةٍ، الورم الجسيم يهبط ويتلاشى، بغتةً، بحركةٍ سريعةٍ من يدها، والجلد الذي كان

مشدودًا شدًّا عنيفًا حتّى غدا ملتمعًا، يستعيد منظره الطبيعيّ. كانت العافية والحياة تنبعثان ثانيةً، تحت أناملها، بعثًا فوريًّا، كاملاً، وفي غير حاجةٍ إلى مرحلة انتقالٍ.

وكانت العجوز تصرّح:

– يبدو لي أنّ ما يشبه خرّاجاتٍ حارقةً، تخرج من كلّ جسمي.

كان المرض يفرّ من ذلك الجسد الذي طالما أمضّه الألم، ويغادره إلى الأبد، بفعل مشيئةٍ فائقةٍ.

وقد حدث كلّ ذلك في لحظاتٍ. في غضون دقيقةٍ أو دقيقتين كان جسم السيّدة ريزان المحتضر، قد استعاد ملء قواه، بعد أن مسحته ابنتها بماء المغارة، وكانت المرأة التي استعادت الحياة لا تني تهتف:

– لقد شفيتُ. تعافيتُ تمامًا. ما أطيب العذراء القدّوسة، وما أعظم قدرتها!

ثمّ بعد هذا الاندفاع صوب السماء، استفاقت شهوات الأرض المادّيّة، فهتفت:

– عزيزتي لوبين، أنا جائعةٌ، وأريد طعامًا.

– هل ترغبين في شيءٍ من القهوة، أو النبيذ، أو الحليب؟

كانت الفتاة تتلعثم، وهي تطرح سؤالها، وقد أخذ بها الاضطراب كلّ مأخذٍ، حيال تلك المعجزة المباغتة، بل الصاعقة. وأجابتها أُمّها:

– بل أريد لحمًا وخبزًا. فمنذ خمس وعشرين سنةً، لم أَذق هذه الأطعمة.

وقُدّم لها لحمٌ باردٌ كان متوفّرًا، آنذاك، في المنزل، وقليلٌ من النبيذ، فشربت وأكلت، ثمّ قالت:

– والآن أُريد النهوض.

وأجابتها ابنتها:

– هذا مستحيلٌ، يا أُمّاه.

كانت «لوبين» ما برحت حائرةً متردّدةً، لا تستطيع، رغمًا عنها، تصديق ما تراه، ظانّةً أنّ المعجزات الآتية مباشرةً من الله، تخضع، على غرار الأشفية العاديّة، للتطوّر البطيء، وللاحتياطات التي توجبها النقاهة، وكانت تخشى أن ترى تلك المعجزة غير المتوقّعة، تضمحلّ بغتةً.

أصرّت السيّدة «ريزان»، طالبةً أن يؤتي لها بثيابها، التي كانت قد طويت منذ أشهرٍ طويلةٍ، وأودعت داخل خزانةٍ في حجرةٍ مجاورةٍ، وقد ظنّ ذووها أنّها لن تحتاج، بعدُ، أبدًا، إليها. خرجت «لوبين» كي تأتي لأمّها بما طلبته، وسرعان ما عادت، ولكنّها، ما كادت تدوس عتبة غرفة أُمّها، حتّى أطلقت صيحةً حادّةً، وأسقطت من يدها الثوب الذي كانت تحمله، إذ لم تستطع احتمال المفاجأة. ففي أثناء غيابها القصير، كانت والدتها قد قفزت من سريرها، وجاءت فركعت أمام الموقد، حيث كان ينتصب تمثالٌ للعذراء. كانت مضمومة اليدين، تقدّم آيات الشكر للقدرة الكلّيّة التي أنقذتها.

ارتعبت «لوبين»، وكأنّها أمام ميتٍ قام. فلم تقوَ على مساعدة أمّها كي ترتدي ثيابها.

ولكنّ العجوز تناولت الثوب، وارتدته في لحظةٍ، ثمّ عادت فارتمت على ركبتيها أمام التمثال المقدّس.

كانت الساعة تناهز السابعة صباحًا، والناس يخرجون من الكنيسة، بعد انتهاء القدّاس الأوّل؛ وسمع بعض المارّة صيحة «لوبين»، فتهامسوا:

– يا للفتاة المسكينة ! لا ريب أنّ أُمّها قضت نحبها. فقد كان من المحال أن تجتاز الليلة الماضية.

ودخل كثيرون، جيرانٌ وأصدقاء، بُغية مساندة «لوبين» ومؤاساتها في فاجعتها، وكان بين الداخلين راهبتان من أخوات الصليب المقدّس. وكان القوم يقولون للفتاة:

– لقد ماتت، إذن، أُمّك الطيّبة، أيّتها الفتاة المسكينة ! ولكن تعزّي، فسترينها، ثانيةً، في السماء.

ودنوا فوجدوا الفتاة مستندةً على باب الغرفة، وقد ارتسم الذهول على وجهها. وبمشقّةٍ استطاعت القول، بِجرسٍ يخنقه التأثّر:

– لقد قامت أُمّي من الموت.

وظنّت الراهبتان، وهما تلجان الغرفة، يتبعهما بضعة أشخاصٍ كانوا يتسلّقون السلّم أنّ الفتاة تهذي. ولكن اتّضح للجميع أنّها إنّما كانت تنطق بالحقيقة. فقد كانت السيّدة ريزان قد هجرت سريرها، وارتدت ثيابها، وكانت تصلّي، راكعةً أمام تمثال العذراء مريم. فنهضت وأعلنت:

– لقد شفيتُ. فلنشكرنّ العذراء. ولنركع جميعنا !

انتشر نبأ هذا الحدث المدهش، في مدينة «ني»، بسرعة البرق، وفي ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، غُصّ البيت بالخلق، الذين ازدحموا، بتأثّرٍ وخشوعٍ، في الحجرة التي أشرق عليها شعاع الرحمة الإلهيّة كلّيّة القدرة. كلٌّ منهم كان راغبًا في مشاهدة السيّدة «ريزان» بأمّ عينيه، ومسّ جسدها الذي عادت إليه الحياة، وحفْر جميع تفاصيل هذا الحدَث الخارق في ذاكرته.

أمّا الطبيب الذي كان يعود السيّدة «ريزان» باطّراد، فقد أعلن، بلا تردّدٍ، طبيعة ذلك الشفاء العجيب، فائقة الطبيعة، وإلهيّة.

في هذه الأثناء كان «رومان»، ابن السيّدة ريزان، في مقرّ عمله في بوردو، ينتظر، بقلقٍ، الرسالة الرهيبة التي تبلّغه وفاة أمّه. وعندما جاءه البريد، ذات صباحٍ، برسالة تعرّف خطَّ الأب ديپون كاهن رعيّة «ني» على مغلّفها، انقبض، قلبه، وأسرّ لصديقٍ كان يزوره، باكيًا:

– لقد فقدت أُمّي الحبيبة.

قال ذلك، قبل أن يتجرّأ على فضّ المغلّف.

ولكنّ صديقه شجّعه بقوله:

- اصمد في وجه الفاجعة، وتسلّح بالإيمان.

وأخيرًا، تشجّع وفضّ المغلّف، وكانت الكلمات الأولى التي وقعت عليها عيناه بدهشةٍ: «الحمد لله! هلليلويا! ابتهج يا صديقي العزيز. لقد شفيت أُمّك شفاءً كاملاً. السيّدة العذراء هي التي أعادت لها صحّتها بمعجزةٍ.» وروى له الكاهن، بإسهابٍ، كيف انتهى نزاع أمّه بالقيامة، بديلاً عن الموت، بتدخّلٍ إلهيٍّ فائقٍ.

كان فرح «رومان ريزان»، وصديقه عارمًا! واتّفق أنّ ذلك الصديق كان يعمل في مطبعةٍ تُصدر صحيفةً كاثوليكيَّة، فقال له: «أعطِني هذه الرسالة، فينبغي أن تذاع أعمال الله، وأن تمجّد سيّدة لورد». وقد نشرت الجريدة تفاصيل المعجزة، بعد أيّامٍ قليلة. وكانت لنشرها عواقب سعيدةٌ كما سنرى في الرواية التالية.

أمّا «رومان ريزان»، فقد هرع إلى مسقط رأسه في «ني»، حيث كانت أمرأةٌ تنتظره في محطّة العربات، وما إن هبط من العربة التي كان يستقلّها حتّى جرت نحوه امرأةٌ، بهمّةٍ وسرعةٍ، وأخذته بين ذراعيها، مذرّفة دموع التأثّر والفرح.

تلك المرأة كانت أُمّه.

ماري

عام ١٨٤٣ كان عروسان ينتميان إلى أُسرةٍ فرنسيّةٍ نبيلةٍ ينتظران ولادة طفلهما الأوّل، في قلقٍ هاصرٍ، بعد أن حذّرهما الأطبّاء من احتمال أن تكون الولادة عسيرةً، وأن يكون ضحيّتها الطفل أو الأُمّ، أو كلاهما معًا. واستغاث الأب الملهوف بالأمّ السماويّة، وتمّت الولادة بسلامٍ، ووضعت الزوجة طفلةً، أصرّ والدها على تسميتها «ماري»، متخطّيًا اعتراضات الأهل، والمعارف، والأصدقاء. ثمّ حرص على أن ترتدي الطفلة، طيلة ثلاث سنواتٍ، ثيابًا بيضاء وسماويّة اللون، تكريمًا للسيّدة العذراء.

وفي مطلع عام ١٨٥٨، كانت ماري، في ربيعها السادس عشر، تتابع دروسها، في معهد القلب الأقدس، بمدينة بوردو، عندما ابتُليت بعلّةٍ في عينيها، منعتها من مواصلة دروسها. ظُنّ، بادئ الأمر، أنّ الإصابة ناجمةٌ عن لفحة هواءٍ، وأنّها ستعبر سريعًا. ولكنّ الأيّام أثبتت أنّها كانت أشدّ خطورةً. وقد أكّد ذلك طبيب عيونٍ ذائع الشهرة، بعد أن تبيّن أنّ إحدى عيني الفتاة قد فقدت الرؤية نهائيًّا، وأنّ العين الأخرى مصابةٌ إصابةً بليغةً.

أُحيط الوالدان علمًا بالأمر، فأعادا ابنتهما ماري إلى البيت، وعكفا على تزويدها بالعلاجات التي كان الأطبّاء قد وصفوها، والتي أثبتت عدم جدواها. انقضى الربيع، والصيف، والخريف، وحال الفتاة تتفاقم سوءًا، حتّى أمست على شفير العمى التامّ. وقرّر والداها الذهاب بها إلى باريس، بغية استشارة أشهر المختصّين في طبّ العيون. وكان ذلك في مطلع شهر تشرين الثاني.

واتّفق أنّ مجلّة «الرسالة الكاثوليكيّة» كانت قد نشرت، في عدد ذلك

الشهر، خبر شفاء السيّدة «ريزان»، كما رواها الأب «ديپون» في رسالته إلى ابنها «رومان»، ووفقًا لما ورد في الرواية السابقة بعنوان «قيامة». وأخذ السيّد «مورو»، والد ماري، يتصفّح المجلّة، وهو شارد الذهن، وإذ بنظره يعلق بتلك القصّة المذهلة، التي زلزلت كلّ كيانه. والتهب الرجاء في قلبه الذي كان الهمّ يلتهمه، وأشرق عليه شعاع أملٍ. وقال في سرّه، ببساطةٍ رائعةٍ:

– هذا هو الباب الذي ينبغي قرعه، فمن المؤكّد أنّ السيّدة العذراء التي ظهرت في لورد، مهتمّةٌ بإجراء أشفيةٍ عجيبةٍ، كي تؤكّد صحّة ظهوراتها، ولا سيّما في مستهلّ الظاهرة، إلى أن تثبت عالميًّا. فلنسرع إذن ! وقد يكون أوّل الواصلين هم الأكثر حظوةً. فيا زوجتي، ويا ابنتي، علينا الاستغاثة بسيّدة لورد!

الستّ عشرة سنةً التي كانت قد انصرمت منذ ميلاد ماري، لم تكن قد أضعفت، في شيءٍ، إيمان والدها، وثقته المطلقة بالعذراء.

وقرّرت الأُسرة الشروع بتساعيّة صلوات، اشترك بها جيرانٌ، وأترابٌ، وأصدقاء للفتاة المصابة. وبفضل تدبيرٍ من العناية الإلهيّة، كان لدى كاهن الرعيّة، في ذلك الوقت، قارورة ماءٍ من المغارة. وقد نذر أهل ماري، إذا هي نالت الشفاء، أن يلبسوها، طيلة عامٍ كاملٍ، زيّ العذراء، بلونيه الأبيض والسماويّ، وأن يحجّوا جميعهم إلى لورد.

استهلّوا تساعيّة الصلوات، يوم الإثنين الواقع في الثامن من تشرين الثاني. الفتاة نفسها لم تكن تؤمن بإمكانيّة الشفاء، ولم تكن أُمّها تجسر عل ترجّي الشفاء، بل وحده والدها، كان يحدوه الإيمان الراسخ الواثق، الذي لا تخذله قدرات السماء الخيّرة.

كانت الصلاة الجماعيّة تقام في غرفة السيّد «مورو». أمام صورةٍ للسيّدة العذراء القدّيسة. وبعد أن نهضت الفتاة المريضة وأمّها وأختها، قاصدات أسرّتهنّ، بقي الوالد راكعًا، وإذ خيّل إليه أنّه أضحى وحيدًا، ارتفع صوته بدعاءٍ حارٍّ أوقفت نبرتُه النابضة بالتوسّل، أفرادَ أُسرته عند عتبة الباب، فسمعوه يقول:

- «أيّتها العذراء كلّيّة القداسة، ينبغي أن تشفي ابنتي. أجل ينبغي، حقًّا، أن تشفيها. شفاؤها واجبٌ عليك، ولا يسعك التملّص منه. أُذكري، يا مريم، أنّني، رغم الجميع، ومقاومًا الجميع، اخترتك شفيعةً لها. عليك أن تتذكّري كم صارعتُ كي أطلق عليها اسمك المقدّس. فهل يسعك، أيّتها العذراء القدّوسة، أن تنسي كلّ ذلك؟ هل يسعك أن تنسي أنّني كنتُ، آنذاك، أدافع عن اسمك، وقدرتك، ومجدك، ضدّ مقاومة المحيقين بي، وضدّ حججهم الواهية؟ هل يسعك أن تنسي أنّني وضعت ابنتي هذه، علنًا، تحت حمايتك، مردّدًا على مسامع الجميع، أنّ هذا الاسم، اسمك، أيّتها العذراء القدّيسة مريم، سيجلب لها السعادة؟ ... كانت ابنتي، وجعلتها ابنتك، هل يمكنك أن تنسي ذلك؟ ألا يُلزمك ذلك؟ ألا يُلزم ذلك شرفك؟ أنا، الآن، تعيسٌ، ونحن نصلّي من أجل ابنتنا، من أجل ابنتك. ألا يُلزمك بغوثنا، وبشفاء مريضتنا؟ هل ترضين أن تدعيها عمياء، بعد كلّ إيماني بك؟ ... لا، لا، هذا مستحيلٌ، بل ستشفينها».

لا ريب أنّ هذه الصلاة النابعة من قلبِ أبٍ ملهوفٍ، كان لها أبلغ أثرٍ على قلب الأمّ السماويّة.

كانت، حينذاك، الساعة العاشرة ليلاً، وقبل أن تستسلم ماري إلى النوم بلّلت قماشةً بماء لورد، وعصبت بها عينيها العليلتين. كانت نفسها ساحة صراعٍ. ومع أنّها لم تكن تملك إيمان أبيها، إلاّ أنّه كان يعتمل فيها أملٌ بأن تمنّ عليها العذراء بالشفاء، وبأن ترى النور ثانيةً، مع انتهاء تساعيّة الصلوات. ثمّ كان يستحوذ عليها الشكّ، ويخيّل إليها أنّ المعجزات بعيدةٌ عنها. كانت ممزّقةً بين الرجاء واليأس، وقد أقصى هذا التمزّق النوم عنها، معظم ساعات الليل.

وعند استيقاظها، صباحًا، دفعها رجاءٌ مبهمٌ مشوبٌ بالفضول إلى انتزاع العصابة عن عينيها. وإذ بها تطلق صيحةً حادّةً. فقد كان نور الشمس الوليدة يغمر كلّ شيءٍ من حولها. لقد باتت ترى كلّ شيءٍ بوضوحٍ ودقّةٍ؛ عينها العليلة

استعادت صحّتها، وعينها العمياء، قامت من الموت. فأيقظت أُختها التي كانت تشاركها غرفة نومها، زافّةً لها بشرى شفائها.

وقفزت أُختها من السرير، وأكبّت عليها متفحّصةً، فإذا بعينيها السوداوين تلتمعان، صافيتين، وقد تحرّرتا من كلّ غشاوةٍ، ومن كلّ آثار المرض. وهمّت الأُخت الصغرى بزفّ البشرى إلى والديها، ولكنّ ماري أشارت إليها بالصمت والتريّث، قائلةً:

– انتظري، كي أتأكّد من قدرتي على القراءة. ائتيني بكتاب.

فناولتها كتابًا موضوعًا على المنضدة، وفتحته ماري، وجعلت تقرأ ما فيه، بيسرٍ، وبلا جهدٍ. وإذ بشفائها كاملٌ، جوهريٌّ، مطلقٌ.

وهرع الوالدان، فبشّرتهما:

– بابا، ماما، إنّي أرى، وأقرأ. لقد شفيت.

كان باب البيت ما زال موصدًا، وستائره مرخيّةً، ومع ذلك كان يستحوذ على أصحابه شعورٌ عذبٌ بأنّ بينهم كائنًا كلّيّ القدرة. فركعوا جميعهم، ومن قلوبهم الضاجّة بالتأثّر وعرفان الجميل، تصاعدت صيحةٌ:

– أيّتها العذراء القدّوسة، يا سيّدة لورد ... شكرًا.

بفضل أمّ الله انقلبت مصيبة تلك الأُسرة سعادةً غامرةً، فوفوا بنذرهم، وحجّوا إلى لورد، حيث خلعت ماري ثيابها، كي تستبدلها بزيّ العذراء الذي كانت فخورةً بارتدائه.

وقد شهد هذه المعجزة، بإعجابٍ وشكرٍ، جميع سكّان المدينة الذين كانوا يجلّون السيّد «مورو»، فتعاطفوا مع المصيبة التي حلّت بابنته، وشاركوه فرح شفائها. وهكذا فعل أتراب ماري وراهبات القلب الأقدس.

أمّا الطبيب الذي كان قد يئس من معالجتها، فقد أذهله شفاؤها المعجز الذي يتخطّى كلّ قدرات العلم. ودوّن اعترافه هذا، في شهادةٍ رسميّةٍ.

وظلّت الآنسة ماري ترتدي زيّ العذراء، حتّى يوم زفافها. يومها وافت لورد، حيث استبدلت زيّ نذرها بثوب الزفاف.

وحرصت على إهداء زيّ العذراء، إلى فتاةٍ أحبّتها العذراء، ولم تجد، لذلك، خيرًا من بيرناديتّ سوبيرو. فقد كانتا ابنتي الأمّ عينها، وكانتا، نوعًا ما، أُختين.

كانت تلك هي الهديّة الوحيدة التي قبلتها بيرناديتّ في حياتها، والتي كانت تذكّرها بالأُمّ السماويّة التي ظهرت لها في مغارة لورد. وظلّت ترتدي ذلك الزيّ حتّى بلي، واهترأ اهتراءً كاملاً.

العجوز المشلولة... تحصد

في محلّة «بوردير»، القريبة من «نيه»، كانت الأرملة العجوز، «ماري لانودمنجي»، البالغة من العمر ثمانين عامًا، قد أُصيبت، منذ ثلاث سنوات بشللٍ جزئيّ، في الجانب الأيسر من جسمها، بحيث غدت لا تستطيع القيام بأيّة حركةٍ إلاّ مستعينةً بالغير. ومن جرّاء هذه العلّة، أضحت عاجزةً عن أيّ عملٍ.

وكان طبيبها، بعد أن جرّب كلّ ما تيسّر له من علاجاتٍ كفيلةٍ بإعادة الحيويّة إلى أعضائها الضامرة، بلا جدوى، قد أقلع عن معالجتها، ولكنّه ظلّ يعودها كلّما سنحت له فرصةٌ. غير أنّ أمل الشفاء ظلّ يلازم تلك العجوز، وكانت لا تني تسأله كلّما عادها:

– متى سيُكتب لي الشفاء؟

وكان جواب الطبيب لا يتغيّر:

– ستشفين عندما يشاء الله.

لم يكن يساور الطبيب أيّ شكٍّ في أنّ جوابه هذا كان نبويًّا. وتساءلت العجوز، بعد أن ترامت إلى علمها أنباء نبع لورد، ومعجزاته:

– لمَ لا أومن بكلام الطبيب، وأتوجّه، مباشرةً إلى الرحمة الإلهيّة؟

وأنفذت شخصًا إلى لورد جاءها بقليلٍ من الماء الشافي. فأخذ بها التأثّر، وطلبت من المحيقين بها، أن يخرجوها من فراشها، ويساعدوها على الوقوف. فأخرجوها، وساعدها شخصان على الوقوف. وقُدّمت لها كأسٌ من ماء المغارة،

فغمست فيها أصابعها المرتجفة، ثمّ ارتشفت، ببطءٍ، من السائل المبارك، وهي مستغرقةٌ في صلاةٍ صامتةٍ. كانت من الشحوب، بحيث خشي عليها الحاضرون الإغماء.

ولكنّها ارتعشت فجأةً، واستقامت، وأجالت النظر حولها، وأطلقت صيحة فرحٍ منتصرٍ، قائلةً:

– أبعدوا أيديكم عنّي، فقد شفيت !

تردّد أولئك الذين كانوا يسندونها، فلم يبعدوا عنها أيديهم، سوى القليل، وأبقوها ممدودةً نحوها. ولكنّها انطلقت في الحال، وأخذت تذرع الحجرة بثباتٍ وثقةٍ، وكأنّها لم تعتلّ أبدًا.

وقدّم لها أحدهم عكّازًا، فرمقته، باسمةً، ثمّ تناولته، ورمته بعيدًا، بازدراءٍ، فهي لم تعد في حاجةٍ إليه.

ومنذ ذلك اليوم، استأنفت عملها في الحقول. ووافى قومٌ للتحقّق من شفائها واستوضحوها هل هي أمست، حقًّا، قادرةً على السير، فأجابت:

لستُ قادرةً على السير فحسب، بل قد بتّ أركض.

وأثبتت القول بالفعل، وانطلقت تركض أمام عيونهم.

حدث ذلك في شهر أيّار، وفي شهر تموزّ التالي، كان القوم يشيرون إلى ماري العجوز، إشارتهم إلى حدثٍ عجيبٍ، وهم يشهدونها تحصد القمح بهمّةٍ يحسدها عليها الشباب، متقدّمةً على كثيرين من الحاصدين.

مياه لورد تعيد الحياة إلى طفلٍ محتضرٍ

في أولى أَيّام ظاهرة لورد، وفيما كانت الجموع محتشدةً في المغارة وفي جوارها، كانت فاجعةٌ تحطّ على بيتٍ فقيرٍ من بيوت لورد، بيت عاملٍ مياومٍ، واقفٍ، مع زوجته، أمام مهد طفلهما، يراقبان، يائسَيْن، احتضاره.

كان الطفل البالغ من العمر سنتين، قد وُلد عليلاً، هشّ البنية، ولم يستطع، يومًا، الوقوف على قدميه، إذ كان المرض والوهن يُقعدانه عن الحركة. وكانت حمّى دائمةٌ تنهكه، ولا يجدي علاجٌ في إيقاف وبالها، رغم كلّ ما بذله أحد أمهر أطبّاء المدينة من سهرٍ، وجهدٍ، وعنايةٍ. إلى أن بدا وكأنّ ساعة الطفل الأخيرة قد أَزفت، وبسط الموت مسحةً من الشحوب على محيّاه الذي كانت الآلام المتمادية قد امتصّت منه كلّ رواء، فنضبت منه كلّ مظاهر الحياة، واعتراه هزالٌ مريعٌ.

كان والده يراقب انطفاء شعلة الحياة الغالية، بألمٍ ساكنٍ، في حين أخذ اليأس بأمّه كلّ مأخذٍ. وفي هذه الأثناء، كانت جارةٌ لهما تُعدّ ثياب الدفن، وتحاول، في الآن عينه، إسماع الوالدة الملهوفة بعض كلمات عزاءٍ.

وكانت تلك الأمّ ترقب، بهلعٍ، تقدّم علامات النهاية، فتشهد، بيأسٍ، اكتساء العينين بطبقةٍ زجاجيّةٍ، والجمود التامّ يلمّ بالأعضاء، والتنفّس يخفت، بحيث يكاد يتعذّر سماعه أو تبيّنه. فقال الوالد: «لقد مات». وقالت الجارة، مخاطبةً الأمّ:

– إن لم يكن قد مات، فسيموت في غضون لحظاتٍ. فاذهبي وابكيه قرب الموقد، فيما ألفّه، أنا، بكفنٍ.

بدت الأمّ وكأنّها لا تسمع ما يُقال لها. فقد استحوذت على نفسها فكرةٌ طارئةٌ، وجفّت دموعها، وهتفت:

– لم يمت، وستشفيه لي سيّدة المغارة العذراء القدّيسة.

وتمتم زوجها، حزينًا:

– لقد ذهبت المصيبة بعقلها!

في هذه الأثناء كانت الأمّ قد انتزعت الطفل المتجمّد من مهده، ولفّته بمئزرها؛ وقالت وهي تفتح باب البيت:

– ها إنّي أركض إلى العذراء.

وعبثًا حاول زوجها وجارتها ثنيها عمّا وطّنت عليه عزمها، قائلَيْن:

– إن لم يكن «جوستان» قد مات، فأنت ستقضين عليه.

وأجابت الأمّ:

– سواءٌ مات هنا أو في المغارة. فدعاني أُوكله إلى شفاعة أمّ الله.

ومضت، حاملةً طفلها، «راكضة إلى العذراء»، بحسب قولها. كانت تحثّ الخطى، وهي تصلّي، بصوتٍ مرتفعٍ، متضرّعةً إلى العذراء مريم، حتّى ظنّها المارّة الذين شهدوها، فاقدة العقل.

كانت الساعة الخامسة مساءً، وقد غصّت المغارة ببضع مئاتٍ من المصلّين، شقّت الأُمّ الملهوفة صفوفهم، بحملها الثمين. وركعت عند مدخل المغارة، وشرعت تصلّي، ثمّ جرّت نفسها، راكعةً، نحو النبع العجائبيّ، وقد التهب محيّاها، والتمعت مقلتاها المزدحمتان بالدموع، واتّسم كلّ كيانها بفوضى أحدثها الألم الأقصى. وهكذا انتهت إلى البركة التي كان عمّالٌ متطوّعون قد حفروها لاستقبال مياه النبع. كان البرد قارسًا، وتساءل الحاضرون عمّا عساها ستقدم عليه.

أخرجت المرأة من ثنايا مئزرها جسد طفلها المحتضر العاري، ورسمت عليه وعلى ذاتها إشارة الصليب، ومن غير تردّدٍ، وبحركةٍ سريعةٍ، مصمّمةٍ، غطّسته بأكمله، ما عدا الرأس، في الماء الجليديّ.

وتعالت من الجمع صيحة ذعرٍ واستنكارٍ، وانصبّت عليها، من كلّ صوبٍ، تُهَم الجنون، وتراصّ القوم من حولها، بغية منعها من المضيّ قُدُمًا في فعلتها المجرمة، وانتهرها أحدهم:

– هل تريدين قتل طفلك؟

ولكنّها ظلّت صمّاء عمّا يقال من حولها، وكأنّها تمثالٌ، تمثال ألمٍ، وصلاةٍ، وإيمانٍ. وربَّت أحدهم على كتفها، فالتفتت نحوه، وهي ما برحت ممسكةً ابنها في الماء البارد، وقالت بصوتٍ يقرن الحزم بالتوسّل:

– دعوني، دعوني ! سأفعل ما يسعني فعله، والله والعذراء سيهتمّان بالباقي.

ولحظ كثيرون كم كان الطفل هامدًا، وكم اصطبغ جسمه بلون الجثث، فقالوا:

– «إنّ الطفل ميّتٌ، فدعوها تفعل ما تشاء. لا ريب أنّ الألم قد ذهب بعقلها».

لا ! لم يكن الألم قد ذهب بعقلها، بل كان يدفعها على درب أَسمى إيمانٍ، إيمانٍ مطلقٍ، لا تردّد فيه ولا تخاذل، إيمانٍ أعلن الله جهارًا ألاّ يقاومه أبدًا. كانت الأمّ الأرضيّة تشعر، في قرارة نفسها، أنّها تخاطب الأُمّ السماويّة. ومن هذا الشعور كانت تنبع، لديها، ثقةٌ لا محدودةٌ، تتخطّى الواقع الرهيب، واقع ذلك الجسد المحتضر، الذي كانت تحمله بين يديها. لا ريب أنّها، على غرار الجمهور الحاضر، كانت تعلم أنّ الماء الجليديّ، كالماء الذي غطّست فيه طفلها، كان كفيلاً، وفقًا لقوانين الطبيعة، بالقضاء المبرم على ذلك الكائن الغالي، وإنهاء احتضاره، بموتٍ محتّمٍ. ومع ذلك ظلّت ساعداها ثابتتَيْن، وإيمانها وطيدًا لم يتزعزع. سحابة ربع ساعةٍ، لم تبالِ بالأنظار المحدّقة إليها بدهشةٍ واستنكارٍ،

والصيحات والشتائم التي ما انفكّت الجموع المتراصّة من حولها تصبّها عليها، وهي ممسكةٌ بابنها في ذلك الماء السرّيّ الذي تفجّر بإيماءةٍ من أمّ الله الذي مات وقام، الأمّ كلّيّة القدرة.

إيمان تلك المرأة جعلها تُغرِق ابنها المحتضر، في خطرٍ أرضيٍّ داهمٍ، ملتمسةً، في ثناياه، باسم مريم العذراء، شفاءً هابطًا من السماء. كانت، طبيعيًّا، تدفعه إلى الموت، كي تقوده، على نحوٍ فائق الطبيعة، نحو الحياة. لقد سبق ليسوع أن أثنى على إيمان قائد المئة، ولقد كانت تلك الأُمّ أجدر بالإعجاب والثناء!

ولم يكن بوسع الله ألاّ يستجيب لهذا الإيمان العظيم في بساطته. ولاريب أنّ الآب، ذلك الآب غير المرئيّ والمتجلّي الحضور، كان يرمق، بعطفٍ، مع العذراء القدّوسة، هذا المشهد المؤثّر، ويبارك تلك المرأة المسيحيّة، التي تحاكي، بإيمانها، طلائع المسيحيّين.

طيلة فترة تغطيسه، ظلّ الطفل هامدًا همود الجثّة. ولفّته أمّه ثانيةً بمئزرها، وهرعت عائدةً إلى منزلها. ولمّا رأى والده جسمه المتجمّد، قال:

– ترين أنّه ميتٌ!

وأجابت الأمّ:

– لا، ليس ميتًا. وستشفيه العذراء القدّوسة.

ووضعته في مهده. وبعد لحظاتٍ انحنت عليه، وأصغت إليه بانتباهٍ، وهتفت: «إنّه يتنفّس!».

وهرع والده، وأصغى، هو أيضًا، فإذ بالصغير يتنفّس، فعلاً. كان مغمض العينين، مستغرقًا في نومٍ عميقٍ هادئٍ.

في تلك الليلة لم يجد الكرى إلى جفن الأُمّ سبيلاً، فقد كانت تأتي، في كلّ لحظةٍ، وتصغي إلى تنفّس طفلها، الذي كان لا يني يزداد قوّةً وانتظامًا. وكانت تنتظر، بقلقٍ، استيقاظه. وقد استيقظ مع مولد النهار، وهو ما زال

هزيلاً، ولكنّ وجهه كان قد اكتسى بألوانٍ نضرةٍ، وتجلّى الارتياح على قسماته. وفي ابتسامة عينيه المحدّقتين إلى أُمّه كانت تلتمع أشعّة الحياة.

في أثناء سباته العميق الذي يحاكي السبات الذي أغرق فيه اللّه آدم، كانت اليد السرّيّة كلّيّة القدرة، التي تؤتي كلّ خير، قد أَنعشت، وأصلحت، وبعثت إلى حياةٍ جديدةٍ، ذلك الجسد الذي كان هامدًا، متجمّدًا.

وطلب الطفل ثدي أمّه، وارتشف منه حتّى الارتواء. ومع أنّه لم يكن قد مشى بعد، أراد أن ينهض ويتجوّل في الغرفة. غير أنّ أُمّه التي كانت، بالأمس، تتدفّق شجاعةً وإيمانًا، عادت تخشى تعريضه لأيّ خطر، فقاومت توسّلاته المتكرّرة، وأحجمت عن إنهاضه من مهده.

انقضى النهار، والطفل لا يني يطلب ثدي أمّه. ومرَّ الليل في هدوءٍ، مثل الليل السابق، وعند الفجر خرج الأب والأُمّ، كي يُعنى كلٌّ منهما بعمله، فيما كان طفلهما لا يزال نائمًا، راقدًا في سريره.

ولّما عادت الأمّ، وفتحت الباب، طالعها مشهدٌ كاد يوقعها مغميًّا عليها. فقد كان السرير فارغًا، إذ نهض الطفل بمفرده، وراح يتجوّل في الغرفة، يتلمّس الأثاث، ويزيح المقاعد من أَماكنها. لقد غدا المُقعد يمشي!

يمكن تخيّل الصيحة التي انتزعها الفرح من قلب الأمّ! كانت تودّ الانقضاض على ابنها كي توسعه تقبيلاً، غير أنّ المفاجأة أَقعدتها، والسعادة جعلت ساقيها ترتعدان، فاستندت على الباب.

ولكن، رغمًا عنها، خالطت الرعدةُ فرحتَها، فجعلت تحذّر ابنها من السقوط. ولكنّه لم يقع، بل ركض وارتمى بين ذراعي أُمّه، التي غمرته بقبلٍ مبلّلةٍ بالدموع، وأنحت باللوم على نفسها قائلةً:

– كان قد شُفي، منذ أمس، بما أنّه كان يريد النهوض والمشي، وأنا، تصرّفت مثل كافرةٍ، وبسبب ضعف إيماني، لم ألبِّ مطلبه.

و لّما عاد زوجها إلى البيت، بادرته بالقول:

– ها أنت ترى أنّ ابننا لم يمت، وأنّ العذراء أنقذته!

وجاءت الجارة التي كانت قد أَعدّت للطفل المحتضر كفن الدفن، وكادت تكذّب عينيها، وهي تراه يتجوّل في أرجاء الغرفة. لم تكن تملّ من التحديق إليه، وكأنّها تبتغي التحقّق من هويّته، والتأكّد من أنّه هو الذي كان، ليومين انصرما، يحتضر.

وركع الجميع، ورفعت الأمّ يدي طفلها نحو السماء، ومعًا قدّموا آيات الشكر لأمّ المراحم.

وأكّد الطبيب الذي كان يعالج الطفل، وأطبّاء آخرون اطّلعوا على حالته، استحالة تفسير شفائه طبيعيًّا، واعترفوا بتدخّل قدرةٍ فائقة الطبيعة. وأيّد قرارهم أساتذةٌ مرموقون في الطبّ، لم يكن يساورهم أيّ ريبٍ في أنّ تغطيس طفلٍ هشٍّ محتضرٍ في ماءٍ شديد البرودة، فترةً تربو على ربع ساعة، كان كفيلاً بالقضاء عليه في الحال.

أصابع مشلولةٌ استعادت حركتها

في محلّة «لوباجاك»، التي تبعد نحو سبعة كيلومترات عن لورد، كانت تعيش قرويّةٌ، تدعى كاترين، طالما تميّزت بصلابتها ومنعتها في العمل، غير أنّ حادثًا حكم عليها بالعجز. ففي شهر تشرين الأوّل من عام ١٨٥٦، كانت قد تسلّقت سنديانةً بُغية إسقاط جناها من البلّوط، ولكنّها فقدت التوازن، ووقعت وقعةً عنيفةً، سبّبت خلعًا في ذراعها، وإصابةً خطيرةً في يدها. وقد أفلح تجبيرٌ أجراه طبيبٌ ماهرٌ، في إعادة الذراع إلى وضعها الطبيعيّ، ولكنّه فشل في تحريرها من ضعفٍ ذريعٍ. وفشلت، أيضًا، علاجاتٌ كثيفةٌ في تحرير أصابع اليد الرئيسة من تصلّبها، فبقيت الإبهام والسبّابة والوسطى معقوفةً ومشلولةً، عاجزةً عن الانبساط وعن القيام بأيّة حركةٍ. وغدت القرويّة المسكينة، وهي ما زالت في مقتبل العمر، إذ لم تكن قد تجاوزت الثامنة والثلاثين، لا تقوى على الاضطلاع بأيّ عملٍ من أعمال الخياطة، أو الغزل، أو الحياكة، ولا حتّى على القيام بمهامّ المنزل. وبعد علاجٍ طويل، كان الطبيب قد صارحها بأنّها غير قابلةٍ للشفاء، فعليها التسليم بعدم استخدام يدها. وكان هذا القرار، الذي نطق به خبيرٌ مؤهَّلٌ، يعني لتلك المرأة المنكودة الطالع إعلان كارثةٍ محتّمةٍ. فلا مورد للفقراء سوى عملهم، والبطالة المكرَهة، هي بؤسٌ لا مفرّ منه.

كان لكاترين ولدان، وكانت تنتظر مجيء الثالث، حين جرت أحداث مغارة مسّابييل الإلهيّة. وذات ليلةٍ أيقظتها، بغتةً، فكرةٌ طارئةٌ، روتها، لاحقًا، قائلةً: «روحٌ داخليٌّ هتف في سريرة نفسي، بقوّةٍ لا سبيل إلى مقاومتها: «امضي إلى المغارة، اذهبي إلى المغارة، تنالي الشفاء!»».

كانت الساعة الثالثة ليلاً، عندما سمعت هذا الهاتف، وفي الحال، أيقظت ولديها، اللّذين كانا قد بلغا من العمر ما يؤهّلهما لمواكبتها. وقالت لزوجها:

– ابقَ أنت على رأس عملك. أمّا أنا فماضيةٌ إلى المغارة.

واعترض الزوج بأنّ اجتيازها كلّ تلك المسافة، ذهابًا وإيابًا، وهي في وضعها الراهن، ضربٌ من المحال. ولكنّها أصرّت:

– كلّ شيءٍ ممكنٌ. وأنا أريد أن أُشفى.

لم يثنِها اعتراضٌ، بل مضت، عازمةً، برفقة ولديها، ينير خطاهم ضوء قمرٍ صافٍ. صمتُ الليل الرهيب، الذي كانت تعكّره، بين فينةٍ وفينةٍ، أصواتٌ مجهولةٌ، ووحشةُ البرّيّة العميقة التي لا تأهلها سوى أشكالٍ مبهمةٍ، كانت تشيع الرعب في قلب الولدَيْن، اللّذين كانا يرتعدان، ويتوقّفان إثر كلّ خطوةٍ، فتبعث أُمّهما الطمأنينة في نفسيهما. تلك الأمّ لم يكن يساورها أيّ خوفٍ، وقد استقرّ في خلدها أنّها تسير نحو الحياة.

وصلوا إلى لورد مع مطلع النهار، ورغم تلك الساعة المبكّرة كان جمعٌ غفيرٌ من الحجّاج راكعين، خشّعًا، في المغارة المباركة. وركعت كاترين، أيضًا، وركع ولداها، وصلّوا معًا، ثمّ نهضت، وبهدوءٍ، غمست يدها في الماء العجيب. وفي الحال تحرّكت أصابعها، ولانت، وعادت إليها الحياة. لقد شفت العذراء ما أعلنه الأطبّاء غير قابلٍ للشفاء.

لم تفاجأ كاترين، ولم تطلق أيّة صيحةٍ، بل هبطت، ثانيةً، على ركبتيها، شاكرةً الله وأمّه. وللمرَّة الأولى، منذ ثمانية عشر شهرًا، استطاعت الصلاة ويداها مضمومتان، وقد اشتبكت أصابعها، التي استعادت حيويّتها وحركتها، بأصابعها الأُخرى.

ولبثت هكذا طويلاً، مستغرقةً في فعل شكرٍ، فمثل تلك اللحظات موغلةٌ في العذوبة، ويطيب للنفس في أثنائها، أن تذهل عن ذاتها، وتهيم في فردوسٍ مستعادٍ.

وبغتةً، ذكّرت آلامٌ عنيفةٌ بيرناديتّ بأنّها ما زالت على الأرض، أرض التأوّهات والدموع. فقد اعترتها رعشةٌ مفاجئةٌ، وهي ما برحت راكعةً، أدركت معها أنّ أوان وضع جنينها قد أزف، وسط جموعٍ تحيق بها من كلّ صوبٍ، فارتعدت، ولكنّها سرعان ما التفتت إلى الأمّ السماويّة التي تخضع لها الطبيعة، وتضرّعت إليها:

– أيّتها الأمّ الحنون، ها قد مَننتِ عليّ بنعمةٍ كبرى، فأبعدي عنّي الحرج أمام كلّ هذا الخلق، وأتيحي لي، أقلّه، أن أعود إلى بيتي، قبل أن أضع ابني.

وفي الحال هدأت آلامها، وسمعت الروح الداخليّ يقول لها:

– اطمئنّي، وامضي واثقةً، وستصلين بسلامٍ.

فأهابت بولديها أن ينهضا ويعودا معها. وأخذتهما بيديهما، وانتهجت طريق العودة، ولم يتنبّه أحدٌ إلى الأزمة التي كانت تجتازها، حتّى قابلة قريتها التي التقت بها، وسط الحجّاج. كانت السعادة تغمرها، وهي تجتاز، بهدوءٍ، الدرب الطويل الوعر المؤدّي إلى قريتها ومنزلها. ولم يكن يساور ولديها أيّ خوفٍ، فالشمس كانت تضيء الدنيا، وأمّهما كانت قد نالت الشفاء.

في منزلها، أرادت مواصلة صلوات الشكر، ولكن سرعان ما عاودتها آلام المخاض. وما كاد ينقضي ربع ساعةٍ حتّى رأى وليدها النور.

هل تلتمس الشفاء؟

كانت تُدعى «الأُخت ماري الملائكة»، وهي راهبةٌ في دير الكلاريسّات في مدينة ليون. وقد مُنيت عام ١٨٦٧، بُعَيْد إبرازها نذورها الرهبانيّة، بسرطانٍ في الكبد، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها. عملت، وهي معتلّةٌ، ثلاث سنواتٍ، في مستوصف الدير، ثمّ لزمت الفراش، مدى سبع سنواتٍ، ولم تكن تقوى على تناول أيّ طعامٍ، حتّى انتهت إلى وضعٍ من الهزال بات يُخشى، معه، أن تلقى حتفها، بين ساعةٍ وأُخرى.

في هذه الأثناء كانت رهبانيّتها، عاكفةً على تأسيس فرعٍ لها في مدينة لورد، فطلبت الأخت تيريزا، التي كُلّفت بهذا التأسيس، أن توفد إليه الأُخت ماري الملائكة. وكانت حجّتها أنّها قد تُكرّم بالشفاء، فينهض شفاؤها دليلاً على مباركة السيّدة العذراء لفرع الجمعيّة الجديد في لورد، وإلاّ فستؤسّس مستوصف الدير، وستكون النزيلة الأولى فيه، بصفتها عضوًا متألّمًا للمسيح، وستجلب للجمعيّة البركة والسعادة.

حارت رئيسة دير ليون، وشقّ عليها اتّخاذ قرارٍ، إذ كان الأطبّاء قد أجمعوا على القول إنّ «الأخت ماري الملائكة» من الوهن والهشاشة بحيث لن تحتمل مشقّة السفر. واستُشيرت الأُخت العليلة. فلم تجد إلى القرار سبيلاً. كانت ملتزمةً بنذر الطاعة، ومن ثمّ بالامتثال لما تؤمر به، وكان سواءً لديها المكوث في مكانها، أو السفر إلى حيث تؤمَر.

وحُلّت العقدة بزيارة كردينالٍ إلى الدير، استشير في الأمر، وارتأى أنّه خيرٌ للأُخت المريضة أن تسافر إلى لورد. واستوضحته الأخت العليلة هل عليها أن

تلتمس من السيّدة العذراء الشفاء، فأجاب: «يا ابنتي، ليس لديّ إلهامٌ بهذا الشأن».

وأُرسلت «الأخت ماري الملائكة» إلى لورد كي تكون المريضة الأولى في فرع الدير المستحدث. كانت الرحلة مرهقةً، غير أنّ الأُخت أُحيطت بأرقّ عنايةٍ، وأسخاها محبّةً. ولّما انتهت إلى غايتها أُنزلت من القطار على محفّةٍ، وكانت كلّ حركةٍ لها صليبًا. ووصلت إلى الدير، وهي تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة.

أمرتها الأمّ الرئيسة ألاّ تستحمّ في بركة لورد، وأن تقتصر على التماس الشفاء من السيّدة العذراء.

نُقلت إلى مغارة لورد في ١٧ أيلول ١٨٧٨، حيث سُجّيت على الحضيض خلف هيكلٍ متحرّكٍ، وتُركت هناك.

ولنستمع إلى الأخت ماري تتابع بنفسها الرواية:

«كنتُ حائرةً هل عليّ أن أطيع الكردينال، أم الأمّ الرئيسة. في الواقع كانت فكرة الشفاء تحزنني، فبرأي الجميع لم يكن يفصلني عن مقابلة خالقي سوى أيّامٍ معدوداتٍ. وأخيرًا سلّمتُ أمري لله، باكيةً. وحينها دخل المغارة أسقفٌ، يتبعه رجلٌ من ليون كنت أعرفه، ودلّ الرجلُ الأسقفَ عليّ، فاستجوبني، وشرحت له، بقدر ما استطعت، سبب وجودي هناك. كنت أتكلّم بمشقّةٍ، إذ قد بلغ بي الوهن كلّ مبلغٍ. واعتقدتُ أنّ ذلك الأسقف هو راعي مدينة «تارب»، وبالتالي رئيسي، فقلت له: «يا سيّدي، أنت الآن معلّمي، وعليّ أن أُطيعك، فهل ستأمرني بطلب الشفاء؟».

أدهشه سؤالي، وأجاب: «يا ابنتي، أريد ذلك، إن كانت السيّدة العذراء تريده».

وما كدتُ أتلو صلاةً، حتّى اعترتني رعشةٌ شديدةٌ، وإذ بي منتصبةٌ على قدميّ، فسُرّ الأسقف وباركني، وهرع الحجّاج من كلّ صوبٍ، محاولين دفعي إلى مكتب التحقيقات الطبّيّة. غير أنّ رئيس مرسلي المغارة الذي أُحيط علمًا

بشفائي المعجز، اعترض قائلاً: «إنّها، الآن، خارج محبسها. فلتعدْ إليه في الحال!».

وها قد مضى على هذا الحدث خمسٌ وعشرون سنةً، لم أعهد خلالها مرضًا، ومنذ ذلك الحادث، لم أعد إلى المغارة، فقوانين جمعيّتي تفرض عليّ أن أبقى حبيسة ديري».

إيمان ولدٍ

كان فتًى في الثانية عشرة من العمر، راقدًا في مستشفًى، وقد كست جسده الأورام، بحيث غدا عاجزًا عن أيّة حركةٍ. ومع ذلك، كان دائمًا طافحًا بالبشر، باشّ الأسارير، شاكرًا من يحيطونه برعايتهم.

أمنيَّته الوحيدة كانت الحجّ إلى مغارة لورد التي طالما حُدِّث عنها. غير أنّ والده، الشيوعيّ المتصلّب، كان قد أنذر زوجته، والدة الفتى: «لست أريد ذكر لورد، إطلاقًا».

ولكنّه، بعد أن تبيّن أنّ رفضه كان يحزن الفتى، استسلم لرغبته، شارطًا ألاّ يحدّثه أحدٌ عن «حماقات» لورد.

ورافقت الوالدةُ ابنَها، فقد كان وضعه يستلزم عنايةً مستمرّةً، وفي لورد استُقبل الفتى في مشفًى قريبٍ من المغارة، حيث تعهّدت ممرّضةٌ مفعمةٌ محبّةً العناية به وبوالدته.

في اليوم الثالث اعترفت الوالدة للمرّضة: «منذ خمسٍ وعشرين سنةً، لم أعترف أَمام كاهنٍ. فهل تعتقدين أنّ ابني سينعم بالشفاء، إنْ تقبّلتُ الأسرار؟».

– «لا يمكن التكهّن بتحقّق ذلك. فاللّه سخيٌّ في مكافأته. ولكنّه يكافئ بالطريقة التي يجدها المثلى».

في الغداة، اعترفت الوالدة وتناولت، وغمرت نفسَها السعادةُ، ولكنّها التمست ألاّ يُحاط ابنها بالأمر علمًا، فقد كان الطبيب قد أنذر أنّ أدنى تأثّرٍ قد يسبّب له موتًا فوريًّا. ووعدت الممرّضة بكتمان الأمر. وقبل مغادرتها المشفى، سألت الفتى:

– «هل أنت سعيدٌ بالمجيء إلى لورد؟».

– «سألتُ السيّدة العذراء أن تردّ أُمّي إلى الله، فهذا خيرٌ من شفائي».

قال هذا وانخرط بالبكاء ...

حينئذٍ استوضحت الممرّضة الطبيب هل يسوغ أن تخبر الفتى بتقبّل والدته الأسرار، لعلّ هذا النبأ يسكب في نفسه العزاء. وإذ ظفرت بموافقة الطبيب، خاطبت الفتى:

– «هل بوسعك كتمان سرٍّ؟».

– «أجل».

– «ولكن ينبغي ألاّ تبوح به حتّى لأمّك».

إثر لحظة تردّدٍ، أعلن الفتى: «إنّي أعد بالكتمان».

– «إذن، اعلم، يا صغيري، أنَّ والدتك قد اعترفت وتناولت في لورد».

وفي الحال أخذ بالممرّضة الخوف، إذ رأت الفتى مشعًّا بفرحٍ فائقٍ خشيت أن يودي بحياته، ولكنّه قال: «بوسعي الآن، أن أموت بسلامٍ». وحاول أن يضمّ ذراعيه المتورّمتين فوق صدره.

وتفاقمت حالته سوءًا، يومًا إثر يومٍ، ولكنّ مرضه لم ينلْ من سجوّ نفسه. فقد كان، في سريره، يحاكي ملاكًا.

وعاد إلى قريته، وإلى سريره في المستشفى. وهناك أسرّ لممرّضة برغبته في الموت، في بيته، بين أبيه وأُمّه. وفي الغداة، جاء هاتف منبئًا برحيله إلى السماء.

كانت أسرته تعيش في الضاحية «الحمراء». وشخصت إليها الممرّضة كي تصلّي، وترى، مرّةً أخيرةً، الولد الذي أحبّته حبًّا جمًّا. كان مسجًّى على محفّةٍ، وقد افترّت شفتاه عن بسمةٍ انعكست على محيّا أُمّه.

وقد أفضت أُمّه للمرّضة بقولها: «في هذه الليلة حدثت معجزةٌ حقيقيّةٌ... فما كاد صغيرنا يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتّى نهض زوجي وقال: «كم أودّ أن أراه، يومًا، مرَّةً أُخرى!». وعقب برهة تردّدٍ أضاف: «غدًا صباحًا، ائتيني بكاهن».

هل كان بوسع أمّ الله أن تجري معجزةً أعظم من هذه؟

شفيت في لورد

السيّدة الفرنسيّة «أَليس كوتو»، التي أُصيبت عام **١٩٤٩** بتصلّب عضلاتٍ خطيرٍ، اشتركت عام **١٩٥٢** في حجٍّ مرضى إِلى لورد.

في تلك الأَثناء كانت علّتها ما تنفكّ تتفاقم، بحيث أَعلن أَطبّاؤها أَنّها غير قابلةٍ للشفاء. وقد صرّح زوجها، الذي كان، حينئذٍ، ملحدًا: «لا يسع أَحدًا تخيّل إِلى أَيّ مدًى من السوء انتهت حالها. فهي كانت تستعين بكرسيّين كي تجرّ نفسها بضع خطواتٍ، وكانت تشكو من اضطراب التوازن حتّى وهي جالسةٌ، وكانت ترتجف بعنفٍ كلّما حاولت تناول أَيّ غرضٍ، أَو الخياطة، أَو الكتابة. وضعفت قدرتها على الكلام والرؤية».

رحلتها إِلى لورد كانت شاقّةً جدًّا. غير أَنّ إِحساسًا بالتحسّن انتابها منذ وصولها إِليها في ١٢ أَيّار. فتناولت طعامها بلا عناءٍ. ولمّا اقتيدت إِلى الأَحواض المباركة في ١٥ أَيّار، استحوذت عليها مشاعر عنيفةٌ: إِغماءٌ، وارتعاشاتٌ، ودويٌّ في الآذان. ولكن، عندما أَزفت ساعة التطواف بالقربان المقدّس، استعادت قدرتها على الكلام. وقد اعترفت:

«كنت أُصلّي، وتحاصر ذهني ذكرى زوجي الذي لم يوافق على مجيئي إِلى لورد، إِلاّ بسبب ظنّه أَنّ هذا هو العزاء الأَخير الذي يسعه توفيره لي. وكنت موقنةً أَنّ المعجزة وحدها قادرةٌ على تحويل هذا الرجل الذي كان ينكر وجود الله... لم أَحظَ بلحظة نومٍ في تلك الليلة. وكنت أُفكّر بجميع ذويَّ الذين كان يقلقهم وضعي».

ولكن، عندما عادت إلى مقرّ إقامة المرضى في لورد، قفزت من المحفّة التي كانت محمولةً عليها، وسارت سيرًا طبيعيًّا من غير حاجةٍ إلى أيّة مساعدةٍ.

كانت أُمّها أوّل من شاهدها، لدى عودتها إلى منزلها. فجثت على الأرض، هاتفةً: «ربّاه، هذا مستحيلٌ! نحن لا نستأهل هذه النعمة!».

ثمّ اتّجهت صوب زوجها، الذي ما إن رآها تسير نحوه، سيرًا طبيعيًّا وبخطًى سريعةٍ، حتّى تراجع القهقرى، وظلّ يتراجع حتّى استند على سيّارته، وهو يحدّق إليها بذهول. كانت تودّ أن تقول له كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً، ولكنّه كان يذرف الدموع قائلاً: «اصمتي، فأنت تتعبين نفسك، ولا ريب أنّك تؤذين ذاتك». ولكنّها قالت له، ضاحكةً: «لقد برئت، برءًا تامًّا. أتفهم؟ لقد شفيت». فأجهش في البكاء وقال: «كم عليّ أن أخجل من نفسي! فقد كان لا بدّ لي من معجزةٍ كي أومن!».

وقد صرّحت السيّدة «كوتو»، لاحقًا:

«أيّ تحوّلٍ أحدثه شفائي في حياتنا. لقد غدونا نحبّ الربّ معًا، ونصلّي، كلّ يومٍ، معًا، واستأنفنا حياةً جديدةً! ولن أنسى، أبدًا، قدّاس الأحد الأوّل الذي حضرناه معًا، بعد بضعة أشهرٍ، والمرّة الأولى التي تناولنا فيها، جنبًا إلى جنبٍ، وكم كانت نفسي تفيض شكرانًا وحبًّا!».

سأُخبر أُمَّكَ

لقد شهد حجّ عام ١٩٢٦ إِلى لورد معجزةً مؤثّرةً. فبين حشد المرضى كان شابٌّ يُتوقَّع موته بين ساعةٍ وأُخرى، وقد مُنح الأَسرار الأَخيرة قبل اقتياده إِلى المغارة. وفي أَثناء التطواف بالقربان المقدّس، وفيما كان الكردينال يرفع فوق رأسه مستودع القربان، كان الشابّ العليل يخاطبه برقّةٍ، متضرّعًا: «يا يسوع ابن مريم أَعدْ لي عافيتي». ولكن يسوع مرّ، ولكأنّه لم يستجب لتوسّله. وحينئذٍ استقام الشابّ بمشقّةٍ، واستجمع ما بقي لديه من قوّةٍ، وهتف: «يا يسوع ابن مريم، لم تشفِني، وسأُعلم بذلك أُمّك». وارتمى، ثانيةً، على وسادته.

تأثّر الكردينال بما سمعه، ورأى فيه دليل ثقةٍ طفوليّةٍ، فالتفت، وعاد بضع خطواتٍ إِلى الوراء، وباركه ثانيةً بالقربان المقدّس، ولطالما أَحدثت هذه البركة معجزاتٍ. وخرجت قدرة البرء من ابن الله، ودوّت ضفاف نهر «الكاڤ» بنبأ معجزةٍ كبرى. فقد نهض الشابّ معافًى، وهتف بكلّ قواه: «يا يسوع ابن مريم، لقد شفيتني. وسأحيط أَمّك علمًا بذلك، كي تساعدني على شكرك».

أُمّ الله تعيد البصر لأُمٍّ

عام ١٨٧٤ أَوردت الجريدة الطبّيّة البلجيكيّة، حدث الشفاء التالي: في ذلك العام امتُحن الدكتور «نوجان دي توروف» برؤية زوجته تفقد البصر فقدانًا كاملاً، في غضون أَيّامٍ معدوداتٍ. وقد فشلت جميع طرق العلاج وجميع الأَدوية في درء تلك المصيبة.

وكانت المرأة المسكينة لا تكفّ تنتحب، متمنّيةً أَن ترى ابنها، ولو مرَّةً واحدةً أُخرى. وقد اقتيدت، نزولاً عند رغبتها، إِلى محلّة «أوستاكر»، حيث أُقيمت مغارةٌ مماثلةٌ لمغارة لورد. وقد رافقها، في رحلتها، ابنها الفتى لويس. ولمّا وصلا إِلى المغارة هرع الفتى، وجثا أَمام تمثال العذراء، وطفق يتوسّلها بحرارةٍ أَخذت بمجامع قلوب الحاضرين. ثمّ فتح ذراعيه، وهتف بصوتٍ عالٍ: «يا أُمّ الله أَعيدي البصر إِلى أُمّي!».

ثمّ جاء إِلى أُمّه، وسألها: «هل تبصرين شيئًا يا أُمّاه؟» فأَجابته:

– «كلاّ، يا بني».

وعاد الفتى إِلى المغارة، وأَخذ يتلو «السلام»، مكرّرًا طلبه: «يا أُمّ الله، أَعيدي البصر لأُمّي».

ورجع إِلى أُمّه، واستوضحها: «أُمّاه، أَلا تبصرين شيئًا حتّى الآن؟». في تلك الأَثناء كانت المرأة قد غمست منديلها في ماء النبع، وغسلت به عينيها. فهتفت: «يا إِلهي! إِنّني أَرى منديلي... إِنّني أُبصر.... لقد شفيت».

وذرف كلٌّ من الأُمّ وابنها دموع الفرح والشكران، وعادا سريعًا إِلى البيت.

ولّما شاهد الزوج الطبيب زوجته التي نالت البرء، وابنه الطافح فرحًا، اعتراه شعورٌ، لم يعرف له، من قبلُ، مثيلاً، وهتف:

«إلهي، إنّي أُومن!».

إلى يسوع عن طريق مريم

في شهر نيسان عام ١٩٢٥، التقيتُ، في لورد، فتاةً تناهز الخامسة عشرة من العمر، وعلمت أنّها تزور لورد للمرَّة الثانية، مع كونها بروتستانتيّةً. وعلمتُ أنّها، منذ ولادتها، تشكو من خَلَلٍ في صمّام القلب، وقد دهش جميع الأطبّاء الذين عاينوها من بقائها على قيد الحياة. وكان كلّ يومٍ تحياه قد يكون يومها الأخير. وبما أنّها لم تعد تتوقّع عونًا إلاّ من العذراء مريم، فقد حجّت إلى نبع المعجزات الذي كانت امرأةٌ كاثوليكيّةٌ قد حدّثتها عنه بحماسٍ.

لّما شاهدتُ بأيّ تأثّرٍ، وبأيّة ثقةٍ، كانت تشترك في تطواف المرضى تحت وابلٍ من المطر المدرار، استوضحتها هل هي تؤمن بحضور يسوع الفعليّ في القربان المقدّس. فأجابت:

– «أجل، أومن».

– «مع أنّ البروتستانتيّن لا يؤمنون به».

– «حقًّا، إنّهم لا يؤمنون».

وشيئًا فشيئًا تضاعف اهتمامي بها. فقد كنت أمام حالةٍ غير مألوفةٍ.

وطرحت عليها أسئلةً حول الحقائق التي تمثّل موضع خلافٍ بين الكاثوليك والبروتستانتيّين. وفي كلّ مرَّةٍ كانت تدلي بأجوبةٍ تقرن الوضوح بالتصميم، وتؤكّد سلامة إيمانها، وإدراكها التامّ لما كانت تقوله. واستوضحت هل كانت تؤمن بكلّ ذلك، قبل سنتين، فأجابت بوضوحٍ: «لا، لم أكن أومن بذلك، حينذاك». فقلت:

– «وهل تلقّيت حينئذٍ تعليمًا كاثوليكيًّا؟

– «كلاّ.

– «وهل طالعتِ كتبًا كاثوليكيّة؟

– «كلاّ».

ولكنّها أكّدت أنّها اكتفت بدراسة كلّ الصلوات التي تفتتح فصول التعليم المسيحيّ، الذي تصفّحته.

– «وإِذن، ما الذي فعلته سحابة السنتين الماضيتين؟».

وقد انطوى جوابها على مفتاح اللغز كلّه:

– تلوت المسبحة، في كلّ يومٍ.

هذه الفتاة التي كانت تنشد الحقيقة، بتلاوتها المسبحة، يوميًّا، كانت قد نالت استنارةً فائقةً، وأصابت كبد الحقيقة.

تساعيّة لسيّدة لورد

رقيبٌ كان قد قضى في الخدمة العسكريّة خمسًا وعشرين سنةً، اعتلّ، فنُقِل إِلى مستشفًى. وقد رغبت الراهبات اللائي عُنين بمعالجة جسده، في الاهتمام بخلاص نفسه، أيضًا. ولكنّهنّ، منذ الوهلة الأولى، تبيّنّ لهنّ أنّه ملحدٌ. غير أَنّ هذه الحقيقة لم تفتّ من عضدهنّ، بل دفعتهنّ إِلى الإِمعان في الصلاة من أَجله، ولا سيّما أَنّهنّ كنّ يطالعن، حينها، كتابًا صدر حديثًا عن ظهورات لورد. وقد خطر لهنّ دعوة الجنود المرضى، في ذلك المستشفى، إِلى الاشتراك في تساعيّة صلاةٍ، مقدّمةٍ لسيّدة لورد، من أَجل ارتداد الرقيب.

وما كادت التساعيّة تنتهي حتّى سمعت الرقيبَ، راهبةٌ كانت مارّةً بالقرب من سريره، يقول: «يا أُختاه، لديّ عندك مطلبٌ».

– ما هو؟

– قولي للكاهن أَن يعودني.

وما إِن بُلّغ الكاهن رغبة الرقيب حتّى خفّ إِلى زيارته. وبادر الضابط إِلى طلب الاعتراف، وتلقّى الأَسرار الأَخيرة... بعد سويعاتٍ، مرّت الراهبة، ثانيةً، بالقرب من سرير الرقيب، الذي بلّغها رغبته في مطلبٍ آخر.

وناولها ساعة يده، ومحفظة نقوده، التي كانت تحتوي خمسة عشر فرنكًا، طالبًا منها أَن تشتري بهذا المبلغ، وبثمن الساعة، تمثالاً لسيّدة لورد، الذي كان نموذجٌ له منصوبًا فوق الموقد، قائلاً: «بما أَنّها قد أَعادتني إِلى الله، فلا ريب أَنّها ستحقّق، أَيضًا، ارتداد الرفاق». وفي الغداة، عادت نفسه إِلى خالقها.

وما إِن شاعت رغبة الرقيب، حتّى أَعرب جميع العسكريّين الذين كان يضمّهم المستشفى عن رغبتهم في المساهمة في ابتياع التمثال، كلٌّ وفق طاقته. وبعد أَيّامٍ معدوداتٍ تسنّى لمرشد المستشفى الروحيّ مباركة تمثال العذراء، بحضور قائد المنطقة العسكريّ، وعددٍ غفيرٍ من العسكريّين الذين توافدوا للاحتفال بتلك المناسبة.

عقابٌ رهيبٌ

يوجد على مقربةٍ من مدينة «غاند» الفرنسيّة، مكان حجٍّ مبنيٌّ على غرار مزار لورد، تكثر فيه المعجزات. وقد جرت فيه، يومًا، معجزةٌ من نمطٍ فريدٍ.

فقد خطر لطالبيْ معهدٍ حكوميٍّ، أن يسخروا ممّا سمّياه «سذاجة إيمان الحجّاج». وأقنعا رفيقًا لهما أحمق بالإسهام في هزليّتهما، وقالا له: «سنعصب عينيك، وأنت ستتظاهر بالعمى، وسنقتادك إلى النبع، حيث ستصلّي لمريم العذراء، وسنغسل عينيك بماء النبع، وتهتف أنّك نلت الشفاء، واستعدت البصر».

بعد أن أحكما إعداد التمثيليّة، توجّه الثلاثة نحو المزار؛ وعند منعطفٍ من الطريق، عصب الطالبان عينَيْ رفيقهما، واقتاداه زاعمَيْن أنّه كفيفٌ، وهما يذرّفان دموع التماسيح، حزنًا عليه. ودنا هذا الأخير من النبع، ونُزعت العصابة عن وجهه، كي يدلّك بالماء عينيه، وإذ به لا يبصر شيئًا... لقد عمي فعلاً. فأخذ يصيح، ويبكي، ويستدعي أُمّه. وقد انتزع منه الرعب اعترافًا بفعلته النكراء، أمام الجمهور المذهول.

وأُودع ذلك المسكين في مصحّةٍ عقليّةٍ.

نجاة رقيبٍ من الإِعدام بشفاعة العذراء

كانت فلول الجيش الفرنسيّ تسير نحو سويسرا، ملتمسةً فيها ملجأً. وفي أثناء استراحةٍ، حيث اتّخذ الجند من كومة ثلجٍ مائدةً لتناول بقايا الطعام المتوفّرة، جاء أَحد معاوني الجنرال، قائد الانسحاب، وقال لمرشد الجنود الروحيّ: «تعالَ سريعًا، يا أَبتِ، فالجنرال يطلب منك إِعداد أَحد جنودنا الذي سيُعدم بالرصاص». دهش المرشد، واستفسر عن سبب الإِعدام، فأَجابه رسول الجنرال: «ليس في الوقت متّسعٌ كي أَشرح لك. هيّا!».

وصل المرشد إِلى موقع الإِعدام، وأَوعز بإِخفاض البنادق العشر التي كانت مصوّبةً نحو المحكوم عليه، وضمّ هذا الأَخير، برقّةٍ، إِلى قلبه، وقال له: «بما أَنّ رأفة البشر قد تخلّت عنك، فإِنّي آتيك برحمة الله. فقدّم لعدالة البشر ولعدالة الله، الدم الذي ستريقه، واصعد إِلى السماء، موطن التائبين والشجعان». وفيما كان الكاهن يرسم على الرقيب إِشارة الغفران، انفجرت عند قدميه قنابل بروسيّةٌ، وتعالت، من كلّ صوبٍ، صيحاتٌ: «فلينجُ بنفسه من يستطيع إِلى النجاة سبيلاً! البروسيّون هنا».

وبقي المرشد مع الرقيب، الذي ما برح معصوب العينين، فأَعاد له إِمكانيّة الرؤية، وحرّيّة الحركة، وقال له: «هذه هي إِشارةٌ من الرحمة الإِلهيّة: فبذلك سيتسنّى لك متّسعٌ من الوقت، كي تستعدّ للمثول أَمام الله».

وظلّ الرقيب تحت المراقبة، في أَثناء مسيرة الجيش نحو محلّة «جيكس». وهناك التقى المرشدُ الجنرالَ الذي استلّ ساعة جيبه، وأَشار إِلى الحجرة التي

أودع فيها السجين قائلاً: «لديك ربع ساعةٍ كي تعدّ هذا الفتى. وأنا سأرسل في الحال رجليْن كي يحفرا قبره. وسيُعدَم بالرصاص على حافّة القبر».

وجاء المرشد الروحيّ إِلى الرقيب الذي استوضح: «أَصحيح، يا أَبتِ، أَنّني سأُعدم؟».

- «أنت تعلم ذلك، يا بنيّ، وعليك أَلاّ تتوهّم».

اعترف الرقيب، بكلّ سكونٍ، ولمّا نهض قال: «عليّ، إِذن، أَن أَموت، ولن أَرى أُمّي، بعد الآن! لكانت فخورةً جدًّا، لو أَنّني سقطت على أَرض المعركة والشرف، ولكن أَن أَموت مُعدَمًا... بطلقات رصاصٍ وبأَيدي رفاقي... لا... هذا أَمرٌ شديد القسوة عليها! رأفةً بأُمّي، أَنقذني...». قال الرقيب هذا واندفع نحو النافذة، لعلّه يجد مهربًا، وقد غاب عن ذهنه أَنّه في الطابق الثاني. وعاد فارتمى بين ذراعي المرشد، مردّدًا: «أَنقذني! أَنقذني!».

وقال له الكاهن المرشد: «إِنّك تحطّم قلبي، يا بنيّ. لو كان الأَمر لي لقدّمت ذاتي للإِعدام، بديلاً عنك. ولكن ما أَعجز عنه أَنا، بوسع العذراء أَن تفعله. أَخبرني، أَيّها الرقيب: هل تحبّ السيّدة العذراء حقًّا؟».

- «وكيف لا أُحبّها، وأَنا مواطنٌ لها؟».

- لست أَظنّ أَنّك من الناصرة...

- «كلاّ، يا أَبتِ، ولكنّني من منطقة الپيرينيه، ومن ناحية لورد.

- وهل أَنت تدعو السيّدة العذراء؟

- «أَوكّد لك أَنّني لم أَتخلّ، يومًا واحدًا، طوال هذه الحملة المشؤومة، عن تلاوة صلاة: «تذكّري، أَيّتها العذراء مريم، أَنّه لم يسمع قطّ، أَنّ أَحدًا التجأ إِلى حمايتك وخُذِل».

- «أَنت، إِذن، مواطن العذراء، وتصلّي لها كلّ يومٍ، ولذلك أَنا واثقٌ من

أَنّها تستطيع، وأَرجو أَنّها تريد إِنقاذك. فلنركع، ولنتلُ معًا: اذكري..» وستتحقّق نجاتك بلا تلكّؤٍ.

ما كادا يفرغان من تلاوة الكلمة الأَخيرة من تلك الصلاة، حتّى قُرِع باب الحجرة قرعًا عنيفًا ملحاحًا. وأدرك الرقيب أَنّ مهلة ربع الساعة قد انصرمت، فتهاوى منتحبًا وقائلاً: «ها إِنّي أَموت. ولن أَراكِ، بعدُ، يا أُمّي المسكينة!».

وفتح الكاهن الباب، فإِذا به أَمام رجلٍ مجهولٍ، مكفهرّ الوجه، قال له:

– «يا حضرة المرشد، أَلا تسمع الجلبة المتصاعدة من ساحة دار البلديّة؟».

– «أَسمعها جيّدًا. ولكن هل تتفضّل وتفصح لي من الذي أَتشرّف بمخاطبته. أَمّا أَنا، فليس من العسير عليك تعرّف هويّتي، من خلال إِشارات زيّي».

– «أَنا رئيس محكمة هذه البلدة، التي اضطرب فيها السلام والنظام، ومن واجبي إِعادتهما. وها إِنّ جميع أَهالي البلدة يطالبون بإِنقاذ الرقيب، فهم يأبون أَن يكون أَوّل دمٍ يُسكب هنا، دمًا فرنسيًّا. وإِن تمّ الإِعدام، ستواجهون مزيدًا من المشاكل، وأَنتم بغنًى عنها».

– «ساعدني، إِذن، على إِنقاذ حياة الرقيب».

– «هذه هي أُمنيّتي الكبرى. ولكن يؤسفني أَنّ قَسَم الشرف والضمير يمنعني من أَيّ تدخّلٍ في هذه القضيّة».

– «هل يتحتّم، إِذن، تسليم الرقيب للإِعدام؟».

– «كلاّ، ولكن علينا اللجوء إِلى وسيلةٍ فضلى».

– «لديّ فكرةٌ رائعةٌ. اطلب من المسؤول عن تنفيذ الإِعدام، أَمرًا خطّيًا بذلك. أَنا أَعلم أَنّ ليس هناك أَمرٌ مكتوبٌ. وقد شاع التذمّر بين الجنود من جرّاء ذلك. فإِنّما الجنرال قد أَمر، في سورة غضبٍ: «أَعدموا هذا الفتى بالرصاص!».

وفي الحال وافى القاضي إِلى القائد المكلّف بتنفيذ الإِعدام، واستوضحه هل لديه أَمرٌ خطّيٌّ. وأَجاب القائد بالنفي. فقال القاضي بحزمٍ واستنكارٍ: «وكيف

تتجاسر، يا سيّدي، على إعدام إنسانٍ، وأنت لا تملك، بذلك، سوى أمرٍ شفويٍّ! إنّي أعترض على تنفيذ الإعدام، ما لم تبرز أمرًا خطّيًّا».

ولم يكن القائد يتمنّى شيئًا أكثر من تمنّيه التملّص من تلك المهمّة المشؤومة. فهرع إلى الجنرال الذي كان متّكئًا على حافّة نافذةٍ في دار البلديّة، يراقب، بقلقٍ، موجة التظاهرة الشعبيّة القادمة نحوه. وعندما طلب منه القائد أمرًا خطّيًّا بتنفيذ الإعدام، اكتفى بالردّ: «سننظر في الأمر».

واستدعى، في الحال، المجلس الحربيّ إلى الانعقاد، فأمر بتبرئة الرقيب، بلا تلكّؤٍ، بعد أن اتّضح أنّ التهمة الموجّهة إليه لا تستوجب أكثر من ربع ساعة سجنٍ.

تحت وطأة هذه الخيبة المهينة والمريرة، استدعى الجنرالُ المرشدَ الروحيّ، وقال له: «مع استيائي من رؤية أوامري مُبطَلةً، يسعدني تلبية رغبتك، وأمنحك فرح تبليغ الرقيب أمر تبرئته».

وعاد الكاهن إلى سجينه الذي ألفاه ملقًى على الأرض أكثر منه راكعًا، وقال له: «ماذا قالت لك السيّدة العذراء، في أثناء غيابي؟». وأجابه الرقيب بصوتٍ مخنوقٍ: «لا ريب أنّك تعرف ذلك أكثر منّي».

- «إذن، يا صديقي، اعلم أنّ السيّدة العذراء كلّفتني بتبليغك بشارةً سعيدةً: فقد أصبح لديك متّسعٌ رحبٌ من الوقت كي تتأهّب للموت» (فقد كان الكاهن يخشى أن يؤدّي إنباء الرقيب المفاجئ بالعفو عنه إلى قتله، أكثر ممّا قد تفعل عشر رصاصاتٍ) وتابع الكاهن قوله:

- «والآن، اتبعني».

- «أإلى الموت؟».

- «كلاّ، يا صديقي، أُقسم لك بشرفي، وبكهنوتي، أنّك لن تُعدم. هيّا اتبعني!».

استند الرقيب، مرتعدًا، على ذراع المرشد، حتّى انتهيا إِلى الساحة التي احتشد فيها أَهالي البلدة، منتظرين، برعدةٍ، ظهور المحكوم عليه. وما إِن شاهدوه، حتّى تعالت، من كلّ صوبٍ، صيحاتٌ تقول: - «هذا هو! هذا هو الرقيب الذي سيُعدم بالرصاص».

ولكنّ الكاهن المرشد أَخرس اللغطَ، بصيحته: «لن يُعدَم، لن يُعدَم!» مشيرًا إِلى الجمهور بالتزام الثقة والاحترام، ثمّ توجّه مع الرقيب إِلى مصلّى (كابيلاّ) سيّدة الزيارة، المقابلة للساحة.

لم يكن الجمهور قد أُحيط علمًا، بعدُ، بقرار المجلس الحربيّ، فلم يدرك معنى الزيارة غير المتوقّعة، في حين كان الرقيب، الذي ما برح قلقًا بشأن مصيره، لا ينفكّ يردّد: «إِلى أَين أَنت ماضٍ بي أَيّها المرشد؟». وفي المصلّى قال الكاهن للرقيب: «فلنركع، ولنتلُ، أَمام تمثال السيّدة العذراء، دعاء: «اذكري...» ثمّ أَنهضه، وبشّره: «لن تُعدَم، يا صديقي، بل ستعود إِلى موطنك، وستقول لأُمّك الأَرضيّة إِنّ أُمّك السماويّة أَنقذتك بفضل دعاء «اذكري...»».

وخرج الرجلان من المصلّى فاستقبلتهم عاصفةٌ من هتافات الجمع المحتشد، وقد فجّر النبأ السعيدُ بهجتَه واندفاعَه. وفيما كان الجمع يهتف: «يحيَ الرقيب!»، هتف الكاهن: «تحيَ العذراء التي أَنقذت الرقيب!».

غفرانٌ

في لورد، عام ١٩٦٨، كان رجلٌ مسنٌّ يراقب الحجّاج يصلّون باسطين الذراعين على شكل صليبٍ. كان مكفهرّ الوجه، صارم النظرة. وبغتةً وقع نظره على فتاةٍ، دامعة العينين، وسط الجمع، وقد بسطت، هي أيضًا، ذراعيها، على شكل صليبٍ، فيما كان كاهنٌ يتلو، بصوتٍ مرتفعٍ: «واغفر لنا خطايانا، كما نحن نغفر لمن أَساؤوا إِلينا...» فتمتم الرجل: «لا.. لا.. أبدًا!». وخرج من المغارة، ثائرًا. وفيما كان عائدًا إِلى منزله، صادفه كاهنٌ، فدنا منه، وخاطبه:

– ما خطبك، يا سيّد؟ هل تعاني من التعب؟

– دعني وشأني!...

– ولكن يا صديقي، لا بأس أَن يتبادل الإِخوة الخدمات...

– تقول خدمات؟ أَيّة خدمات؟ لا يسعُك أَن تخدمني بشيءٍ. فأَنا خارجٌ من السجن حيث قضيت خمس عشرة سنةً من حياتي، عن ذنبٍ لم أَرتكبه، ولم يكن لي به صلةٌ. فقد وشى بي واحدٌ من أَعزّ أَصدقائي. وكانت زوجتي تزورني كلّما استطاعت إِلى ذلك سبيلاً، وقد وعدتني بمرافقتي إِلى لورد، حالما يُفرَج عنّي. وتوفّيت زوجتي، فجئت وحدي كي أرى ما الذي يحدث هنا. وسمعت عبارة الغفران التي تلاها الكاهن، ولكن كيف لي أَن أُصفح عن صديقٍ أَلحق بي كلّ هذا الأَذى؟

اضطرب الكاهن لسماعه هذا الاعتراف، وبعد بُرهة تفكيرٍ، أَجاب:

– نحن جميعنا خطأةٌ، وكيف لنا أَن ننال غفران الله، كي تنعم نفسك بالسلام، إِن لم نغفر نحن، أَنفسنا؟ فحريٌّ بك أَن تريح ضميرك.

صمت الرجل طويلاً، ثمّ اعترف للكاهن بخطاياه، فيما كانا يسيران على ضفّة نهر الغاف. وبعد أن لفظ الكاهن عبارة الغفران وبارك الرجل، شدّ على يده بحرارةٍ، وقال:

– ها قد انتهى الآن كلّ شيءٍ. فلننسَ الماضي! هل أَنت راضٍ؟

– أَجل أَنا راضٍ لأَنّني أَعلم أَنّني قد غفرت.

ويوم قرّر العودة إِلى منزله، قصد نبع لورد، كي يأخذ معه قليلاً من الماء. وكانت هناك الفتاة التي صادفها عشيّة وصوله، فجاءته قائلةً:

– أَرى أَنّك لا تمتلك قدَحًا تستقي به. فهل لي أَن أُعيرك قدحي؟

ثمّ تابعت القول:

– لمحتُك في المغارة، ذلك اليوم، وبدوتَ لي مضطربًا.

– يا آنستي، لقد تحرّرتُ الآن من الاضطراب، وساد السلامُ نفسي.

– وأَجابت الفتاة:

– وكذلك أَنا. فقد كان أَبي مصابًا بالسرطان، وقد رغب، قبل وفاته، أَن يظفر بصفح صديقٍ، كان قد تسبّب بسجنه خمسة عشر عامًا، ظلمًا وبهتانًا.

كانت الفتاة في الخامسة حين ارتكب والدها ذلك الجرم، وها هي قد أَمست في العشرين. وهتف الرجل:

– آه!... أَنتِ، إِذن، تيريز الصغيرة. إِنّي أَتعرّفك الآن!...

وتمتمت الفتاة:

أَنت!!؟

– أَجل، أَنا! فلنمضِ معًا، ولنزفّ صفحي إِلى والدك!

هذه القصّة الواقعيّة تدلّ على أَنّ السيّدة العذراء القدّيسة لا تتخلّى أَبدًا عن أَبنائها، عندما يدعونها بحرارةٍ، وعلى أَنّها وسيطة نعمة الربّ.

إنسانٌ يُبعَث

«الأخوان جاكار» كاهنان يجوبان الأرض كي يقدّما الخدمات لمن قسا عليهم الدهر، فيصنعان أجهزةً تساعد المعاقين جسديًّا على السير والحركة، ويعلّمان صناعة هذه الأجهزة محلّيًّا، بأرخص كلفةٍ، وبمتناول عامّة الناس، ويوفّران مساعداتٍ صحّيّةً واجتماعيّةً جُلّى، حيثما حلاّ، وخاصّةً في العالم الثالث.

وقد روى أحدهما، الأب الطبيب ريمون، مايلي :

«في شهر حزيران من عام ١٩٥٤ جرى لي حدَثٌ غدا صُوَّةً مضيئةً في حياتي. ففي أحد أيّام ذلك الشهر كنت مارًّا بلورد، والتقيتُ «جاكّ». كان ممدّدًا على محفَّةٍ، وسط طائفةٍ من الجنود الآخرين المعاقين نظيره، وقد وافوا في موكب حجٍّ عسكريٍّ .كنتُ قد عرفتُ «جاك»، قبَيْلَ ذلك، في مشفى «ديجون» العسكريّ، وكان عائدًا من الهند الصينيّة مصابًا بانفجار لغمٍ كان قد حطّم حوضه، وشطر عظم فخذه إلى قطعتين، ومزّق أعصابه، فتطاير في الهواء، وفخذه مدلاّةٌ من خلفه. وعندما استعاد رشده، وتبيّن ما حلّ به، انتزع من قائده وعدًا مدعّمًا بقَسَمٍ بأن يخبر زوجته أنّه مات بلا ألمٍ، وملتمسًا أن تُحدَث له حفرةٌ يُدفن فيها.

وبعد بضعة أشهرٍ جيء به إلى مشفى «ديجون» العسكريّ، حيًّا، ولكن مقعدًا طيلة ما تبقّى له من حياة. كنتُ، أنا ،حينئذٍ، أؤدّي خدمتي العسكريّة، بصفتي ممرّضًا. وكان جاك يدعوني، مازحًا «الكاهن المتدرّب»، ومع أنّه كان يُظهر لامبالاته بالإيمان الذي فقده ،كانت تجمعنا علاقة تفاهمٍ وودٍّ. ولستُ أدري

صلاةُ أيّ إنسانٍ مجهولٍ، قادت إلى لورد ذلك المعاق الذي يأبى أيّ حديثٍ عن الدين.

اتّسم لقاؤنا بالفرح، وسرعان ما خرجنا في نزهةٍ عبر المدينة، مع اثنَيْن من زملائه، مستلقيَيْن، مثله، على محفّاتٍ ذات عجلاتٍ. لم يكن راغبًا إلاّ في التجوّل عبر أحياء لورد، ولا تساوره أيّة رغبةٍ أُخرى. كنت أنا أجرّ محفّته التي كان يسمّيها «العربة التي يجرّها حمار». ولكن يبدو أنّ بعض الحمير تحظى بالوحي. فقد اقترحتُ عليه زيارةً غير مألوفةٍ، قائلاً: «إنّ هنا رائعةً ما زلتَ تجهلها. هنا مغارةٌ صخورها أشدّ نعومةً من وجنتَيْ زوجتك. فهل لديك رغبةٌ في مشاهدتها؟». فأجاب: «نعم. ولكن لا في هذا المكان». مشيرًا إلى فناء الكاتدرائيّة. فطمأنته: «لا تقلق، سنقصد ضفاف نهر «الغاف». لم يعترض، ومضينا على مهلٍ.

وفيما كان يجسّ الصخر الصقيل، ارتقت أبصاره إلى بضعة أمتارٍ فوقها، وشاهد العذراء عن كثب، فعقدت الدهشةُ لسانه، وقمنا بجولةٍ حول الهيكل المنتصب في صدر المغارة، متأمّلين النبع الصغير العجائبيّ. وتوقّفت عربته أمام أحواض الاستحمام. فلم يمانع في استحمامٍ منعشٍ، إذ كان الطقس حارًّا، في يوم ١٣ حزيران ذلك. وصلّينا مع جمهرةٍ من الحجّاج المحتشدين عند أحواض الاستحمام، من أجل الجنود، وبخاصّةٍ من أجل جاكّ ورفاقه الذين ضحّوا بحياتهم، إنقاذًا للوطن.

ثمّ تعهّد ممرّضان بتغطيس جاكّ، وأوعزا إليه، قبل ذلك، أن يتلو صلاةً كان نصّها معلّقًا على الجدار المقابل. ولكنّه بلا تردّدٍ، وفي محاولةٍ منه لتبرير رفضه اقتراحهما، ادّعى جهله للقراءة. فتلا الممرّضان الصلاة عنه، وغطّسا الملحد الذي ادّعى الأمّيّة، والذي أمعن في مضايقتهما قائلاً : «إنّني أعرف ممرّضةً تحسن الغسل خيرًا منكما».

بدا الماء لجاكّ دافئًا، وشعر بالراحة، فدنوتُ منه، وسقيته من الماء الذي كان غاطسًا فيه. وساعده الممرّضان على الخروج من الماء، وعلى صعود الدرج الأوّل.

وعندما انتهى إلى الدرج الثاني، هتف: «أبعدا أيديكما عنّي، فأنا أقوى على السير بمفردي»، واتّكأ على ساقه التي شُفيت، متسائلاً ما كان يحدث له. ثمّ ارتمى على عنقي منتحبًا، ومردّدًا: «ولكن، يا ريمون، علامَ يحدث هذا لي، أنا الملحد، في حين يتوافد كثيرون من المرضى المؤمنين، التماسًا للشفاء؟».

ولم يكن منّي إلاّ أن قلتُ له: «دع مريم تفعل، فهي أمّنا!».

كانت تلك، لجاكّ، أعجوبةً ظاهرةً، وكانت لي أعجوبةً داخليّةً: فحضور أمّي مريم، في قلبي البنويّ، سيدمغ حياتي كلّها.

ويا لها من نعمةٍ! لدى بلوغنا قاعة استقبال المرضى، عقب مرورنا بمكتب المعاينات الطبّيّة، بغية أجراء الصور الشعاعيّة، كانت ساق جاكّ اليسرى قد استعادت حجمها الطبيعيّ.

أجل! شفي «جاكّ»، في ذلك اليوم. بُعث إنسانٌ من إعاقته، وانطلق يمشي. إنسانٌ سأرى أمثالاً له كُثُرًا في المستقبل.

إنّني موقنٌ أنّ ما من إِعاقةٍ أسوأ من عدم الإيمان بالله، وبعطفه.

أجل! إنّ الله حرٌّ. وهو حرٌّ بأن يحبّ، فما هو إلاّ حبّ!.

الجزء الخامس

من معجزات سيّدة فاطمة

شمعة تنطفئ

روى رجلٌ برتغاليٌّ ما يلي:

كنت قد نشأتُ في أحضان أُسرةٍ وفيّةٍ للإيمان المسيحيّ ولشعائره. ولمّا بلغت الخامسة عشرة أُدخلتُ إلى مُحترفٍ كي أتعلّم مهنةً، وكان صاحب المحترَف، الماسونيّ المذهب، قد حوّله إلى مدرسة إلحادٍ. وسرعان ما تخلّيت عن الممارسات الدينيّة، ووهن إيماني، ولم أَحتفظ إلاّ بصُبوٍّ مُبهمٍ لما يفوق الطبيعة، كنتُ أبحث عنه سدًى، وأنا أتنقّل بين مختلف الشيَع البروتستانتيّة.

ولست أَدري أين كان سيفضي بي المطاف، لو لم ترأف بي العذراء.

في التاسعة والثلاثين من عمري عملتُ في محتَرَفٍ قرب مدينة ليشبونة، يختلف مُناخه، اختلافًا جذريًّا، عن ذاك الذي بدأت فيه تدرّبي المهنيّ. كنتُ قد تزوّجت خارج الكنيسة، وكنت أسوق، مع زوجتي، حياة الوثنيّين، ولم ينلْ أيٌّ من أبنائنا الثلاثة سرّ العماد.

وأخذت تنتشر أنباء ظهورات فاطمة، فسخرتُ منها، في سرّي، حريصًا على كتمان مشاعري هذه، إذ كان مُستخدِمي الجديد شديد التديّن. وقد اقترح علينا، ذات يومٍ، القيام بحجٍّ جماعيٍّ إلى فاطمة. وكان لا بدّ لي من الإجابة، أسوةً بالآخرين، بأنّ هذا الحجّ سيكون مدعاة سرورٍ لي، ولكنّني، في سرّي، كنت خجولاً من المهزلة التي سأمثّلها.

وحججنا. ومن بين الاحتفالات والصلوات التي اضطررت إلى المشاركة فيها، تحاشيًا عن لفت انتباه الآخرين، قمنا، في أحد الأمسية، بتطوافٍ، فابتعتُ شمعةً تمثّلاً بالآخرين، وهنا كانت العذراء لي بالمرصاد، فلم أكد أخطو خطوتيْن

حتّى انطفأت الشمعة التي كنت أَحملها، مع أنّه لم تكن هناك نسمة ريح، وأنّ جميع الشموع الأُخرى ظلّت مشتعلةً. وأعدت إيقاد شمعتي من شمعة جاري، ولكن ما كدت أتحرّك حتّى انطفأت ثانيةً. كنتُ منزعجًا. ولكنّني أشعلت شمعتي، للمرَّة الثالثة، من شمعة جاري، الذي رمقني بنظرةٍ ساخرةٍ، ولكنّ الشمعة ما لبثت أن أنطفأت، مرَّةً أُخرى. واجتاحتني، في تلك اللحظة، موجة سخطٍ، وتيقّنت أنّ السيّدة العذراء تأبى تكريمي الكاذب، وغمرني عَرَقٌ باردٌ من رأسي إلى أخمص قدميَّ، وهويت أرضًا. وإذا بي راكعٌ، ولكن لم تتحرّك شفتاي بأيّة صلاةٍ.

عدتُ، مساءً، إلى المنزل، ورويت لزوجتي كلّ ما حدث لي، وما لبثنا أن استنتجنا، معًا، استحالة استمرارنا في العيش عيشة الوثنيّين، فسوّينا وضع زواجنا، كنسيًّا، ونال أبناؤنا سرّ العماد، وها إنّنا نحيا سعداء.

إنّي أعتقد أنّ والدتي هي التي حصلت لنا على هذه النعمة، فقد كانت تتلو، كلّ يومٍ، مسبحةً كي أعود إلى إيمان طفولتي، وإلى ممارسة شعائره.

مرغريدا وسيّدة فاطمة

روت أمرأةٌ ألمانيّة ما يلي:

«عقب وفاة زوجي، البرتغاليّ الأصل، دعاني أقاربه إلى موطنه الأصليّ، كي تتعلّم ابنتنا البالغة الخامسة من سنواتها، لغة أبيها وأجدادها.

ولبّيت الدعوة بطيبة خاطر. واستقبلنا أقرباؤنا بحفاوةٍ بالغةٍ، في قصرهم الفخم. وباتت ابنتي تتعلّم اللغة البرتغاليّة، وهي تلهو مع أبناء ابنة عمٍّ لزوجي المتوفّى، الذين يقاربونها سنًّا. غير أنّه لم يُكتب لتلك الحياة العائليّة السعيدة أن تدوم طويلاً.

فقد ضرب وباء التيفوس تلك المنطقة، ناشرًا فيها الموت. وظلّ قصرنا محميًّا حتّى أُصيبت ابنتنا بذلك الداء الرهيب. وكان لا بدّ من عزلها، فورًا، في حجرةٍ محايدةٍ، محاذيةٍ لكابيلاّ القصر. واستحال العثور على ممرّضةٍ، إذ كانت الممرّضات جميعهنّ يخشينَ العدوى، فاضطررتُ إلى العناية بابنتي، ليلَ نهار، وبفضل الله، قاومتُ التعب.

كانت المريضة الصغيرة تذوي، يومًا فيومًا، وإذ كنتُ راغبةً في شفائها، بأيّ ثمنٍ، استقدمتُ، من باريس، طبيبًا مختصًّا، ذائع الصيت، مع صغر سنّه. وأخبرتني ابنة عمّ زوجي أنّها تقدّم، مع أبنائها، تساعيّة صلواتٍ لسيّدة فاطمة، ودعتني للانضمام إليهم. ومع أنّي كنت أجهل كلّ شيءٍ عن سيّدة فاطمة، شاركتهم الصلاة، في مصلّى القصر، المحاذي لحجرة ابنتي المريضة.

في هذه الأثناء كان الأمل في شفاء ابنتي يتلاشى. فقد اصطبغت أظافر أصابعها بالزرقة. وهي أقلعت عن تناول أيّ سائلٍ، وباتت عاجزةً عن أيّة حركةٍ.

وأعلن لي طبيب العائلة، والطبيب الفرنسيّ، أنّ كلّ أملٍ قد تبخّر، فعليّ توقّع النهاية المشؤومة المحتومة... وعدا بالعودة في اليوم التالي، وهما موقنان أنّ ابنتي لن تجتاز تلك الليلة، حيّةً.

يمكنكم تصوّر مدى اضطرابي وإحباطي، لدى سماعي ذلك الحكم القاتل! فبعد أن فقدتُ زوجًا منقطع النظير في طيبته، ها أنا أفقد ابنتي الوحيدة، عربون حبّه.

في شدّتي وبؤسي، جريتُ إلى المعبد. وكانت ليلةً شتويّةً قارسة البرد. ارتميت على ركبتيّ فوق البلاط وتوسّلت أمّ الله قائلةً: «الجميع يقولون إنّك تهرعين إلى غوث كلّ من يستجير بك. فأَثبتي لي صدق هذا القول. البرتغاليّون يؤكّدون أنّك تجرين معجزاتٍ كثيرةً. فأجري معجزةً لصالح ابنتي. وإن هي شُفيت، سأكرّسها لك. وسأمضي بها إلى موقع ظهوراتك في «كوڤا دا إيريا». أغيثيني واستجيبي لتضرّعي!».

ولبثتُ راكعةً فترةً طويلةً، إلى أن عييتُ، ودفعني وجع ظهري وتعبي إلى النهوض، والخروج من المصلّى ... وفتحتُ باب حجرة ابنتي ... فإذا بها ترقص فوق سريرها، وتبادرني بالسؤال:

– «أين كنتِ، يا أمّاه، طيلة هذا الوقت؟ إنّي جائعةٌ. أَطعميني من تلك النقانق الألمانيّة اللذيذة!».

ظننتُ أنّها تهذي، كما يحدث لكثيرين ممّن بلغوا نهايتهم المحتومة. ولكنّها قالت: «ماما، لقد شفيتُ. هذا ما أكّدته لي سيّدة فاطمة».

ورجوت ابنة عمّ زوجي إطلاع الطبيبين، كاتمةً ما حدث ليلاً ... وخفّ النطاسيّان للمجيء، مصحوبين بشهادة وفاة ابنتي (التي أطلعاني عليها لاحقًا)

لما رأتهما ابنتي مرغريدا حيّتهما، وقالت لطبيب العائلة:

– «عمّو الدكتور، من حقّي الآن تلقّي الدمية التي وعدتني بها إن أنا شفيت. إنّي أريد النهوض، واللهو مع سائر الأولاد، فقد برئتُ برءًا كاملاً! هذا ما قالته لي أمّ اللّه، سيّدة فاطمة، عندما تركتني أُمّي وحيدةً فترةً طويلة».

رمقني الطبيبان بنظرةٍ، ثمّ رمقا ابنتي، وهما حائران ماذا يقولان. حينئذٍ قال الطبيب المسنّ، بنبرةٍ تقطر وقارًا:

– «تكلّمي، يا سيّدتي. ما الذي حدث ليلاً؟ هل استعنتِ بساحرةٍ؟».

هذا السؤال أثار سخطي وثورتي، فأجبت:

– «كيف لك، يا دكتور، أن تتوقّع مثل ذلك من أمرأةٍ ألمانيّةٍ؟ وهل مواطنوك هم من السذاجة بحيث يستعينون بساحرات؟».

ولكنّه ظلّ مصرًّا على أن أبوح له بما حدث في تلك الليلة، فقلت:

– «إن كنتَ كاثوليكيًّا ملتزمًا، فسأطلعك على كلّ شيء» .

وبدأ الطبيب باستطلاع حرارة الفتاة، وأظهر لزميله ميزان الحرارة الذي كان يشير إلى ٣٦،٥ درجة: حرارةٌ طبيعيّةٌ ! وأجرى اختبارًا ثانيًا. فجاءت النتيجة عينها. حينها أعلن الطبيب الشيخ:

– إنّ ابنتك التي كانت في حالة احتضار قد شفيت شفاءً تامًّا، شفاءً لا تفسير له، بشريًّا. أعطيها طعامًا.

حينئذٍ رويت كلّ ما جرى... فانخرط الطبيب الشيخ بالبكاء، هاتفًا: «لقد حدثت معجزةٌ كبرى». وركع أمام السرير الصغير، وأخذ يدي الفتاة بين يديه وقال: «فلنوجّه صلاة شكرٍ لسيّدة فاطمة».

كان الطبيب الباريسيّ واقفًا، جامدًا، في صدر الحجرة. وقال له الطبيب البرتغاليّ:

«ما رأيك في ذلك، يا زميلي العزيز؟

– أنا لا أومن بالمعجزات!

– قدّم لي، إذن، تفسيرًا لما حدث أمام عينيك، لشفاءٍ فوريٍّ أعاد العافية والحياة إلى فتاةٍ كانت تحتضر!».

لبث الطبيب الشابّ، بُرهةً، صامتًا، ثمّ اندفع نحو السرير الصغير، وأخذ الطفلة بين ذراعيه، وقال، مذرّفًا الدموع:

– «يا صغيرتي العزيزة، ها إنّ أمّ الله، سيّدة فاطمة، قد حقّقت معجزتين معًا: فقد أنقذتك من موتٍ محقّقٍ، وأعادت الحياة إلى نفسي. فقد كنت ملحدًا، ولم أكن من أقلّ الملحدين تصلّبًا. وها أنا مؤمنٌ. في باريس سأتحدّث، وسأكتب عن سيّدة فاطمة».

ودوّن الطبيب الشيخ الحدَث، في يوميّات فاطمة، وذيّل مقاله بتوقيعه وتوقيع زميله الباريسيّ.

ونفّذتُ أنا، وعدي، فحججت إلى فاطمة، مع مرغريدا. وكان الوقت شتاءً، وحضور الجماهير ضئيلاً، فأطلقتُ العنان لدموع شكري، أمام تمثال سيّدة فاطمة الجميل، حيث تنهض، اليوم، الكاتدرائيّة المهيبة.

وفي كلّ ثالث عشر من كلّ شهرٍ، أعود إلى هناك، وأنعم، في كلّ مرَّةٍ، بخبرةٍ صوفيّةٍ، سماويّةٍ.

وفي هذه الأثناء تزوّجت ابنتي من شابٍّ برتغاليٍّ، شديد التكريم لسيّدة فاطمة. ولديها الآن ثلاثة أبناء، وتعيش، سعيدةً، في البرازيل.

وفي ألمانيا نظّمتُ، في منزلي، كلّ ثالث عشر من كلّ شهر، اجتماع صلاةٍ تكريمًا لسيّدة فاطمة، كان يحضره أقاربي، وأصدقائي، ومعارفي، ومنهم بروتستانتيّون.

في مطلع الحرب الأخيرة، عدتُ، مع ابنتي، إلى موطن زوجي المتوفّى، وقد دُمّر منزلي في ألمانيا تدميرًا كلّيًّا بفعل القنابل الحارقة. وقد أكتشفتْ جارةٌ

لي عجوزٌ، في الأنقاض، تمثال سيّدة فاطمة، سالمًا، لم يُصب بأذًى، فأعادته إلى أقاربي، الذين يحيطونه بالتكريم، ويتضرّعون إلى صاحبته، ولكم هو يذكّر بأحداثٍ جميلةٍ!».

إيمانٌ ينقل الجبال

في مزار فاطمة، كان الأب «ماركي» ما زال يسمع الاعترافات، وقد بلغت الساعة الثانية صباحًا. وكان آخر المعترفين شابٌّ، حافي القدمين، بدت عليه أَمارات الإِرهاق. فساعده الكاهن على النهوض، وسأله:

– يبدو أَنّك قادمٌ من مكانٍ ناءٍ.

– من جهة «منهو»، في أَقصى شمال البرتغال.

– إِنّه مكانٌ بعيدٌ جدًّا.

– يبعد نحو مئتين وخمسين كيلومترًا.

– وهل اجتزتم هذه المسافة، سيرًا على الأَقدام؟

– أَجل... كنّا قد نذرنا، أَنا وزوجتي، أَن نأتي إِلى هنا حفاةً، إِن شفيت ابنتنا المبتلاة بعمًى كاملٍ، وقد يئس الأَطبّاء من شفائها.

وكرّت دمعةٌ على وجنته، قبل أَن يتابع قوله:

– لقد أَقمنا تساعيّة صلاةٍ، وفي يومها الأَخير، إِذ كنت أَمرّ أَمام الصغيرة التفتت نحوي... جننتُ فرحًا، وناديت زوجتي، وزففت لها البشرى: لقد غدت ابنتنا تنعم بنظرٍ كاملٍ ممتازٍ. فانطلقنا في رحلة حجّنا.

– هل كانت رحلتكم طويلة؟

– ثمانية أَيّامٍ. كنّا نجتاز نحو ثلاثين كيلومترًا كلّ يومٍ. وقد وجدنا دائمًا مأوًى

نقضي فيه الليل، ما عدا الليلة الأَخيرة التي اضطررنا، فيها، إِلى الرقاد في العراء.

– وهل كان لديكم ما تأكلونه؟

– زادنا من الخبز الأَسود. كنّا نكتفي بابتياع شيءٍ من طعامٍ آخر للصغيرة.

ووصل الرجلان إِلى المزار، وقُرع جرس السجود. فتقدّمت امرأةٌ ما زالت شابّةً، تحاكي جثّةً، تقود طفلةً ملفوفةً بشالٍ قاتمٍ. وقال الحاجّ ببساطةٍ:

– ها هما.

وفيما كان الأَب «ماركي» يتأمّل، بسرورٍ، من خلال فرجة الشال، عينيْن صغيرتيْن فاحمتيْن تلتمعان في الليل، اعترفت المرأة:

– يا أَبتِ، كنت قد وعدتُ السيّدة العذراء أَن أَقطع المسافة بين كنيسة فاطمة وكابيلينهو، (وهي تنيف عن كيلومترين) زحفًا على ركبتيّ. ولمّا وصلت إِلى نحو خمس مئة مترٍ من غايتي، عجزت عن إِتمام المشوار، فقد كانت ركبتاي تنزفان، واضطررت إِلى إِكمال المشوار، واقفةً على قدميّ. فهل ستسامحني العذراء؟

ولم يجد الكاهن مشقّةً في تهدئة روعها، وتبديد هواجسها، وكفكفة دموعها. ولا ريب أَنّه قال، في سرّه، ما كان يسوع قد قاله للمرأة الكنعانيّة: «إِيمانك عظيمٌ، يا امرأة!».

الشهر المريميّ في مولوكاي (جزيرة البرص)

صرّح مرسلٌ: «إنّ أكثر شهرٍ مريميّ ترك لديَّ أثرًا بليغًا، لم يكن في لورد، ولا في فاطمة، ولا في شيستوكويا، ولا في ماريا زيلّ، بل كان في مولوكاي، جزيرة البُرص».

وكان المرسل قد شخص إلى تلك الجزيرة مفعمًا اندفاعًا، ولكنّ قلبه كان ينقبض لرؤية ذلك الداء المريع: البَرَص. كان قد وافى واعظًا، بمناسبة افتتاح الشهر المريميّ، وكان عليه تنصيب تمثال سيّدة فاطمة، ومباركته بحضور المجذومين، متسائلاً ما عساهُ يقول لتلك الخُرَق البشريّة أَمام سيّدةٍ فائقة البهاء. كان يجيل الفكرة في رأسه، حائرًا، عندما قُرِع الباب.

ودخلت راهبةٌ، متوسّلةً: «تعالَ سريعًا لمساعدة محتضر». وارتعش المرسل خشيةً، وهو يفكّر باضطراره إلى الاتّصال بأبرص، غير أَنّ إعجابه ببطولة الراهبة الممرّضة شدّ من عضده. وأَضافت الراهبة: «ائتِ بتمثال سيّدة فاطمة، معك، فالمريض يودّ تحيّتها، قبل وفاته. السيّارة تنتظرنا».

وما لبث المرسل أَن مثل أَمام المحتضر، ولم يسعه سوى التلعثم ببضع كلماتٍ. وتمتم المحتضر: «السيّدة العذراء». فاستجاب المرسل لرغبته، ولكنّه من جرّاء تأثّره، أو بسبب وعكةٍ مباغتةٍ انتابته، تعثّر على درجات السلّم، وهو يحمل التمثال بين يديه، وحرصًا منه على حماية التمثال، في أَثناء كبوته، هتف: «أَغيثيني يا عذراء!»...

نهض متألّمًا، متفقّدًا تمثال العذراء، الذي أُصيبت ذراعاه بأَضرارٍ بالغةٍ، ولكنّهما ظلّتا تحملان المسبحة. كانت أَجزاء من طلاء الوجه، هنا وهناك، قد

تطايرت، محدثةً على الوجنتين لطخاتٍ قاتمةً، تحاكي الجروح. وقد غاضت البسمة عن الشفتين، وظهرت على الفم زمّة وجعٍ. وحدهما العينان بقيتا سليمتين، تنظران، بنفس الرقّة، ونفس الرأفة. كان المرسل واقفًا في مكانه، حائرًا في ما يتوجّب عليه فعله، عندما وصلت الراهبة. وللوهلة الأولى ارتاعت للمشهد ولكنّها سرعان ما دعت المرسل إلى اتّباعها، حاملاً التمثال المشوّه... لدى رؤية التمثال اجتاحت المحتضر موجة حبٍّ، وفرحٍ غامرٍ، وشكرانٍ، ورغبةٍ، وإيمانٍ، وكأنّه ابنٌ يحيّي أُمّه.

لقد ابتغت العذراء أن تكون كلاًّ للكلّ، وحبًّا بأبنائها زهدت بجلالها السماويّ. وقد علّق المرسل على ذلك الحدث بقوله: «نادرًا ما شهدت إنسانًا يفارق الحياة، في مثل سعادة ذلك الأبرص المسكين. وعندما نصبتُ، في الغداة، في الكنيسة الصغيرة، تمثال العذراء المشوّه، وباركتُه، لم أُعمل الفكر طويلاً، في ما يتوجّب عليّ قوله. بل رويتُ، ببساطةٍ واقتضابٍ، سقطتي على أدراج السلّم، وحيرتي، وعزمي. أسهبت في الحديث، وكان آخرُ يتكلّم من خلالي.

وتلمّستُ انتباه الحضور، مدى ما ينيف عن ساعتين من الزمن. ولست أدري إن كانت قد تصاعدت، يومًا، صوب العذراء معزّية المفجوعين، ومخلّصة المرضى، صلواتٌ أشدّ حرارةً من ذلك اليوم. كنّا نصلّي معًا، غير مستعينين بكتابٍ، أو بعباراتٍ موضوعةٍ مسبّقًا. كان شهرًا مريميًّا، من نوعٍ فريدٍ، طافحًا بحبٍّ عظيمٍ. ومنذئذٍ، لم أعظ قطّ، بمناسبة افتتاح موسمٍ مريميّ، إلاّ عادت إلى ذاكرتي تلك المناسبة، التي علّمتني رأفة مريم، فهي تغفل ذاتها كي تقهر بؤس الأرض، في عطفها الأُموميّ.

ومع أنّنا، جميعنا، أمامها، خلائق مبتلاة ببرص الخطيئة، عساها تحنو علينا، مثل سيّدة مولوكاي، كلّما مارسنا أفعال الرحمة!

ارتدادٌ في فاطمة

كان عاملٌ قد أقلع عن كلّ ممارسةٍ دينيّةٍ، وأصبح عمود حانةٍ، يعود منها كلّ مساءٍ ثملاً، فيعنّف زوجته، ويُحيل حياة أُسرته جحيمًا.

وكان على صلةٍ بأسرةٍ جارةٍ وصديقةٍ، أحد أفرادها فتاةٌ يافعةٌ منيت بعلّةٍ شديدةٍ أودت بها إلى حافّة القبر. وأنبأ الطبيب ذويها أنَّ حالتها ميئوسٌ منها، وأنّه لن يعود ليراها، إذ كان موقنًا أنَّ وفاتها وشيكةٌ.

ومع ذلك كانت دهشة العامل عارمةً، عندما شاهد الفتاة، عقب أيّامٍ معدوداتٍ، معافاةً، وافرة الصحّة، فقال لها :

– ظننتك متِّ.

– كنتَ محقًّا في ظنّك. ولولا السيّدة العذراء التي شفتني، لما كنت الآن، بعدُ، في هذا العالم. ولذلك، إكرامًا لي، سألتمس منك خدمةً صغيرةً، سبق لي أن التمستها من جيرانٍ عديدين.

– فليكن.

– طلبي هو أن ترافقني في رحلة حجٍّ من أجل تقديم الشكر لسيّدة فاطمة.

– كم أنتِ مضحكةٌ بحكايا عذرائك! ولكن بما أنّي وعدت، فسأرافقك.

وفعلاً، التزم ذلك العامل بالموعد المحدّد، وقد طغى لديه دافع الفضول على دافع الرغبة في الحجّ.

وهنا بالضبط كانت العذراء تنتظره، مستجيبةً، بلا ريب، لصلوات زوجته.

تاه الرجل وسط الحشد الكثيف الذي قدّر عدده، في ذلك اليوم، بمئتي ألف

شخصٍ، واعتراه التأثّر، وغمرته تقوى تلك الكتلة من المؤمنين المصلّين. وحين جرى التطواف بتمثال السيّدة العذراء، كان الحشد الذي لا يقوى على الحراك يحيّيها برفرفة المناديل البيضاء. ورفرف هو أيضًا بمنديله، الذي كان قد استلّه، ليمسح به دموعه المنسابة.

وما لبث أن اعترف، وغيّر مسلكه، وبات يركع، كلّ صباحٍ، مع كلّ أفراد أسرته، ويتناول في كاتدرائيّة فاطمة، حيث طالما عاد حاجًّا ورعًا. ومن نافل القول أنَّ الحانة باتت مجرّد ذكرى غابرةٍ، فهو الآن يقف كلّ وقته على العناية بزوجته وأولاده.

الجزء السادس

روائع النعمة في مديوغورية

–١–

مجموعة القصص هذه مترجمةٌ من كتاب: «مديوغورية انتصار القلب فترة التسعينيّات»، بقلم الأُخت إِيمانويل.

العنوان الأَصليّ:

MEDJOGRJE Le Triomphe du Cœur, Les années, 90. Sœur Emmanuel, éd. des Béatitudes.

صدمات رفائيل الثلاث

كان الليل قد شرع يهبط، وما من لافتةٍ ترشد إلى تلك القرية التائهة التي يتعذّر لفظ اسمها. وهل هي موجودةٌ حقًّا؟ وما الذي أتى بي إلى هنا، أنا الوغد المرتدّ بفضل دوافع شديدةٍ من الروح القدس، والذي أُعيد تعميده، تغطيسًا، في كنيسةٍ بروتستانتيّةٍ مستقلّة، أنا رفائيل الذي يناصب الكاثوليكيّين عداءً شرسًا؟ وها أنا ذا في موطن من يتلون المسابح! ماذا لو رآني قسٌّ بروتستانتيٌّ؟! غير أنّي كنت قد وطّنت العزم على تبديد كلّ ريبة.

حينئذٍ قلت للربّ: «حسنًا، إنّ الكاثوليكيّين ينعمون بالروح القدس، حتّى وهم راكعون أمام تماثيل من جصٍّ. ولكن أُريد أن تفسّر لي قصّة ظهورات مريم!».

بعد أن مررنا بمدينة «أرس»، يمّمنا شطر روما، فمديوغورية، بلا توقيتٍ مسبّقٍ، ولا برنامجٍ محدّدٍ. جميعنا نتنافس تعصّبًا للبروتستانتيّة، ما خلا پيير، فهو رجل أعمالٍ تردّى إلى أدنى دركات الإحباط، وهو بعيدٌ عن الإيمان. وكان قد حاول الانتحار مثنًى. وأنا أكرهته على مرافقتنا مع ولديه، خشيةً عليه من طعن نفسه، مرّةً أُخرى، في أثناء غيابنا. ألقيت نظرةً في المرآة أمامي، فرأيته يناقش، بمرحٍ، أليكس، الأُستاذ المنّوني (أي المنتسب إلى فئةٍ بروتستانتيّةٍ أُصوليّةٍ)، فيما كانت كاترين، وهي من «بنات لوتير»، تتحدّث مع زوجتي عن الأزياء.

عند منعطفٍ، برز برجا الكنيسة، المتجلّية بوضوحٍ، والمغروسة على طرف قريةٍ خرجت من لا مكانٍ... لا شيءَ هنا، لا فندقَ، ولا مطعمَ، ولا حانوتَ. ولكن هنا ألف صوّةٍ ترشد إلى مكان تلك الكنيسة، وسط الحقول.

تأفّف پيير قليلاً، ولكنّ مزارعًا أعارنا بعض أَمتارٍ مربّعةٍ ظليلةٍ كي ننصب فيها الخيام.

على قمّة التلّة كان ينتصب الصليب الجسيم المكوّن من قطعةٍ واحدةٍ، والذي يمكن مشاهدته من مسافة كيلومتراتٍ عديدةٍ.

نظّمنا وضعنا مستفيدين من الماء الذي يقتسمه القرويّون مع ضيوفهم، مع أَنّهم لا يملكون سوى طبقةٍ ضحلةٍ من الماء الذي يأسن في قعر الآبار، إِثر انحباس المطر منذ أَشهرٍ.

كلّ ذلك الوادي كان يسبح في ضياءٍ حريريٍّ، والوقت كان يبدو معلّقًا فوق القبّة الفاتحة اللون، الجاثمة فوق التلال المحيقة بها.

بعد ظهر اليوم التالي، قرأت مقطعًا من الكتاب المقدّس في الكنيسة، وبغتةً هبّت، ورائي، عاصفة بلبلةٍ، وهتف أَحدهم باللغة الكرواتيّة، وإِذ بأَمواج إِشارت الصليب تنتشر، ويتدافع القوم نحو المخرج. خرجتُ، وإِذ بنحو خمسين شخصًا يحدّقون إِلى صليب كريزيڤاك. وحملقت، فامتلأَت عيناي بأَنوارٍ جسيمةٍ تتموّج على امتداد أَكثر من كيلومترٍ حول الصليب. وكأَنّ السماء ترقص حوله، وكأَنّ شموسًا لا تحصى، بلونٍ سماويٍّ فاتحٍ غير مأْلوفٍ كانت تنبثق، وما تلبث أَن تتلاشى، مع أَنّ الجوّ، في ذلك المكان صافٍ، لا تشوبه غيمةٌ، ولا شمس تسطع في هذا الاتّجاه، فتبهرنا. لقد قُضي عليّ، وانهارت كلّ حصوني. جرّبت تحويل أَنظاري إِلى مكانٍ آخر، ومقاومة التأثير الخارجيّ، ولكن كان كلّ شيءٍ، من حولي، طبيعيًّا. ولم أَرَ سوى كلبٍ يستشمّ جذر شجرة. أَطلقت نظرةً في الهواء، فيما استمرّت رقصة الأَنوار بضع لحظات. ثمّ قفلت عائدًا إِلى خيمتي مشوّشًا.

في اليوم الثالث، تناولنا الطعام في ظلال الأَشجار، وتجاذبنا أَطراف أَحاديث مرحة، فيما كان أَبناء پيير يعبثون بين الكروم؛ وإِذ بالصغير ميشيل يتوثّب، رافسًا الأَرض بقدميه، هاتفًا:

– تعالوا، انظروا. إِنّه يدور!

لم يُعِرْه أَحدٌ بالاً، في الحال، فأَخذ يشدّني من طرف كمّ قميصي، إِلى أَن ضقتُ ذرعًا، فنهضت، وسألته: «ما بك؟».

«انظر، إِنّه يدور»! وصوّب سبّابته نحو التلّة، فخرجتُ من تحت غطاء الأَشجار، ورفعت بصري نحو الصليب، وكانت خاطرتي الأولى: إِنّها هلوسةٌ! لقد كان الصليب الجسيم يدور على ذاته. أَمعنت في فرك عينيّ، والتحديق في خفّيٍّ، والتفكير في أَعمالي، والتقاط حفنةٍ من التراب الجافّ، غير أَنّ الصليب ما انفكّ يدور، بسرعةٍ متزايدةٍ، حتّى غدا شفّافًا، ثمّ توارى.

جهازي العصبيّ كان يعمل طبيعيًّا، فلم يخامرني شكٌّ باختلاله. ودعوت الأُستاذ أَليكس بحذرٍ، من غير أَن أُرعبه، وبلا تعليقٍ، مكتفيًا بحركةٍ مبهمةٍ، وسأَلته:

– هل ترى شيئًا، يا أَليكس؟

ارتسمت على محيّاه إِيماءة دهشةٍ، وانزلقت نظّاراته حتّى طرف أَنفه، وهتف:

– غير ممكنٍ. الصليب يدور على نفسه.

– صَهْ! لا تقلْ شيئًا.

وناديت الآخرين، من غير أَن أُخبرهم شيئًا عمّا يحصل، وإِذ بنا نحن السبعة، شاخصون إِلى الظاهرة العجيبة، مدى خمس عشرة دقيقةً، وعيوننا تراقب عقارب الساعة!

وتواصل تدفّق الأَحداث العجيبة. فقد كان پيير يحمل، على جلد بطنه ندبةً ناجمةً عن طعنه نفسه بخنجرٍ، في أَعقاب رحيل زوجته. وبما أَنّنا كنّا، في المخيّمٍ، غالبًا عاري الصدور، اقترب منّا، وقد رسمت شفتاه الدهشتان ما يشبه دائرةً وقال: انظروا: فقد كادت الندبة تتلاشى تمامًا.

ضقت ذرعًا بكلّ هذه الإشارات، وقلت في ذاتي: «لا، يا ربّ، لا أَستطيع أَن أُوجّه إِلى مريم صلاةً، مثل خرافةٍ، مكرّرةً مئة مرَّةٍ. اسمح، إِذن، بأن أَشهد ظهوراتٍ في المصلّى». أَنا أَعلم أَنّ المصلّى مخصَّصٌ لرجال الدين، ولكنّك على كلّ شيءٍ قديرٌ».

في ذلك المساء، كنت أَنتظر عند باب المصلّى الذي يحرسه راهبٌ فرنسيسكانيٌّ. وفيما كنت أُصلّي في سرّي، أَمسكني شخصٌ من كمّ قميصي – وكان هو ذاك الراهب عينه – وخاطبني بكلماتٍ لم أَفهم معناها، ثمّ دفعني إِلى داخل المصلّى. وجدت نفسي في الصفّ الأَماميّ عندما وصل الرؤاة، وكنت أَسأل الله أَن يقيني من حبائل الشرّير، عندما شرع الرؤاة بتلاوة «السلام عليك يا مريم». وراقبتُ، خلسةً، القوم المستغرقين في هذه الصلاة. وبغتةً حدثت ضجّةٌ مدوّيةٌ، عندما هبط الرؤاة على ركبهم، ومدّوا سوقهم على الأَرض، فتوجّعت عنهم. ووضع الواقفون في الصفّ الأَماميّ أَيديهم على أَكتاف الرؤاة، فوضعت أَنا يدي على كتف ڤيتسكا.

كنت قد قرأت في كتابٍ أَنّ الرؤاة، وهم في حالة الانخطاف، يفقدون الشعور بالأَلم، ويثقل وزنهم، فيغدون في مثل ثقل كُتَلٍ حجريّةٍ. وإِذ لم يكن أَحدٌ يلاحظني رحت أَقرص ڤيتسكا، مضاعفًا، تدريجيًّا، شدّة القرص، ولم تصدر عنها أَيّة ردّة فعل. ولكن، أَلا يغرس نسّاك الهند إِبرًا في أَجسادهم؟ حينئذٍ شرعتُ أَدفع ڤيتسكا، برفقٍ، أَوّلاً، خشية أَن نهوي، كلانا معًا، على بطوننا، فنضحى موضع هزءٍ، وفي هذه النوبة، أَيضًا، لم تحدث أَيّة ردّة فعلٍ. فأَحكمت جلستي، مسندًا مؤخّرتي على عقبيّ، ومع أَنّ ڤيتسكا لم تكن مضمومة الركبتين، وبالتالي، هشّة التوازن، لم تُؤتِ دفعة كيلوغراماتي الثمانين أَيّ أَثرٍ، ولكأنّي كنت أَدفع كتلةً من الغرانيت، مع أَنّ تلك التي كنت أَدفعها هي يافعةٌ هزيلةٌ. لقد واجهت فائق الطبيعة، وأَدركت أَنّ شيئًا فائقًا يحدث، واعترتني الرعشة.

أَحسست أَنّ السلام الذي كان يسود ذلك المكان هو من الواقعيّة بحيث يمكن

جسّه، ومرَّةً أُخرى سألت الله أَن يحميني، فلربّما لم أَحفل بالجوهريّ، وللمرَّة الأولى صلّيت للعذراء قائلاً:

«– إِن كنتِ هنا، وإِن كنتِ ضمن مخطّط الله، أَظهري لي ذلك كي أَتيقّن».

ورفعت نظري صوب ذلك المكان الذي يعلو المائدة التي تفتن الرؤاة، وإِذ بنورٍ يحاكي شعاع شمسٍ مخترقًا نافذةً، ولكنّه في مثل حجم شجرةٍ صغيرةٍ، ينحدر بتؤدّةٍ نحوي، وينفذ إِلى قلبي. وما إِن هو لامس صدري حتّى أَحسست بأَنّ كلّ هواجسي آخذةٌ في التبدّد والتلاشي. وحتّى الآن لم أَشعر بامتلاءٍ يحاكي عمق ذاك الذي استحوذ عليّ حينذاك. لقد ذاب كلّ كياني في غمرٍ من العذوبة والحبّ، ولم يعُد لأَيّ شيءٍ وجودٌ سوى لهذا الحنان الذي غمرني. فكدتُ، هناك، أَموت حبًّا.

وفيما كنت عائدًا إِلى الخيمة طافت بذهني، ثانيةً، ذكرى ما حدث. وحدجني أَليكس بنظره، مقطّب الحاجبين، وقال:

– ما خطبك؟ لكأنّ محيّاك يشعّ نورًا.

ثلاثة أَشهرٍ! أَجل احتجت إِلى ثلاثة أَشهرٍ كي أَعود إِلى الأَرض. ثلاثة أَشهرٍ غدا فيها كلّ شيءٍ في غاية اليُسر: الصلاة، والحبّ، والموت.

لقد تصالحت مع الكنيسة، ومع مريم، ومع ذاتي. پيير، أَيضًا، ارتدّ، وأَصبح مسؤولاً عن جماعة شبّانٍ مسيحيّين.

المجد لله!

إِحدى قدميّ كانت في جهنّم، ولم أَكن أَدري

جميع المقيمين في مديوغورية يعرفون «باتريك»، ذلك الكنديّ الناطق باللغة الإِنكليزيّة، الذي يشارك، كلّ يومٍ، بساعات الصلاة الثلاث في الكنيسة، مع زوجته نانسي، والذي، في أَثناء العظات الطويلة باللغة الكرواتيّة، يرفع إِلى الرحمة الإِلهيّة، مثل ملاكٍ، تلاوة المسبحة، أَو صلوات القدّيسة بريجيت.

أَنا، أَيضًا، كنت أَظنّ أَنّي أَعرفه، إِلى اليوم الذي أَطلعني فيه على سيرة حياته...قال:

«لي من العمر ستٌّ وخمسون سنة. وقد تزوّجت ثلاث مرَّاتٍ، وطلّقت مرَّتين، من جرّاء خياناتي الزوجيّة. وقبل مطالعتي رسائل مديوغورية كنت أَفتقر إِلى امتلاك الكتاب المقدّس. عملت في مضمار السيّارات، في كندا، وسحابة ثلاثين سنةً، كان المال هو إِلهي الوحيد، وأَلممت بكلّ الأَلاعيب الكفيلة بتضخيم ثروتي. ويوم سألني ابني: «بابا، ما هو الله؟». أَعطيته ورقةً نقديّةً من فئة عشرين دولارًا، وقلت له: هذه هي إِلهك! بمقدار ما تمتلك منها، ستقترب من الله».

لم تكن تربطني بالكنيسة أَيّة علاقةٍ، ولم يكن لديّ، يومًا، إِيمانٌ، مع أَنّني كنت قد نلت عمادًا كاثوليكيًّا. كنت أَعيش مع نانسي بلا زواجٍ، وكان الأَمر يبدو لنا طبيعيًّا، فالجميع ينهجون على هذا النحو. ولكن، بعد سبع سنواتٍ، خطر لنا أَن نعقد زاوجنا. فنظّمت حفلة عرسٍ مدوّيةً، على قمّة جبلٍ، واستأجرت، لهذه المناسبة، طائرةً مروحيّةً... وكانت الحفلة مدنيّةً، على أَنغام «الحقبة الجديدة» (نيو إِيج).

ولكن بعد ستّة أَسابيع، قالت لي نانسي: «لست أَشعر بأَنّني متزوّجةٌ». ولمّا أَشهرتُ في وجهها شهادة الزواج أَجابت:

«- لست أَشعر بأَنّني متزوّجةٌ. فوالدتي لم تشارك بالاحتفال، ونحن لم نعقد زواجًا كنسيًّا».

حينئذٍ، فقط، اكتشفت أَنّ زوجتي الأولى كانت قد طلبت إِلغاء زواجنا وحصلت عليه، منذ عشرين سنةً... ومن ثمّ لم يكن هناك أَيّ عائقٍ يحول دون عقدي، مع نانسي، زواجًا كنسيًّا. وبعد فترةٍ قصيرةٍ، احتفلنا بزواجنا في كنيسة «قلب مريم المنزّه من الدنس»، وهي الكنيسة الوحيدة في كندا التي تحمل هذا الاسم. وشرعت العذراء تتّجه صوبي بتؤدّةٍ، ولكن بخطًى ثابتةٍ.

قبل مراسم الزواج كان لا بدّ لي من المرور بكرسيّ الاعتراف، ولكنّ قلبي كان غائبًا عن اعترافي. نانسي وأَنا لم نكن نصلّي، ولا نحضر القدّاس، ولا نقوم بأَيّة ممارسةٍ دينيّةٍ. بل كنّا نملك شهادة زواجٍ كاثوليكيٍّ فحسب. أَبناؤنا الأَربعة (ثلاثة صبيانٍ وبنتٌ) كانوا يخوضون حياةً صعبةً، بل كارثيّةً: كحولٌ، مخدّراتٌ، طلاقٌ... ولكن لم يكن يساورني أَيّ قلقٍ حيال ذلك. فمن لا يعاني مِحَنًا مع أَولاده؟

بمناسبة انتقالنا إِلى منزلٍ آخر، عثرت على رزمةٍ كان قد أَرسلها لنا، من كندا، لوقتٍ طويلٍ جدًّا، شقيق نانسي الكرواتيّ. وفي الحقيقة، لم يكن أَحدٌ منّا قد اطّلع اطّلاعًا دقيقًا على محتوى تلك الرزمة، التي أَلقتها نانسي بين ذراعيّ، قائلةً: «يا وثنيّ الصغير، زوجي، إِن كان على أَحدٍ أَن يرمي هذا الشيء، فهو أَنت، وسيتحمّل ضميرك المسؤوليّة».

حدث ذلك مساء يوم سبتٍ. وإِنّي لأَذكر، بوضوحٍ تامٍّ، اللحظة التي فتحت فيها الرزمة، وكانت تحتوي أولى رسائل مديوغورية التي ترجمها شقيق زوجتي، بعنايةٍ، إِلى اللغة الإِنكليزيّة، وأَرسلها لنا. واستللت من الرزمة ورقةً، وقرأت،

للمرَّة الأولى، إِحدى رسائل مديوغورية، التي كانت تقول: «جئت أَدعو العالم إِلى الارتداد، للمرَّة الأَخيرة».

وحينها، في تلك اللحظة بالتحديد، حدث شيءٌ في قلبي! لم يستغرق الأَمر ساعةً، ولا حتّى عشر دقائق، بل كان فوريًّا. شرع قلبي يذوب، وانهمرت دموعي، وعجزت عن حبسها، فقد كانت تفيض دفقًا لا ينقطع. لم أَكن قد قرأت، قطّ، ما يشبه هذه الرسالة، ولم أَكن أَعرف شيئًا عن مديوغورية، لا بل كنت أَجهل حتّى وجودها، وأَجهل كلّ شيءٍ عن رسائلها. كلّ ما استطعت قراءته هو: «جئت أَدعو العالم إِلى الارتداد للمرَّة الأَخيرة»، وأَدركت أَنّ هذا القول موجّهٌ إِليّ. أَدركت أَنّ العذراء القدّيسة كانت تخاطبني، أَنا. الرسالة التالية التي قرأتها، كانت تقول: «لقد جئت لأَقول لكم إِنّ الله موجود». ولست أَذكر أَنّني آمنت، يومًا، بوجود الله، قبل قراءتي هذه الرسالة التي حوّلت كلّ ما تعلّمته، سالفًا، إِلى وقائع ماثلةٍ: كلّ التعليم الكاثوليكيّ الذي كنت قد تلقّيته في صباي كان واقعًا، ولم يعد، كما كان يُخيَّل إِليّ آنفًا: قصص جنٍّ، أو خرافةً جميلةً مختلقةً بأكملها. وكان الكتاب المقدّس، واقعًا، حقًّا.

عزفت عن فكرة رمي الرسائل، وأَكببت على مطالعتها، واحدةً فواحدةً، حتّى آخر رسالةٍ. وقد بات متعذّرًا عليّ الانفكاك عن هذا الكتاب الذي احتفظت به، في يدي، طيلة أُسبوعٍ، رغم الفوضى العارمة والشاملة، التي سبّبها انتقالنا إِلى منزلٍ آخر. كنت أَقرؤها، وأُعيد قراءتها، وكانت هي تنفذ إِلى قلبي ونفسي، أَعمق فأَعمق. وترسّخ في خلدي اليقين بأَنّني أَحمل، بين يديّ، كنز الكنوز.

وفي أَثناء انتقالنا إِلى مسكنٍ آخر، أُحطتُ علمًا برحلةٍ مريميّةٍ إِلى مدينة «أوجين»، في الولايات المتّحدة، التي تبعد عنّا مسافةَ يوميْ سفر، برًّا، خلال عطلة نهاية الأُسبوع. فسألت نانسي:

– أَنذهب!

– والبيت؟

– تبًّا له!

هناك التقيت ألوف الأَشخاص الذين كانوا يشاركوني مشاعري حول أُسلوب مخاطبة السيّدة العذراء لعالم اليوم. كان لدى جميعهم كتبٌ عن مديوغورية وفاطمة، ودون غوبي... لم أَكن قد رأيت، قطّ، مثل هذا!

في أَثناء القدّاس، تُليتْ صلاة شفاءٍ، وأَعلن الأَب «كين روبيرتس»:

«– كرّسوا أَبناءكم لقلب مريم المنزّه من كلّ دنس!».

فوقفت، باكيًا، إِذ لم تجفّ دموعي منذ قراءتي رسالة مديوغورية الأولى، وقلت للعذراء مريم:

– يا أُمّي المباركة، أَتوسّل إِليك أَن تتولّي شأن أولادي، فقد كنت لهم أَبًا سيّئًا جدًّا. وأَنا أَعلم أَنّك ستكونين لهم خيرًا منّي.

كرّست أولادي للعذراء، وهزّني ذلك بعنفٍ، إِذ لم أَكن أَدري ما يتعيّن عليّ أَن أَفعل لهم. وكانت حياة كلٍّ منهم قد تخطّت مرحلة الانحطاط. ولكن عقب عطلة نهاية الأُسبوع تلك، شرع كلّ شيءٍ في أُسرتنا يتبدّل. كان الأَب «كين روبيرتس» قد قال:

– ضحّوا بأَكثر ما تحبّون.

وأَنا كنت أُحبّ نانسي كثيرًا، وأَهوى القهوة، فعزمت على التخلّي عن القهوة.

لقد كانت رسائل مديوغورية نعمة حياتي الكبرى، وقد حوّلتني تحوّلاً كلّيًّا. فقد كان من شأني أَن أُواصل مسيرة الطلاقات، إِذ كنت أَملك مالاً وفيرًا. أَمّا الآن فإِنّ مجرّد فكرة الزنى مرفوضٌ لديَّ. وإِنّ الحبّ الذي وطّدته مريم بيني وبين نانسي لا يمكن تخيّله. وهذه نعمةٌ سماويّةٌ.

ابني الذي كان مدمنًا على تعاطي المخدّرات، وبسببها طُرد من المدرسة، وهو

في السادسة عشرة، قد تاب، وطلب العماد، وترواده، الآن، رغبةٌ في اعتناق الكهنوت.

وكلّما خطا أحد أَفراد الأُسرة الخطوة الأولى، تقوم «الغوسپا» (العذراء) بالخطوات التالية. هذا ما يحدث لنا. وكلّما مسَّت إِحدى رسائل مديوغورية قلب أَحد أَعضاء الأُسرة، حذت الأُسرة كلّها حذوه، شيئًا فشيئًا. فابني الآخر المعهود عنه نأيه عن كلّ ممارسةٍ دينيّةٍ، وافى إِلى مديوغورية، العام الفائت، ووجد فيها الإِيمان، واعترف، واحتفل بمناولته الأولى. أَبنائي الآخرون، ووالداي، هم أَيضًا، ينهجون طريق الارتداد، مع أَنّ ذلك ليس، دائمًا، بالأَمر اليسير.

كانت قد انقضت ثمانية أَيّامٍ على اكتشافي رسائل مديوغورية. عندما قلت لنانسي:

– سنذهب إِلى مديوغورية!

وها نحن نسكن فيها منذ عام **١٩٩٣**. وصلنا إِليها مصفري اليدين، وبعد ثلاثة أَيّامٍ، هيّأت لنا العذراء مأوًى وعملاً. فنانسي تعمل مترجمةً للأَب «يوزو»، أَمّا أَنا، فقوام حياتي، الآن، مساعدة الحجّاج، وإِطلاعهم على رسائل العذراء، بكلّ الوسائل الممكنة.

وأَنا أُحبّ العذراء حبًّا جمًّا، فهي أَنقذت حياتي ونفسي، حين كانت إِحدى قدميّ في جهنّم، وأَنا عن ذلك غافلٌ.

مدمنةٌ على الكحول منذ عشر سنواتٍ

بُعَيْد شفائي، دُعيتُ للتحدُّث عن مديوغورية في الولايات المتّحدة. وقد تعذّر عليّ الاحتفاظ لنفسي باكتشاف سرّ «٢٤ ساعة للغوسپا». وبعد أن شرحت كلّ شيءٍ لجمهوري الأَميركيّ الذي بلغ عدده خمسة آلاف مستمعٍ، قلت لهم: «ابعثوا إِليّ بشهاداتكم!»، وقد هزّتني الرسالة الأولى التي تلقّيتها، والتي جاء فيها:

«لقد استمعت إِلى محاضرتك، في مدينة «پيتسبورغ»، في شهر أَيلول المنصرم. أَنا في الثلاثين من عمري. وعندما قدمت للاستماع إِلى محاضرتك، كنت قد ترمّلت منذ عدّة أَشهر، وكانت حياتي قد انقلبت جحيمًا حقيقيًّا. فقد عجزت عن احتمال غياب زوجي. حرماني سماع صوته، ووقع خطواته في البيت، وافتقاري إِلى رؤيته، ومحادثته، كلّ ذلك كان يسبّب لي من العذاب ما سلبني الرغبة في البقاء على قيد الحياة. أَلم الوحدة، ويأس القلب، كانا يسحقانني، ووحده موتي كان كفيلاً بإِنهاء محنتي. ومن ثمّ وطّنت نفسي على الانتحار. وما زلت أَتساءل ما الذي دفعني إِلى المجيء إِلى محاضرتك.

لم أَحفظ من أَقوالك سوى أَمرٍ واحدٍ، لأَنّني لم أَكن، قطّ، من قبلُ، قد نظرت إِلى هذا الجانب من الظهورات، وقلت، في نفسي: ها إِنّ العذراء تأتي لزيارتي، أَنا شخصيًّا، في بيتي، في وضعي الحاليّ، كما هو اليوم. وعزمت على أَن أُنفّذ برنامج «٢٤ ساعة للغوسپا» ابتداءً من الغد. وعندما حانت ساعة زيارة مريم، تهالكت، فعلاً، بين ذراعيها، (وإِن لم أَرَها)، وبكيت على صدرها، وأَنا على هذه الحال، فترةً من الزمن. لم أَكن أَملك ما أُهديها سوى

بؤسي اللامحدود، ولم أَستطع سوى ترديد: «خذي قنوطي، خذي حياتي المحطّمة، الفاشلة، لقد أَسقط في يدي، وفقدت القدرة على الاحتمال».

ربّما لن تصدّقيني يا أُختي. ومع ذلك أَنا أَقول لك الحقّ: لست أَدري كيف حدث ذلك. غير أَنّي قد أَصبحت، اليوم، أَسعد امرأةٍ في العالم. أَنا سعيدةٌ بنصيبي من الحياة. لقد أَفاضت العذراء في قلبي فرحها، وأَطاحت بيأسي. وغدوت أُحبّها بجنونٍ. إِنّها تفوق الإِدراك. هي، حقًّا، أُمٌّ. قلبها أَصبح فيّ، ولست أَدري كيف أَقول لك كم أَنا، الآن، أُحبّ الحياة».

(پاتريسيا)

أَمّا في فرنسا، فلم أَكن أُفوّت فرصةً للتحدّث عن كلّ ذلك. وذات مساءٍ، جاءتني إِلى مديوغورية سيّدةٌ كانت قد استمعت إِلى محاضرةٍ لي، في مدينة تولوز، قبل أَشهرٍ ثلاثةٍ. وكان جميع الحجّاج الذين رافقوها في الحافلة قد اطّلعوا على معجزتها التي لم تلبث أَن روتها لي:

«أَنا في الستّين من العمر. وكنت، منذ عشر سنواتٍ، قد أَصبحت مدمنةً على الكحول، وسبّب لي ذلك مشاكل صحّيّةً خطيرةً. وأَخذت أُسرتي تتفتّت، ولا سيّما أَولادي الذين جعلتُ حياتهم لا تطاق. لم يكن لي في الأَمر حيلةٌ، مع أَنّي خضعت لعلاجاتٍ متعاقبةٍ، وقامت جماعة صلاةٍ بالصلاة من أَجلي، فوق رأسي، مرارًا عديدةً، بلا طائلٍ. فقد ظلّ النبيذ الأَبيض، نبيذًا أَبيض.

ولمّا تنامى إِليّ كيف شفتك العذراء، خطرت لي فكرةٌ. أَتذكرين كيف صلّينا معًا، بضع دقائق، في أَثناء محاضرتك؟ لقد تخشّعنا، لحظة الظهور، في الساعة السابعة إِلاّ ثلثًا، مساءً، وقلت، في ذاتي: «هذه هي اللحظة المناسبة، حيث يسعكِ، ولو لمرّةٍ واحدةٍ، تقديم هديّةٍ لمريم.» ووعدتها، حينذاك أَلاّ أَشرب قطرة كحولٍ خلال الأَربع وعشرين ساعةً القادمة. كنت أَعرف عجزي عن التزام وعدي. ولكنّكِ، أَنت، قلتِ لنا إِنّ العذراء ستساعدنا على الوفاء لوعدنا. وقد تحقّق ذلك فعلاً، مع أَنّ الأَمر كان في غاية القسوة. فقد كنت أَتخيّل، بلا

انقطاعٍ، كؤوس نبيذٍ أَبيض تخطر أَمام نظري، وقد اضطررت إِلى الجهاد المرير، بسبب وعدي. وفي اليوم التالي، كنت سعيدةً جدًّا بأَن أُقدّم للعذراء هديّتي هذه. فعقب الظهور، فورًا، كان عليّ زيارة أَصدقاء، قدّموا لي، بالطبع، كأسًا من النبيذ الأَبيض. ولكن ما إِن ارتشفت منه الجرعة الأولى، حتّى جهدتُ في الامتناع عن بصقها: فقد بتّ أَشمئزّ من النبيذ! ومنذئذٍ أَقلعت عن الشراب، ولم يعد ذلك يكلّفني أَيّ جهد.

«والرائع في الأَمر أَنّ السيّدة العذراء القدّيسة قد باشرت، عقب ذلك، سلسلة ارتداداتٍ في أُسرتي».

(جانين)

إِنّ ما أَخفقت في تحقيقه حملات الانعتاق من الإِدمان، ومحاولات المعالجين النفسيّين، على امتداد عشر سنواتٍ، حقّقته السيّدة العذراء في **٢٤** ساعة. ومن الذي اختارته رسولاً لابنها إِلى تلك الأُسرة؟ تلك التي كانت قد أَلحقت بها أَفدح الأَضرار!

جريدة البراڤدا تغلّف الحقيقة

فاطيما! للمرَّة الأولى، والوحيدة، ذكرت «الغوسپا»، في إِحدى رسائلها، مكان ظهورٍ آخر، بعد أَن كان يوحنّا بولس الثاني أَحبّ بنيها على قلبها قد ذكره لسبع سنواتٍ خلت. ولنعد سبع سنواتٍ إِلى الوراء.

إِنّه يوم ٢٠ آذار ١٩٨٤، والأُسقف «بافول هينيليكا»، صديق «كارول ڤويتسوا» (البابا يوحنّا بولس الثاني) القديم، يتحدّث، في الهند، مع الأُمّ تيريزا عن مشروع الأَب الأَقدس المتعلّق بإِعلان تكريس روسيّا والعالم لقلب مريم المنزّه من الدنس، تنفيذًا لطلب سيّدة فاطيما. كان على ذلك الإِعلان أَن يتمّ بتاريخ ٢٥ آذار، أَي بعد خمسة أَيّامٍ. وقد باح الأُسقف هينيليكا للأُمّ تيريزا: «لكم يشقّ عليّ أَلاّ أَكون في موسكو، يوم ٢٥ آذار! لن يكون هناك أَيٌّ منّا، للمشاركة في تكريس روسيّا!».

وعقد الأُسقف العزم على فعل كلّ ممكنٍ كي يكون في موسكو بحلول اليوم المحدّد. وقالت له الأُمّ تيريزا، باندفاعها المعهود:

– أَجل، امضِ. وها إِنّي أَهبك مسبحتي! وسأُرافقك بصلاتي.

– وماذا عن الحدود؟ سيكون اجتيازها شبه مستحيلٍ!

– العذراء هي التي ستفتح لك أَبواب روسيّا.

حصول الأُسقف على تأشيرة دخول إِلى روسيّا كان شبه معجزةٍ. فمضى متسلّحًا بإِيمان الأُمّ تيريزا، وبمسبحتها.

غير أَنّ موظّف الجمارك الروسيّة أَثبت أَنّه ستارٌ حديديٌّ حقٌّ. وكان لا بدّ من

توقّع ذلك. كان الأَب «ليو» يرافق الأُسقف، وأَنذرهما الموظّف: «لن تمرّا»، وأطلق، باللغة الروسيّة، أَقذع الشتائم التي ينطوي عليها القاموس الشيوعيّ. ولكنّ الزائريْن صمدا، وأَصرّا على الدخول، وانتظرا. وتدنّت الحرارة عن خمس عشرة درجةً تحت الصفر، فيما كان المسافران لا يملاّن يتلوان مسبحةً تلو أُخرى، فيما لم يكفّ الموظّف عن محاولة الاتّصال برئيسه، كلّ ساعةٍ. ولكنّ جهاز الهاتف كان معطّلاً. وعند الفجر، صاح الموظّف بالمسافريْن، وقد امتقع وجهه: «اغربا عن وجهي! لا أُريد أن أَراكما بعد!».

لقد فتحت الغوسپا أَبواب روسيّا، بأُسلوبها الخاصّ.

في ٢٤ آذار وصل الأُسقف إلى الكرملين، وقصد الكنيسة التي حُوِّلت عن هدفها، وأَطلق عليها النظام الشيوعيّ، تهكّمًا، اسم «متحف الإِلحاد»، والتي ما انفكّ الشعب يؤمّها، خلسةً، بغية تكريم الإِيقونات، بحجّة تأمّل تحفٍ فنّيّةٍ.

كان قلبه يخفق بعنفٍ، حتّى يكاد يتفجّر. فالحدث كان له، وهو النزيل السابق في السجون الشيوعيّة، بمثابة معجزةٍ.

ابتاع جريدة «البراڤدا»، ودسّ، داخلها، نصّ البابا يوحنّا بولس الثاني الخاصّ بتكريس العالم، واتّخذ لنفسه مجلسًا خلف هيكلٍ قديم.

(يوم سيم «بافول هينيليكا» أُسقفًا، خلسةً، كُلّف بالاهتمام بالدول الخاضعة للسيطرة الشيوعيّة، وقال له الأُسقف الذي سامه: «إِنّ حقل رسالتك يمتدّ من برلين إِلى بكّين، مرورًا بموسكو». وها هو، بعد ثلاثين سنةً، يطأ الأَرض الروسيّة للمرَّة الأولى).

كاد التأثّر يحطّم فؤاده الرعويّ. ولكن حذارِ من العيون المتربّصة.... بغية تحويل الانتباه، تظاهر باستقراء البراڤدا، في حين كان يوجّه إِلى أُمّ الله صلاة التكريس السامية.

ولا ريب أَنّ الزائرين الذين كانوا يراقبون اهتمامه بتصفّح البراڤدا كانوا يقولون، في داخلهم: «يا له من شيوعيٍّ صالح!».

احتفل بالذبيحة، ويداه في جيوبه، وفق طقسٍ تعلّمه في السجن، ثمّ رحل على مهلٍ. ويا لفرحه! فقد تسنّى له أَن يحيا هذا التكريس مشاركًا كلّ أَساقفة العالم، تنفيذًا لطلب سيّدة فاطيما!

وها إِنّ صفحةً نهائيّةً تطوى في تاريخ الشيوعيّة!

وعاد إِلى روما حيث دعاه البابا يوحنّا بولس الثاني إِلى تناول إفطارٍ معه امتدّ ثلاث ساعاتٍ. روى الأُسقف كلّ ما حدث له، وكيف تمكّن من الحضور في الكرملين ساعة كان الحبر الأَعظم يكرّس روسيّا والعالم لقلب مريم. وبلغ التأثّر من خليفة بطرس أَشدّه، فهتف:

- لقد اقتادتك العذراء من يدك!

- كلاّ، يا صاحب القداسة، بل هي حملتني بين ذراعيها!

ثمّ سأله الحبر الأَعظم:

- وهل عرَّجت على مديوغورية؟

- كلاّ، يا صاحب القداسة، فالدوائر الفاتيكانيّة حذّرتني من ذلك!

وأومأ البابا، بيده، معبّرًا عن استنكاره لموقف الفاتيكان هذا، وقال:

- اذهب، إِذن، إِلى هناك، متنكّرًا، وستخبرني بانطباعاتك.

ثمّ رافقه إِلى مكتبه حيث تناول كتابًا من وضع الأَب لورنتان، وقرأ فيه بعض رسائل العذراء، وأَعلن:

- أَترى، يا بافول؟ إِنّ مديوغورية هي تتمّةٌ لفاطيما، وتحقيقٌ لها.

(وبعد بضع سنواتٍ قال له: «اليوم، يسترجع العالم، في مديوغورية، معنًى فائق الطبيعة الذي كان فقده، عبر الصلاة والصوم، والاعتراف.....».

ومنذئذٍ غدا الأُسقف هينيليكا مدافعًا شديدًا عن مديوغورية، واعتاد البابا أَن يستوضح منه باطّرادٍ عن أَخبارها.)

وفي **٢٥** آذار **١٩٩٤** قدم الأُسقف هينيليكا إِلى مديوغورية للاحتفال بالذكرى العاشرة للتكريس المذكور.

يبدو أَنّ يوحنّا بولس الثاني قد تلقّى أَنوارًا سماويّة بشأن مديوغورية. وقد أَسرّ للأُسقف هينيليكا أَنّ سيّدة فاطيما هي التي أَنقذته من محاولة اغتياله بتاريخ **١٣/٥/١٩٨١**، ثمّ ظهرت، بعد أَربعين يومًا، في مديوغورية، كأَنّها ابتغت أَن تعدّ لهذا الحدث الجلل بصومٍ دمويٍّ. وقد أَدلى لصديقه بهذا البوح المذهل:

– «علام أَنقذتني السيّدة العذراء؟ بعد ثلاثة أَشهرٍ تأَرجحتُ أَثناءها بين الحياة والموت، أَدركتُ أَنّ الوسيلة الوحيدة لحلّ قضايا العالم والكنيسة هي ارتداد روسيّا، وفقًا لرسالة فاطيما. الحلّ الأَوحد هو عيش رسالة فاطيما وتحقيقها».

إِن أَفضت مديوغورية إِلى تحقيق فاطيما... حينئذٍ رجاؤنا عظيمٌ.

إِنّنا نعلم أَنّ البابا يبني كلّ آماله على الجماعات المريميّة، ولا سيّما جماعات مديوغورية التي يجد لديها وفاءً جمًّا للكنيسة، وللصلاة، وللصوم، وللأَسرار المقدّسة.

وهل يسعنا إِغفال سعادة الأُخت لوسيّا نفسها التي ما انفكّت ترى العذراء منذ ١٩١٧، وهي تحدّثها، في هذه الأَيّام، عمّا تفعله في مديوغورية؟

جميعكم ستشعرون بحبّي

بين أَدلاَّء الحجّاج المحلّيّين الناطقين باللغة الإِنكليزيّة، «فيليپ» هو أَخٌ ثمينٌ. إِنّه فتيٌّ، ودودٌ، مرحٌ، ويمتلك فنّ إِدخال الحجّاج إِلى أَعماق قلب مريم.

لا يهمّه النجاح في مهنته، بل إِنّه يمارس عمله، وكأنّه دعوةٌ مقدّسةٌ، ويجهد في الصلاة من أَجل من يهتمّ بهم، بقدر ما يجهد في إِرشادهم إِلى أَماكن الحجّ.

وذات يومٍ، كان دليل «الغوسپا» الصغير هذا، يجتاز شارع «الشانزليزيه» (هكذا يسمّون، في مديوغورية، الشارع الذي تتجاور فيه وكالات السفر، والحوانيت والمطاعم)، فالتقى ثنائيَّين أَميركيَّيْن متحلّقيْن حول طاولة بارٍ، متجهّميْن. وخُيّل إِليه أَنّهم حجّاجٌ قدامى فحيّاهم من خلال النافذة الزجاجية، ودخل، فبثّت حرارة الجوّ المحيط شيئًا من النشاط في أَوصاله، فقد كان الطقس في الخارج رديئًا، يسوده البرد المشوب بمطرٍ يخترق العظام.... وسأل:

– أَلا تتعرّفوني؟ أَلم تكونوا بين جماعةٍ عملتُ لها دليلاً، منذ سنواتٍ؟

– كلاّ. بل نحن هنا للمرَّة الأولى، ومجرّد عابري سبيل لمدّة ساعةٍ، أَو ساعتين، فنحن نقضي عطلتنا على الشاطئ.

– حسنٌ. وهل تسنّى لكم أَن تشاهدوا شيئًا هنا؟

وأَجابه أَحد الزوجين، وهو أَشدّ الأَربعة تجهّمًا، بمرارةٍ، وبشيءٍ من السخرية:

– كلاّ! لم نرَ شيئًا!

وأَضافت زوجته، في ضيقٍ:

– مجرّد عبورٍ في الكنيسة.

في الواقع كان الرجلان قد قدما مكرَهيْن، كي يواكبا زوجتيهما اللّتين سمعتا أَحاديث عن مديوغورية في أَميركا، ورغبتا في زيارتها زيارةً خاطفةً. واستشفّ فيليپ أَنّ قضيّةً كبرى تكمن وراء ذلك، وشقّ عليه أَن يدعهم يرحلوا قبل أَن يتذوّقوا طعم نعمة ذلك المكان الفائقة.

ثمّ استأنف الزوج قائلاً:

– سنرحل في الحال. ولكن، أَنت، كيف تقوى على الاندماج هنا؟

وصلّى فيليپ، في قلبه: «أَيّتها الغوسپا، افعلي شيئًا وسريعًا!»، ثمّ قال للزائرين:

– إِن شئتم، أَستطيع أَن أَمضي بكم لمقابلة إِحدى الرائيتين: ماريّا أَو ڤيتسكا. وقد تطّلعون على جوهر ما يجري هنا مع العذراء القدّيسة. ومن المؤكّد أَنّهما ستصلّيان من أَجلكم، قليلاً.

وهتفت الزوجتان بلطفٍ: «رائعٌ!»، فيما غمغم الزوجان، معبّرين عن ضيقهما.

وكُتب النصر للمرأتين، فاستدعيت سيّارتا تكسي، انطلقتا بهم إِلى «بياكوڤتشي»، قرية الرؤاة. واغتنم فيليپ سانحة المشوار كي يطلع مرافقيه على الجوانب الأَساسيّة من أَحداث مديوغورية التي كانوا يجهلون عنها كلّ شيءٍ. ولكن سرعان ما حدّ اندفاعه سؤال أَحد الرجلين:

– أَرى أَنّك تضع مشدًّا لظهرك، فهل تعاني مشاكل فيه!

– أَجل، فقد تعرَّضت لحادث سيرٍ خطيرٍ، سحق جزءًا كبيرًا من عمودي الفقريّ، وأُجريت لي عمليّةٌ جراحيّةٌ منذ سنةٍ. إِنّها لمعجزةٌ أَنّني استطعت استئناف السير من جديدٍ.

لم تكن الرائية ماريّا موجودةً في بيتها. وڤيتسكا، أَيضًا، لم تكن في بيتها.

حينئذٍ اقترح فيليپ أن يصعدوا إِلى مقام «الصليب الأَزرق» حيث طالما ظهرت السيّدة العذراء.

وتحوّل المطر إِلى طوفانٍ، وأَضحت الدروب المنحدرة نحو وادي «بود برودو» أَشبه بالسواقي. وغدا كلّ شيءٍ يدعو إِلى الفرار. ووصل أَصحابنا إِلى «الصليب الأَزرق» وقد تبلّلوا، حتّى العظام، بالمطر الصقيعيّ. وتلا فيليپ على مسامعهم إِحدى رسائل العذراء، واقترح تلاوة بيتٍ من المسبحة، قبل الانصراف، مبيّنًا:

– ليس وجودكم هنا، الآن، وليد الصدفة. إِنّ هذا المكان مميّزٌ جدًّا.

عقب تلاوتهم الصلاة القصيرة، اقترح فيليپ أَن يتريّثوا لحظاتٍ، فيما هو ينتظرهم داخل إِحدى السيّارتين. فقد كان يعلم أَنّ الحجّاج يحبّون التعبير عن نواياهم الخاصّة، في جوٍّ حميمٍ، ويرغبون في التخشّع وحيدين، في أَماكن ظهور أُمّ الله.

انحدر فيليپ، بمفرده، إِلى السيّارة، وهناك انتظر، وانتظر، وكرّت عشرون دقيقةً طويلةً. وبدا له الأَمر مستغرَبًا من قِبَل أَشخاصٍ لم يكن يحدوهم أَيّ حماسٍ دينيٍّ، وفي ذلك الجوّ الماطر بلا انقطاعٍ. وأَخيرًا عادت الزوجتان، واستقرّتا في سيّارة التكسي، دامعتي العينين. وما لبث زوجاهما أَن لحقا بهما، وكان أَكثرهما تجهّمًا، دامع العينين، هو أَيضًا. لم يتفوّه أَحدٌ بكلمةٍ داخل التكسي. بل وحدها المناديل كانت ناشطةً. وأَدرك فيليپ أَنّ أَمرًا خطيرًا قد حدث، وطفر قلبه رجاءً لأولئك القوم المثقلين بالتعاسة.

أَمام الفندق ترجّلوا جميعهم. وإِذ كان فيليپ يودّعهم، استلّ أَحد الزوجين من جيبه رزمةً صفيقةً من الدولارات، وقال له:

– خذها، إِنّها لك، لا تردّها.

ولكنّ فيليپ رفض الهديّة، وانصرف خاوي الجيوب. ولكنّ قلبه كان يطفح صلاةً ورجاءً، وهو يجيل في خاطره: في غضون دقائق، سيرحل هؤلاء

الأَميركيّون الأَربعة صوب الشاطئ، ولكن ستكون مديوغورية قد خلّفت في نفوسهم أَثرًا. فشكرًا أَيّتها الغوسپا الحبيبة!

ولكم دهش، مساءً، عندما شاهدهم في فناء الكنيسة! لقد آثروا المكوث، وغمره فرحٌ جمٌّ. ولكنّ الخَفَر أَمسكه عن الاقتراب منهم، وعن استيضاحهم عمّا خبروا وعاشوا.

وبعد ثلاثة أَيّامٍ، كان فيليپ في مطار سبليت يهتمّ بشؤون فريقٍ من الحجّاج المغادرين، وإِذ به يلتقي، ثانيةً، الأَميركيّين الأَربعة وهم يهمّون بالعودة إِلى ديارهم. واغتنم الأَميركيّ «المتجهّم» فترة الانتظار الطويل الذي كان عليهم احتماله، فأَسفر لفيليپ عن مكنونات قلبه. استدعى زوجته، وكلاهما معًا استفاضا في التعبير عن شكرهما لفيليپ. وباح الرجل:

– إِنّ ما حدث لنا هو من الخطورة بحيث لا يسوغ أَلاّ أُطلعك عليه. فمنذ سنةٍ بالتحديد، قُتِل ابننا البكر، من جرّاء حادث سيرٍ. كان في الثامنة والعشرين. عموده الفقريّ تحطّم عند مستوى الرقبة، فقضى نحبه في الحال. وبمناسبة اقتراب الذكرى السنويّة لهذه الفاجعة، قرّرنا أَنا وزوجتي أَن ننأى عن المنزل، بعيدًا جدًّا، لعلّنا نُمضي هذه المناسبة الحزينة في جوٍّ غريبٍ تمامًا. وها قد وجدنا أَنفسنا في مديوغورية. لا ريب أَنّك تذكر الطقس المريع الذي كان سائدًا حينذاك. وفي مثل هذا الطقس حريٌّ بالمرء أَن يلزم بيته، ويجترّ همومه! ولمّا جئت، أَنت، تحيّينا، دهشنا لمدى شبهك بابننا. فكم من وجوه تشابهٍ بينكما: العمر نفسه، والوجه عينه، فضلاً عن دعم ظهرك بمشدٍّ. كم من الذكريات الأَليمة طافت بنا لدى مشاهدتك!...

وأَضافت زوجته:

– لا بدّ لي من أَن أُخبرك، يا فيليپ، أَنّ زوجي هجر الكنيسة، وتخلّى عن كلّ ممارسةٍ دينيّةٍ، عقب حادث ابننا. فلا إِيمان، بعدُ، ولا الله...! وقد حظر مجرّد التحدّث عن ابننا داخل البيت. حتّى اسمه بات من الممنوع التلفّظ به.

وقد أَخفى زوجي كلّ ما له بالراحل صلةٌ، لكيلا يبقى أَيّ شيءٍ يذكّر به. كان حريصًا على محو كلّ أَثرٍ له، وكأنّه لم يوجد قطّ.

واستعاد الزوج القول:

– تعلم، يا فيليب، أَنّني لست رجل صلاةٍ. ولكن، عند الصليب الأَزرق، فيما كنتَ، أَنت، تصلّي، على بعد أَمتارٍ منّي، اعتراني شعورٌ بأَنّ هناك من يقف خلفي، ويربّت على كتفي. استدرت، دهشًا، ولكنّني لم أَلمح أَحدًا، وعزوت شعوري هذا إِلى المطر. ومرَّةً ثانيةً، أَحسست بيدين تستقرّان على كتفي، ولكن، في هذه النوبة اعتراني، في الحال شعورٌ عارمٌ وعذبٌ بحرارةٍ تجتاحني، رغم القرّ الشديد الذي كان سائدًا، كما تذكر... حرارةٍ لا سبيل إِلى تفسيرها. غير أَنّ ما خضّ كياني هو ذلك السلام الذي تدفّق إِلى داخلي. سلامٌ لم أَعهد له، قطّ، مثيلاً، طيلة حياتي، ويتعذّر عليّ وصفه. حينئذٍ أَخذت أَبكي، وأَيّ بكاءٍ!... وما لبثت زوجتي أَن شاركتني البكاء. كنّا ندرك، معًا، بوضوحٍ، سبب بكائنا.

إِثر فترة الصلاة هذه، قرّرنا تمديد إِقامتنا هنا يومًا آخر. وقد أَنفقنا تلك الليلة بكاملها تقريبًا، ونحن نتجاذب الأَحاديث عن ابننا. لقد أُطيح بكلّ المحرّمات، وحُطّمت الأَقفال كلّها. تكلّمنا عن الله، وعن الدين، وعن مديوغورية... ولم يكن بوسعنا الإِمساك عن الكلام. تصوّر، كانت تلك هي المرَّة الأولى، منذ سنةٍ بالضبط، التي تمكّنّا، فيها، من استحضار ذكرى ابننا، معًا.

ولدى عودتنا إِلى الشاطئ الذي لم يعُدْ يثير لدينا أَيّ اهتمامٍ، اكتشفنا كنيسةً صغيرةً حيث استطعنا حضور القدّاس. فقد كنّا راغبين في ترسيخ النعمة التي أُعطيناها في مديوغورية، قبل عودتنا إِلى ديارنا.

كاد فيليب أَلاّ يصدّق ما كان يسمع. غير أَنّ وجهيْ محدّثيه كانا أَشدّ إِفصاحًا من أَقوالهما عن مكنونات قلبيهما. ولمّا ودّعهما فيليب راح يطير على الطريق فرحًا، يطير حقًّا.

هل انتهت القصّة عند ذلك؟ كلاّ. فبعد مضيّ نحو ثمانية عشر شهرًا، استقبل الزوجان فيليپ في منزلهما الأميركيّ، وهناك أُحيط علمًا بطائفةٍ من التفاصيل عن نعمة مديوغورية المذهلة التي أَنقذت أُسرتهما من التفكّك، واكتشف، من خلال بوح الزوجة، أنّ اضطراباتٍ حادّةً كانت تعصف بزوجها قبل زيارة مديوغورية. فقد أَسرّت له أَنّ سورات غضبٍ مريعةً كانت تعتريه، وتفضي إِلى مشاهد ومواقف مخيفةٍ... بحيث إنّ الأَولاد الباقين تنكّروا لوالدهم، وثاروا عليه. وقالت المرأة:

– لا يسعني إِخبارك بالآلام التي عانيناها، حتّى بات زواجنا على شفا الانهيار. والأَنكى أَنّه كان متوقّعًا لزوجي أَن يقيم في مشفى أَمراضٍ نفسيّةٍ، فور عودتنا من رحلتنا، وكان الطبيب متشائمًا حول النتائج.

اتّضح، إِذن، أَنّ «الأَيدي» التي حطّت على كتفي الزوج قد لامست، أَيضًا، قلبه، ونفسه، وروحه، واجتثّت منه جذور القنوط. وانتفت الحاجة إِلى أَيّ علاجٍ نفسيٍّ. فإِثر ما حدث عند الصليب الأَزرق تغيّر نهج حياته. لقد تصالح مع الكنيسة، واستعاد المثابرة على حضور القدّاس. واسترجع الأَولاد أَباهم، مثلما كان سابقًا، بل أَفضل حالاً. واكتشف فيليپ رجلاً قد تحوّل تحوّلاً كاملاً، رجلاً منفتحًا، ودودًا، مرحًا، يتحدّث، بسكونٍ، عن ابنه الراحل، وعن الحادث الذي قضى عليه، وعن الإِيمان بالله. كان قد باع مشروعه التجاريّ، ووقف حياته على العناية بأُسرته، قريبًا من زوجته، معمّقًا، يومًا فيومًا، اكتشاف إِيمانه. وها إِنّ ابنه الأَصغر يُعدّ الآن رحلةً جديدةً إِلى مديوغورية، تضمّ الأُسرة كلّها.

وقد استخلص فيليپ:

– كانت «الغوسپا» تعلم أَنّها لا تملك سوى عشرين دقيقةً كي تمسّ قلبه. وقد فعلت ذلك بأُسلوبٍ جمع إِلى الرهافة الفائقة، قدرةً فائقةً. كان عليها أَن تفي بوعدها، فهي كانت قد قالت، في مديوغورية:

«جميعكم ستشعرون بحبّي».

بروتستانتيّ يرى العذراء

لا بدّ من الاعتراف بأَنّ «بارّي» متصلّبٌ عتيٌّ. أَمّا زوجته «پاتريسيا» فهي كنز رقّةٍ، وإِنّ إِشعاعها النفّاذ يوحي بأَنّها تصلّي بلا انقطاعٍ.

غالبًا ما كانت تقدم من مسقط رأسها البريطانيّ إِلى مديوغورية كي تتزوّد بالطاقة، وكي توكل إِلى «الغوسپا» زوجها البروتستانتيّ المتشدّد، متمنّيةً له أن يحظى، يومًا، باكتشاف فرح السير مع اللّه الحيّ.

فمع أَنّ «بارّي» كان قد نال عمادًا بروتستانتيًّا، إِلاّ أَنّه لم يكن يؤمن باللّه. لا بل إِنّه كان يتباهى بالاستغناء عنه. غير أَنّ ذكرى قديمةً كانت تقبع في غور قلبه. ففي صباه، كان قد وجّه، ذات مرّةٍ، صلاةً للّه، إِذ كان يعاني أَلَمًا شديدًا، والتمس: «يا ربّ، هبني زوجةً صالحةً!»، وكان، آنذاك، يقود سيّارةً، واضطرّته مشكلةٌ ميكانيكيّةٌ، إِلى التوقّف بقرب بيتٍ كان يجهل أَصحابه، خرجت منه فتاةٌ، كان وقعها عليه من الشدّة بحيث تزوّجها بعد ثلاثة أَشهر. وذهل عن شكر اللّه المجهول الذي منّ عليه سريعًا بزواجٍ وفّر له سعادةً غامرةً، زواجٍ لم يكن يعيبه سوى كون الزوجة «پاتريسيا» كاثوليكيّةً. وقد بذل كلّ جهدٍ ممكنٍ كي يدمّر إِيمانها. ولكنّه سرعان ما تيقّن أَنّه كان يسير فوق أَرضٍ خطرةٍ.

ولكن، عندما شارفت «پاتريسيا» الأَربعين من سنّها، هدّها شعورٌ مرهقٌ بعزلةٍ روحيّةٍ شديدة القسوة، بين أَحضان إنكلترا مادّيّةٍ فاترةٍ، مفتقرةٍ إِلى الحيويّة. وحينئذٍ كانت مديوغورية هي التي أَنقذتها من التيه، ووفّرت لها ما لم تكن تجرؤ على الحلم به، وهو الاستحمام في قلب اللّه، في مكانٍ تتّصل فيه السماء بالأَرض، كلّ يومٍ.

يقول «بارّي»: «كلّما تحادثنا كنت أزداد إعجابًا بثقتها المدهشة في العناية الإلهيّة. كانت تعلم أنّ جميع من يمتّون إليها بصلة قربى، سيرتدّون إلى الله في الساعة التي يحدّدها الله».

في تلك الفترة نشبت حرب البوسنا والهرسك. ومساء الأوّل من كانون الثاني **١٩٩٣** كان بارّي وپاتريسيا يشاهدان التلفزيون، فسمعا نداءً أطلقته جماعة «نداء مديوغورية» مستدعيًا ثلاثين سائقًا من أجل إحضار أطنان البضائع إلى البوسنا. ومع أنّ بارّي كان يجهل معرفة پاتريسيا ل «برنار إلّيس» اليهوديّ الذي كان قد ارتدّ في مديوغورية، وأضحى العنصر الأساسيّ في جماعة «نداء مديوغورية»، جذبه النداء، فأعلن لزوجته عن رغبته الشديدة في المساهمة بتلك المغامرة، ولا سيّما أنّه كان يحمل رخصة سوق شاحنات. وذهلت پاتريسيا بما سمعت. وكان منظّم الحملة قد خطّط أن تقصد فئةٌ من الشاحنات مديوغورية، والفئة الأُخرى زغرب.

بعد أُسبوعين وصل بروتستانتيّنا إلى مديوغورية، وراء مقود شاحنته، ترافقه پاتريسيا. همّه الأوحد كان غوث اللاجئين. منذ الليلة الأولى، انصرف إلى تقديم الخدمات التي طُلبت منه. وعندما وافى، صباحًا، إلى غرفة الضيافة، عند أقدام جبل «كريزيڤاك» لم يجد فيها زوجته پاتريسيا. فخرج إلى الشرفة، وهناك لمح الكنيسة المغروسة في الوادي، وعلقت أبصاره ببرجي الكنيسة السامقيْن صوب السماء. وعلى نحوٍ غير متوقّعٍ، شدّه جاذبٌ لا يُقاوَم صوب تلك الكنيسة، واستولت عليه فكرةٌ: «ينبغي أن أدخل إلى هذه الكنيسة، وأن أتلو فيها صلاةً». لم يعدْ «بارّي» يعرف نفسه: أيتلو صلاةً، وهو الملحد الذي طالما آمن أنّ لا وجود لله، وأنّ مصير الجميع، بعد الموت، هو ثقبٌ أسود! من المؤكّد أنّ عقله قد أُصيب بخلَل. ولكنّ الأمر أقوى منه، وها هو يسير بخطىً واثقةٍ نحو الكنيسة. واستوقفه سؤالٌ عمليٌّ: أيّة صلاةٍ سيتمكّن من تلاوتها؟ إنّه لا يعرف سوى اثنتين: «أبانا»، التي كان قد تلقّنها في المدرسة، و«السلام عليك يا مريم»، التي انتهى بحفظها غيبًا، لكثرة ما سمع زوجته تلقّنها للأولاد. فأيّتهما يختار؟

وصل إِلى الكنيسة في موعد تنظيفها، واستقرّ، خلسةً، على المقعد الأَخير، وقرّر تلاوة الصلاتين معًا، ولبث خمس دقائق صامتًا، ثمّ خطر له أَن ينظّف شاحنته. وهناك التقاه راهبٌ فرنسيسكانيٌّ، وأَعطاه مسبحته. بعدئذٍ، عاد إِلى غرفته، ولم تكن پاتريسيا قد عادت إِليها، بعدُ، فاعتزم أَن يصيب قسطًا من الراحة. ولكنّ الضوء كان ساطعًا، فأَسبل الغطاء فوق رأسه. بيد أَنّ نورًا زرقاويًّا بهره، فظنّ أَنّه لم يُحكم وضع الغطاء، وغيّر وضعه. غير أَنّ النور الأَزرق ازداد كثافةً، وغمر الغرفة كلّها. فاستهجن «بارّي» الأَمر. وحينئذٍ برزت، وسط الضوء الأَزرق، بقعةٌ بيضاء أَشدّ لمعانًا، ودنت منه بتؤدّةٍ، وكبرت، واتّضحت معالمها. ما الذي كان يحدث؟

روى «بارّي»، لاحقًا: «بقعة النور البيضاء اكتسبت وضوحًا تامًّا. وتبيّن أَنّها مريم، أُمّ اللّه. كنت أَراها، وكنت أُدرك أَنّها هي. وتحوّل النور الأَزرق إِلى أَشعّةٍ كانت تنبعث منها: كم هي كانت جميلةً!

«لم أُصَبْ بالذعر، بل كنت أُحدّق إِليها مأخوذًا. كنت أَعلم من هي تلك الواقفة إِزائي، التي رفعت يدها وأَومأت لي بتحيّةٍ، ولم تتفوّه بلفظةٍ، ثمّ مضت. فجلستُ كي أَتفقّد الغرفة. كان شذا الورد يطوف في الجوّ، وكان سلامٌ يصعب تخيّله يغمر كياني كلّه، ويشيع في جسدي نفسه. ولم يكن بوسعي سوى التساؤل: «لمَ أَنا؟ لمَ أَنا! ما الذي فعلتُه كي أَستحقّ هذه الميزة، أَنا الإِنسان الفظّ، البدائيّ، غير المهذّب؟ وكرّت، في ذهني، كلّ أَفعال حياتي السيّئة... ومع ذلك ظهرت العذراء لإِنسانٍ مثلي!.

ما لبثتْ «پاتريسيا» أَن عادت إِلى الغرفة، فرويتُ لها كلّ شيءٍ. فاستطارها الفرح إِلى السماء السابعة. رغبت أَن تحوّلني إِلى كاثوليكيٍّ، في غضون أَربعٍ وعشرين ساعةً، ونزولاً عند رغبتها حضرنا القدّاس معًا، وفي الكنيسة لم أَكفّ عن التساؤل: «لمَ أَنا؟». ولمّا حان وقت المناولة، عرضت پاتريسيا أَن أُرافقها، كي أَنال بركة الكاهن. كان عليّ أَن أَشبك يديّ فوق صدري، إِشعارًا بعدم أَهليّتي للمناولة. ومع ذلك، دسّ الكاهن القربانة في فمي، وتلقّيت جسد

المسيح. كنت من الاضطراب بحيث لم أَستطع حبس دموعي. وشوهد ذلك المتشدّد العتيّ يبكي بكاء طفلٍ!

يا له من نهارٍ! في طريق العودة التقيت حاجًّا قال لي: «أَنا كاثوليكيٌّ منذ ولدت، وغالبًا ما أَقدم إِلى هنا، ولكنّني لم أَرَ، يومًا، شيئًا، ولم أَسمع شيئًا!». أَمّا أَنا الذي أَتى للمرَّة الأولى، والذي لم يطأ كنيسةً، قطّ، فقد تسنّى لي، في يومٍ واحدٍ، أَن أَلج كنيسةً، وأَن أَتلو صلاةً، وأَن أُهدى مسبحةً، وأَن أَرى السيّدة العذراء القدّوسة، وأَن أَتلقّى جسد ابنها يسوع!

لدى عودتنا إِلى إِنكلترا، قرّرتُ مرافقة پاتريسيا كلّما قصدت حضور الذبيحة الإِلهيّة. وشيئًا فشيًا، اكتشفت الصلاة، الصلاة الحقّة. وواصلت القيام بإِيصال المعونات الإِنسانيّة. بل إِنّنا في إِحدى الرحلات، أَقللنا الرائي «إِيڤان» من لندن إِلى مديوغورية. وفي موعد ساعة الظهور، كنّا نجثو داخل الشاحنة... في داخلي كانت تعتمل رغبةٌ مضطرمةٌ في رؤية العذراء القدّوسة، ثانيةً.

لاحقًا، عرض عليّ بيرنار أَن أَقود حافلة حجّاج، فاستبدلت الموادّ الغذائيّة بشحنةٍ من الإِخوة والأَخوات. وفي أَثناء الطريق، توقّفنا في فندقٍ، قريبًا من سلوفينيا. وانقطع التيّار الكهربائيّ، فصعدت إِلى غرفتي كي آتي بمصباحٍ، وفيما كنت أَنزل، عائدًا إِلى الصالة، استحوذ عليّ دافعٌ إِلى إِنشاد نشيدٍ لمريم. وطفق الفريق كلّه يشاركني. ثمّ، شيئًا فشيئًا، انطلق في صلاةٍ عفويّةٍ. وملأَ نشيد التسبيح أَرجاء الفندق. وحينئذٍ رأَت عيناي مريم العذراء ثانيةً، مثلما كنت قد رأيتها في مديوغورية، وقد أَحاقت بها هالة نورٍ. أَنا وحدي رأيتها. وأَدركت إِذّاك، أَنّني لم أَفعل شيئًا لله، مع كلّ ما تلقّيت من نعمٍ. إِنّ العذراء مريم، عندما تبتغي شيئًا (أَو أَحدًا) فهي لا تتوانى، بل تعمل دائبةً. شعرت أَنّها تدعوني إِلى التقرّب منها، ومن ابنها يسوع. وكان لا مفرّ لي من الالتزام تجاهها. فوطّنت العزم على الانضواء إِلى الكنيسة الكاثوليكيّة. وعثرت لي «پاتريسيا» على مُواكِبٍ رائعٍ.

سحابة أَشهرٍ واصلت رحلات حجّي إِلى مديوغورية، بصفة سائقٍ. وكانت

باتريسيا تساعدني. كانت تسكنني رغبةٌ دفينةٌ بأن يتمكّن بعض «ركّابي» من تذوّق سعادة مشاهدة العذراء. وسرعان ما تحقّقت رغبتي هذه. فقد رآها أَربعةٌ منهم على تلّة «برودو».

انضممتُ إِلى الكنيسة بمناسبة عيد الفصح، عام **١٩٩٥**. ومنذ ذلك الحين دعانا الربّ، باتريسيا وأَنا، إِلى العمل من أَجله في رعيّتنا وأَبرشيّتنا، حيث يوجد معبد «ولسنغهام».

وسعت العذراء مريم إِلى إِعادة جميع أَقربائنا إِلى ابنها. وقد ارتدّ ابنانا، وعدّة أَقرباء لنا كانوا ملحدين. وقد حقّقت مصالحة عدَّة أَزواج، يمتّون إِلينا بصلة قربى، ونأمل أَن يحذو آخرون حذوهم.

من جهتي أَنا ملتزمٌ بفريقٍ يساعد من يرغبون في اعتناق المذهب الكاثوليكيّ، وإِنّي جاهزٌ لفعل كلّ ما يرغب منّي الربّ وأُمّه في فعله. وأَنا أَنمو، شيئًا فشيئًا، في حبّهما.

حلمي؟ أَن يكتشف العالم كلّه العذراء مريم!

وغادرت المسبحة الدرج

«شيري» و «رون» نموذجٌ رائعٌ للثمار التي قد تؤتيها مديوغورية على بعد عشر ساعات طيرانٍ، لقومٍ لم يحجّوا إليها قطّ. ذانك الزوجان كانا يحلمان بإنجاب طفلٍ. وبعد ثماني سنوات زواجٍ، حملت «شيري»، وكان فرحها عارمًا. وأَظهرت صور الإيكو الأولى أَنّ الأُمور تسير على خير وجه. ولكن، بعد بضعة أَسابيع، لم يعُدْ الجنين يتحرّك، كما يُتوقّع له أَن يتحرّك، في مثل هذه المرحلة من الحمل. وأَظهرت صوَر الإيكو الثانية إِصابته بعلّةٍ في القلب يتعذّر علاجها. وكان قرار الأَطبّاء جازمًا: ستُفضي هذه العلّة، قريبًا، إِلى وفاة الجنين.

واستحوذ على الوالدين حزنٌ هاصرٌ. فأَخذا يصعّدان صلواتٍ كثيفةً. وأَشار عليهما «أَصدقاء» كُثُرٌ اللجوء إِلى الإِجهاض، قبل وفاة الجنين. ولكن لم يكن من الهيّن على «شيري» و«رون» التخلّي عن تلك الحياة الناشئة التي استأثرت بكلّ ما انطوى عليه قلباهما من حبٍّ. الحلّ الآخر كان إِجراء جراحةٍ حظٌّ نجاحها لا يتجاوز واحدًا بالمئة، يحاول الجرّاحون، من خلالها، نقل دمٍ إِلى الجنين، عبر الحبل السرّيّ، من أَجل معالجة فقر الدم الخطير الملاحظ لديه. ولم يكن الجنين قد تخطّى أُسبوعه الثالث والعشرين، فكان يُخشى أَن يتعرّض للوفاة في كلّ لحظةٍ، من جرّاء تلك العمليّة.

ومع ذلك أُجريت العمليّة، وكانت شاقّةً جدًّا، جسديًّا ونفسيًّا. وعاد «شيري» و«رون» إِلى منزلهما محطّمَيْن. وحينئذٍ تذكّرت «شيري» المسبحة الخشبيّة التي كانت صديقتها «ليز» قد جاءتها بها من مديوغورية، والتي سارعت إِلى إِخفائها في قعر جارورٍ، مع الأَشياء النافلة التي لا حاجة إِليها. وخطر لها أَن تضعها على بطنها، وهي تصلّي، وأَن تضغط عليها لكي تشعر بها طفلتها. وهي لم

تنسَ قطّ تلك اللحظة، فللمرَّة الأولى، انتفض الجنين، وكأنّه كان يجهد في الإِمساك بالمسبحة!

في الأَيّام التالية، كلّما كان «رون» و«شيري» يجتمعان لتلاوة المسبحة الورديّة كانت الطفلة الجنين تعبّر عن حضورها بشتّى ضروب القفز والحركات في أَحشاء أُمّها، ولكأنّها «يوحنّا المعمدان» صغيرٌ!

حينئذٍ رغبت «شيري» في إِجراء اختبار إِيكو آخر. وفيما كان «رون» يصلّي بالقرب من جهاز التصوير، انتفض الطبيب، بغتةً، واستدعى جميع أَعضاء الفريق الطبّيّ، وأَراهم الشاشة التي أَظهرت أَنّ كلّ الماء الفائض الذي كان يملأ جسم الجنين قد اختفى تمامًا. وذهل الأَطبّاء أَمام ظاهرةٍ لم يجدوا لها تفسيرًا. فنصحوا الوالدين بالعودة إِلى منزلهما، وانتظار ولادة الطفلة ولادةً طبيعيّةً....

ورأت «أَنّا ماري» النور في شهر أَيلول **١٩٩٤**. وقد رأَيتها، الشهر الماضي، مع والديها، تتدفّق صحّةً وبهجةً، وتركض في كلّ اتّجاه. وأَسرّت لي أُمّها أَنّها، منذ سنتها الأولى، أَبدت كَلَفًا بتماثيل السيّدة العذراء، وأَنّها، كلّما شاهدت واحدًا منها تهرع إِليه كي تغمره بالقبل.

وبذلك نجحت العذراء مريم في تحويل والدي الفتاة إِلى رُسُلٍ لها وإِلى داعمين لمشاريعها. وهما لا يكلاّن في دعوة أَقاربهما إِلى تلاوة المسبحة الورديّة مؤكّدين «أَنّ صلاة الورديّة تؤتي المعجزات».

–٢–

هذه المجموعة مترجمة عن كتاب: «طفل مديوغورية المتخفّي»،
وعنوانه الأصليّ:

L’Enfant caché de Medjugorje, par Sœur Emmanuel Maillard, éd. des Béatitudes, 2006.

عينا ڤيرونيكا الزرقاوان

وُلدت ڤيرونيكا في أفريقيا الجنوبيّة، في أحضان أُسرةٍ تضمّ ثمانية أولادٍ، ويحدوها إيمانٌ كاثوليكيٌّ حارٌّ، تمارسه بوفاءٍ.

فقد ألف جميع أفراد الأسرة حضور القدّاس الإلهيّ كلّ صباح، والمشاركة في صلاة الغروب، وتلاوة المسبحة جماعيًّا، وفي أيّام الآحاد، كان يطيب لهم المشاركة في القداديس الأفريقيّة، حيث تبدو التراتيل وكأنّها توقف سير الزمن. هذه التقوى كانت جزءًا طبيعيًّا وأساسيًّا من الحياة، شأنها شأن الأكل والشرب والعمل.

ولكنّ صليبًا كان ينتظر ڤيرونيكا، منذ مولدها. فقد كانت مبتلاةً بانفصالٍ في شبكيّة عينيها، جعلها شبه عمياء. وما لبثت أن فقدت عينُها اليسرى النظر فقدانًا تامًّا، فيما ظلّت عينها اليمني ترى الدنيا، ولكن من خلال حجابٍ رماديٍّ داكنٍ. وفي عام ١٩٧٧ أضحى عماها كلّيًّا. ولكن أيّ جمالٍ ظلّ يتجلّى على محيّاها!

عام ١٩٥٦ تزوّجت بأليكس، وهو مديرٌ ماليٌّ لمؤسّسة ملبوساتٍ كبيرةٍ، وأنجبت منه أربعة أولاد.

كان أليكس ملاكًا هابطًا من السماء، ولكأنّ الله أقامه إلى جانب ڤيرونيكا كي يحرسها حراسة كنزٍ ثمينٍ. كان من نمط أولئك الأزواج الذين يغدقون على زوجاتهم حبًّا رقيقًا هادئًا يستمدّونه من قلب الله.

في ليلة التاسع من آب ١٩٩٨ جفا ڤيرونيكا النوم، وكانت تتسائل هل ستبقيها تلك الشعلة الغريبة المستعرة في قلبها مستيقظةً حتّى مطلع النهار! لحسن

الطالع، كان زوجها أليكس مسترخيًا في سباتٍ يريحه من عناء النهار. وتلقائيًّا، شرعت ڤيرونيكا تصلّي، أو بالأحرى «تخاطب يسوع»، فهي، في بساطتها، لا تجيد من الصلوات سوى تلك التي تتفجّر من قلبها. فحتّى عندما هي تتلو «أبانا»، يبدو كأنّها تخترعها، لكثرة ما تضمّنها من كثافةٍ!

كان الليل ما زال في أشدّه، عندما قرَّرت ڤيرونيكا النهوض والجلوس في البهو، على المقعد المقابل للصليب، فهناك يمكنها أن تطلق لقلبها العنان، وأن تقدّم كلّ فرحٍ، وكلّ دمعةٍ، ليسوع، شاهد حياتها الحميمة الوحيد. حبّها ليسوع يتخطّى كلّ وصفٍ. وسعادتها الكبرى هي أن توكل إليه شؤونها اليوميّة، وأخصّاءها، وأوضاع كلّ واحدٍ منهم، ثمّ أن تستوضحه: «يا يسوع، ما رأيك في هذا؟ وبِمَ أستطيع أن أُساعدك؟».

لم تكن ڤيرونيكا تحسب للوقت حسابًا، ولم تكن تدرك منذ متى كانت تصلّي، عندما اعتراها، بغتةً، شعورٌ غير مألوفٍ، والتهب محيّاها حرارةً، وبهرها نورٌ كان يزداد سطوعًا .... ماالذي كان يحدث؟

عقب لحظة رعدةٍ جعلت قلبها يخفق خفقانًا جامحًا، أدركت أنَّ رجلاً يقف، هنا، أمامها، وكان هذا الرجل يسوع. هل كان ظهورًا حقيقيًّا، أم كان الأمر مجرّد رؤيا؟ على كلّ حالٍ، كان حضور يسوع جليًّا، وسط غمرٍ من النور، بحيث لم تعد ڤيرونيكا تعي سوى هذا الحضور. ومدّ لها يسوع يديه، قائلاً:

– تعالي، انهضي، وصلّي معي!

وحينئذٍ، أراها يسوع قريةً صغيرةً محاطةً بتلالٍ... ثمّ رأت كنيسةً، وبرجَيْن يعلو كلاًّ منهما صليبٌ وثلاث نوافذ على شكل قناطر. ورأت، أيضًا، داخل الكنيسة، ولحظت النافذة الثانية من جهة اليمين، وعليها صورة بشارة العذراء. قبل فقدانها البصر كلّيًّا، كانت قد حجّت، مع زوجها، إلى فلسطين، ولورد، وفاطمة، وأماكن مقدّسةٍ أُخرى. ولكنّ هذه الكنيسة لم تذكّرها بشيءٍ ممّا كانت قد شاهدته. ولا القرية ذكّرتها بأيّة قريةٍ. فقالت:

– يا يسوع، أنا لا أعرف هذا المكان.

ورنا إليها يسوع، باسمًا، وقال:

– إنّه مديوغورية. هناك سأهبك النور، وهناك سأرشدك إلى الطريق.

ثمّ توارى يسوع، وهوت ڤيرونيكا على مقعدها، وقد أخذ بها الاضطراب كلّ مأخذٍ، وغرقت، ثانيةً، في الظلام الدامس، محاولةً فهم ما قد يمكن حدوثه. وسرعان ما انضمّ إليها أليكس. فوجدها تذرّف دموعًا، دموع فرحٍ. استوضح حالها، وتلقّى منها الخبر المذهل:

– اسمع، يا أليكس. لقد جاء يسوع وكلّمني، وأخبرني أنّ علينا الذهاب إلى مديوغورية، حيث نسير معه ونصلّي، وقال لي إنّه، هناك، سيهبني النور وسيرشدني إلى الطريق.

– ماذا؟ مديوغورية؟

جعلها أليكس تكرّر الاسم ثلاثًا. وظلاّ، كلاهما، غارقَيْن في الحيرة. يا له من اسمٍ غريبٍ! أين يمكن أن تقع تلك القرية؟ استفاضت ڤيرونيكا في وصفها له، وهو ممسكٌ قلمًا يرسم القرية وكنيستها، وفقًا لوصفها. وفي الأيّام التالية، راحا يستفسران جميع وكالات السفر التي عثرا عليها، ولكن لم تكن أيّةٌ منها أقلّ جهلاً من الأُخريات، في ما يتعلّق بمديوغورية. كان ذلك الاسم لغزًا. ولم يكن لدى أحدٍ أيّة فكرةٍ عن ذلك المكان، أو عن البلاد التي ينتسب إليها. ذلك الاسم، الذي يصعب لفظه، لم يكن له أثرٌ على خريطةٍ، أو على أيّ مقصدٍ سياحيٍّ ... محاولات أليكس كانت تتوالى من فشلٍ إلى فشلٍ. ولكن، بعد مضيّ أسبوعين، اتّصل بهما، هاتفيًّا، صديقٌ، زخرت لهجته بالتفاؤل والاندفاع، وقال:

– إنّي عائدٌ من حجٍّ رائعٍ، من قرية صغيرةٍ في البوسنا، حيث تظهر السيّدة العذراء لبضعة فتيانٍ. لا بدّ من أن تذهبا إلى هناك، إنّه مكانٌ مذهلٌ يدعى «مديوغورية».

– مديوغورية؟!

وبيَّن لهما ذلك الصديق وسيلة الحصول على تأشيرات الدخول. وبعدما اجتاز أليكس وڤيرونيكا عقباتٍ إداريّةً جمّةً، استقلاّ الطائرة، ولا دليل لديهما سوى العمل بما أراه يسوع لڤيرونيكا.

فور وصولهما استأجرا سيّارةً، وراحا يستكشفان القرية. في هذه الأثناء، ظلّ أليكس صامتًا، متحفّظًا، متقصّيًا، ولكنّه هتف بغتةً:

– ڤيرونيكا، لقد بلغنا هدفنا. ها هي الكنيسة، وبرجاها، والجبل، والصليب على قمّته. يبدو لي أنّني أعرف هذه القرية، فهي مطابقةٌ لوصفك لها.

كانا، في السيّارة، مثل ولدَيْن أخذت بهما الإثارة كلّ مأخذٍ. استفاض أليكس في وصف القرية، بأدقّ التفاصيل، لڤيرونيكا، التي كانت تغرس، في أعماقها، كلّ تفصيلٍ، وكأنّه تأكيدٌ لرؤياها، بل كأنّه قبلة يسوع على قلبها. يسوع الحبيب لم يخدعها. طيلة يومين، طافت مديوغورية، متشبّثةً بذراع أليكس، حريصةً على المشاركة في كلّ البرامج التي كانت الرعيّة تعرضها. لقد أقاما في منزل «ميرا أوستوبيك»، وأصغيا، باهتمامٍ وشكران لشهادات أُسرتها، التي حرصت على عيش رسائل الغوسپا، بكلّ قلبها.

في اليوم الثالث، استصحبتهما مضيفتهما ميرا إلى بيت «ڤيتسكا» التي كان عليها مخاطبة حجّاج ينطقون بلغاتٍ شتّى .

وجهد أليكس في حماية ڤيرونيكا من ضغط الجمهور المتراصّ حوالي الدرج الصغير، الذي كانت ستعتليه «ڤيتسكا» لمخاطبة الناس. وسرعان ما أمسيا أسيري الحشد، عاجزَيْن عن أيّة حركةٍ صوب اليسار، أو صوب اليمين.

وصلت «ڤيتسكا»، وشرعت تصلّي، فحدّقت إليها جميع العيون، وكان أشدّ القوم قصرًا ينتصبون على أطراف أقدامهم كي يشاهدوها، بمزيدٍ من الوضوح. وكان أليكس يهمس في أذن ڤيرونيكا وصفًا موجزًا لما يشاهده ولكنّه، بغتةً، توقّف عن الهمس، وقد عقلت لسانَه دهشتُه لما لحظه. ثمّ قال، بعد لأيٍ:

– ڤيرونيكا، إنّ «ڤيتسكا» تنظر اليك، وتبتسم لك!

– تبتسم لي ؟ ليتني كنت أستطيع مشاهدتها !

إنّ ما ضاعف دهشة أليكس هو أنّ «ڤيتسكا»، مع وجود نحو خمس مئة شخصٍ، ما انفكّت توجّه ابتساماتها إلى ڤيرونيكا، دون سواها.

ثمّ قال أليكس:

– ها هي تهبط الدرج ... أنظارها موجّهةٌ اليك ... إنّها تتّجه نحوك ...
وأجابت ڤيرونيكا:

– آه، يا أليكس، ليتني أستطيع، فقط، أن أراها، أنا أيضًا ! كم سيكون ذلك رائعًا!

وبغتةً شعرت ڤيرونيكا أنَّ يدًا تحطّ على عينيها. جمّدتها الدهشة، وأصغت بكلّ أوتار كيانها، منصتةً إلى تلك اللغة الغريبة، إلى ذلك الصوت الذي يصلّي، الصوت عينه الذي كان يخاطب الجمهور قبل لحظاتٍ.

إنّها «ڤيتسكا»، «ڤيتسكا» التي جاءت تصلّي من أجلها، من أجل عينيها الزرقاوين الجميلتين، الكفيفتين.

الجمع كلّه ينتظر، بذهولٍ، وترقُّبٍ، ما سيحدث. عقب فترة صلاةٍ طويلةٍ رفعت «ڤيتكسا» يدها، واتّضح لڤيرونيكا أنّ عينها اليمنى استعادت الحياة والرؤية ... فهتفت:

– إنّني أرى !

هل كانت تحلم؟ كلاًّ. فكلّ ذلك كان واقعًا.

أوّل ما وقع عليه نظرها المستعاد كان وجه «ڤيتسكا»، والبسمة الرائعة التي تنيره، وضمّتها «ڤيتسكا» بين ذراعيها، بحنانٍ جمٍّ، بحيث لمست ڤيرونيكا، في هذا العناق، شيئًا من السماء، شيئًا من قلب العذراء مريم ينساب من خلال خادمته الصغيرة. وكان أليكس يبكي فرحًا...

نبأ استعادة ڤيرونيكا البصر انتشار حريق غابةٍ تسعّره ريحٌ حارّةٌ في عزّ الصيف. ومساء ذلك اليوم، بعد القدّاس، دعا الأب «سلاڤكو» ڤيرونيكا إلى المنبر، لتلاوة «تعظيمة العذراء»، أمام الجمهور المحتشد في الكنيسة. وكم كان مصيبًا! فقد غدت ڤيرونيكا «تعظيمة» حيّةً، فهي لا تكفّ تشكر للربّ أن أعاد إليها نظرها، وأنعم عليها بشفاءٍ لم تأمله قطّ.

ولكنّ الربّ لا يهب شفاء جسدٍ إلاّ ويشفي معه الكيان كلّه، بطريقةٍ ما. فكلّ هداياه موجّهةٌ نحو الشفاء الأكبر، شفاء النفس الذي يدوم إلى الأبد.

وما انفكّت ڤيرونيكا تستعيد، في قلبها، قول يسوع، في ليلة السهاد تلك: «هناك سأهبك النور، وسأرشدك إلى الطريق»!

فمنذ ذلك الحدث، أُشرع لأليكس ولڤيرونيكا طريقٌ جديدٌ. فقد دأبا تلقائيًّا على تحريك جميع القلوب التي ما زالت، في أفريقيا الجنوبيّة، تجهل حبّ الله. وبعد مضيّ بضعة أشهرٍ على حادث الشفاء، عرضتُ عليهما أن يتعاونا معنا، فيكونا صوت «أولاد مديوغورية» في أقاصي أفريقيا... وقد تخطّيا، في هذا المضمار، كلّ توقّعٍ. ومع أنّهما لم يتلقّيا أيّ تدريبٍ رسوليٍّ سابقٍ، وبأبسط الوسائل المتوفّرة، وبفضل أسهارٍ طويلةٍ أحيانًا، دأبا، بكلّ كيانهما، على تعريف الآخرين بما غيّر حياتهما. وبفضلهما نفذت رسائل مديوغورية إلى آلاف الأُسر، منقذةً حياة الكثيرين، ومنعشةً، لدى عديدين، إيمانًا ذاويًا أو ميتًا، معيدةً الرجاء، ومغدقةً الفرح!

قد نتساءَل لمَ لمْ يشفِ الربّ سوى عين ڤيرونيكا اليمنى؟ لا ريب أنّه فعل ذلك بدافع الرأفة. فقد باحت لي ڤيرونيكا، ذات يومٍ، أنّها بمعنًى ما، كانت تؤثر العمى، فالرؤية قد تكون للقلب مدعاةً للكثير من الشرود، فضلاً عن وفرة الأشياء القبيحة، اليوم. وقد أقام الربّ لذلك حسابًا، واحتفظ لنفسه بالعين العمياء، كي تتأمّله ڤيرونيكا من الداخل، وتستمدّ منه، وحده، قوّتها، وشفى عينها الأخرى، كي يتيح لها تبيّن بؤس العالم، ومعالجته بجمال الله.

الحانة أم الكنيسة؟

ضاقت «لين» ذرعًا، ولم تعُدْ تطيق على المعاناة صبرًا، وأمسى زواجها، منذ سنواتٍ، على شفا الانهيار، وأضحت حياتها استشهادًا متواصلاً. فزوجها مدمنٌ على السكر، وقد باءت بالفشل كلّ محاولاتها في سبيل ردعه. لم تكفّ تتوسّل العذراء كي تضع لمأساتها حدًّا، ولكن لم يتغيّر في الأمر شيءٌ وأشفت على الانهيار.

وذات مساءٍ زارتها صديقةٌ، وأشارت عليها:

– عليك أن تحجّي إلى مديوغورية، مع زوجك «ليو»، وستحقّق لكما العذراء شيئًا. إنّ النعمة التي تتدفّق هناك مذهلةٌ!

هذا القول أشاع الأمل في قلب «لين» التي قرّرت التوجّه إلى مديوغورية، ولو أدّى ذلك إلى التهام المال الزهيد الذي كان ما زال متوفّرًا لديها. وتحدّثت بالأمر مع زوجها «ليو» الذي ردّ بمعارضةٍ قاطعةٍ. فلطالما هو آثر الحانات على الكنائس، ومن ثمّ لم يرَ مبرّرًا لهذه الرحلة. ولكنّ «لين» ظلّت صامدةً، ثابتةً على عزمها، وحريصةً على ألاّ تذهب إلى مديوغورية إلاّ برفقة «ليو». وخطر لها أن تجتذبه بعرض صفقةٍ غير متوقّعةٍ:

«حسنٌ، فلنمضِ معًا. وهناك، أنا سأقصد الكنيسة، وأنت ستقصد البارات...».

وأفلحت في إقناعه، وشدّا الرحال. وفي مديوغورية التمست «لين» من العذراء أن تجعل زوجها يرافقها، يومًا، إلى الكنيسة، وقد حلّ الإيمان في قلبه.

ليلة اليوم الثالث، خرج «ليو» من أحد البارات، في هجيعٍ متأخّرٍ من الليل، وهام تائهًا. كان الشارع خاويًا من أيّ شيءٍ أو كائنٍ كفيلٍ بإرشاده إلى السبيل، خاويًا حتّى من هرٍّ شاردٍ. بلى... هوذا رجلٌ يذرع المكان جيئةً وذهابًا، وكأنّه ينتظر أحدًا. فسأله:

– أنا تائهٌ! أين نحن هنا؟

– هنا؟ ألا ترى كراسي الاعتراف؟

– وماذا تفعل أنت هنا؟

– أنا كاهنٌ. ومن الطبيعيّ أن يكون إلى جانب كرسيّ الاعتراف كاهنٌ

– أجل، حسنٌ. ربّما هذه هي إشارةٌ تدعوني إلى الاعتراف (ولم يكن «ليو» قد اعترف منذ صباه).

وتمّ الاعتراف بما تيسّر من وسائل، وانسكب دم المسيح على تلك النفس الثمينة، نفس إنسانٍ بائسٍ، يعي بؤسه. كرّت ثلاثة أعوامٍ على ذلك الحدث، وفي عام ٢٠٠١ عاد الزوجان إلى مديوغورية لتقديم الشكر، فعلى إثر ذلك الغفران الليليّ... لم يتناول «ليو» قطرة كحولٍ واحدةً.

إنّ ما يسحرني، في مديوغورية، هو أسلوب عمل العذراء مريم في حرّيّةٍ ملَكيّةٍ. إنّها تلازمنا مهما حدث، مرحّبةً، مقدّمةً هداياها السماويّة لمن يأتون إليها. قد يصدر كتابٌ محاولاً تدمير مديوغورية، ولكنّه لا يهزّ، في شيءٍ، عملها الأموميّ الشافي والمطمئن. وقد تدّعي مجلّةٌ أنّ العذراء لم تظهر، قطّ، في مديوغورية، ومع ذلك تعود العذراء، في مساء ذلك اليوم عينه، بكلّ سكونٍ، كي تصلّي مع إيڤان، وماريّا، وڤيتسكا.

وقد يدعو بعضهم إلى التحرّز من الإشارات، ومع ذلك تظلّ أمّ الله، مطيعةً لابنها الذي وهبناها أُمًّا، موقنةً أنّ الأمّ هي، بامتيازٍ، قلبٌ يرسل إشارات حبٍّ، فتغدق هذه الإشارات. إنّها تدرك أنّ الشرّير يغرق العالم بإشارات الموت الضاغطة، في كلّ مكانٍ، فيتعذّر عليها ألاّ تغيث قومًا في خطرٍ.

ذات مساءٍ رأتها طفلةٌ فرنسيّةٌ، عند الصليب الأزرق، في أثناء ظهورها لإيقان. لمَ اختارت تلك الطفلة ؟ لأنّها ملكةٌ حرَّةٌ، ولمَ ألوفٌ آخرون لم يروها؟ لأنّها ملكةٌ حرّة. وفي الحالتين تؤتي مريم خيرًا، وتستهدف حاجة كلّ فردٍ...

أيّتها العذراء الحبيبة، استمرّي طويلاً في الظهور، فقد أعلنتِ بنفسك: «في كلّ زيارةٍ لي، أزيد رقعة بسط ملك قلبي الطاهر على القلوب، ويفقد إبليس قسطًا من سلطانه».

كم من أمثال «ليو» ما زالوا بحاجةٍ إلى عونٍ! نتوسّل إليك أن تواصلي ظهوراتك، إلى أن يتحقّق انتصار قلبك الطاهر.

بَركةٌ في المترو

في رسالتها، بتاريخ ١٩٨٨/١١/٢٩، كانت السيّدة العذراء قد قالت : «باركوا، ببركتي الخاصّة، حتّى الذين لا يؤمنون. بوسعكم إعطاء هذه البركة قلبيًّا، كي تساعدوهم على الارتداد. باركوا كلّ إنسانٍ تلتقونه. وإنّي أمنحكم، لهذه الغاية، نعمةً خاصّةً. وأرجو أن تمنحوا الآخرين هذه النعمة».

ومنذئذٍ، ما فتئت بركة الأمّ الخاصّة هذه تُغدَق، بصمتٍ تارةً، وبصوتٍ عالٍ، تارةً أخرى، وتتيح لقلب مريم المتدفّق حنانًا أموميًّا أن يغمر عددًا جمًّا من أبنائها في كلّ أرجاء المعمورة، بواسطة من يرتضون أن يكونوا لها أدواتٍ طيّعات.

وفي هذا السياق تروي الأُخت إيمانويل ميّار التي كرّست نفسها منذ عام ١٩٨٩ لنشر رسالة مديوغورية :

«لم يكن قد انقضى سوى وقتٍ قصيرٍ على تسلّمي هذه البركة في مديوغورية، عندما وافتني «الغوسپا» بإشاراتٍ عديدةٍ مشجّعة إيّاي على نشرها، على أوسع نطاقٍ. ولن أنسى، أبدًا، إشارتها الأولى :

ففي ذلك المساء، كانت كنيسة مديوغورية غاصّةً بالحضور، وقد سُدّت ممرّاتها الثلاث. كان الحشد من الكثافة بحيث يتعذّر دسّ طفلٍ فيه. ووقفتُ في نحو منتصف الممرّ المركزيّ، مضغوطةً من كلّ جانبٍ، ولكن سعيدةً بأن أكون جزءًا من تلك الكتلة البشريّة القادمة من جهات العالم الأربع. وبغتةً سمعتُ ضجّةً خافتةً، ولحظت رجلاً يجهد، بكثيرٍ من العناد، في الاقتراب من المذبح. كان يتقدّم سنتمترًا فسنتمترًا، حريصًا على ألاّ يصدم أحدًا. وعندما أصبح على مقربةٍ

منّي، حدّقت إلى محيّاه، ثمّ إلى كلّ شخصه. كلّ كيانه كان ينضح فقرًا: من الواضح أنّه لا يصيب من الطعام ما يشبع جوعه. وكم يبدو وحيدًا! عيناه، وملامح محيّاه كانت مزيجًا من ألمٍ ونورٍ، نور من تألّم مع يسوع، وبات يحمل بعض دمغات مجده. واهتزّ قلبي. كيف لي أن أُعينه؟ وواصل الرجل تقدّمه، وتجاوزني، وعيونه شاخصةٌ إلى المذبح الذي بدا أنّه يجتذبه. وعندما أضحى على مسافة مترين أو ثلاثة أمتارٍ أمامي، خطر لي أن أمنحه البركة الأموميّة الخاصّة. لا ريب أنّه كان من الأجدر بي أن أركّز على صلوات القدّاس. ولكنّ الأمر كان أقوى منّي، فأغمضت عينيّ، وبكلّ قوى كياني، بثثته تلك البركة، مستنزلةً عليه كنوز قلب مريم التي لا يُسبَر لها غورٌ. وعندما فتحت عينيّ، ثانيةً، تبيّنتُ أنّ الرجل قد توقّف، ولبث، لحظاتٍ، ثابتًا في مكانه، ثمّ التفت، وراح يجيل أنظاره في الجمع المحتشد وراءه. وبدا واضحًا أنّه كان يبحث عن شخصٍ معيّنٍ. وعندما حطّت عيناه عليّ، افترّت شفتاه عن بسمةٍ من تلك البسمات التي تنبع من القلب، وقال بالإنكليزيّة:

– آه، شكرًا يا أختي!

ثمّ إنّه، بالرقّة عينها، تابع مسيرته إلى الأمام، وتوارى عن نظري. في ذلك اليوم، حقّقت العذراء إصابةً مؤثّرةً في قلبي!

وقد ألفتُ، كلّما سافرتُ في قطارٍ أو في طائرةٍ، أن أسعى إلى توزيع البركة الأموميّة الخاصّة، بأكبر قدرٍ ممكنٍ. ففي المطارات الكبرى، على سبيل المثال، نتوازع المناطق، مع معاونتي أو أيّ مرافقٍ لي، فيبارك أحدنا على الجانب الأيمن، والآخر على الجانب الأيسر. وحينئذٍ نسير ببطءٍ كي يتسنّى لنا مباركة أكبر عددٍ ممكنٍ بدءًا بالأولاد. ويُخيَّل إلى بعض من يشهدون بطء خطواتنا أنّنا معاقون، أو متخلّفون.. ولكن لا بأس، فلن تعيقنا ظنونهم فينا.

وقد روت لي صديقتي الأميركيّة «كيوين» ما حدث لها، فيما كانت تنتظر المترو في إحدى محطّات روما. قالت:

في إحدى ليالي عام ١٩٩١، قبَيْل منتصف الليل، كنت أنتظر المترو الأخير، وكـان رصيـف المحطّـة مكـتـظًّـا بـالخارجين مـن دور السـيـنـمـا، والمطـاعـم، والديسكوتيكات، وأماكن أخرى، في ذلك الشارع السيّئ السمعة، وكان وصول الحافلة متوقّعًا في غضون عشر دقائق. ووفقًا لما اعتدتُ عليه، أخذتُ أبارك الموجودين من حولي، واحدًا فواحدًا. كنت على أحد طرفي الرصيف، ولفتت نظري أمرأةٌ واقفةٌ على الطرف الآخر منه. كانت البؤس، وقد تجسّد امرأةً بل انحطاطًا. لا ريب أنّها مدمنة كحولٍ، أو مختلّةٌ عقليًّا، بل ربّما كلاهما معًا. وجهها المدمّر والمتشنّج يعبّر عن الشرّ. فشرعتُ أصلّي من أجلها، مستنزلةً بركةً إلهيّةً خاصّةً عليها. وتلوت، في قلبي، هذه الكلمات: «يا ربّ، حُلّ عليها ببركة أمّك الخاصّة». وما كدت أفرغ من تلاوة هذا الدعاء الداخليّ، حتّى شرعت المرأة تزعق على مسمع الجميع، وتصيح لي، من طرف الرصيف الآخر:

«كيف تجرؤين على مباركتي؟».

ثمّ وثبتْ، وانطلقتْ في جريٍ مجنونٍ على امتداد الرصيف، مشيرةً إليّ بإصبعها ومهدّدةً:

– «كفى! لا تباركيني، لا تباركيني!».

كانت تحاكي لبؤةً هائجةً، متأهّبةً لالتهام فريستها، فيما واصلتُ مباركتها بسكونٍ، مردّدةً العبارات عينها، وسألني القوم المحيقون بي:

– هل تعرفين هذه المرأة؟ ولمَ هي تريد مهاجمتك؟

– دعوها. سترون أنّ كلّ شيءٍ سينتهي إلى خير.

كان الرصيف طويلاً، ولكنّ المرأة كانت سريعة الجري، رغم محاولة الجمع ردعها. وكانت جميع الأنظار، على جانبي الرصيف، مثبتةً عليها، مترقّبةً ما سيحدث. وقد استحوذ الرعب على بعضهم. ودنت منّي، وبصقت، وشتمت، وزعقت ... وحاولت الإمساك بي ... لستُ أدري ما كان سيبقى منّي، لو لم تتداركني العذراء بحمايتها. فقد خفّ أكثر من عشرة رجالٍ لإغاثتي، جاهدين

في صدّها وتعطيل عنفها، إذ إنّها كانت تمتلك قوّةً تتجاوز قوى البشر. وأنا كنتُ واثقةً من أنّ اللّٰه يبتغي إنزال نعمته عليها، فأكملت مباركتي لها، رغم كلّ شيءٍ، متلفّظةً بوضوح، كلّ كلمة. وما إن فرغتُ من مباركتي حتّى سكن روع المرأة، وسادها الهدوء، ولكأنّ خلاصها قد تحقّق.

ووصلت حافلة المترو، أخيرًا، وسط ضجيجٍ مدوٍّ. ودخلت المرأة إلى المقطورة الأولى، واتّخذت لنفسها مقعدًا، وكأنّ شيئًا لم يحدث، وقد صفا محيّاها، وفارقها الحنق والسخط، وحلّ محلّهما السلام. وصعدتُ إلى المقطورة عينها، وتبادلنا النظرات، وكأنّنا صديقتان ...».

أظنّ أنّ السيّدة العذراء، في تلك الليلة، أحرزت انتصارًا رائعًا ببركتها الخاصّة الأموميّة، فقد كانت حريصةً على ضمّ تلك الابنة المسكينة الضالّة إلى قلبها، بأيّ ثمنٍ!

الصدمة التي شفت «سكوت»

«سكوت» رجلٌ إنكليزيٌّ، وبروتستنتيٌّ متشدّدٌ، ولكنّه أُقحم في محيطٍ أكثر كاثوليكيّةً من الفاتيكان، إثر زواجه من تيريزا. وإرضاءً لها انضمّ إلى فريق حجٍّ أمّ مديوغورية. وافى متردّدًا، وصارح زوجته أنّه يؤثر قضاء عطلةٍ ممتعةٍ في مدينتي موستار ودوبرونڤيك على التجوّل مع فريق الحجّ.

غير أنّه سرعان ما أُخذ بروعة تلال مديوغورية، فقرّر لعب دور مصوّر الفريق، خلال الأيّام الأولى.

مساء اليوم الرابع كان أفراد المجموعة يتجاذبون أطراف الأحاديث، وقد نُسِجت بينهم أواصر صداقةٍ، شيئًا فشيئًا، وسادهم الفرح. وكان «سكوت» قد انجذب إلى مرشد الفريق، الأب «فريد» فمازحه قائلاً :

– حتّى الآن نتيجة الكهنة هي اثنان مقابل اثنين.

– ما الذي تعنيه بقولك هذا؟

– في موعد المناولة، تقدّمتُ ويداي مضمومتان على صدري (وهي إشارةٌ تعني أنّ المتقدّم لا يرغب في المناولة، بل يبتغي مجرّد نيل البركة)، فباركني كاهنان، فيما واصل كاهنان آخران سبيلهما، غير عابئين بمباركتي، ربّما لأنّهما لم يرغبا في إعادة القربانة إلى الكأس، كي يتمكّنا من مباركتي.

أبدى الأب «فريد» استياءه من هذا الحادث، ولكنّه اغتنم المناسبة كي يستوضح رأي «سكوت» حول الإِفخارستيّا، فأجاب «سكوت» :

– القربانة هي علامةٌ رمزيّةٌ تتيح لي إعلان تقبّلي للمسيح، ولكنّها ليست جسد يسوع الحقّ.

ثمّ أوضح أنّه، قبل عقد قرانه بتيريزا، أمعن في استقصاء الإيمان الكاثوليكيّ، وأنّ البند الوحيد الذي لم يستطع تقبّله، هو حضور المسيح الفعليّ، في الإفخارستيّا. فنصحه الأب «فريد» بمطالعة الفصل السادس من إنجيل القدّيس يوحنّا، عن موضوع «خبز الحياة»، والتماس عون يسوع على فهمه. وحاول «سكوت» العمل بنصيحة المرشد، عاكفًا على الصلاة في «كابيلاّ» العبادة، ولكن بلا نتيجةٍ، إذ إنّه لم يتلقّ، من العلاء، أيّ نورٍ.

إلاّ أنّه، في الغداة، لم يعد راغبًا في مغادرة مديوغورية، مؤثرًا المكوث مع تيريزا، كي يتابعا، معًا، درب الصداقة، التي كانت قد شرعت تحاك بين أعضاء فريق الحجّ، وأصبح هو واحدًا منهم. وفي أثناء زيارة «مصلّى واحة السلام» حيث يُعرض القربان المقدّس، دعا الأب فريد الجميع إلى التزام الصمت والخشوع، من أجل الاستغراق في الصلاة، ومحادثة يسوع ... وإذ كان «سكوت» منتحيًا زاويةً في طرف المكان المقدّس، اصطدم، منذ الدقائق الأولى، بحدثٍ غريبٍ. فمهما حاول دعاء الربّ يسوع، كانت الكلمات الوحيدة، التي تطوف بخاطره هي كلمات المسبحة : «يا قدّيسة مريم، يا أمّ الله، صلّي لأجلنا، نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا». كانت هذه الكلمات تتفجّر في ذهنه تفجّرًا لا ينقطع، بهدوءٍ، ولكن بإلحاحٍ، ولا تفسح مجالاً لأيّة أقوالٍ أخرى. وتساءل «سكوت» أين توارت الصلوات التي ألِف توجيهها إلى يسوع ! خُيّل إليه أنّ آخرَ كان يصلّي فيه بهذه الكلمات التي لم يتلفّظ بها قطّ، آنفًا، فهو، في الأيّام السابقة، عندما كان أفراد فريقه يجتمعون لتلاوة الورديّة، كان يحرص على الابتعاد عنهم.

كان وضعه على قسطٍ كبيرٍ من الغرابة : فكلّ هؤلاء الكاثوليكيّين عاكفون على عبادة يسوع، وهو البروتستنتيّ الوحيد بينهم، لا يقوى إلاّ على الصلاة للعذراء مريم ! كم للسماء ضروب دعابةٍ!

ثمّ حان أوان القدّاس في كنيسة القدّيس يعقوب، وجلس «سكوت» إلى جانب تيريزا على المقاعد اليمينيّة. وفي موعد المناولة، انحدر الكهنة المحتفلون الكُثر من موقع الهيكل، صوب الحضور، حاملين كؤوس القربان، الذي راحوا يوزّعونه على المؤمنين الواقفين على امتداد الممرّات. كان ««سكوت»» ينتظر، هو أيضًا، على مقربةٍ من تيريزا، وقد ضمّ ذراعيه على صدره. تناولت تيريزا، واستلّ الكاهن، تلقائيًّا، برشانةً أُخرى، ومدّها نحو «سكوت»، قبل أن ينظر إليه. ولمّا لحظ أنّه يشبك ذراعيه على صدره، ناول القربانة إلى شخصٍ آخر، غير عابئ بمباركة «سكوت»، الذي عاد إلى مقعده، وركع خائبًا، بل مصدومًا. والتفت إلى تيريزا، وسألها:

- هل رأيت؟

- أجل! ...

أصبح الجوّ ثقيل الوطء. ولكن، بغتةً، وصل إلى حيث كان «سكوت» وتيريزا كاهنان آخران. وسأل «سكوت» زوجته :

- هل أُحاول مرَّةً أُخرى؟

- أجل، أجل ...

وانتصب «سكوت»، فوضع الكاهن الأوّل يديه على رأسه، مستنزلاً عليه بركةً صادقةً نابعةً من القلب. وما كاد يركع ثانيةً، حتّى وصل الكاهن الآخر، ولم يكن هذا الكاهن سوى الأب «فريد» الذي بارك «سكوت» بتؤدةٍ، راسمًا عليه، بالقربانة، إشارة الصليب.

في تلك اللحظة شرع جسد «سكوت» يرتجف، وقد اعتراه تأثُّرٌ يستعصي على الوصف. فالكاهن الذي كان يباركه، الذي يعرفه، ويحادثه كلّ يومٍ، تحوّل تحت بصره، فغدا «سكوت» يرى فيه يسوع المسيح. يسوع هو الذي جاء يباركه بإشارة صليبٍ عريضة، ويسوع هو الذي وافاه بالقربانة وقدّمها له، فتقبّلها مصعوقًا، وقد عقد التأثّر لسانه.

عاد «(سكوت)» إلى مقعده، وانخرط في بكاءٍ صامتٍ، وقد دفن وجهه بين يديه. ولحظ جيرانه كتفيه تعلوان وتهبطان، ولكن لم يدرك أحدٌ منهم حقيقة الخبرة المدهشة التي كان يعيشها. هو، وحده، رأى، وهو، وحده، كان يدري. وعند انتهاء القدّاس غادر «سكوت» الكنيسة متّكئًا على تيريزا، التي، وإن لم تستوعب ما حدث له، كان يساورها إحساسٌ بأنّ الله لمس زوجها. وجلسا، معًا، على مقعدٍ خشبيٍّ، في باحة الكنيسة، وقد احتواهما صمتٌ عميقٌ. كان «سكوت» عاجزًا عن التفوّه بكلمةٍ، واحترمت تيريزا رغبته في الصمت، فانتظرت بسكونٍ، ولكنّ قلبها كان يخفق بشدّةٍ.

وكرّت، على هذا المنوال، عشر دقائق تحت شمس تشرين الأوّل العذبة، فيما تفرّقت مجموعة رفاقهما. وحاول «سكوت» الإفصاح عمّا خبره، ولكن كانت الدموع تغرق كلّ عبارةٍ يبدأها. وعندما تلقّت تيريزا كلّ بوح زوجها، خضّ التأثّر أعماقها، وأدركت سبب شعورها بنفحةٍ قويّةٍ، في لحظة المباركة، وعجزها عن حبس دموعها.

في المساء، في موعد تبادل الانطباعات حول المائدة، همست تيريزا في أذن «سكوت» تحثّه على مشاركة الآخرين خبرته، ولكنّه ظلّ متحفّظًا، خوفًا من ألاّ يصدّقوه.

في اليوم التالي، وكان يوم الرحلة الأخير، توقّل «(سكوت)»، وحيدًا، تلّة الظهورات، وتهاوى عند أقدام الصليب، راجيًا العذراء القدّيسة أن تقود خطاه، وترشده إلى ما يتعيّن عليه فعله وقوله، بشأن رؤيته ليسوع التي حظي بها في الكنيسة.

وفي مطار دوبرونفيك، اعتزم «سكوت» البوح بسرّه للأب «فريد»، ولكنّ الخشية كانت ما تزال تلجمه. فهو الذي تحدوه ذهنيّةٌ علميّةٌ، والذي يتّسم بطبيعةٍ عمليّةٍ، كان بحاجةٍ إلى جهدٍ كبيرٍ كي يعلن سرّه، ولا سيّما بين يدي رجلٍ آخر، متسائلاً أيّ ردّ فعلٍ، سيُقابل بوحه ... فهل سيرى فيه الأب «فريد»، حالِمًا، واهمًا؟...

غير أنّ الكاهن، عندما تلقّى سرٍّ «سكوت»، أطرق أرضًا، وتردّد لحظاتٍ، ثمّ أخذ ذقن «سكوت» في يده، وهتف باندفاعٍ:

- «يا لها من نعمةٍ! يا للنعمة الجلّى التي حظيت بها! احتفظ بها احتفاظك بكنزٍ، واقتسم هذا الكنز مع آخرين. وإنّه لامتيازٌ جمٌّ لي أن اختارني الربّ أداةً لهذه النعمة!».

ثمّ أمسك الأب «فريد» بكتفي «سكوت»، وصلّى لحظاتٍ، في صمتٍ، ثمّ قال له، ببسمةٍ تفيض ودًّا:

- إذن، أنت تعرف الآن، أنّك، في المناولة، تتلقّى، حقًّا، جسد المسيح وليس مجرّد إشارةٍ رمزيّةٍ.

لدى عودته إلى إنكلترا دأب «سكوت» على الشهادة بجرأةٍ، مقتسمًا سرّه مع كلّ من شاء الإلمام به. ولم يكن ممكنًا الشكّ في أقواله، ففي غضون أيّامٍ معدوداتٍ، طرأ عليه تحوّلٌ مدهشٌ، بحيث لن تكون حياته، بعدُ، أبدًا، كما كانت آنفًا. وغالبًا ما كان يصرّح:

- كلّما أطبقت عينيّ، رأيت يسوع، وقد طفح وجهه حبًّا وعطفًا، فيهتزّ كلّ كياني. لدى جميعنا صُورٌ ليسوع وللسيّدة العذراء، ننظر إليها، ولكن من منّا يدرك أنّ يسوع ومريم هما، أيضًا، ينظران إلينا؟

وقد يتساءل بعضهم: «لماذا أنت؟ وأنت لست، حتّى، كاثوليكيًّا؟». لا جواب لديّ على هذا السؤال. ولكن إن كنتُ قد أُعطيت هذه الرؤيا كي أذكّر من يتناولون أنّهم يتلقّون، حقًّا، يسوع المسيح، في القربان، فقد وصلت الرسالة.

في التاسع من شهر أيلول ٢٠٠٠، انضمّ «سكوت» إلى الكنيسة الكاثوليكيّة.

شفاء «متّيو»

يطيب للرائية «ڤيتسكا» سرد رواية تلك الأُسرة الإيطاليّة، أُسرة «متّيو» و«غريتّا»، اللّذين كان لهما ابنٌ، وابنةٌ، وكانا ينعمان بمالٍ وفيرٍ. غير أنّ الصلاة لا أثر لها في منزلهما. وكانت الأشهر، والسنوات تكرّ، واللّه غائبٌ عن أسرتهما.

واتّفق أنّ ابنهما هوى إلى غيبوبةٍ سحيقةٍ وطويلةٍ، في أعقاب حادثٍ خطيرٍ على درّاجةٍ ناريّةٍ. وكانت لهما جارةٌ تُدعى «لوشيانا»، قد ألفت الحجّ إلى مديوغورية، فالتقت، يومًا، في الشارع، أمّ ذلك الفتى، وهالها أن تراها على ذلك القدر الهائل من الأسى والانهيار، بحيث لا سبيل إلى كفكفة دموعها، أو إلى إعتاقها من محنتها. وقد باحت للوشيانا بكوامن قلبها، كاشفةً لها أعماق بؤسها. فقد كانت أُسرتها تتمزّق نُتَفًا، وشيئًا فشيئًا تفقد كلّ شيءٍ. كانت وزوجها قد تأهّبا لنقل ابنهما المصاب إلى مستشفًى متخصّصٍ في أميركا، إلاّ أنّ الأطبّاء حذّروهما من الإقدام على هذا النقل، نظرًا لوضع الفتى المتردّي، الذي قد يعرّضه لمخاطر وخيمة، بل قد يقضي عليه. وانهارت كلّ الآمال التي كانا قد علّقاها على هذه المحاولة. كلّ شيءٍ تهاوى.

واقترحت لوشيانا:

– تعالوا إلى مديوغورية. فالعذراء تظهر هناك. إنّها أمٌّ، ولن تتوانى عن العناية بكم !

وقدم الزوجان، مع ابنتهما إلى مديوغورية، برفقة لوشيانا. ومنذ اليوم الأوّل،

التمسا من الرائية «ڤيتسكا» أن تخصّهما بخمس دقائق، فقد كان يأسهما جسيمًا. وأجابت ڤيتسكا:

– حسنٌ. سأنهي حديثي مع الحجّاج، وسأوافيكم. انتظروني في طرف فناء البيت، ولاحظ «متّيو» :

– لدينا رغبةٌ واحدةٌ، يا «ڤيتسكا»، وهي أن تلتمسي من العذراء شفاء ابننا، واستفسري عن المبلغ الذي يتعيّن علينا دفعه.

لم تشأ «ڤيتسكا» صدمه، أو تصويب أقواله، بل اكتفت بالردّ:

– سأفعل كلّ ما يسعني فعله. سأصلّي من أجل ابنكما المصاب. ارجعا غدًا. وفي هذه الأثناء، أكون قد تحدّثت مع السيّدة العذراء.

وفي أثناء ظهورها قالت العذراء لڤيتسكا:

– قولي لهما لا رغبة لي في مالهما. بل أدعوهما إلى التقرّب منّي ومن ابني.

في الساعة العاشرة والربع من اليوم التالي، خرج ابنهما من الغيبوبة وشرع يمشي.

وحتّى اليوم، ما انفكّت تلك الأُسرة تحجّ إلى مديوغورية وتصلّي. لقد أتاح اللّه لهم أن يدركوا أنّه كان قادرًا، بيُسرٍ، على شفاء ابنهم قبل ذلك، ولكنّه كان راغبًا في أن يعودوا إليه بكلّ قلبهم. وها إنّ الصلاة قد غدت، اليوم، هي الأساس في هذه الأُسرة، وكلّ ما سواها ثانويٌّ.

المعجزة الحقيقيّة، في الواقع، كانت شفاء قلب «متّيو» والد الفتى المصاب، ولم تكن سائر البركات التي تلت سوى إضافةٍ.

«فيديريكو»: أربع سنواتٍ وستّة أَورامٍ

لقد دمّر الحزن والقلق «سابينا»، وأشاعا الاضطراب في كلّ كيانها. فثمّة سرطان دماغٍ ينذر بالقضاء على طفلها «فيديريكو». ولم تُجدِ أيَّ نفعٍ جلسات الأشعّة، والمعالجة الكيميائيّة المنهكة، وما زالت ثلاثةٌ من الأورام الستّة غير قابلةٍ للجراحة: فمشرط الجراحة كفيلٌ بأن يلحق بها إصاباتٍ قاضيةً.

في معهد السرطان في مدينة ميلانو، يتابع عالمٌ جهبذٌ حالة «فيديويكو» عن كثبٍ، وقد ترسّخ في يقينه أن لا أمل في إنقاذه، بشريًّا. فالطفل لم يتخطّ الرابعة، وهو يذوي على نحوٍ ملحوظٍ، غير أنّ المرض لا يقوى على قهره، فهو، بين نوبة ألمٍ وأخرى، يرنو إلى أمّه بنظرةٍ تضجّ صفاءً، ويؤكّد لها:

«سترين، يا ماما، أنّنا سنتعدّى المحنة».

وحينئذٍ، كانت، أمّه «سابينا»، تفزع إلى غرفة الحمّام، كي تطلق العنان لدموعها، ولشهقات يأسها.

«سابينا» غير مؤمنةٍ، أو هي، بالأحرى، لم تعد تؤمن. وهي حريصةٌ على الابتعاد عن الكنيسة. وكان من شأن سيّدة مديوغورية أن تقول فيها: «إنّها ما تزال تجهل حبّ الله». ولكنّ صديقةً لها، وهي عضوٌ في جماعة صلاةٍ، تبنّت «فيديريكو» بقلبها، وشنّت حملة صلاةٍ من أجله، بحيث يتولّى كلّ عضوٍ في جماعتها، مدى ساعةٍ كاملةٍ، وعلى امتداد تسعة أيّامٍ متتاليةٍ، التعبّد أمام القربان المقدّس عن نيّة الطفل، راجين يسوع أن يشفيه، وأن يشيع السكينة في قلب أمّه، حيث كان فراقها الحديث عن زوجها قد أحدث جرحًا بليغًا.

انتهت تساعيّة الصلوات، بيد أنّ مرض الطفل ما برح يتابع مسيرته بلا رحمةٍ.

فهل يبتغي الربّ لفيديريكو مشروعًا آخر غير الشفاء؟ على أيّة حالٍ، صديقة أمّ الطفل لا تقنط ولا تستسلم. فالأب «أنطونيلّو»، وهو كاهنٌ إيطاليٌّ يضطلع برسالةٍ في البرازيل، موجودٌ، آنذاك، في ميلانو، وينظّم «قدّاس شفاء»، في كنيسة القدّيس أنطونيُس. ودعت تلك الصديقة أمّ «فيديريكو» وابنها إلى الاشتراك بهذا القدّاس. للوهلة الأولى انتفضت «سابينا»، الأمّ: فكيف لها أن تؤمّ كنيسةً! ولكنّها، بعد تردّدٍ طويلٍ، قبلت الدعوة، ولكنّها لم تخدع نفسها، فلا الإيمان، ولا الرجاء، هما اللّذان كانا يدفعانها، بل اليأس، فلن تخسر شيئًا. وإن لم تؤتِ الصلاة ثمرةً، إلاّ أنّها لن تؤتي ضررًا.

منذ بدء القدّاس، استلطفت «سابينا»، الكاهنين المحتفلين، اللّذين أظهرا قدرًا وافيًا من الفرح والانفتاح، والإنسانيّة. كان «فيديريكو» مضطجعًا على ركبتي أمّه، ينام بعينٍ، ويراقب الكاهنين بالأخرى. وفي أثناء العظة تبيّن له أنّهما ظريفان. وعندما كان الجمهور يضحك، كانت ضحكته تعلو على ضحكات الآخرين، وإن هو لم يدرك للضحك سببًا.

بعد القدّاس، وكما يحدث في مديوغورية، عرض الأب «أنطونيلّو» القربان المقدّس على الهيكل، واستهلّ صلاة عبادةٍ. ثمّ تناول معرض القربان المذهّب، وطاف به في كلّ أرجاء الكنيسة التي كانت مكتظّةً، في تلك الليلة. وكان «فيديريكو» يتابع، بأنظاره، الكاهن، متسائلاً لماذا يجول، في كلّ مكانٍ، بهذه الشمس الذهبيّة الجميلة. وكان الأب «أنطونيلّو» يؤدّي مهمّته بتؤدة، مباركًا كلّ فئات الجمهور بمحمله الكبير، متوسّلاً يسوع أن يمسّ قلب كلّ فردٍ وجسده، مثلما كان يطيب له أن يفعل، لألفي سنةٍ خلت، وسط الجماهير التي كانت تزحمه من كلّ جانبٍ. وعندما دنا من «سابينا»، لحظ الطفل المتكوّر في حضنها، وقد فقد شعره، وذوى هزالاً، فباركه، ولمس بمحمل القربان جبينه...

لن تنسى «سابينا»، أبدًا، تلك اللحظة، مع أنّها، حينها، لم تكن تدرك شيئًا ممّا يجري. فقد هوى «فيديريكو»، وكأنّه صُعق، واستلقى على الحضيض. وأخذ

الاضطراب والارتباك بأمّه. ولكنّ «فيديريكو» كان، في الواقع، يرقد رقاد أولياء اللّه. وتركته أمّه يواصل نومه، ما دامت الصلاة، في الكنيسة، متواصلةً.

انصرمت ساعةٌ، وفيما كان الكاهن يفرغ من تطوافه، استيقظ الصغير، وخاطب أمّه قائلاً:

– «هذا الكاهن ظريفٌ. إنّه يحرق حيث يلمس، إنّي أشعر بنارٍ تلهب رأسي».

لم تُعِرْ «سابينا» انتباهًا لأقوال ابنها، في الحال. ولكنّها دهشت لسماعه يردّدها أثناء الليل، وفي اليوم التالي، مكرّرًا القول:

– ماما، إنّ شيئًا في رأسي يحرقني، إنّ في رأسي نارًا.

استحوذ الخوف على «سابينا» مع أنّ «فيديريكو» كان يؤكّد لها أنّه لا يتوجّع، وأنّ الشعور الذي ينتابه غريبٌ، وظريفٌ، واعتزمت العودة إلى معهد السرطان، حيث أُعيد تصوير رأس الطفل تصويرًا دقيقًا. وعندما محّص الطبيب الصور، أعاد، مرّاتٍ عديدةً، إحكام وضع نظّاراته، وتطلّع إلى «سابينا»، مذهولاً، شاحب الوجه. وجالت في ذهن الأمّ، أسوأ التوقّعات. وسألها الطبيب :

– ماذا فعلت، يا سيّدتي؟ من الذي أجرى جراحةً لابنك؟

– ولكنّه لم يخضع لأية جراحةٍ، يا دكتور!

– بلى، من الجليّ أنّ جراحةً أُجريت له.

– أؤكّد لك أنّه لم يحدث من ذلك شيءٌ.

– أرجوك، سيّدتي، انظري بنفسك.

في الواقع كانت الصوَر تظهر أنّ الأورام الستّة قد زالت. ولكنّها لم تتلاشَ على نحوٍ سحريٍّ. ففي مكان كلٍّ منها ندبةٌ، وعلامات قُطَبٍ دقيقةٍ، تثبت أنّ يد جرّاحٍ ماهرٍ هي التي استأصلت تلك الأورام، مع أنّ ثلاثةً منها كانت

مستعصيةً على الجراحة، لكونها في موقعٍ من المخّ بالغ الطراوة، بحيث لا يمكن خيطه.

وانتهت «سابينا» بالاعتراف... غير مكترثةٍ بما قد يفكّر فيه الطبيب. أمّا هي، فكانت قد أدركت السرّ. وفي غضون ثوانٍ، استرجعت، باهتمامٍ، في ذاكرتها أقوال «فيديريكو»، خلال الثماني وأربعين ساعةً الأخيرة، منذ تلقّيه مباركة الكاهن: «ماما، إنّ في رأسي شيئًا يحرقني، إنّ في رأسي نارًا!». لم تكن تدري أنّ يسوع، خالقها، هو، أيضًا، أمهر الجرّاحين.

«فيديريكو»، اليوم، هو في السادسة، يعبث، ويركض، ويقفز، ويرتكب حماقاتٍ، وهو في أكمل صحّةٍ. لقد مسّه يسوع بقربانته البيضاء الكامنة وسط «شمسها».

وقد تحوّلت دموع يأس «سابينا» إلى دموع فرحٍ. وهي تقول: «أحسستُ أنّ يسوع حيٌّ، و أنّه معنا، وهو الذي شفى ابني. لقد بتّ أشكر للّه، كلّ يومٍ، شفاءه «فيديريكو»، وإعادة قواه إليه. لقد بلغ السادسة من العمر. إنّه فرِحٌ، وكثير الحركة. كلّ يومٍ يرفع أبصاره إلى السماء، وبيده الصغيرة يبعث بقبلاتٍ إلى يسوع، كما لو كان يعرفه منذ الأزل. يسوع هو صديقه المفضّل، وإنّي لأشكر ليسوع، وللّه الآب، وللروح القدس، طول صبرهم حيالي. لقد سمحوا بهذه المحنة القاسية، لكي أدرك، أخيرًا، أنّهم إلى جانبي، وأنّ الكنيسة هي نحن».

ألست، أنا، أُمّك؟

روى كاهن من كوستاريكا:

منذ صباي، شدّتني دعوة الكهنوت. خبرتي في المنزل الوالديّ والحياة الإفخارستيّة في رعيّتي دفعتاني، وأنا حَدثٌ، إلى ذلك الهدف الذي تحقّق، شيئًا فشيئًا. انتسبت إلى إكليريكيّة كوستاريكا في شهر آذار ١٩٩٦، وكنت قد بلغت لتويّ سبعة عشر عامًا، تحدوني رغبةٌ صادقةٌ في خدمة يسوع.

في السنة التالية اجتزت محنةً كبرى. فقد توفّيت أمّي، إثر مرضٍ قصيرٍ، وقد أحزنني فقدانها حزنًا عميقًا، كما يحدث لكلّ ابنٍ. ولكن، بما أنّي كنت عازمًا على خدمة الربّ، كان عليّ أن أُعدّ نفسي للمِحَن. بيد أنّي لم أبقَ وحيدًا، فقد كانت، ثمّة، أمٌّ تريد أن تأخذني من يدي، وتبتغي تعليمي الطاعة، حتّى وسط الألم. وقد التمستُ منها: «بعد الآن، ستكونين أمّي الحنون. فاعني بمساعدتي على انتهاج دربي الكهنوتي».

وكرّت سنواتٌ ستٌّ حافلةٌ بالمِحَن والمصاعب، وأصبحت شمّاسًا، وبدت الأمور تسير سيرًا سلسًا، غير أنّ محنةً أُخرى برزت. فقد طلب منّي مدير الإكليريكيّة النأيَ عنها، فترةً، قبل سيامتي الكهنوتيّة، بغية إنضاج دعوتي. لم أدرك، حينذاك، لهذا التدبير سببًا، ولكنّني كنت واثقًا أنّ كلّ شيءٍ يفضي إلى خير محبّي الله.... كانت الدعوة شديدة الأسر على نفسي، وها هم، عقب ستّ سنواتٍ، يطلبون منّي التريّث، وإعمال الفكر... لقد تلاشيتُ، وانتابتني محنة إيمانٍ، وثقةٍ مطلقةٍ. وبكيت مدرارًا. وما كان عليّ أن أعثر على الطمأنينة في قلبي، بل في الله. وكانت مريم حاضرةً لتعزيتي. فطيلة السنوات الثلاث

التي أمضيتها خارج الإكليريكيّة كانت تلاوة المسبحة هي التي ساعدتني على مواصلة دربي. وكانت تلك ثلاث سنوات تثقيفٍ وتأهيلٍ. كان الله يريدني كاهنًا له، وكان عليّ أن أتعلّم وضع كلّ ثقتي فيه.

زرت معبد سيّدة غوادالوپي في مكسيكو، وجال بخاطري قول أمّ الله للهنديّ خوان دييغو: «ألست أنا، هنا، أمّك؟».

فقلت لها: «يا أمّي، أنت تعلمين كم أنا أصبو إلى الكهنوت! أرجوك، ساعديني، أعيديني إلى الإكليريكيّة، فأنا أرغب في أن أكون كاهن ابنك. واذكري أنّك أمّي الوحيدة في هذا العالم! في بوعدك! وأنا أعدك بالعودة، يومًا، للاحتفال بالقدّاس في هذا المكان».

ولم تخيّب رجائي شفاعةُ المملوءة نعمةً: فلم أبارح المعبد إلاّ وقد غمر نفسي العزاء، وتملّكني شعورٌ بأنّ، ثمّة، من أصغى إليّ، وسكب فيّ القوّة، فحسب، بل حدَث أمرٌ استعصى على فهمي. كنّا، يومها، في **٢٢** تمّوز، وكانت الساعة العاشرة صباحًا. وقد أثبتت ذلك التاريخ وتلك الساعة صورةٌ فوتوغرافيّةٌ التُقطت كذكرى لتلك الزيارة.

عدت إلى الإكليريكيّة، وعقب بضعة أشهرٍ، أرسلني الأسقف لاتّباع فترة تدريبٍ رعويٍّ. وبعد ظهر ذات يومٍ بشّرنا، أنا واثنين من زملائي بأنّ سيامتنا شمامسةً إنجيليّين باتت وشيكةً. وقد تمّ الاحتفال بهذه السيامة يوم سبتٍ، بتاريخ **٢٢** تمّوز، في الساعة العاشرة صباحًا.

يمكنكم أن تتخيّلوا ما كان يختلج في صدري، وقد آن تحقيق رغبةٍ واكبتني سنواتٍ عديدةً، بعد تخطّي عقباتٍ جمّةٍ. كنت متيقّنًا أنّ مريم هي التي تشفّعت بي. وقد رُسمتُ شمّاسًا إنجيليًّا في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة. يومها قلت لله «نعم» النهائيّ. وفي السنة التالية، نلتُ السيامة الكهنوتيّة.

علينا، نحن الكهنة أن نتعلّم النظر إلى كلّ شيءٍ بعينَي الإيمان، مثل مريم، وأن نثق مثل ثقتها.

-٣-

هذه المجموعة مستقاةٌ من كتاب «**٩** سنواتٍ من الظهورات»،

«آخر أنباء مديوغورية رقم **٩** – أيلول **١٩٩٠** للأب رينيه لورنتان»

René LAURENTIN, 9 Années d’apparitions, Dernières nouvelles de Medjugorje, N° 9, éd. O.E.I.L.

ارتدادٌ في سنّ التاسعة عشرة

منذ سنّ الرابعة عشرة، تردّيتُ إلى معاقرة المخدّرات. وبما أنّه كان يلزمني المال لذلك، عمدت إلى السرقة. سقتُ هذه الحياة الفوضويّة مدى خمس سنواتٍ. في سنّ التاسعة عشرة سئمت تلك الحياة التي كانت تخالف كلّ ما أنشأني عليه والداي.

كان والداي يكلّماننا، أنا وشقيقي، عن المعجزات التي تجري في مديوغورية ويعرضان علينا الحجّ إليها، في إطار الرحلات التي كانا، هما، ينظّمانها، في هذا السياق. بيد أنّي لم أهتمّ بهذا العرض، فقد كان قلبي موصدًا دون مشاريع من هذا النمط، ودون نداءات الله.

ولكن في شهر أيلول من عام ١٩٨٧ انتابتني رغبةٌ في الحجّ إلى مديوغورية، ولست أدري ما الذي دفعني إلى ذلك. بضعة أيّامٍ قبل موعد الرحلة فاتحت والديّ بهذه الرغبة، فبيّنا لي استحالة تحقيقها، لأنّ المحلاّت كلّها كانت قد بيعت، وكان عليّ أن أكون سبّاقًا إلى ذلك، وبما أنّ والديّ ألفا تذكيري بأقوال الربّ، في كلّ مناسبةٍ، قلت لهم بدوري:

– إن شاء الربّ أن اشترك في هذه الرحلة، فسيكون لي ذلك.

وفي اليوم التالي ألغى أحد المشتركين حجزه، وبات بوسعي أن أحلّ محلّه. إذن، كان الربّ يريدني هناك.

وفي يوم ١٢ أيلول ١٩٨٧، طارت الأسرة كلّها إلى يوغوسلافيا، وتبيّنتُ، في الحافلة التي أقلّتنا إلى الطائرة، أنّ جميع الأشخاص الذين يرافقوننا كانوا من نمطٍ مختلفٍ عنّي، وهكذا كانت أقوالهم وتصرّفاتهم. فقد كانوا يصلّون،

وينشدون للّه وللعذراء، فاستلقينا، أنا وشقيقيّ، على مقاعد الحافلة، وتظاهرنا بالنوم، ونحن نقول في سريرة نفسنا:

- إلى أيّة ورطةٍ انزلقنا ؟

- ولكنّ الحال كانت أفضل في الطائرة، فقد كان هناك بيرةٌ، ونبيذٌ، ومضيفاتٌ فاتناتٌ.

منذ وصولنا إلى قرية مديوغورية، أُخذتُ بها. القرية عاديّةٌ، وكذلك هي طرقاتها حيث كانت الحافلة تتقدّم بمشقّةٍ، إذ كان جمهورٌ غفيرٌ يسدّ الممرّ، فسألت أمّي:

- ما الأمر ؟

- الناس خارجون من القدّاس.

هذا الاتّصال الأوّل بمديوغورية أدهشني. وفي اليوم التالي، بدأت نشاطات الحجّ: زيارة تلّة الظهورات، والتقاء الرؤاة، والمشاركة في الطقوس الكنسيّة. كنت أُجيل أبصاري في كلّ اتّجاهٍ، وأقرأ السعادة على جميع الوجوه. كانوا يجولون ومسابحهم في أيديهم، وفي أعناقهم، ولا يشعرون بأيّ حرجٍ. كانوا يصلّون، مفعمين سلامًا وفرحًا، وأدركت أنّ مديوغورية تنطوي على شيءٍ مميّزٍ حقًّا. كان جاذبٌ يشدّني، ويعتريني شعورٌ بوجود حبٍّ يريد بي خيرًا، وشرعت أشترك في الصلوات الجماعيّة، وتعلّمت تلك التي كنت أجهلها. كنت أتبع الجمع دهشًا من ذاتي، إذ لم يكن انضمامي إلى الجمع يزعجني.

صباح ١٥ أيلول، صعدنا في جماعةٍ، إلى تلّةٍ «كريزيڤاك»، ونحن نتبع درب الصليب. في أسفل التلّة، قال والداي اللذان كانا يشرفان على الرحلة:

- جميع الذين يشعرون بدافعٍ إلى خلع أحذيتهم، وإلى تقديم هذه التضحية من أجل ارتداد الخطأة، فلينصتوا إلى قلوبهم.

حدّقتُ إلى التلّة، وحدّثتُ نفسي: «يا لهم من مجانين! كيف لهم أن يتسلّقوها حفاةً!». وخلع اثنان، ثمّ ثلاثةٌ، أحذيتهم. ذهلت، ولكنّني انسقت لدافعٍ دعاني إلى خلع أحذيتي، موقنًا أنّ من واجبي انتهاز كلّ الفُرَص لصالحي، فأنا لم أقدم إلى هنا لكي لا أفعل شيئًا. وشرعنا نتوقّل التلّة، ونتوقّف

في كلّ مرحلةٍ من مراحل درب الصليب. كان القوم يصلّون، وأنا أيضًا، أُصلّي، فاعلاً كلّ ما كانوا يفعلون.

عند المرحلة الثانية عشرة، ركع الجميع، وركعت، أنا، أيضًا، وأخذت أبكي، وانفعالاتي تتصاعد قوّةً. في قرارة نفسي كنت أتساءل: «مابي؟ ما الذي يعتريني»؟ لقد توقّفتُ عند مراحل أُخرى، ولم أبكِ، فعلامَ أبكي هنا بكاء ولدٍ؟ «استعصى عليّ فهم ذلك. وفيما كنت أذرف دموعي، تنبّأ أحد أفراد الفريق قلائلاً:

– في هذا الفريق شخصٌ شفي من المخدّرات ومن كلّ ما يواكبها من شرورٍ، ويهبه الربّ تحوّلاً روحيًّا مدهشًا.

فيما كنت أستمع إلى هذا القول، غمرني شعورٌ بسلامٍ عميقٍ وبفرحٍ غامرٍ.

وفي الحال شرعتُ أشكر الربّ. عند تلك المرحلة الثانية عشرة ألقى الربّ قبضته عليّ وحوّلني، وغيّرني كلّيًّا. لم أتبيّن ذلك في تلك اللحظة. ولكن من خلال كلّ ما أعطاني أن أخبره لاحقًا، أدركت عظمة يسوع الذي مات على الصليب (مرحلة درب الصليب الثانية عشرة). لقد جاء يسوع ومات من أجل خلاصنا، وغفران خطايانا. ومنذ تلك اللحظة، بدأ كلّ شيءٍ يحيا فيّ ورغبتُ، بكلّ قلبي، اتّباع وصاياه، وإطاعة أقواله، والصلاة لمريم، والعمل برسائلها...

خلال ذلك الحجّ تلقّيت قول الشابّ الغنيّ، وأدركت، نظيره، أنّ عليّ أن أهجر كلّ شيءٍ، إن كنت راغبًا في اتّباع الله. صحيحٌ أنّي لم أكن غنيًّا، ولكن ما كان لديّ لم يكن يخصّ الله. وكانت مديوغورية لي حياةً ثانيةً. كنت أولد من جديدٍ، وقلبي كان يتجدّد، وكذلك كان إيماني. خبرةٌ لا تنسى أتتني سلامًا وفرحًا داخليًّا.

لقد وفّرت لي اعترافاتي في مديوغورية عونًا جزيلاً، وكذلك شعوري بحبّ مريم وبحضورها الذي يحيق بي. واستحوذ عليّ انطباعٌ بأنّني ذو شأنٍ، وأنّ بوسعي مساعدة العالم.

لمّا عدت من الرحلة، كان عليّ أنّ أنعتق من أقذار حياتي السابقة، وسرعان ما تبيّنت مشقّة هذه المهمّة. صباح وصولي زرت صديقًا لي، وما إن رآني داخلاً إليه، حتّى حدّق إلى الصليب والإيقونة المعلّقين في عنقي. وقرأت في عينيه أنّ ما كان بيننا انتهى، وأنّ عليّ ألاّ أقترب منه، بعد ذلك، لئلاّ أتعرّض لخطر الوقوع، ثانيةً، فعليه هو أن يأتي إليّ إن شاء. كانت تلك نعمةً وصليبًا في آنٍ واحدٍ، فقد كان خير صديقٍ لي.

وكان عليّ، أيضًا، التخلّي عن موسيقى الروك التي أهواها. وأدركت كذلك أنّ عليّ الابتعاد عن صديقةٍ كنت أعاشرها، إن كنت راغبًا في تنفيذ ما يطلبه منّي الربّ، إذ كان يتعذّر عليّ الحفاظ على عفّتي، في علاقتي بها. كانت تلك ضربةً أخرى قاسيةً، ولكن لم يكن لديّ خيارٌ آخر، فإن لم أخطُ هذه الخطوة، لتوقّفت مسيرة تحوّلي. كان لا مفرّ لي من عيش شرائع الربّ وتعاليمه. وهو قال: «طوبى لأنقياء القلوب، فهم يعاينون اللّه». وأنا كنت عازمًا على معاينة اللّه، فلا بدّ من أن يكون قلبي نقيًّا.

كان الربّ يُحدث معجزاتٍ رائعةً في حياتي. وهذه إحداها: لم أكن قد اتّبعت أيّ تعليمٍ مهنيٍّ، وكنت قد عملت لدى نحو عشرين مُستخدِمًا، ولم أعثر على ما كنت راغبًا فيه. وها قد وهبني الربّ عملاً شُغفت به. فأنا اليوم، أخدم موهف (سكرستيّا) رعيّتي، ودائبٌ على هذا العمل منذ عشرة أشهرٍ. وإنّه لأمرٌ على جانبٍ من العظمة، فأنا، سابقًا، لم أكن أستمرّ في أيّ عملٍ أكثر من بضعة أسابيع، ويا لها من نعمةٍ أن أعمل في رفقة الربّ، وفي البقاء على مقربةٍ منه.

الآن أتابع امتحانات تمييزٍ بغية تبيّن دعوتي: الكهنوت، أم الرهبنة، أم الزواج؟ ما الذي يريد الربّ لي؟ أعلم مسبَّقًا أنّني سأكون سعيدًا، حيثما يريدني أن أكون. ولا أنفكّ أصلّي لكي أثبت في دروبه. قد أهوي، ولكنّني، بنعمته، أنهض، وأشكر له كلّ ما وهبني، وكلّ ما سيهبني.

من البغض إلى الحبّ الإنجيليّ

الإيرلنديّ «مارك ليناغان»، الذي كان عضوًا في جماعة «إيرا» الإرهابيّة، ملحدًا ينعت المسيحيّين بالجبن والخيانة، والذي كان قد كرّس حياته للانتقام والقتل، يروي قصّة ارتداده وتحوّله، بفضل سيّدة مديوغورية، كما يلي:

«لم تكن بنادقنا هي التي تقتل، بل قلوبنا. سحابة سنواتٍ دأبت على القتل. وبعد كلّ هجومٍ كان يساورنا الأسف لأنّنا أخفقنا في قتل المزيد من الضحايا. إثر معركة ١٩٨٢/١/١٥ في بلفاست، حيث أحجمنا عن إسعاف جنديٍّ جريحٍ، أُلقي القبض عليّ وعلى رفيق كفاحٍ، وحكم عليّ بالسجن لمدّة ١٢ سنةً. ولكن أُفرج عنّي بعد ستّ سنوات. ذلك السجن كان يضجّ بالكراهية، والحقد، والمرارة. بيد أنّ جميع أفراد منظمة «إيرا» كانوا يشتركون في كلّ القداديس المقامة من أجل السجناء. وكانت الإفخارستيّا لنا وسيلة لقاءٍ، وتبادل أخبار المؤامرات والمكائد.

بمناسبة عيد فصح عام ١٩٨٤، استمعت للمرّة الأولى، إلى أخبار مديوغورية. فقد كان مرشد السجن عائدًا، للتوّ، من حجٍّ إليها، وخبر هناك تحوّلاً روحيًّا شخصيًّا. وكان يتحدّث باندفاعٍ عن المصالحة مع الله، وعن الحبّ والرأفة. فسألته، بعد القدّاس:

– «كيف يسعك أن تؤمن بكلّ هذا؟».

كانت هذه الأمور تبدو لي قصص جنٍّ. غير أنّني تمنّيت أن تكون حقيقةً واقعيّةً. كنت أشعر أنّني محطّمٌ، ولكنَّ الرجاء كان يتسلّل إلى نفسي من جديدٍ.

وقد أتاح لي الأب المرشد الاتّصال بمواطنين لي عائدين من الحجّ إلى مديوغورية. وقد طالعت، في كتابٍ، رسائل العذراء، وأنباء الأشفية والارتدادات، وكان حبّ الله ينساب إلى نفسي. الخطأة الذين ذكرهم الإنجيل نالوا حظوة الخلاص: زكّا العشّار، والمومس مريم المجدليّة، فهل أُحرم أنا منه؟ فيسوع الذي يحبّ كلّ خاطئٍ لا يحرم من حبّه إرهابيًّا من منظّمة «ايرا».

عندما أُفرج عنّي عام ١٩٨٨، يمّمت، على الفور، شطر مديوغورية، وعثرت على الإيمان. لم أشهد معجزة رقصات الشمس، ولم أشهد ظهورًا إلهيًّا، ولكنّني نعمت بلقاءٍ ... معجزٍ.

كنت عند أقدام صليب «كريزيڤاك» عندما دنا منّي رجلٌ قائلاً:

- استمعت إلى سيرة حياتك، وأرغب في التحدّث إليك.

وأدهشني أنّ ذلك الرجل كان جنديًّا بريطانيًّا. وسألني:

- في أيّ تاريخٍ ألقي القبض عليك؟

قلت:

- في ١٥ شباط ١٩٨٢، يوم معركة «فالس رود».

فقال:

- إنّي أذكر تلك المعركة. فقد كنت، بصفتي جنديًّا بريطانيًّا، أحد أفراد دوريّةٍ.

ما أغرب دروب الله وما أشدّها إدهاشًا! هذا الجنديّ البريطانيّ، وأنا، كلانا مرتدّان وحاجّان، وكنّا، لسنواتٍ خلت، نتواجه، أعداءً، في بلفاست. كنت أبتغي قتله، وهو كان يريد قتلي. وها نحن نتلو الورديّة معًا، عن نيّة السلام في إيرلندا.

خلاصة:

١ – ثمّة أملٌ لكلّ خاطئٍ: فقاذف القنابل، آنفًا، يتأهّب، الآن، للكهنوت في إكليريكيّةٍ إيرلنديّةٍ. والجنديّ البريطانيّ، أيضًا، خبر تحوّلاً روحيًّا.

٢ – ثمّة أملٌ للعالم: فإن صلّى معًا، في مديوغورية، جميع الخصوم المتحاربين، كما هي حال هذا الثنائيّ الرائع، لعمّ السلامُ كلَّ مكانٍ، بإذن الله.

قيامةٌ

روت «كريستين» قصّة ارتدادها كما يلي:

زيارتي الأولى إلى مديوغورية كانت يوم أحد الشعانين عام ١٩٨٧. وكنت قد رفضت تلبية دعواتي إليها، سحابة أشهرٍ. وصلت إليها، وأنا ملحدةٌ، موقنةً أنّ ظهورات العذراء مستحيلةٌ جوهريًّا. لم أكن أنوي المكوث هناك أكثر من أسبوعٍ. ولكنّني عندما غادرتها، بعد إقامةٍ دامت ثلاثة أسابيع، لم تكن تراودني سوى رغبةٍ واحدةٍ: التشبّث بالعذراء تشبّث ولدٍ، أملاً في أن تقودني إلى أوثق قربٍ من يسوع. أسرتي كانت كاثوليكيّةً، ولكنّني منذ حداثة سنّي، نأيت تدريجيًّا عن الله وعن الكنيسة. وفي سنّ الرابعة عشرة، اخترت تربيةً لادينيّةً، ورفضتُ الشخوص إلى الكنيسة أيّام الأحد، وبالطبع أقلعتُ عن الصلاة وعن الاعتراف.

واجتزت شوطًا متماديًا من التمرّد، ناشدةً ما كنت أعدّه حرّيّةً وقرارًا ذاتيًّا، رافضةً الاعتراف بأيّة سلطةٍ، إذ كنت أرى كلّ سلطةٍ ضربًا من الإكراه. وغدا مفهوم الحرّيّة يعني لي الانفتاح على كلّ اختبار: الجنس، والكحول، وكتب الإلحاد والدعوة إلى الفوضويّة، والحانات، والملاهي والمراقص، وكلّ شيءٍ. كنت أنظر إلى الله على أنّه اختلاقٌ، وأشعر أنّ الوضع البشريّ هو، كما وصفه سارتر، عبثيٌّ، وبدا لي الشعب ساذجًا، منقادًا، مقزّزًا، سطحيًّا، وقحًا. ولم أتبيّن أنّني، أنا نفسي، كنت أسير في هذا الاتّجاه، أكثر فأكثر. وأضحت ردود فعلي المألوفة هي الكره والازدراء والنقد، والتدمير الذاتيّ. ورغم جميع ضروب اللهو الليليّ من كحولٍ، ومخدّراتٍ، وسينما، ومسرحٍ، كانت نفسي فارغةً، جائعةً إلى الحبّ. كنت أجهل ما أمسيت أعرفه الآن: أن الحبّ الذي كنت

أنشده بتوقٍ شديدٍ، لا وجود له في هذا العالم، بل هو كامنٌ في الله وحده. كنت، حينذاك، حرَّةً، حتّى القنوط، ولا عهد لي بسلام القلب. تلك كانت حال حياتي، لسنةٍ خلت. وإليكم رواية ما طرأ عليها من تحوّلٍ جذريٍّ.

عام ١٩٨٥ تسنّى لوالدي فرصة الاطّلاع على ما يجري في مديوغورية، فانطلق إليها، في تلك السنة عينها. وفي السنة التالية حجّت إليها أسرتي كلّها، ما عداي، رغم كلّ الدعوات التي وُجّهت لي. في تلك الحقبة كنت قد هجرت البيت لوالديّ، وكانت ردود فعلي على رواية ظهورات العذراء، عدائيّةً أحيانًا، ولكنّها كانت، عادةً، تتّسم بالسخريّة.

وفي تلك الآونة، أخذ موقف ذويّ منّي يتغيّر، فقد أضحوا أكثر انفتاحاً عليّ، وخفّت وطأة لومهم لي، حتّى عندما كان سلوكي لا يُطاق، وللمرّة الأولى داخلني شعورٌ بأنّهم يتقبّلونني على علاّتي. كنت ما زلت بعيدةً عن الاهتمام بمديوغورية، ولكنّني أصبحت أكثر تسامحًا وتقبّلاً، وكنت أقول في سريرة نفسي: «قد تكون هذه حركةً جيّدةً، ولكنّ مكاني ليس مع الكاثوليك».

ومضيت قُدمًا في سيرتي السالفة، ولكن ربّما في مزيدٍ من الاضطراب. عام ١٩٨٧، يومين قبل أحد الشعانين، قصدت أمّي مديوغورية برفقة أخي الأصغر، وابن خالتي: ومع أنّني كنت في عطلةٍ، رفضتُ مرافقتهم، توجّسًا من تكبّد خسارةٍ ما في مديوغورية، خسارة شيءٍ أحرص عليه. ولكن سرعان ما ساورني الندم، لإحجامي عن مرافقتهم. وفي الغداة وجدت نفسي في قطارٍ، منطلقةً إلى الجنوب، تواكبني صلاة كلٍّ من أخي وأبي.

وصلت إلى مديوغورية في أعقاب ثلاثين ساعة سفرٍ، وكان قدّاس المساء قد أشرف على نهايته، واستحوذ عليّ السخط لوجودي، أخيرًا، في ذلك المكان الذي طالما أبيت الشخوص إليه. وفيما كنت أبحث عن ذويّ التقيت الأب «پيرو»، الذي دعاني للصعود إلى سيّارته، وسألني عمّا جاء بي إلى مديوغورية، فأجبته، حانقةً:

«أنا نفسي لا أدري سبب وجودي هنا، فأنا لا أكترث بظهورات مريم، لا بل إنّني لا أومن بالله».

فأجابني الأب بيرو، وقد أشرقت أساريره:

- «أنا سعيدٌ لكونك هنا، وستنجز أمّ الله الباقي».

وأُسقط في يدي.

ذهلت أمّي عندما شاهدتني. وكانت أيّامي الأولى في مديوغورية مريعةً. كنت أجوس هنا وهناك، على التلال، معملةً الفكر في حالي، وأنا أقول: «لا عجب أن يخطر للقوم، وهم يتأمّلون هذا المنظر، أنّ الله هو الذي خلقه».

وبما أنّني كنت حائرةً في ما أفعل غير ذلك، حضرت القدّاس مساءً. وكان ذلك، أيضًا، مصدر عذابٍ لي. فعلى غرار الكثيرين الذين لم يجدوا لذواتهم مقعدًا في الكنيسة المكتظّة، جلست على الحضيض، وسط المؤمنين.

وانتابني شعورٌ بأنّي خائنةٌ وقذرةٌ. زايلني الاعتقاد بأنّ الله اختراعٌ بشريٌّ، وفي الآن عينه أسفت لكوني لا أُقاسم المحيطين بي الحبّ والسلام. وكان حزني لذلك سحيق الغور...

يوم الخميس، عقب قدّاس المساء، ناشدتني أمّي المجيء إلى المصلّى الجانبيّ من أجل تكريم القربان المقدّس. ولبيّت طلبها، لأنّني لم أكن راغبةً في العودة إلى المنزل وحيدةً. حينئذٍ لم أكن لأركع مقابل كلّ ذهب العالم، ومع ذلك وجدتني أهوي أرضًا. وما زال يتعذّر عليّ التعبير عمّا انتابني إذّاك. كان فريقنا الذي يتكلّم الألمانيّة يرتّل نشيدًا من ألحان شوبيرت، بمرافقة كاهنٍ، وبغتةً آمنت. لا يسعني أن أقول أفضل من هذا القول. بين اللحظة السابقة وتلك اللحظة، شرعت أومن بوجود الله، وبتجسّد الربّ، وباتّخاذه شكل الخبز، وبحضوره هنا، في القربان المقدّس. وسكبت كلّ دموع مآقيّ. بكيت كثيرًا طيلة الأيّام التالية، ولكنّني، في الآن عينه، كنت أختبر حبّ الله الرحيم. يوم الخميس المقدّس، اعترفتُ، وحينئذٍ، للمرَّة الأولى في حياتي، استطعت الاحتفال بعيد

الفصح احتفالاً لائقًا. لقد نهضتُ من الموت. بعد عيد الفصح لبثت أُسبوعين آخرين في مديوغورية، وحيدةً، إثر عودة ذويّ. وكنت قد أصبحت متأهّبةً، قلبيًّا، لتقبّل ظهورات العذراء وكلّ أقوالها. وبتُّ أدرك أنّها أمّي التي تحبّني حبًّا جمًّا، وتأخذني من يدي، وتقيم دائمًا إلى جانبي ببسمتها. وكانت تعتريني سعادةٌ غامرةٌ كلّما اشتركت في قدّاسٍ، وكلّما صلّيت، وكلّما تفوّهت باسمَيْ يسوع ومريم، لا بل لمجرّد تفكيري بهما.

ومنذئذٍ، انقلبت حياتي انقلابًا كاملاً، على نحوٍ لم يكن ليخطر لي بخيالٍ. كنت قد أقلعت عن التدخين، والكحول، وعن الاستماع إلى الموسيقى المسفّة، وعدت شخصًا فرحًا. غدا القدّاس هو قمّة نهاري، وكانت تغمرني سعادةٌ فائقةٌ عندما يقدم ملك الملوك إلى قلبي في المناولة المقدّسة، لكي يهبني حبّه، ويهبه، من خلالي، لجميع من ألتقيهم، وإنّي راسخة اليقين بأنّ اللّه سيواصل قيادتي بواسطة مريم. ترى إلى أين سيقودني ؟

ملاحظة: انضمّت كريستين إلى جماعة تستهدف خدمة يسوع بواسطة مريم، وعيش رسائل سلامها. لقد كرّست ذاتها للّه، آملةً أن تنال، بأعمالها التكفيريّة، نعمة ارتداد خطأةٍ، تلك النعمة التي حصلت، هي، عليها بفضل صلاة آخرين.

شفاء «أوبرتو» من إدمان المخدّرات

هكذا روى الإيطاليّ «أوبرتو كاتانيو»، الذي كان مدمنًا على المخدّرات شفاءه، بفضل سيّدة مديوغورية:

«عام ١٩٨٢، كنت على مشارف سنّ الثلاثين من عمري، متمتّعًا بوضعٍ ماديٍّ جيّدٍ، إذ كنت صاحب متجر حواسب، وقد ابتعت مسكنًا، وخطبت فتاةً أحبّها. وبغتةً أفلستُ، ففقدتُ، دفعةً واحدةً، خطيبتي، وبيتي، وثروتي، وعملي. وقد أفسد هذا الإفلاس علاقاتي بأُسرتي، فتردّيت إلى معاقرة الكحول. وعندما تفاقم يأسي لجأت إلى المخدّرات، بدءًا بالخفيفة منها، ولكن سرعان ما علقت بالهيروئين. كان ذلك يكلّفني مالاً طائلاً، فعمدت إلى بيع ما احتفظت به من أثاثٍ.

تابعت دورة علاجٍ في مؤسّسةٍ لم تُجدِ نفعًا، وحينئذٍ التقيتُ الراهبة الأخت «إلڤيرا» التي تهتمّ بإعادة تأهيل مدمني المخدّرات، آتيةً بهم إلى مديوغورية. واتّفق أنّ لقائي بها توافق مع عجزي عن العثور على هيروئين، مع أنّني كنت ما زلت أملك بعضًا من المال الناتج عن بيعي ما تبقّى لديّ من أثاثٍ. وأدركت أنّ أمرًا لا يُصدَّق كان يحدث. تحدّثتُ إلى ضيوفٍ قدامى للأخت إلڤيرا، واستخلصت أنّها كانت صادقةً في أقوالها، ودعاني أولئك المدمنون القدامى لكي أرافقهم إلى مديوغورية. وكان ذلك عام ١٩٨٦.

لم أستصحب إلى مديوغورية شيئًا من الهيروئين، بل أتيتُ بمؤونةٍ من الحبوب والمهدّئات من كلّ نوعٍ، فقد كانت المخدّرات قد دمّرت كبدي، ولم أكن أستطيع

الاستغناء عن المهدّئات كي أحتمل العيش. ولكن قبل انطلاقي أفرغت الأخت إلڤيرا جيوبي من كلّ محتوياتها.

تألّمتُ، وجفاني النوم. كنت أرتعد قرًّا، وقلبي يخفق بعنفٍ. لبثتُ على هذه الحال نهارين وليلتين. وفي اليوم الثالث قالت لنا الأخت إلڤيرا: «هيّوا بنا نصعد إلى تلّة كريزيڤاك للصلاة والصوم». كان المطر ينهمر وقلت، في سريرة نفسي: «إنّهم لمجانين!». ولدى انتهائنا إلى مرحلة درب الصليب الرابعة، تلوا هذه الصلاة: «أيّتها التي نزّهها الروح القدس من كلّ دنسٍ، بحقّ السلطة التي وهبك الله إيّاها على الملائكة ورؤساء الملائكة، أرسلي لنا كلّ الملائكة، وفي طليعتهم رئيس الملائكة ميخائيل، كي يحرّرونا من الشرّير، ويشفونا من علّتنا».

بكيتُ كالمجدليّة، واستذكرتُ بكثافةٍ كلّ ماضيّ الذي كرّ موكبه أمام خيالي، مع كلّ ما قيّدني بالشرّ. في أثناء درب الصليب كنت أُخفي دموعي تحت مظلّتي. وتبيّنتُ حضورًا مهيمنًا ينحني عليّ، واستحوذ عليّ شعورٌ بأنّ ثمّة من يحبّني.

ولمّا انتهينا إلى القمّة التي ينتصب عليها الصليب. كان هطول المطر قد توقّف، ومنذ تلك اللحظة بارحتني كلّ رغبةٍ في معاقرة الكحول والمخدّرات.

وعدت إلى مدينتي، جنوا، حيث عملت في شركة تأمين، ودأبت على الصلاة، كلّ يومٍ، صبحًا ومساءً. لقد استغرقتُ في الصلاة استغراقًا.

عام ١٩٨٧ عدت إلى مديوغورية. كنت أعاني داءً في المعدة سبّبته المخدّرات. هذه العلّة كانت تستوجب علاجًا في المستشفى، وأملتُ أن تساعدني العذراء على شفائه. وبالفعل أحسست أنّني عوفيتُ من كلّ جرحٍ، ومرضٍ، وأردت العمل في خدمة الكنيسة، فقال لي الأب سلاڤكو: «نظّف التلّة من الفضلات التي يلقيها الحجّاج، وطهّرها. وكان ذاك هو سبيل الشفاء. وهذا ما أدركته، وفعلته. وبقيت هناك.

وكان شهر تشرين الثاني ١٩٨٧ محطّةً جليلة الشأن، فقد اكتشفت حينئذٍ

صلاة القلب. كنتُ أقيم في مقطورةٍ معدنيّةٍ صغيرةٍ أهدتني إيّاها أسرتي. وفي مطلع الشتاء استضافني الرائي «إيڤان» في غرفته. وكنت أتلو، حينئذٍ، العديد من المسابح الورديّة، ولكأنّ ذلك كان هو عملي. كنت أفعل ذلك بجدٍّ، وأنا فخورٌ بنفسي. ولكنّني كنت أتمتم الصلوات. وقال لي إيڤان مرارًا، «لمَ لا تصلّي بقلبك؟». فلم أفهم قصده. وفسّرتْ لي «أنّا»، شقيقة ڤيتسكا، صلاة القلب. حينئذٍ حاولتُ تأمّل كلّ كلمةٍ، وأنا مطبق العينين، مدى خمس صلوات «أبانا»، وخمس صلوات «السلام». ونجحتُ، وحدث مثل انسكاب ذهبٍ في قلبي. ومنذئذٍ، غدوتُ أصلّي وأنا أسير، وأنا أقود السيّارة التي أهداني إيّاها شقيقي، والتي أستخدمها لشتّى الخدمات. وهكذا تغيّرت علاقتي بالله وبذاتي. إنّ المسبحة علاجٌ فائق النجاعة. مازال يصعب عليّ تأمّل كلّ كلمةٍ، ولكنّ هذا التأمّل هو المفتاح الذي يفتح قلبي».

جديرٌ بالتنويه أنّ «أوبرتو» أقام في مديوغورية، و دأب على استقبال مدمني مخدّرات ينشدون الشفاء، ويساعدهم، بخبرته، على تخطّي محنتهم.

ملحق

قصص مترجمة من كتاب «حكايات العذراء»

للأخوين: جيروم وجان تارو[1]

تتمّز هذه المجموعة عن المجموعات السابقات التي تروي أحداثًا واقعيّةً، بكونها إنتاجًا أدبيًّا، بعض أحداثها محض ابتداعٍ خياليٍّ، وبعضها الآخر ربّما استند على وقائع، ولكنّه أُخضع لتزويق قلم الكاتب.

بيد أنّ هذه القصص تُعدّ، بحقٍّ، من روائع الحكايا المريميّة المكتوبة للأطفال، وما زالت، بعد مرور عقودٍ على كتابتها، تلقى استساغةً ورواجًا، فضلاً عن انطوائها على عِبَرٍ ساميةٍ و ثمينةٍ. فرأينا إلحاقها بهذا الكتاب، متعةً لأطفالنا، وإسهامًا في اضرام محبّتهم للأمّ السماويّة.

---

(١) عنوان الكتاب بالفرنسيّة:

Les Contes de la Vierge par Jérôme Tharaud (de l’académie française) et Jean Tharaud, éd. PLON - Paris, 1940.

زائرة الميلاد الأَخيرة

حدث ذلك في بيت لحم، عند انبلاج الفجر. كانت النجمة قد توارت، والحاجّ الأَخير قد غادر الزريبة، والعذراء بسطت القشّ، وهمّ الطفل بالرقاد. ولكن هل هناك من ينام في ليلة الميلاد؟

وبتؤدّةٍ فُتح الباب، وكأَنّ نسمةً، وليست يدًا هي التي دفعته. وظهرت عند العتبة، امرأةٌ متّشحةٌ بأَسمالٍ باليةٍ، طاعنةٌ في السنّ، ومكسوّةٌ بالغضون، بحيث بدا وجهها المصبوغ بلون التراب، وكأَنّه ليس سوى غضنٍ يُضاف إِلى غضونها.

اجتاح الخوف قلب مريم لدى رؤيتها العجوز، ولكأَنّ جنّيّةً خبيثةً قد داهمتها. من حسن الطالع أَنّ الطفل كان غافيًا، والحمار والثور كانا يمضغان العلف، باطمئنانٍ، وقد رمقا الزائرة الوافدة، بلا دهشةٍ، وكأَنّ لهما بمعرفتها عهدًا طويلاً. أَمّا العذراء فثبّتت عليها نظرها، وقد بدت لها كلّ خطوةٍ من خطواتها ولكأَنّها أَطول من دهرٍ.

وتابعت العجوز سيرها حتّى انتهت إِلى حافّة المذود. من حسن الطالع أَنّ يسوع كان ما زال غافيًا. ولكن هل ثمّة من ينام في ليلة الميلاد؟

وبغتةً فتح الطفل جفنيه، وكم كانت دهشة أُمّه بالغةً عندما تبيّنت الشبه الدقيق بين عيني ابنها وعيني العجوز، والرجاء ذاته يتأَلّق في تلك العيون كلّها.

وانحنت العجوز على قشّ المذود، فيما كانت يدها تبحث عن شيءٍ بين طوايا أَسمالها، وبدا للعذراء أَنّ دهرًا انقضى قبل أَن تعثر العجوز على ضالّتها، وهي محدّقةٌ إِليها بقلقٍ. وكانت البهائم أَيضًا ترمقها، ولكن بلا قلقٍ، وكأَنّها ملمّةٌ مسبَّقًا بما سيحدث.

أَخيرًا، وبعد لأيٍ، استلّت العجوز من ثنايا أَسمالها شيئًا كانت تخفيه في يدها، وأَعطته للطفل.

بعد كنوز المجوس، وتقادم الرعاة، ما الذي أَهدته العجوز؟ لم يكن بوسع مريم أَن تراه، من حيث كانت. ولم تكن ترى سوى الظهر الذي حناه العمر، والذي زادته التواءً انحناءتها فوق المذود. ولكنّ الحمار والثور كانا يريانه، ولا تبدو عليهما أَيّة دهشةٍ.

لقد بدا للعذراء أَنّ كلّ ذلك كان يحدث في بطءٍ شديدٍ. ثمّ استقامت العجوز، وكأَنّها قد تخفّفت من العبء الباهظ الذي كان يشدّها نحو الأَرض. ولكأَنّ كتفيها ما عادتا مقوّستين، وكأَنّ رأسها بات يلامس السقف، ومحيّاها استعاد، بمعجزةٍ، شبابه.

وعندما نأت عن مرقد الطفل نحو الباب، كي تتوارى في عباب الليل الذي جاءت منه، استطاعت مريم أَخيرًا أَن تتبيّن هديّتها الغريبة.

لقد كانت العجوز هي حوّاء، وقد أَودعت بين يدي الطفل تفّاحة الخطيئة الأُولى (والعديد من الخطايا اللاحقة). وكانت التفّاحة الحمراء تلتمع في يد الوليد، التماع الكوكب الجديد الذي وُلد معه.

العذراء والطيور

كانت العذراء تعدو هاربةً بابنها من اضطهاد جند الملك هيرودُس.

وصادفت، في طريقها، حمامةً استوضحتها:

- إِلى أَين أَنت ماضيةٌ مع ابنك؟

فأَجابتها العذراء:

- إِنّي هاربةٌ من جند الملك هيرودُس.

وفي تلك الأَثناء امتلأ الجوّ بالغبار الذي كان يثيره فرسان الملك، وطارت الحمامة.

وتابعت العذراء هربها. فصادفت سُمَّنَة سألتها:

- إِلى أَين أَنت ماضيةٌ مع ابنك؟

وأَجابتها العذراء:

- إِنّي هاربةٌ من جند الملك هيرودُس.

وفي تلك الأَثناء بات يُسمع وقع خبب الخيل، وطارت السمّنة.

وواصلت العذراء فرارها من جند الملك هيرودُس. فصادفت قُبّرةً استوضحتها:

- إِلى أَين أَنت ماضيةٌ مع ابنك؟

فأَجابتها العذراء:

- إِنّي هاربةٌ من جند الملك هيرودُس.

وفي تلك الأَثناء باتت تُسمع، عن كثبٍ، لعنات الجند، فأَخبأت القبّرة العذراء، وراء أَجمةٍ.

وصادف جند هيرودُس الحمامة فسألوها:

– يا حمامة، هل شاهدتِ امرأةً حاملةً ابنها؟

فأَجابت الحمامة:

– أَيّها الجند، لقد مضت من هذا الدرب.

ودلّتهم على الدرب الذي انتهجته العذراء.

ثمّ صادف جند هيرودُس السمّنة، فسألوها:

– يا سمّنة، هل شاهدتِ امرأةً حاملةً ابنها؟

وأَجابتهم السمّنة:

– أَيّها الجند، لقد مضت من هنا!

ودلّتهم، هي أَيضًا، على الدرب الذي انتهجته العذراء.

وصادف الجند القبّرة، فسألوها:

– يا قبّرة، هل شاهدتِ امرأةً حاملةً ابنها؟

وأَجابتهم القبّرة:

– أَيّها الجند، لقد مضت من هنا.

ولكنّها وجّهتهم بعيدًا جدًّا عن الأَجمة، وعن العذراء وابنها.

والآن اعلموا ما حدث للطيور الثلاثة:

لقد حكم الله على الحمامة بسجع شكوًى لا ينتهي، وحكم على السمّنة بطيران واطئٍ تلامس به الأَرض، فتكون أَبدًا بمنال الصيّادين.

أَمّا القبّرة، فكوفئت بحمل تحيّة العذراء إِلى الشمس كلّ صباح.

ثلاثة طيورٍ من طينٍ

في ذلك الزمن، لم تكن بحيرة طبريّا تحمل هذا الاسم إِذ إِنّ ابن الطاغوت هيرودُس لم يبنِ، على ضفاف البحيرة، المدينةَ التي أَطلق عليها اسم طبريّا، تزلّفًا للإِمبراطور طيبيريُس، إِلاّ بعد انقضاء سنواتٍ على القصّة التي سأَرويها لكم.

حينئذٍ كانت البحيرة الجميلة تُدعى كنّارةً، أَي قيثارةً، لأَنّ تعرّجاتها وشكلها كانت تحاكي تلك الآلة الموسيقيّة التي كان الملك داود كَلِفًا بها.

وذات يومٍ، هبّت على الجبل عاصفةٌ هوجاء. وفي المساء كانت الريح قد طردت الغيومَ الأَخيرة، واستعادت البحيرة سكونها، واستأنفت جماعات الطير المتعدّدة التي تغزو البحيرة، طيرانها وصيحاتها.

وفي مدينة الناصرة كان ثلاثة صبيةٍ يغوصون في وحلِ الطريق، منهمكين في إِشادة سدٍّ لجمع مياه الأَخاديد. وبعد أَن اصطنعوا بحيرةً شبيهةً ببحيرة «كنّارة»، خطر لهم أَن يجعلوها، هي أَيضًا، آهلةً بالطيور، طيورٍ من طينٍ.

أَحدهم اصطنع شيئًا لا شكل له، مدّعيًا تقليد النوارس الجميلة التي تنقضّ على الأَسماك وتصطادها. والآخر كان جاهدًا في إِضفاء شكل بجعةٍ على صنيعته من الوحل، وكان يجد مشقّةً في تثبيت الرأس الكبير والجراب المعلّق في العنق. والثالث كان يعجن بيديه الصغيرتين نورسًا جاثمًا على ضفّة البحيرة.

ولكنّ الليل هبط، وظهر القمر، وأُشعلت أولى فوانيس القرية، غير أَنّ الأَولاد لم يهتمّوا للظلمة التي أَخذت تكتنفهم، وظلّوا منهمكين بأَعمالهم الهشّة. وبغتةً سُمع صوتٌ ينادي من بيتٍ قريبٍ:

– لوقا

ولكنّ لوقا الذي كان يحاول، للمرّة العاشرة، تثبيت منقار النورس على العصا التي كانت تقوم مقام العنق، لم يسمح له انهماكه الاستجابة للنداء الذي استدعاه ثانيةً:

– لوقا، لوقا!

ولم يجب لوقا، فاضطرّت أُمّه إلى إعادة النداء. وفي هذه النوبة، بمزاجٍ متعكّرٍ، قرّر الصبيّ التخلّي عن بجعته المسكينة، التي ما إن تركها حتّى انهارت، ولم تعد بجعةً، حتّى من طينٍ.

وما لبث أَن انطلق، في الغَسق، نداءٌ آخر:

– مرقس!

وفي تلك اللحظة انهار، أَيضًا، نورس مرقس، فأَجاب:

– ها أَنا ذا آتٍ.

ولكنّه لم يتحرّك، إذ كان يجهد في إصلاح الكارثة. وردّد الصوت، في نفاد صبرٍ، وشيءٍ من الغضب:

– مرقس! مرقس!

وكان لا بدّ لأُمّ مرقس من نداءٍ ثالث، حتّى يستجيب، بعد أَن رفس مأثرته، وقذفها إلى الماء، في سورة تبرُّمٍ.

ولم يبقَ على ضفّة البركة الصغيرة التي ينيرها القمر، سوى الولد الثالث الذي كان يصقل نورسه الطينيّ.

وصاحت امرأةٌ من عتبة بيتها:

– يسوع

وملأ الصوت العذب الليل، ولكأَنّه فوح عبيرٍ.

وفي الحال نهض الصبيّ، تاركًا نورسه الطينيّ.

ولكنّ النورس الطينيّ انطلق طائرًا في الجوّ.

العذراء والغجر

ثلاثةٌ من أولئك القوم المدعوّين غجرًا، والذين يجوبون العالم متنبّئين لكلّ إِنسانٍ بمصيره، كانوا يمرّون بأورشليم يوم كان اليهود الأَشرار يسوقون ابن الله إِلى منقع العذاب.

وصادفوا، في طريقهم، امرأةً مسكينةً تنتحب، واستوضحوها عن سبب حزنها العميق. فأَجابت:

– ما من امرأةٍ جديرةٌ بالرثاء مثلي، فابني سيعلّق على الصليب، في الجلجلة.

سألوها:

– أَيّ جرمٍ اقترف؟

حينئذٍ، توقّفت المرأة عن النحيب، وروت للغجر ما تعرفونه، أَي أَنّ ملاكًا وافى، ذات يومٍ، في البيت الذي كانت تقطنه في الناصرة كي يخبرها بأَنّ ابنًا سيولد منها، منزّهًا من الخطيئة، لأَنّه ابن الله ذاته.

وبحسب قول الملاك، وُلد الصبيّ في زريبةٍ، بين ثورٍ وحمارٍ، وقد وافى ثلاثة ملوكٍ، ترشدهم نجمةٌ، من بلادٍ قصيّةٍ، لكي يروه ويعبدوه. ولكن سرعان ما اضطرّت إِلى الفرار به كي تنجو به من غضب الملك هيرودُس، الذي علم، في حلمٍ، أَنّ هذا الولد مهيّأٌ ليكون ملك العالم...

ووسط النحيب الذي استأنفته المرأة، روت لهم أَيضًا أَنّ ابنها، منذ طراوة عوده، كان يُدهش الحكماءَ بسداد أَجوبته، ثمّ شوهد يُجري معجزاتٍ لم يُرَ لها، يومًا، نظيرٌ، مثل السير فوق الماء، وتحويل الماء خمرًا، وطرد لصوص

الهيكل، وإِعادة البصر إِلى العميان، والحركة والقوّة إِلى المقعدين، وحتّى إِقامة الأَموات، مثبتًا، للجميع، بوضوحٍ، أَنّه ابن الله، بحسب بشارة الملاك ونبوءات الأَنبياء...

ولكن كان قد كُتب، أَيضًا، أَنّ اليهود البائسين سيظلّون مقيمين على صممهم وعماهم، وأَنّ حتّى أَقرب أَصدقائه إِلى قلبه، بطرس الصيّاد، سينكره! وقد حدث كلّ ذلك، فعلاً. وقد حان وقت تعليقه على الصليب. ولذلك كانت أُمّه تنتحب. ولكانت أَمعنت في النحيب، لولا يقينها بأَنّ العالم سيخلص، بفضل موته، وبأَنّ جميع الذين سيؤمنون به، سيكون لهم، في الفردوس، مكانٌ.

وهتف الغجريّون الثلاثة:

– ما أَجمل هذا الذي تقولينه!

نحن لا نعرف ابنك، ولكنّنا نصدّق كلامك، وسنعمل من أَجله ومن أَجلك، كلّ ما نستطيع فعله، إِن توفّرت لنا، في سبيل ذلك، فرصةٌ.

وفي الحال، تركوا المرأة مستسلمةً لدموعها، ومضوا إِلى تلك الجلجلة. كان النهار ما برح في أَوّله. ولم يصل، بعدُ، إِلى المكان لا ابن الله ولا جلاّدوه، غير أَنّ مسرح العذاب كان مُعَدًّا. فهناك كان صندوق المسامير، والمطرقة، والكمّاشة... فلم يتوانَ المشرّدون الثلاثة عن الاستيلاء عليها، قائلين: «هذه غنيمتنا على كلّ حالٍ، ولا ريب أَنّها ستخفّف من آلام ابن هذه المرأة المسكينة...» وواصلوا مسيرتهم، وحياتهم المرتحلة.

وبعد فترةٍ من الزمن، انضمّت العذراء إِلى ابنها الإِلهيّ في الفردوس، وذكرت المارّة الثلاثة الذين تعاطفوا مع أَساها، وأَرادت مكافأتهم. ولكنّ أولئك القوم البائسين يتشابهون، جميعهم، في سِحَنهم، ولون جلدتهم. ولكي تضمن العذراء خلاص أولئك الثلاثة، حصلت، لجميع أَبناء الغجر، نعمة أَلاّ تُحسَب عليهم سرقاتهم خطيئةً.

أُعجوبة القدّيس مركور

في ذلك الزمان كان الإِمبراطور يوليانُس الجاحد ماضيًا لمحاربة الفرس. وقد سُمّيَ جاحدًا لأنّه، بعد أن كرّم، فترةً، اللّه الحقّ، عاد إِلى أَنصابه وأَوثانه.

وكان يرافقه النحويّ والعالم اللغويّ ليبانُس، ويسلّيه بأَحاديثه، وعندما اقترب الجيش من قيصريّة التي تراءت أَسوارها، قال الإِمبراطور لرفيق سفره:

– أَتذكر أَنّنا، لخمسة عشر عامًا خلت، مررنا من هنا. كم كانت الحياة حلوةً حينذاك! لم أَكن، بعدُ، قيصرًا، وكان العالم يبدو لي في مثل عمري، لا أَكبر ولا أَصغر سنًّا. وكنّا نسافر سفر الفلاسفة، في موكبٍ متواضعٍ. وعندما انتهينا إِلى باب المدينة، كانت ثلّةٌ من الفتيات بانتظارنا، كي يقدّمنَ لنا هدايا، موجَّهةً إِلى تلميذ ربّات الفنّ أَكثر منها إِلى وارث الإِمبراطور.

وأَجاب ليبانُس:

– أَذكر جيّدًا، وهل تذكر أَنّك، تعبيرًا عن امتنانك لحسن وفادة قيصريّة لك، أَهديت المدينة تمثالاً لجوپيتير؟

– أَجل، وإِن كانت ذاكرتي وفيّةً أَذكر، أَيضًا، أَنّ ذلك التمثال من أَجمل التحف التي أَبدعتها يد المثّال «براكسيتيل».

– كان تحفةً، حقًّا. ولكنّها تحفةٌ لن تراها، بعدُ، أَبدًا.

– ماذا تقول، يا ليبانُس؟ هل دمّرتها صاعقةٌ أَو أَيّ حادثٍ آخر؟

– ليس للصاعقة ولا لأَيّ عنصرٍ من عناصر الطبيعة يدٌ في ذلك. بل أَيدي البشر هي التي حطّمت التمثال.

– يا للآلهة! أَنت تعلم أَنّني لستُ فظًّا، وأَمقت رؤية الدماء. غير أَنّ الذي مدّ يده إِلى هذا التمثال المزدوج التقديس، إِذ إِنّه تمثال إِلهٍ، وإِنتاج عبقريٍّ فذٍّ، سيكفّر عن جريمته، بحياته.

– عليك، إِذن، يا يوليانُس، أَن تعاقب المدينة كلّها، فجميع سكّانها هم الذين انتفضوا على آلهتنا، وحوّلوا التمثال إِلى رغام. وستجد أَنّ كلّ شيءٍ هنا قد تبدّل: القوم، والأَشياء، والتماثيل. معابدنا غدت كنائس. والفتيات احتشمنَ ولن تراهنَّ، بعدُ، يرقصنَ، ويقذفنَ الأَزاهير.

استشاط الجاحد غيظًا، وصاح غاضبًا:

– مرّةً أُخرى، ها إِنّ الجليليّ ينتصر في إِمبراطوريّتي! إِن لم نسارع إِلى إِصلاح الأُمور، ما عسى يحدث لأَشياء كثيرةٍ نؤثرها، أَنت وأَنا، على الحياة نفسها؟

وأَطرق الإِمبراطور بجبينه المتجهّم فوق فرسه، واستغرق في صمتٍ لم يجرؤ ليبانُس على فضّه.

كما توقّع العالم اللغويّ، لم تظهر، عند مدخل قيصريّة، أَيّة فتاةٍ، حاملةً زنابق أو وردًا. الشخص الوحيد الذي صادفوه كان شيخًا هرمًا، هو الأُسقف القدّيس باسيليُس، حاملاً، بيدٍ، عصاه الأُسقفيّة، وباليد الأُخرى، صينيَّةً وُضعت عليها ثلاثة أَرغفة شعيرٍ. وقد خطا نحو الزائر، وقال له:

– تقبّل هذه الأَرغفة، أَيّها القيصر يوليانُس، وأَهلاً بك في ما بيننا.

وأَجاب سيّد العالم:

– وما عساني أَفعل بتقدمتك؟

ثمّ استقام واقفًا على مهاميز سرج فرسه، وأَضاف قائلاً:

– إِنّه لأَحبّ عليّ أَن أَتلقّى شوكًا وقرّاصًا، خيرًا من الخبز الذي تقدّمه لي بيديك! فإِنّما الشعير علف الماشية. فلتُعطَ هذه الأَرغفة طعامًا لخيلي، وليُؤْتَ

بحزمة حشيشٍ لهذا الشيخ، وهكذا سنكون متعادلين.

وأجاب الأُسقف:

– عذرًا، أنت لست محقًّا بظنّك أنّني قصدت إِهانتك. فأنا لم أَبتغِ، بهذه الأَرغفة، إِلاّ الترحيب بك.

وردّ الجاحد، متميّزًا غضبًا:

– لن أَدخل إِلى مدينتك الآن. ولكن بعد أَن أَهزم الفُرْس، سأَمرّ من هنا ثانيةً، وإِن لم أَجد تمثال جوپيتير، الذي قدّمتُه لكم سالفًا، منتصبًا على قاعدته، وإِن لم تعد آلهتي إِلى هياكلها، وإِن لم تكن فتياتٌ في انتظاري بالأَهازيج وسلال الزهور، فالويل لك، يا باسيليُس. فسأقوّض مدينتك، ولن أَترك من كنائسك ومعابدك حجرًا على حجرٍ، ولن تأكل بعد، لا أَنت ولا رعيّتك، خبزًا يابسًا أَو طريًّا.

وبحركةٍ من يده أَوعز القيصر إِلى جيشه بمواصلة السير، فيما تريّث ليبانُس هنيهةً، كي يستوضح الأُسقف عن حقيقة ما سمع بعضهم يؤكّدون، أَنّ يسوع الناصريّ لم يُصلب إِلاّ في طبيعته البشريّة، إِذ كانت طبيعته الإِلهيّة قد هجرته لحظة العذاب، منتقلةً إِلى الديار السماويّة.

وأَجاب باسيليُس:

– إِنّي أَستشمّ، في قولك هذا، الادّعاءات البغيضة التي يروّجها أَتباع آريُس وهراطقةٌ آخرون يرفضون الإِيمان بأَنّ ابن مريم تأَلّم على الصليب لكي يفتدينا ويكفّر عن خطايانا. إِنّما هذه فريةٌ.

وسأله العالم اللغويّ ثانيةً:

– يُقال أَنّ لديك اطّلاعًا على ما يجري في السماء. فقلْ لي ما الذي يفعله ابن النجّار، في هذه اللحظة؟

– إِنّه يصنع نعشَيْن.

لم يفسّر قوله، بل حيّى العالم، وقفل عائدًا إِلى مدينته.

أَسًى غامرٌ انتشر في قيصريّة عندما أُذيعت فيها تهديدات الإِمبراطور الرهيبة. ولكان الحزن أَشدّ وطأةً لو لم يبادر باسيليُس إِلى شدّ عضد رعيّته، قائلاً:

– تشجّعوا. لو شاء هذا الطاغي قتلنا، لتهيّأ له ذلك. ولكن علينا ألاّ نقيم للعيش في هذا العالم الفاني من وزنٍ أكثر من فلسين. فيسوع يقول لنا، في إِنجيله، إِنّ الوثنيّين قد يملكون كلّ قدرةٍ على أَجسادنا، ولكن لا سطوة لهم على نفوسنا.

أَيّد الجميع أَقوال الأُسقف هذه، وهي خير ما يمكن قوله في مثل تلك الظروف. ثمّ ساروا في إِثره إِلى مصلّى القدّيس ميركور، شفيع المدينة، الذي كان، في أَثناء حياته، قد ذاد عن حياضها بالرمح، والدرع والمجنّ، وبات الآن يحميها باستحقاقات فضائله.

وتضرّع الجميع، رجالاً ونساءً، إِكليرُسًا وعلمانيّين، كبارًا وصغارًا، بالأَدعية والدموع، مستغيثين بقدّيسهم، وملتمسين عونه. وبعد أَن قبّلوا، بورعٍ، الأَسلحة التي أَحسن استخدامها، في أَثناء حياته، والتي كانت محفوظةً فوق قبره، بمثابة ذخائر مقدّسة، انتظم الجمع، في تطوافٍ طويلٍ، ميمّمين شطر جبل «دوديمي»، حيث كانت قد أُشيدت كنيسةٌ جديدةٌ، وكُرّست لأُمّ الله الطيّبة.

جثا الأُسقف باسيليُس على ركبتيه وخاطب العذراء قائلاً:

– أَيّتها السيّدة السامية، إِنّ يوليانُس، عدوّ ابنك، المارق، الجاحد، قد أَقسم، حانقًا، على تدمير معبدك، وصورتك، ومدينتك. سينفّذ وعيده، بلا ريبٍ، إِن أَفسح له الإِله الحقّ، ابنك المجيد الذي غذّيتِه بلبنك، من الحياة يومًا واحدًا.

وحينئذٍ نهض، والتفت نحو الشعب الذي ملأَ الكنيسة، بحيث لم يعد فيها متّسعٌ لبيضةٍ، وحرَّضهم على الصلاة للسيّدة العذراء، مؤكّدًا لهم أَنّهم، إِن هم كرّموها كما تريد هي أَن تُكرَّم، بكلّ قلبهم، وكلّ شجاعتهم، ستعرف كيف تقارع الجنون بالعقل، والعاصفة بالعاصفة.

وتوالت الصلوات بلا هوادةٍ، على تلّة «دوديمي»، سحابة ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ، وسط النحيب، والدموع، والأصوام. وكان قدوةً للجميع الأُسقف القدّيس باسيليُس، الذي كان لا يني يردّد:

– أيّتها السيّدة المبجّلة، إِن أَنت أَنقذتنا وحميتنا من هذا المجرم، الذي يبتغي إِيقاعنا في حبائله، فليحلّ على ابنك وعليك التكريم، والنعم، والتسابيح!

وفي اليوم الثالث، استسلم للنوم.

ورأى، في نومه، أَكثر من مئة أَلف فارسٍ، بياضهم أَشدّ نصاعةً من الزنبق، وقد غطّى حشدُهم التلّةَ. ووسط الحشد المبارك، كانت تجلس على عرشٍ متألّقٍ، امرأةٌ لم يكن جمال محيّاها ممكنًا أَن يكون سوى جمال أُمّ اللّه عينها.

وفي الواقع كانت هي. وقد قالت للقدّيس ميخائيل الواقف إِلى يمينها منتضيًا سيفًا من نورٍ:

– هلاّ، ائتِ لي بميركوريون.

توارى الملاك في ثنايا الغمام، وما عتّم أَن ظهر ثانيةً، وقد جاء بالقائد الشهير، مرتديًا ثيابًا بيضاء مثل ثياب أَفراد الجوقة الكنسيّة. وخاطبته السيّدة العذراء، قائلةً:

– يا ميركوريون، لا ريب أَنّك سمعت التهديدات التي لم يخشَ يوليانُس اللعين من توجيهها إِلى هذه المدينة. فاترك هنا رداءك الأَبيض، واستعد درعك ورمحك، وخلّصني من الجاحد الذي قتل العديد من المسيحيّين الطيّبين، والذي يزدرينا ابني وأَنا.

وأَجاب القدّيس ميركور، بلهجة الاندفاع التي طالما تميّز بها:

– سأُنفّذ ما تريدين.

وانحنى انحناءةً عميقةً، إِلى أَن أَوعزت إِليه السيّدة العذراء، بإِيماءةٍ من يدها، أَن ينصرف.

ثمّ اختفى كلّ البلاط السماويّ.

عندئذٍ فتح الأُسقف عينيه، وبقلبٍ تملؤه الرؤيا الإلهيّة، هرع وسط الظلام الدامس إلى مصلّى القدّيس ميركور، حيث أيقظ الحرّاس النيام، وفتح الباب وشخص مباشرةً إلى قبر القدّيس.

وكانت دهشته بالغةً (ولكنّها كانت ستكون أبلغ لو لم يكن الأَمر كذلك) عندما لم يجد الرمح والمجنّ. ولاحظ الحرّاس:

– مع أَنّها كانت هنا عندما قرعنا جرس صلاة الفجر.

هذا الدليل الدامغ جعل رجل الدين يوقن أَنّ الحلم الذي راوده لم يكن إنتاج وهمٍ ليليٍّ، فبكى، وشكر، ضامًّا يديه، السيّدة العذراء وابنها اللّذين يرأفان بالمتواضعين، ويطيحون بصلَف المتكبّرين. وبلا تلكّؤٍ، عاد إلى تلّة «دوديمي» حيث كان الجمع ما زال راقدًا في الكنيسة. فأَيقظهم، وروى لهم رؤياه الرائعة، والحدث الذي لا يقلّ إدهاشًا الذي شاهده على قبر القدّيس. وبصوتٍ جهوريٍّ، هتف:

– كرّموا أُمّ الله، فهي نبع كلّ عطفٍ ونعمةٍ، تلك التي في الشتاء وضعتنا في الصيف، وفي شباط نقلتنا إلى أَيّار، ولا تخشوا، بعدُ، غضب يوليانُس. وأَخذ الجميع، نساءً ورجالاً، يمجّدون السيّدة العذراء، وانتظموا في حجٍّ تقويٍّ شطر المصلّى المكرّس للقدّيس ميركور، حيث كان هذا القدّيس قد سبقهم، وشاهدوا، بذهولٍ رمحه ودرعه ومجنّه، وقد استعادت جميعها مكانها فوق قبره، وقد التمعت على طرف الرمح قطرات دمٍ طريٍّ، مؤيّدةً صدق ما كان قد قاله الأُسقف القدّيس، الذي رفع الحربة عاليًا، كي يراها الجميع، وهتف:

– يا ربّ، ما عسى حدث لذلك الوحش الذي أَمعن في تهديدنا! لا ريب أَنّ رمح القدّيس ميركور قد جمّده للأَبد. وما هذا الدم القاني سوى تأكيدٍ بأَنّ نفسه الآن تتلظّى في جهنّم. فليرعَ هناك العشب وليأكل العلف! أَمّا نحن فلنمجّد ملك السماء وأُمّه اللّذين أَنقذانا من الاستشهاد الذي كان قد حكم به علينا. هلليلويا! هلليلويا!

وسحابة ذلك الأُسبوع لم يُسمع، في قيصريّة، سوى التسابيح والترانيم. ويوم الأَحد، فيما كان الأُسقف القدّيس، باسيليُس، يختتم القدّاس، ظهر في فناء الكنيسة رجلٌ كساه الغبار، وكان هذا الرجل العالمَ اللغويّ ليبانُس، الذي ما إِن صار أَمام الأُسقف، حتّى قال له:

– طبْ نفسًا، فقد قدمت قاصدًا إِعلامك أَنّ سيّدي يوليانُس قد لقي حتفه، بعد أَن اخترقت قلبه حربةٌ، أَطلقتها ذراعٌ مجهولةٌ.

وأَجابه الأُسقف:

– أَنت لا تزفّ لنا أَيّ نبأ جديدٍ، يا ليبانُس. فمنذ ثلاثة أَيّام نحن على علمٍ بما حدث. ولكن سأُطلعك، أَنا، على هويّة من طعن قلب يوليانُس. وتناول من فوق قبر القدّيس، شفيع المدينة، الرمح الموضوع إِلى جانب المجنّ، وقال:

– هذا هو الرمح الذي أَصابه، كما تثبت قطرات الدم التي لم تجفّ بعد. وقد عجز سيّدك عن صدّ طعنة القدّيس ميركور، إِذ ليس بوسع أَيّ إِنسانٍ، حتّى القيصر، صدّ ضربات السماء.

وردّ ليبانُس:

– لم يساورني شكٌّ، يا باسيليُس، بأَنّك ستدّعي المعجزة. ولكن اعلم أَنّ لا شأن لقدّيسك بمقتل قيصرنا الإِلهيّ، الذي سقط بسهمٍ أَطلقها جنديٌّ حاقدٌ، انتقم بدافع الخيانة.

وكانت تلك أَقواله الأَخيرة، إِذ إِنّ أَهالي قيصريّة الذين هاجهم تجديفه انقضّوا عليه، وكادوا يقتلونه بضرباتهم، لو لم يردعهم القدّيس باسيليُس الذي انحنى على ليبانُس، وقال له، بصوتٍ يقطر رأفةً:

– ارعوِ عن ضلالك، يا ليبانُس، واعترف، أَخيرًا، بالله الحقّ.

واكتفى ليبانُس بردّ هدب معطفه على رأسه، وقدّم لجوپيتير الدم المنثال من جراحه، تحت أَنظار الأُسقف الذي أَذهله إِصرارٌ على هذا القدر من الكبرياء، رغم تجلّي الله، تجلّيًا بمثل هذا الوضوح.

الفارس والدلو

لقد أَغفلت الحكاية اسم ذلك الفارس، واكتفت بالإِشارة إِلى أَنّه، خوفًا من الدينونة الأَبديّة، وليس بدافع توبةٍ صادقةٍ، ارتدى، ذات يومٍ، مسحًا، وأَخذ عصا الحاجّ، ويمّم شطر ديرٍ كي يعترف بخطاياه.

وكان اعترافه مستفيضًا. إِذ لم يحدث لمسيحيٍّ، قطّ، أَن نهب بقدر ما نهب هو من كنائس، ودمّر بقدر ما دمّر هو من أَديرةٍ، وسلب بقدر ما هو سلب من مسافرين، وتناول بالتجديف اسم المسيح وأُمّه، بقدر ما هو جدّف. بيد أَنّه كان ما زال يجد من المتعة في سرد جرائمه، بحيث إِنّ الكاهن الذي كان يسمع اعترافه انتابه من الكبرياء الشيطانيّة التي كانت تسرّب إِلى نفسه تلك المتعة، ذعرٌ أَكبر من ذاك الذي أَحدثته جسامة خطاياه ووفرتها. ولمّا فرغ من اعترافه المريع، قال له الكاهن:

– يا بنيّ لا تتوقّع منّي أَن أَحلّك من ذنوبك، فأَنت ما زلت في حوزة إِبليس، والخطايا لا تُغفر إِلاّ للّذين يلجمون شرور نفوسهم.

وأَصاب الفارسَ من الخزي، والذهول، والغضب ما كاد يخنقه، ولم يُحِرْ جوابًا. ولكن سرعان ما استسلم للهياج وصاح:

– أَيّها الراهب، افرض عليّ ما تشاء من كفّارةٍ، فما من محنةٍ تفوق طاقتي. وإِن شئت سأَقطع سيرًا على ركبتيّ مسافةً لم يقطعها إِنسانٌ قطٌّ، إِلى أَن تصبح ركبتاي أَقسى وأَخشن من رُكَب جمال الصحراء.

كان ما يزال يتكلّم والكاهن ملتزمٌ الصمت، وأَخيرًا أَومأ برأسه، معبّرًا عن رفضه عروض الفارس، الذي استأنف قوله:

– أَتريد، إِذن، أَن أَمضي إِلى ما وراء البحار، وأُقاتل؟ فليس في العالم من يفوقني قوّةً وشجاعةً...

وكان الكاهن ما زال ملتزمًا الصمت، وأَومأ ثانيةً، معبّرًا عن رفضه.

وصاح الفارس، وهو يقرع بعصاه بلاط الكنيسة:

– تكلّم! لقد اعترفت لك بخطاياي، وإِنّي أَلتمس كفّارةً، وواجبك أَن تفرضها عليّ، فأَجبْ.

وأَجاب الكاهن برقّةٍ:

– كفاك عنفًا!

حينئذٍ اطّرح الفارس عند قدميه، متوسّلاً:

– ارحمني وخلّصني من الدينونة. فإِنّي أَخشى نار جهنّم الأَبديّة.

ونهض الكاهن وقال:

– لا يسعني، اليوم، أَن أَفعل لك شيئًا. فعُدْ غدًا. وأَنا سأَقضي الليل مصلّيًا، لعلّني أَستطيع إِرشادك إِلى الكفّارة التي ستلهمني إِيّاها السيّدة العذراء، من أَجل خلاصك.

مضى الفارس في سبيله، وقضى الكاهن ليلته كلّها مصلّيًا، بحسب وعده، سائلاً العذراء أَن تلهمه كفّارةً يفرضها على الخاطئ، الذي مع رغبته في الحصول على الرحمة، كان ما زال أَسير كبرياءَ جامحةٍ.

ظهرت العذراء حينئذٍ، حاملةً دلوًا كذاك الذي يحمله الفلاّحون إِلى الحقل من أَجل الحصاد، وقالت له:

– خذ هذا الدلو، وأَعطِه لذلك المتكبّر، وعندما سيملؤه ماءً، ستُغفر له خطاياه.

واختفت العذراء، مثلما جاءت، في ضياء الفجر، تاركةً، بين يدي خادمها الطيّب، الدلو الخشبيّ.

ومنذ انبلاج الصبح شخص الفارس إلى الدير يضجّ صَلَفًا وقلقًا. وناوله الكاهن الدلو، مردّدًا على مسامعه ما كانت العذراء قد قالته، كلمةً كلمةً:

– خذ هذا الدلو، واملأه ماءً. وعندما يمتلئ ستُغفر لك خطاياك.

دهش الفارس لكفّارةٍ على هذا القدر من البساطة، مع أنّه كان قد اقترح ما هو أَصعب منها. وهرول مسرعًا إلى النبع. ولكنّ الماء الذي كان يدخل من فتحة الدلو كان يهرب من أُلوف الثقوب غير المنظورة.

عشرين كرّةً أَعاد المحاولة، وعشرين مرَّةً بقي الدلو فارغًا. وأَخيرًا، إذ ظنّ نفسه ضحيّة عملٍ سحريٍّ، قذف الدلو أَرضًا، وشرع يضربه بقدميه كي يحطّمه ويحوّله فتاتًا. ولكنّ الدلو صمد، مع أَنّه كان يبدو من الهشاشة بحيث كان بوسع ولدٍ تحطيمه.

حينئذٍ قفل الفارس عائدًا إِلى الكاهن، وخاطبه، غاضبًا:

– إِنّ دلوك هو عمل سحرٍ، وأَنا لست ساحرًا. إِنّني أَرتضي أَيّ عذابٍ، ولكن لا قِبَل لي على إِجراء المعجزات. فافرض عليّ كفّارةً يسعني تنفيذها.

وأَجابه الكاهن برقّته المألوفة:

– املأ هذا الدلو، وما إِن تملأه حتّى تُغفر لك خطاياك!

قال هذا، وابتعد تاركًا الفارس يتميّز غيظًا، مردّدًا: «إِنّهم يسخرون منكَ! فدع جانبًا هذا الدلو، وهذا المسح، وهذه العصا، وامتطِ فرسك، واستلّ سيفك، واستأنف العيش كما عشت حتّى اليوم...». ولكن في تلك اللحظة عينها، تراءت له نيران جهنّم الأَبديّة، باعثةً في نفسه الرعب. وما لبث أَن لمّ عصاه، وعلّق الدلو على كتفه، وانطلق يبحث عن الماء العجيب الكفيل بملء دلوه.

وضرب في كلّ أَرجاء البسيطة، ومخر عباب البحار كلّها، وطاف بكلّ الأَنهر، المتجمّدة منها والملتهبة، تلك التي تضيع في الرمال، والتي تغور تحت

أَوراق الأَشجار، تلك التي لا تغذّي حياةً، وتلك الآهلة بالأَسماك العجيبة، تلك التي لا تجرف سوى الأَوحال، وتلك التي تجرّ حجارةً ذهبيّةً، تلك التي لا يغتسل فيها سوى الوثنيّين، والنهر الأَجمل والأَثمن حيث عمّد يوحنّا الربَّ.

وانحنى على كلّ الينابيع ، تلك التي تخصّ الحوريّات، وتلك التي يمتلكها القدّيسون، تلك التي توفّر أَزواجًا للفتيات، وتلك التي تؤتي المعتلّين الشفاء. ولكن لا نبع ولا ساقية، ولا بحيرة، ولا نهر، ولا محيط، استطاع أَن يُبقي في الدلو قطرة ماءٍ.

ولكم خطر للسائح اليائس أَن يتخلّص من الدلو المسحور! ولكنّ النار أَبت أَن تحرقه، والحجارة رفضت تحطيمه، وحتّى عندما كان يقذف به إِلى أَعماق الوهاد، كانت قوّةٌ لا تقاوَم تدفعه إِلى النزول لانتشاله. وهكذا، مهما فعل، لم يجد سبيلاً لا إِلى حرقه، ولا إِلى تحطيمه، ولا إِلى إِضاعته... ولم يفلح أَبدًا في ملئه.

وبعد زمنٍ طويلٍ، طويلٍ جدًّا، توقّف حاجٌّ مرتعدًا بردًا وأَسًى، عشيّة عيد الميلاد، أَمام الدير الذي كان قد شخص إِليه، قديمًا، تائبٌ يضجّ صَلَفًا منقطع النظير.

لم يتعرّفه الكاهن، فسأله:

– مَنْ أَنت يا فقير اللّه؟

ولم يجب فقير اللّه، (وكان فقره إِلى اللّه مزدوجًا، فقد كان يخصّ اللّه ويفتقر إِليه في الآن عينه) ولكنّه أَفرج معطفه عن دلوٍ فارغٍ يكسوه الغبار، وقال:

– انظر، وتعرّف الدلو الذي سبق لك أَن أَعطيتني إِيّاه. لقد غطّسته في كلّ الينابيع ، وكلّ البحيرات، والأَنهر، والبحار، ولم يحتفظ قعره بقطرة ماءٍ. أَوّاه! إِنّ دينونتي محقّقةٌ. وكم أَنا نادمٌ على حياتي!

ولدى تلفّظه بهذه الأَقوال، تفجّرت دمعةٌ من عينيه، وهبطت في الدلو، فملأَته.

العبرة

هذه الحكاية تقول لنا بوضوحٍ:

أَنتم يا مَنْ يخطأون، أَمعنوا في البكاء.

فالدمعة الحرّى تقوى على الخطيئة، فتغسلها، وتلمّع وتنظّف ما دنّسته وسوَّدته.

العذراء والخاتم

كانت في إِحدى المدن كنيسةٌ عتيقةٌ متداعيةٌ، تنذر بالانهيار، وقرّر أَهل المدينة ترميمها. فوضعوا أَمام بابها تمثالاً للعذراء كان، سالفًا، في صحنها، وكان كلّ مارٍّ بقربها يضع عند قدميها ما يتيسّر له من تقدمةٍ، صغيرةً كانت أَو كبيرةً، علّها تسهم في توفير تكاليف الترميم.

وقد أَلف الشبّان التلاقي في ساحةٍ أَمام هذه الكنيسة لممارسة لعب الكرة، وأَلعابهم الأُخرى. ووافى ذات يومٍ أَمهر لاعبٍ، وكان قد تلقّى، عشيّة اليوم السابق، عربون ارتباطٍ، خاتمًا من صديقةٍ كان قد أَقسم لها على وفائه.

وخشي أَن يفقد الخاتم، في أَثناء اللعب، أَو أَن يُلحق به أَذًى، فشخص إِلى الكنيسة كي يودعه في مكانٍ أَمينٍ. ولكنّه لدى مروره أَمام التمثال الذي كان الأَغنياء والفقراء يضعون عند أَقدامه تقادمهم، توقّف، فجأةً، وكأَنّ الصاعقة قد ضربته، فجثا على ركبتيه، وهتف:

– يا سيّدة السماء، أَين كان عقلي، حتّى الآن؟ فأَنت جديرةٌ بالحبّ أَلف مرَّةٍ أَكثر من تلك التي أَهدتني هذا الخاتم، والتي أَهديتها قلبي، في نوبة جنونٍ. ولكنّني أَنبذ، منذ الآن، حبّها الباطل وهداياها، وأُقسم أَلاّ أَرتبط بسواكِ.

ونهض فانتزع الخاتم من إِصبعه، ووضعه في إِصبع السيّدة العذراء.

وفي تلك الأَثناء، كان رفاقه يلحّون في استدعائه كي يبدأوا لعبتهم. فانضمّ إِليهم، ولم يُطلعهم على شيءٍ ممّا حدث له. وأَخذ منه حماس اللعب كلّ مأخذٍ، بحيث نسي القَسَم الذي أَقسمه قُبَيْل قليلٍ. ولمّا فرغ من اللعب عاد إِلى تمثال العذراء كي يستعيد الخاتم.

ولكنّ السيّدة العذراء تتمتّع بذاكرةٍ منيعةٍ. فباءت كلّ جهوده لانتزاع الخاتم من إِصبع تمثالها بالفشل. وأَعاد المحاولة عشر كرّاتٍ، بل عشرين كرّةً، إِلى أَن استسلم أَخيرًا، ومضى إِلى صديقته يتنازعه الهمّ، حائرًا كيف سيفسّر لها غياب الخاتم من إِصبعه. فاختلق واحدةً من تلك الروايات التي تُروى لمرأةٍ تلحّ في الاستفسار. ومن جديدٍ استحوذ حبّها الجنونيّ على ذهنه وقلبه بحيث عدّ الوعد الذي قطعه لتمثال العذراء حماقةً.

وفي الليل، راوده حلمٌ ظهرت له فيه العذراء، وأَرته الخاتم الذي كان ما زال يزيّن إِصبعها، ونعتته ثلاث مرّاتٍ بالحانث وناقض العهود. وقد أَوجعه هذا الحلم وجعًا بليغًا، فما إِن انبلج صباح الغد حتّى هرع إِلى صديقته، وأَطلعها على كلّ ما جرى له، بأَدقّ حذافيره. ولّما فرغ من اعترافه، قالت له:

– هيّا بنا إِلى الساحة.

وانتهوا إِلى أَمام التمثال، فارتمت الفتاة عند قدميه، قائلةً:

– أَنتِ تعلمين أَنّني كنت أُحبّ، محبّةً رقيقةً، هذا الصديق، وقد أَهديته الخاتم الذي تلبسينه في إِصبعك الآن. ولكنّه ضربٌ من الجنون إِيثار القُرّاص البرّيّ على الورد، والشوك على زهر النسرين. ولذلك وبطيبة خاطرٍ، إِنّي أُعتقه من قسمه بالوفاء لي، بما أَنّه آثر أَن يكون وفيًّا لكِ. وأَنا من جهتي لن أُحبّ سوى ابنك.

ولدى سماعها هذا القول، أَجابت السيّدة العذراء الكلّيّة الطيبة، والتي هي باب الفردوس ونافذته:

– بما أَنّ هذه هي مشاعرك، فلن أَتخلّى عنك. فاحتفظي بمن أَقسم لك الوفاء أَوّلاً. ولكن فليكن هو، في المستقبل، أَكثر التزامًا بوعوده!

وحينئذٍ مدّت يدها، وتركت الخاتم يهبط إِلى الأَرض.

ولكنّ الرواية تقول إِنّ الفتاة لم تُعِد الخاتم إِلى إِصبع صديقها، فكلٌّ منهما، اختلى في ديرٍ، متأثّرًا، على السواء، بعطف السيّدة العذراء.

بهلوان العذراء

يحكي سفر أَعمال القدّيسين أَنّ بهلوانًا شهيرًا يُدعى «غينهوشيه»، كان يُعَدّ أَمير القفّازين، وسفير القمر، وسيّد المجانين، وإِمبراطور الحمير، كاد، ذات يومٍ يدقّ عنقه، وهو في حالة خطيئةٍ مميتةٍ، فمسّته النعمة، ونذر أَن يُكرّس نفسه للسيّدة العذراء. فوزّع أَدوات مهنته، مهديًا لهذا عجلاته، ولذلك الحبل الذي يستعين به على القفز، وشَخَص، صفر اليدين، ولكن بقلبٍ مفعمٍ إِيمانًا، إِلى أَقرب ديرٍ.

دهش رئيس الدير لرؤية ذلك الحاجّ الغريب، وتفاقمت دهشته عندما اطّلع على النذر الذي ارتبط به. وكان رئيس الدير ذاك ضليعًا في العلم، ورجل فضيلةٍ، ولكنّه كان أَكثر ميلاً إِلى تغليب العلم على العمل. فسأل زائره:

– يا ابني، ما الذي تجيد عمله في سبيل خدمة اللّه؟

وأَجاب البهلوان:

– للأَسف، لا أَعرف أَن أَعمل سوى مكابح للبقر، وقفّازاتٍ للكلاب، وقبّعاتٍ للماعز، ودروعٍ للأَرانب البرّيّة، وشتّى صنوف الحماقات، مثل فصد الهررة، وحجامة الأَبقار، وطلاء البيوت بالبيض المقليّ. ولي قدرةٌ على تقليد عواء الثعالب، وهديل الحمام، والتكلّم من بطني، والقيام بمئة أَلف حيلةٍ لتسلية الناس. ولكن لا بدّ لي من الاعتراف بأَنّني لم أَرتقِ، يومًا، نحو الفردوس، أَكثر من ارتفاع قفزةٍ.

فقال له رئيس الدير:

– امضِ، إذن، في سبيلك، يا صديقي، وكن رجلاً فاضلاً في مهنتك. فليس لك مكانٌ في هذا الدير، حيث نعبد اللّه الآب، وابنه الإِلهيّ، والعذراء مريم، بالصلاة، والتأمّل، والترتيل. وهذه أُمورٌ يتعذّر تعلّمها في مثل سنّك.

ولكنّ البهلوان أَمعن في الإِصرار على المكوث في الدير إِلى أَن قُبل فيه بمثابة أَخٍ مساعدٍ.

وقد أَثبت جدواه بمئة طريقةٍ، فكان، على التوالي، بستانيًّا، ونجّارًا، وإِسكافيًّا، وخيّاطًا، وصائد سمكٍ، وطبّاخًا، وأَجاد هذه المهن كلّها. كان منقطع النظير، ولا يُشقّ له غبارٌ في استخدام أَصابعه العشر، ولكنّه كان فاشلاً في استخدام عقله. الكتب المدوّنة باللغة التي يتحادث بها الملائكة، والرائحة في حقول الفردوس، كانت له سرًّا مغلقًا. وسرًّا مغلقًا، أَيضًا، كانت له العلامات الموسيقيّة المدوّنة على كتب الصلوات مثل عصافير فوق الأَغصان.

ولم يفهم، يومًا، سبب تغيّر التراتيل بتغيّر الفصول والأَيّام، ولمَ كانت أَلوان زينة الكنائس أَكثر تبدّلاً من تقلّبات الطقس؟.... كان يركع، ويستقيم، وينتزع قلنسوته أَو يغطّي بها عينيه، متمثّلاً برفاقه، ولا يفهم ممّا يحدث شيئًا، وفي خشيةٍ دائمةٍ من إِغضاب شخصٍ سماويٍّ، في غفلةٍ منه، إِذ كان يعمل دائماً عكس ما يتوجّب عليه فعله، فيركع عندما يتعيّن الوقوف، وينهض عندما يتعيّن الجلوس، ويشيع، من جرّاء عدم كفاءته، السخريّة، في الاحتفالات الدينيّة، إِلى أَن استدعاه، ذات يومٍ، رئيس الدير، وقال له:

– يا ابني «غينهوشيه»، ستمتنع، بعد الآن، عن الحضور إِلى المصلّى، في أَثناء الصلوات الجماعيّة، إِذ لا يسوغ أَن تُشتَّت أَذهان الجميع، بسبب خطأ شخصٍ واحدٍ.

حزن الأَخ المسكين حزنًا هاصرًا، ولكنّه اضطرّ إِلى الامتناع عن الشخوص إِلى المصلّى حتّى خلوّ الرهبان منه. وحينئذٍ، كان يجثو بتواضعٍ أَمام السيّدة

العذراء، وفي قلبه غصّةٌ لعجزه عن تكريمها بصلاةٍ جميلةٍ، باللغة اللاتينيّة، أُسوةً بالآخرين. وذات يومٍ خاطبها قائلاً:

– يا أُمّ اللّه، اغفري لي جهلي، إذ لم يتهيّأ لي، يومًا، في طفولتي، أن يلقّنني معلّمٌ أن أُحرّك لساني في مدرسةٍ. فلم أتعلّم سوى تحريك جسدي. فتكرّمي واقبلي هديّة ما علّمني إيّاه الزمن.

وفي الحال خلع ثوبه، وعقد قميصه حول حقويه، وشرع يقوم ببهلوانيّاته وقفزاته، ودورانه حول نفسه. ولا يتوقّف إلاّ ليهتف للعذراء، بين قفزةٍ وأُخرى:

– يا أُمّ اللّه، وهذه قفزة الملكة، وهذه قفزة المنطقة الفلانيّة، وهذه... ولمحه راهبٌ كان مارًّا بالمكان، فذهل، وهرع لإخبار رئيس الدير، الذي لم يساوره أيّ شكٍّ باستحواذ الشرّير على «غينهوشيه»، فشخص إلى المصلّى، ومن فرجة بابه شاهده وهو يقوم ببهلوانيّاته، وكأنّه في ساحة البلدة.

وبغتةً وثب البهلوان وثبةً عاليةً جدًّا، وهبط على درج الهيكل، وقد انقطع نفسه. ولكنّ العذراء كلّيّة العطف انحنت عليه، وشرعت تلوّح له بأعطاف ثوبها كي تزوّد رئتيه ببعض الهواء.

ولمّا رأى رئيس الدير ذلك، انسحب خلسةً، وقد امتلأ قلبه إعجابًا، ووطّن العزم على ألاّ يقيم، في المستقبل، الوزن الأرجح، للعلم...

وفي ذلك اليوم عينه انتقل الأخ «غينهوشيه» إلى جوار ربّه، ووُوري جثمانه في مقبرة الدير، محاطًا بأعظم تكريمٍ.

الدراهم الذهبيّة الثلاثة

كان إِنسانًا مثلكم ومثلي، لا أَفضل ولا أَسوأ، خاطئًا مسكينًا.

ما الذي اقترفه؟ لست أَدري. لا ريب أَنّها خطيئةٌ أَشدّ خطورةً من سواها، في يومٍ كان اللّٰه قد تركه لنفسه، فترةً طويلةً.

وكان يُقتاد إِلى المشنقة، في مدينة تولوز، بين الجلاّد والقضاة، وسط حشدٍ من الفضوليّين ومن الأَوغاد الذين وافوا ليشهدوا ما ينتظرهم في الغد.

واتّفق أَنّ الملك رينيه كان يدخل مدينة تولوز، في ذلك اليوم، برفقة عروسه الجميلة «أود» التي كان قد عقد قرانه عليها في بلدٍ مجاورٍ.

ولدى مرور الموكب على مقربةٍ من المشنقة، شاهدت الملكة المحكوم عليه جاثمًا فوق مرقاةٍ، وقد عُقد الحبل حول عنقه. فلم تنجح في كبح صرخة هولٍ، وأَخبأت رأْسها بين راحتيها.

وأَوقف الملك الموكب، وأَشار إِلى الجلاّد بالتريّث، والتفت نحو القضاة وسأَلهم:

– أَيّها السادة القضاة، إِنّ الملكة تسأَلكم، بمثابة تأْهيلٍ بها، أَن تتكرّموا وتصفحوا عن هذا الرجل.

ولكنّ القضاة أَجابوا:

– أَيّها الملك، لقد اقترف هذا الرجل جريمةً لا تُغتفر. ومع كلّ رغبتنا في إِرضاء الملكة إِلاّ أَنّ الشرع يقضي بشنقه، لا محالة.

واستفسرت الملكة الجميلة «أود»، بخجلٍ:

- وهل هناك، في العالم، خطأٌ لا يمكن غفرانه؟

وأَجاب أَحد مستشاري الملك:

- بالتأكيد، لا.

وبيّن أَنّ تقاليد مدينة تولوز تسمح بافتداء أَيّ محكومٍ لقاء أَلف درهمٍ ذهبيٍّ. فأَجاب القضاة:

- هذا صحيحٌ. ولكن من أَين لهذا الصعلوك، مثل هذا المبلغ الطائل؟

وفتح الملك صندوقه وأَخرج منه ثماني مئة درهمٍ. وفتّشت الملكة محفظتها، فلم تستطع أَن تستخرج منها أَكثر من خمسين درهماً ذهبيًّا. وقالت:

- أَلا يكفي ثماني مئةٍ وخمسون درهمًا لافتداء هذا الرجل المسكين؟

وأَجاب القضاة المتزمّتون:

- إِنّ القانون يقتضي أَلف درهمٍ.

وحينئذٍ، استخرج جميع أَفراد الموكب الملكيّ كلّ ما كانوا يحملونه من مالٍ، كي يتبرّعوا به، هم أَيضًا. وأُحصي المجموع، وأَعلن القضاة:

- لقد تجمّع تسع مئةٍ وسبعةٌ وتسعون درهمًا، وما زال ينقص ثلاثة دراهم. فاعترضت الملكة غاضبةً:

- هل سيشنق، إِذن، هذا الرجل، من أَجل ثلاثة دراهم؟

وأَجاب القضاة:

- لسنا نحن من يقتضي ذلك، ولكن ليس بوسع أَحدٍ تغيير القانون. وأَشاروا إِلى الجلاّد بالتنفيذ.

وصاحت الملكة:

- توقّفوا، وفتّشوا هذا الرجل المسكين، فقد يكون لديه ثلاثة دراهم.

وامتثل الجلاّد، فنبّش جيوب المحكوم، ووجد فيها الدراهم الثلاثة.

أيّها المسيحيّون!

هذا الرجل الذي شاهدتموه، في هذه الحكاية، معرَّضًا للشنق، هو أَنتم، وهو أَنا، وكلّ البشريّة الخاطئة... وفي يوم الدينونة لن ينقذنا شيءٌ، لا رحمة الله، ولا شفاعة العذراء، ولا استحقاقات القدّيسين، إِن لم نكن نمتلك ثلاثة دراهم من الإِرادة الطيّبة.

المغنّية والبحر الهائج

ذات يومٍ، في مرفأٍ فرنسيٍّ، استقلّت مركبًا قاصدًا منطقة بريتانيا، امرأةٌ ماهرةٌ في الرقص، بقدر ما هي ماهرةٌ في الغناء والعزف على الأَرغول.

بادئ الأَمر أَقبل عليها الجميع، بحّارةً ومسافرين، كي يمتدحوا رقصها وغناءها وعزفها. ولكن ما إِن أَصبح المركب في عرض البحر حتّى هاجت أَمواجه، بغتةً، فقال البحّارة في ما بينهم:

– هذا عملٌ شيطانيٌّ. فابنة إِبليس هذه قد سبّبت لنا هذه العاصفة، عقابًا عن خطاياها!

بدا لهم الأَمر من الوضوح، بحيث لم يمعنوا في التفكير، وسارعوا إِلى إِلقائها في اليمّ.

في مواجهة الخطر الداهم لم تفقد المرأة رشدها، وفيما كان ثوبها الذي انتفخ وانبسط من حولها يُبقيها عائمةً، وجّهت للسيّدة العذراء هذه التحيّة:

«عندما أَرسل الله، لأُمّه الرقيقة، «السلام»،

غسل «السلام» العالم كلّه من جميع شروره،

كانت حوّاء قد جاءت بالشتاء، والحزن، والاضطراب،

وجاء «السلام» بالصيف، والزهور، وبأَيّار.

حوّاء أَوصدت لنا باب السماء، و«السلام» أَشرعها لنا.

أَيّها «السلام» عندما يُدوّن اسمك على كتابٍ،

تضحك صفحة الكتاب...».

وكانت السيّدة العذراء، في علياء سمائها، محاطةً ببلاطها السماويّ، تسمع هذه التحيّة، وتتمتّع بغناء المرأة.

وجثا القدّيس «جينيست» شفيع المنشدين، والمغنّين، والمهرّجين، راكعًا، وهتف:

– ارحميها يا أُمّ المخلّص!

وكرّر جمهور الملائكة ورؤساؤهم:

– ارحميها، فلم يوجّه أَحدٌ مثل هذا السلام، وهو يواجه خطر الهلاك.

وقالت السيّدة العذراء:

– وهذا ما أعتقده، أنا أَيضًا.

والتفتت إِلى رسولها الملاك جبرائيل، قائلةً:

– أَيّها الملاك الجميل، امضِ إِلى صديقتنا الريح، ومرها بأَن تنقل إِلى مرفأ بريتانيا هذه الفتاة، فهي أَكثر خفّةً من قشّةٍ، ولكنّها طيّبة القلب.

ووافى جبرائيل الريحَ، في الحال، وقال لها:

– أَيّتها السيّدة الريح إِنّ ملكة السماء تطلب منك أَن تحملي في الفضاء، حتّى مرفأ بريتانيا، جسم مغنّيةٍ تواجه خطر غرقٍ داهمًا.

وأَجابت الريح:

– وأَسفاه! عد إِلى سيّدتك، وقل لها إِنّ نَفَسي لا يملك من القوّة ما يمكّنه من تنفيذ ما تطلب منّي. استعذرها عنّي، من فضلك، وقدّم لها أَسفي.

وعاد جبرائيل إِلى السماء حاملاً جواب الريح، وقال للسيّدة العذراء مبتسمًا:

– إِنّ صديقتنا الريح لم تعد شابّةً! فلنستغنِ عن خدماتها.

وانحنت العذراء على حافّة غيمةٍ، وتركت شعرها يتهاوى حتّى البحر الهائج. وتعلّقت المغنّية بحبل النجاة الإلهيّ هذا، وقد أَمست عاجزةً عن إِكمال نشيد «السلام»، حتّى انتهت إِلى بريتانيا سالمةً معافاةً.

وهناك تخلّت عن الأَرغول والغناء، واختلت في منسكٍ، وقد عزمت أَلاّ تُعنى، في مُقبل الأَيّام، إِلاّ بأَجراس الدير.

أُمّ البابا

كان اسمها مثل اسم العذراء، ماري، واسم زوجها يوسف، وكان هو، أيضًا، نجّارًا. ولكن، هنا كانت تتوقّف وجوه الشبه مع العيلة المقدّسة، فالزوج كان يتناول من الشراب أكثر ممّا يقتضيه إرواء عطشه. والزوجة كانت تزهو كبرياءَ بالأبناء الثلاثة الذين أَنعم عليهما بهم الربّ، وكانت بكبريائها تُغضب الجميع.

صحيحٌ أَنّ أولئك الأَبناء الثلاثة، كانوا يتميّزون عن كلّ شبّان القرية بورعٍ وذكاءٍ كانا لجميعهم مدرجةً إلى مصيرٍ مشرقٍ. فقد أَصبحوا، هم الثلاثة، كرادلةً، وهو أَمرٌ لم يُشاهَد له نظيرٌ في أَيّ بيتٍ، وهذا ما دفع زهوها بهم وبذاتها إِلى أَوج الكبرياء.

لا ريب أَنّها بلغت ذروة الكبرياء، حقًّا، وازدادت انتفاخًا وزهوًا، عندما قضى البابا نحبه، وخلفه بكر أَبنائها، ما أَفقدها رشدها، بحيث خُيّل إِليها أَنّها تفوق العذراء مريم ذاتها امتيازًا.

بادئ الأَمر احتفظت بهذه الخاطرة لنفسها، في مظانّ قلبها، ولم تجسر على إِعلانها لأَحدٍ. ولكنّها أَلِفتها، شيئًا فشيئًا، وزادها رسوخًا الرفاه الذي باتت تعيش في أَحضانه، والمدائح المفرطة التي كانت تنهال عليها من كلّ صوبٍ، وأَمعنت في العُجْب بنفسها، بحيث لم تقوَ على كتمها عن خادمتها.

وفيما كانت تلك الخادمة، ذات يومٍ، تُلبسها ثيابها، استعدادًا لشخوصها إِلى الكنيسة لسماع العظة، ورغبةً منها في مداهنتها، وتملّقها، واختلاق ما يزيدها عُجْبًا بنفسها، قالت لها:

- لست أَرى امرأةً في العالم، أَغدق عليها اللّه، في مثل هذه الفترة القصيرة، بقدر ما أَغدق عليك من نِعَمٍ.

وأَجابت أُمّ البابا:

- أُقسم أَنّك لم تتلفّظي، يومًا، بأَصدق من هذا الكلام. فأَنا، أَيضًا، لستُ أَعرف امرأةً رفيعة النَسَب، حيّةً أَو ميتةً، يمكنها التمثّل بي، وسأُبيّن لك سبب ذلك. فبين نساء العالم قاطبةً، من هي التي تُعدّينها الأولى؟

وأَجابت الخادمة:

- من المحقّق أَنّها السيّدة العذراء.

واعترضت أُمّ البابا:

- هذا أَمرٌ مشكوكٌ فيه. فمريم العذراء لم تُرزق سوى ابنٍ واحدٍ، أَمّا أَنا فرُزقت ثلاثة أَبناءٍ.

واعترضت الخادمة مذهولةً:

- هذا صحيحٌ، ولكنّ ابنها كان اللّه عينه!

- أَعرف ذلك. ولكن أَليس بكر أَبنائي هو اللّه على الأَرض، وأَليس ابناي الآخران معَدَّين ليكونا كذلك؟ ومن ثمّ يسعني أَن أَستخلص، بحقٍّ، أَنّي، إِن لم أَتفوّق على أُمّ اللّه، فإِنّي، أَقلّه، أُعادلها... فما رأيك في ذلك؟

في هذه النوبة التزمت الخادمة بالحذر وأَجابت:

- أَدع لمن هم أَوفر منّي علمًا تقرير ذلك.

ولفتت نظر مخدومتها إِلى أَنّ وقت العظة قد حان.

وشاءت الصدفة، أَو بالحريّ شاء اللّه أَن تكون الكبرياء هي موضوع العظة، وروى الواعظ، تأكيدًا لأَقواله، قصّة أَجمل الملائكة، لوسيفورُس، الذي ادّعى

مساواته للخالق، فدُفع، بسبب ذلك، إِلى الظلمات الأَبديّة، التي لن ينجو منها أَبدًا.

وكانت العظة من شدّة الوقع والإِقناع، بحيث بكى جميع الحضور، وكانت أولى الباكيات أُمّ البابا.

وما إِن انتهت صلاة الغروب حتّى استدعت معرّفها، وبادرته بالقول، وسط تذريف الدموع:

– ها إِنّ أَمامك أَسوأ خاطئةٍ وضعتها امرأةٌ يومًا. فعوضًا عن شكر اللّه، بتواضعٍ، كلّ يومٍ، على ما انتهى إِليه أَبنائي، إِذ إِنّ أَحدهم هو الحبر الأَعظم، والاثنين الآخرين كردينالان، انتفختُ كبرياءَ، ولم أَخشَ أَن أُقارن نفسي بالعذراء مريم، بل وضعت نفسي في مقامٍ يسمو على مقامها، تحدوني فكرةٌ حمقاء بأَنّها لم تحمل سوى إِلهٍ واحدٍ، فيما أَنا أُمّ ثلاثة أَبناءٍ بإِمكانهم أَن يكونوا اللّه على الأَرض. ولم أَقتصر على التفكير بذلك، بل قلته علنًا. وعن هذا أَستغفر اللّه وأُمّه القدّيسة، فأَنا لست حتّى قطرة ماءٍ من نبعها. وإِنّي أُعوّل عليك كي تفرض عليّ كفّارةً تتناسب وجسامة خطيئتي.

غير أَنّ الكاهن وجد الخطيئة من الجسامة، بحيث لم يجسر على تحمّل مسؤوليّة حلّها منها، فأَحالها إِلى مستشار البابا، فهو ضليعٌ في علم اللاهوت، وأَقدر منه على البتّ في الأَمر.

ومثلت المرأة في الحال أَمام مستشار البابا، الذي قال لها:

– أُقسم بالصليب المقدّس أَنّه فرحٌ عظيمٌ لي، يا سيّدتي، أَن أَستقبلك في منزلي. فمن أَين لي هذا الشرف؟

– وا أَسفاه، يا سيّدي، أَنا لست آتيك بما يُشرّف. بل إِنّ معرّفي هو الذي أَرسلني إِليك لكي تنتزعني من العار الذي أَودت بي إِليه خطيئتي.

– ما الأَمر، إِذن، يا سيّدتي؟

– إِنّها خطيئةٌ من الجسامة بحيث أَخشى أَلاّ يكون لها غفرانٌ.

– اطمئنّي، يا سيّدتي، فما من خطيئةٍ تستعصي على رحمة اللّه. ولا ريب أَنّ مَنْ قُيّض لها أَن تكون أُمّ وكيل اللّه على الأَرض، وأُمّ كردينالين، ستلقى دائمًا أُذنًا مصغيةً في السماء.

ركعت المرأة على ركبتيها، وقالت:

– لست أَظنّ ذلك، وتلك هي المشكلة...

وسردت له بالتفصيل، كما كانت قد فعلت قبل قليلٍ، إِلى أَيّ مدًى أَفضت بها الكبرياء التي أَوحتها لها مناصب أَبنائها.

وعقدت الدهشة لسان مستشار البابا، إِلاّ أَنّه تجرّأ، أَخيرًا، وصارحها:

– خطيئتك، يا سيّدة تحاكي، محاكاةً غريبةً، خطيئة لوسيفورُس، التي تحدّث عنها الكتاب المقدّس، لا بل هي تفوقها خطورةً. فذلك الملاك المتجبّر ما إِن كوّن فكرته في ذهنه حتّى قُذف به إِلى جهنّم. أَمّا أَنتِ فقد داعبت فكرتك البشعة سحابة أَشهرٍ، بل سنواتٍ...

وأَخيرًا، أَعلن مستشار البابا، مثلما كان قد أَعلن، قبله، معرّف أُمّه، أَنّه يشعر بعدم أَهليّته لحلّها من خطيئتها، فعليها التوجّه إِلى البابا شخصيًّا.

ولكنّها تساءلت:

– أَلا يسعني، قبل ذلك، أَن أَتوجّه إِلى ابنيَّ الكردينالين؟

– كما ترغبين، يا سيّدة، ولكنّي أَظنّ أَنّ التوجّه إِلى البابا هو الأَفضل لكِ.

ولكن بما أَنّها كانت متشبّثة بفكرتها، فقد استدعت ابنيها الكردينالين لموافاتها، حالما يستطيعان، إِلى منزل مستشار البابا، الذي تولّى بنفسه إِحاطتهما علمًا بخطيئة والدتهما، إِذ إِنّها لم تعد تملك جرأة إِعادة اعترافٍ أَدلت به مرّتين.

وما إِن فرغ المستشار من بيانه حتّى استفسرها أَحد ابنيها:

– هل هذا صحيحٌ، يا سيّدة؟ وهل هذا ما حدث فعلاً؟

فأجابت:

– هذا ما حدث بحذافيره، لا أَقلّ ولا أَكثر.

حينئذٍ تدخّل الكردينال الآخر، وقال:

– فلنرَ معًا، يا أَخي، ومع مستشار البابا، هل يمكن حلّ أُمّنا من خطيئتها. فقد اعترفت اعترافًا كاملاً، ونحن نشهد بوضوحٍ، أَنّ اعترافها كان صادقًا. أَوَليس، ثمّة، سببان كافيان لحلّها من خطاياها، بعد فرض كفّارةٍ؟

وأَجاب الكردينال الآخر:

– أَجل، ولكن أَيّة كفّارة؟ هنا تكمن العقبة. فالعدل يقتضي الردّ بقدر الأَخذ. وأُمّنا لم تخطئ بحقّ ملاكٍ أَو قدّيسٍ، بل بحقّ اللّه نفسه، وبحقّ ملكة الفردوس.

– لا ريب. ولكن تذكّر، يا أَخي، أَنّ مريم المجدليّة التي كانت تدعى الخاطئة، لأَنّ شياطين عديدةً كانت تستحوذ عليها، ما إِن بكت عند قدميْ يسوع، حتّى غفر لها الربّ، ولم يفرض عليها من كفّارةٍ سوى التخلّي عن حماقة حياتها السالفة.

– ولكنّ المجدليّة، يا أَخي، لم تخطئ إِلاّ بحقّ نفسها، ولم تخطئ تجاه اللّه.

كان هذا، أَيضًا، هو رأي مستشار البابا، الذي لم يصادف، من قريبٍ، ولا من بعيدٍ، خلال خمسين سنةً أَنفقها في المطالعة والبحث، ما يشبه هذه الخطيئة التي كان يجري البحث في أَمرها.

وأَخيرًا خلص ابنها الكردينال إِلى قرارٍ، فقال لأُمّه:

– لا بدّ، يا أُمّاه، من المثول أَمام البابا. فلست أَجد حلاًّ آخر.

وقال ابنها الكردينال الآخر برقّةٍ:

– افعلي هكذا، وسيكون فعلك حكيمًا.

وشخص الكردينالان وأُمّهما، يلحقهما المستشار، ويتقدّمهما الحرس، إِلى البابا، الذي قال وهو يراهم يدخلون:

– يا إِخوتي، وأنتِ، يا أُمّي، فليحفظكم الله، بأَيّ نبأٍ تأتونني؟

وقالت أُمّه وهي تطّرح على ركبتيه:

– شكرًا يا بنيّ، شكرًا يا ابني الطيّب. شكرًا، أَيّها السيّد الرفيع المقام، من قِبَل أُمٍّ جاءت تلتمس غفرانك.

والتفت البابا نحو أَخويه، مستفسرًا:

– هل ارتكبت والدتنا خطيئةً من الجسامة بحيث يعود إِليّ وحدي أَمر البتّ في أمرها؟

وأَجابه أَخوه الكردينال الأَقلّ تعنّتًا:

– إِنّ والدتنا تعاني قلقًا من الشدّة بحيث يتحطّم قلبي من أَجلها.

وقال الكردينال الآخر بصرامةٍ:

– إِن كان قلقها بهذه الشدّة، فلهذا القلق ما يبرّره

والتفت البابا إِلى مستشاره مستفسرًا:

– وأَنت أَيّها المستشار، أَلم يكن بوسعك حلّها من خطيئتها، من غير أَن تكرهها على المجيء إِليّ؟

– لو فعلت ذلك، أَيّها الأَب الأَقدس، لكنتم عددتموني مجنونًا، بالتأكيد. تفضّل فقط واسمع القصّة.

كانت أُمّ البابا ما زالت راكعةً أَمام ابنها، وعلى هذه الحال، روت للمرّة الثالثة، كيف تردّت إِلى مستوى أَحقر المخلوقات، ولم تُغفل، ممّا حدث لها، حرفًا.

وبعد أَن اعترفت بكلّ شيءٍ، قال لها الحبر الأَعظم:

– حتّى لو ظللت تحترقين في نيران جهنّم، ما دام العالم قائمًا، فلن يكون عقابك إِلاّ بقياس الكائن اللامحدود الذي أَهنتِه. غير أَنّ رحمته هي، مثله، بلا حدودٍ. ولذلك، آمركِ أَن تجوبي البلدان، سحابة عشر سنواتٍ، ملتمسةً من القدّيسين الذين يُكرّمهم كلّ بلدٍ، أَن يتشفّعوا لك كي يهبك الربّ الغفران. ولكنّني أَحظر عليك أَن تقيمي أَكثر من ليلةٍ واحدةٍ في أَيّ مدينةٍ أَو قريةٍ، أَو في أَيّ مكانٍ، أَو غابةٍ، أَو طريقٍ، أَو حقلٍ، وحيثما يداهمك الليل، فامكثي هناك، ولا تتحرّكي، حتّى الصباح... الوداع يا أُمّي مزوّدةً بحلّي الكامل من خطيئتكِ.

هذا العقاب بدا صارمًا حتّى للكردينال المتزمّت، ولكنّه بدا قليل الشأن للخاطئة التي كانت قد هبطت من قمّة الكبرياء إِلى التواضع الأَكثر انسحاقًا، والتي تخلّت عن حليّها، ووزّعت ثيابها على خادماتها، ومقتنياتها على الفقراء، وارتدت زيّ مستعطيةٍ، ومضت تذرع الطرقات.

انقضت ثلاث سنواتٍ وهي تجوب العالم، عملاً بأمر ابنها، لا تمكث أَكثر من ليلةٍ في أَيّ مكانٍ، راقدةً على الحضيض حيثما داهمها الليل، معانيةً، بلا شكوى، البرد والجوع والتعب. وغالبًا ما كان صوتٌ شيطانيٌّ يهمس في أُذنها: «كفاك ذرعًا للطرقات. عودي إِلى روما. فلا ريب أَنّ ابنك البابا نادمٌ على فرضه هذا العقاب القاسي عليك، وأَنتِ تدلفين نحو الشيخوخة. ولو هو رأى ما انتهيت إِليه لاستسمحك، ولرجاك أَن تعودي أَدراجك، وتستأنفي نهج حياتك السابق». ولكنّها كانت تتعرّف، في هذا الهمس، الصوت الذي كان قد حرَّضها، مع كونها قذارةً، على حماقة مقارنة نفسها بالسيّدة العذراء كلّيّة التواضع. وحينئذٍ كانت تتلو «السلام»، فيصمت صوت الخنّاس، في الحال.

وذات ليلةٍ، كان الإِرهاق قد أَخذ منها كلّ مأخذٍ، فهوت أَرضًا، وشعرت بدنوّ أَجلها، فخاطبت السيّدة العذراء بهذه العبارات:

«أَيّتها الأُمّ العذراء، لقد نال منّي الكَلَل بحيث لن أَقوى، قبل موتي، على إِتمام كفّارتي، التي كان عليها أَن تدوم عشر سنواتٍ، ولم أَقضِ منها سوى ثلاثٍ، وما عدت قادرةً على خطو خطوةٍ أُخرى. وها قد أَزفت ساعتي وأَنا وسط الحقول، هبط الليل، والثلج آخذٌ بالتساقط، والبرد يلسع.... إِنّ جسمي كلّه يرتعد، وأَسناني تصطكّ... ولست أَعلم أَين أَنا... من يستطيع سماع اعترافي، ومن عساه يهتمّ بجسدي إِن أَنا لقيت حتفي في هذا المكان؟ فيا أَيّتها العذراء القدّيسة، يا بئر العطف، اسمحي أَن يحضر كاهنٌ ويسمع اعترافي، فلا تكون جهنّم مصيري».

وفيما كانت تتوسّل، على هذا النحو، السيّدة التي كانت قد أَمعنت في إِهانتها، مرّ بالمكان حَمَّارٌ، فسمعها، وسألها:

– ما لك تنتحبين مثل مجدليّةٍ، وماذا تفعلين هنا وحدك؟

وسألته المرأة المسكينة، التي شحّ نظرها:

– هل أَنت كاهنٌ؟ وهل بوسعك سماع اعترافي؟

فأجاب الرجل:

– كلاّ، ولكنّ المدينة قريبةٌ. سأُقلّك على حماري، وسأمضي بكِ إِلى مكانٍ تجدين فيه مأوًى، حبًّا بالله.

– لا، لا، فلست أَستطيع التحوّل عن هنا. فأرجوك أَن تمضي وتأتيني بكاهنٍ.

واعترض الرجل:

– لقد ادلهمّ الليل، والطقس شديد السوء، وأَشكّ في إِمكان العثور على كاهنٍ يرتضي بالمجيء إِلى هنا... ومع ذلك سأحاول.

وما إِن انتهى الحمّار إِلى المدينة، حتّى قصد الكاهن، فوجده قرب الموقد،

وأَحاطه علمًا بأَنّه التقى، في مكانٍ قريبٍ، امرأةً تحتضر في الحقول، وتلتمس الاعتراف.

وأَجابه الكاهن الذي لم يكن راغبًا في الخروج، في مثل تلك الليلة القارسة البرد:

– بل إِئتِ بها إِلى هنا، وسأستمع إِلى اعترافها بقرب النار.

ومضى الحمّار في الحال، في ثنايا ليلٍ لا تني ظلمته تزداد كثافةً، إِلى أَن عثر على المرأة وهي تكاد تهلك بردًا. ولكنّه حين حاول حملها على متن دابّته، قالت له:

– أَنا شاكرةٌ لك صنيعك، ولكن ممنوعٌ عليّ مغادرة هذا المكان، حتّى الصباح.

– ولماذا؟

– لأَنّ كفّارةً فُرضت عليّ عن خطيئةٍ ارتكبتها سابقًا، تلزمني بالتجوّل، سحابة عشر سنواتٍ من بلدٍ إِلى بلدٍ، على أَلاّ أَمكث أَكثر من ليلةٍ في أَيّ مكانٍ، وحيثما داهمني الليل، على جبلٍ أَو في وادٍ، عليّ البقاء فيه حتّى الصباح. هكذا أَمر البابا، ولا شيء في العالم يقنعني بعصيان أَمره... فأَرجوك أَن تعود وتطلب من الكاهن أَن يتحلّى بقدرٍ وافٍ من المحبّة وأَن يوافي إِلى هنا، ويسمع اعترافي.

وعاد الحمّار إِلى بيت كاهن الرعيّة، وروى له بالتفصيل ما روته المرأة المسكينة. ولكنّ الكاهن اتّهمها بالجنون، وأَبى الابتعاد عن دفء منزله. فقال له الحمّار:

– وداعًا، إِذن! وليحفظك الله قرب النار!

وبعد أَن أَودع في الإِسطبل حماره الذي كاد ينفق قرًّا، عاد إِلى المحتضرة، سيرًا على قدميه.

وتوقّف بغتةً، مذهولاً.. فقد كان يجري في السماء أَمرٌ عجبٌ. إِذ كانت تبلغ

إلى مسامعه تراتيل سماويّةٌ، ممتزجةٌ بضجيج العاصفة. وفي أَجواز السماء كانت تلتمع أَنوارٌ متعدّدةٌ في ثنايا الثلج الذي ما انفكّ يتساقط. فحثّ خطاه، وبقدر ما كان يقترب من مكان المحتضرة، كانت تزداد التراتيل عذوبةً، والأَنوار تكتسب أَلقًا. وكانت أُلوف الشموع المضاءة تؤلّف في الفضاء مُصلًّى، كان يتبيّن، شيئًا فشيئًا، بوضوحٍ، بابه، وسقفه، وقبّة جرسه، وكان يهبط نحو الأَرض مثل ثريّا متلألئة.

كان مذهولاً، منقطع الأَنفاس، عندما وصل إِلى المحتضرة التي كانت تلفظ أَنفاسها الأَخيرة. وشاهد المُصلّى المتألّق الأَنوار وهو يحطّ عليها.

وعاد أَدراجه راكضًا إِلى الكاهن، الذي قال له، في هذه النوبة:

- لا ريب أَنّك فقدت رشدك!

ومع ذلك دفع الفضولُ الكاهنَ إِلى استقصاء الأَمر، وعزم على مرافقة الحمّار. كانت التراتيل قد صمتت، والأَنوار قد اضمحلّت، ولكانا تاها كلاهما لولا ضوءٌ ضئيلٌ صادرٌ عن شمعةٍ ما زالت مضاءةً في صدر المُصلّى، الذي استقرّ في مكانه، كما لا يزال يُشاهد، اليوم، في ذلك المكان.

استحوذ الخزي على الكاهن الذي تبيّن جسامة الخطأ الذي حمله الإِهمالُ والكسلُ على ارتكابه، فيمّم شطر روما، عازفًا حتّى عن المرور بمنزله.

ولدى سماع البابا هذه الرواية، تعرَّف، بما لا يدع مجالاً للشكّ، هويّة الحاجّة، فاستدعى أَخويه الكردينالين، وشكروا جميعهم السماء على هذا الشرف الذي كُرّمت به أُسرتهم. وفي غمرة فرحه ويقينه بأَنّ أُمّه باتت في الفردوس، لم يفرض البابا على الكاهن المهمِل سوى كفّارةٍ طفيفةٍ، مع أَنّه كان يستأهل أَقسى كفّارةٍ.

الراهب الذي رغب في رؤية العذراء

لجميع الذين يدّعون أنّ لا شيء يساوي أن يروا، وهم في مواقعهم، وفي كلّ يومٍ، الأشياء الجميلة التي ابتدعها الخالق، أعرض مثال الراهب الشابّ الذي كان مستعدًّا للتضحية بكلّ ما يمكن للعينين رؤيته، وبكلّ ما تستطيع اليدان لمسه، مقابل رؤية تلك التي توصف، بأنّها، حقًّا، الجوهرة والنسرينة، ومجد السماء والأرض، سيّدتنا مريم القدّيسة، وتأمّلها ولو لحظةً.

وذات يومٍ، إذ كان راكعًا أمام صورةٍ مقدّسةٍ لها، يكرّر ما طالما عبّر عنه، أي أنّ جلّ مناه هو مشاهدتها لا في الشكل الناقص الذي يعكسه تمثالٌ من حجرٍ أو من خشبٍ، بل مثلما هي كانت في الواقع، أجابته الصورة:

– يا ابني أنا لا أُعلن لأحدٍ ساعة موته، فأيّامك ليست ملكي، بل هي ملك ابني. ولكن إن كنت مصرًّا على رؤيتي فاعلم أنّ ما من أحدٍ حظي بهذه النعمة، إلاّ فقد بصره في الحال.

وهتف الراهب وقد غمرته السعادة:

– ومن لا يوافق على فقدان نور العينين مقابل هذه الهديّة الثمينة؟

ولكنّ راهبنا، مع تخيّله أنّه تائهٌ في أعماق السماء، كان لا يزال مرتبطًا بشؤون الأرض، ولو برباطٍ رقيقٍ، ومع تلفّظه بهذه العبارات، لم يكن متجرّدًا من العالم بقدر ما كان يظنّ. ولذلك غطّى إحدى عينيه بيده، ونظر بالعين الأُخرى.

وما شاهده، حينئذٍ، بهذه العين، لا يسعني وصفه، فقد تجلّت له ملكة المجد في ثوبٍ بلون الليالي الجميلة، انتشرت عليه الأفلاك والنجوم، وسط بلاطها

السماويّ وملائكةٍ موسيقيّين. ولكنّ الرؤيا كانت خاطفةً كالبرق، وتركت الراهب أَشدّ حزنًا ممّا كان، فرؤيتها ولو لمرَّةٍ واحدةٍ، رؤيةً خاطفةً، أَلهبت عطشه إِلى المزيد من رؤيتها.

فخاطب العذراء:

– يا ملكة الجمال، فلأَفقد عيني الأُخرى، على أَن أَراك ثانيةً.

وأَجابته الصورة:

– إِن كانت رؤيتي تسعدك بهذا القدر، فشاهدني مرَّةً أُخرى.

وما شاهده، هذه النوبة، بعينه الأُخرى، كان امرأةً فقيرةً، مثل الفقيرات اللواتي يُشاهدنَ في الطرقات. وكان محيّاها يعبّر عن أَلمٍ ورأفةٍ يتعذّر التعبير عنهما.

واضمحلّت الرؤيا، تاركةً الراهب الأَعمى في ظلمةٍ كثيفةٍ.

ولكنّه خاطبها، أَيضًا، قائلاً:

– يا ملكة الرحمة، اغفري لي إِن كنت قد خدعتكِ عندما غطّيتُ عيني بيدي، ولكنّني، بفضل هذه الحيلة، رأيتك، في تواضعك، أَشدّ جمالاً، إِن كان ذلك ممكنًا، ممّا كنتِ في بهاء مجدك.

وأَجابته الصورة:

– فلتُغفَر لك حيلتك البريئة، أَيّها الصديق الرقيق. وبما أَنّك أَحببتني كلّ هذا الحبّ، استعد ما أَخذته منك.

استعاد الراهب بصره، ورأى ثانيةً، كلّ الأَشياء في أَماكنها، مثلما كانت من قبل، ولكن ما نفع العينين، بعد رؤية سيّدتنا العذراء؟... وإِذن، إِثر تلقّيه المناولة، زهد راهبنا في كلّ طعامٍ وشرابٍ. وظلّ ثلاثة أَيّامٍ كاملةٍ، مغمض الجفنين، لا يتحرّك. ولم يُعرَف أَنَّه فارق الحياة، إِلاّ عندما فُتِحت، أَخيرًا، عيناه، واتّضح أَنّه لم يعد بمكنته رؤية أَيّ شيءٍ.

المسيح يكفل تاجرًا مسيحيًّا

في مدينة بيزنطية الكبيرة التي استمدّت اسم القسطنطينيّة من الإِمبراطور قسطنطين، كان يعيش تاجرٌ يتحلّى بالعلم وبسمعةٍ عطرةٍ، إِذ كان يُغدق عطاياه على أَصدقائه وعلى الفقراء بالسواء. ولكنّه كان يُمعن في المجازفة، وغالبًا ما تسيء مجازفاته إِلى أَعماله. فاستدان ولم يستطع وفاء الدين، وكلّ من يستدين ولا يوفي دينه سرعان ما يخسر ثقة الآخرين، ولو كان ملك فرنسا.

طارده دائنوه، وتخلّى عنه جميع من كان قد أَجزل لهم العطاء سابقًا، فلجأ إِلى يهوديٍّ، كان أَغنى رجلٍ في المدينة، وأَشدّ أهلها جشعًا. وقال له:

– أَيّها اليهوديّ، سأكون شديد الامتنان لك، إِن ارتضيت أَن تسلّفني بعض مالٍ. ولا يخفى عنك أَنّني تاجرٌ ماهرٌ، وسأُعيد لك المبلغ الذي ستسلّفني إِيّاه، في اليوم المحدّد، ولن تندم.

– أَنا لا رغبة لي سوى في إِسداء الخدمة. ولكن هل لك أَن تقدّم لي رهنًا، أَو أَقلّه كفيلاً؟

– وا أَسفاه، إِنّ جميع الذين سبق لي أَن أَحسنتُ إِليهم، يخونونني، اليوم، أَبشع خيانةٍ. وبالتالي، ليس، بين ذويّ وأَصدقائي، أَحدٌ يرتضي بأَن يكون لي كفيلاً. غير أَنّي أُقسم لك أَنني سأُسدّد لك دَيْني مضاعفًا، في يوم الاستحقاق.

وأَجاب اليهوديّ:

– أَيّها التاجر، أَنت تعلم قانون التجارة، الذي وضعه الله نفسه، والذي يقتضي أَن تكون لكلّ دَيْنٍ كفالةٌ.

حينئذٍ أَجابه التاجر:

– أَيّها اليهوديّ، فليضمن دينك خير الكفلاء، ملك السماوات، ملك الملوك، الخالق الذي به أُومن. وإِن لم أَردّ لك مالك في الموعد المحدّد، أَتعهّد أَن أَكون لك عبدًا، سحابة بقيّة حياتي.

وردّ اليهوديّ، وهو يعلّل نفسه بأَن يستعبد، يومًا، مسيحيًّا مرموقًا:

– لست أَظنّ أَنّ ابن مريم هو إِلهٌ، بأَيّة حالٍ. ولكن بما أَنّه كان، سحابة حياته، رجلاً كريمًا، ونبيًّا ذائع الصيت، فسأَقبل به كفيلاً وفيًّا، وإِن أَنت اتّخذته شاهدًا بحيث أَستطيع بيعك، في السوق، كما تُباع الدابّة، فسأَدفع لك، بلا تردّد، المبلغ الذي تطلبه.

وقال التاجر:

– حسنٌ، فهيّا إِلى دير السيّدة العذراء.

وفي الحال يمّما شطر الدير، يلحق بهما حشدٌ من المسيحيّين واليهود الذين تابعوا هذه القضيّة باهتمامٍ. وهناك، بلا تلكؤٍ، ركع التاجر أَمام صورةٍ للسيّدة العذراء، وبكلّ ورعٍ، التمس منها أَن تحفظه في تجارته، وأَن تقيه من العبوديّة. ثمّ نهض وهتف، واضعًا يد اليهوديّ في يد الطفل الذي كانت العذراء تحمله على ذراعيها:

– بحقّ هذا الطفل وأُمّه، أَتّخذ يسوع المسيح كفيلاً. وإِن اتّفق أَن عجزتُ عن ردّ المال الذي سيسلّفني إِيّاه هذا اليهوديّ، في الموعد المحدّد، أَطلب منك أَيّها الربّ إِلهي، أَن تردّه له عنّي. وإِن لم تتنازل وتفعل ذلك، فلأَكن له عبدًا مدى الحياة، وليكن له أَن يبيعني في السوق، بيع دابّةٍ.

–حينئذٍ شخَص اليهوديّ إِلى بيته، وجاء بالمال من صندوقٍ كان يخفيه تحت سريره، وسلّفه للتاجر.

* * * * *

لم يتلكّأ رجلنا في الانطلاق، بل ملأ مركب بضائع، وابتعد. وزار عدّة أَماكن بعيدةٍ في العالم. وكما يحدث للمجازفين، تقلّبت أَوضاعه، فجمع ثروةً، ثمّ فلّس، ثمّ توفّرت له الثروة ثانيةً. تدفّقت عليه الأَموال من كلّ صوبٍ، فأَسرف في الإِنفاق، ولم يُغفل الفقراء والكنائس. ولكنّه في غمرة صفقاته، ويومًا بعد يومٍ، ذهل عن الوعد الذي كان قد قطعه لليهوديّ، ولم يتذكّره إِلاّ عشيّة اليوم الذي كان قد حُدِّد للتسديد.

هصر الندم قلبه، وراح يلوم نفسه:

– كيف استطعت أَن أَنسى الوعد الذي حان استحقاقه؟ أَهو الشيطان الذي ابتلاني بالحمق؟ ويا لليهوديّ الملعون! ماذا أَفادني جني الأَرباح، وكلّ العناء الذي تكبّدته في هذا السبيل؟ فحتّى أَسرع الطيور يعجز عن بلوغ بيزنطية من حيث أَنا موجودٌ الآن، في ثلاثين يومًا، ولا حتّى في أَربعين يومًا. من المحقّق أَنّني هالكٌ، وقد انزلقتُ إِلى العبوديّة.

ولكنّ روعه هدأ بغتةً. أَوَلم يكن قد اتّخذ كفلاء له، من هو كلّيّ القدرة، وتلك التي تقود إِلى الخلاص، بأَشرعةٍ مبسوطةٍ وريحٍ مؤاتيةٍ، من يودعونها ثقتهم؟ فاستقدم صندوقًا وأَودعه ضعف المبلغ الذي كان مدينًا به لليهوديّ، ووضعه بيده في مياه البحر، متوسّلاً، بدموعٍ حرّى، كفيلَيْه السماويّين، أَن يوصلاه، في الساعة المحدّدة، إِلى المكان الصحيح.

واقتيد الصندوق خير قيادةٍ، فاجتاز في تلك الليلة، أَلف ميلٍ، وفي الصباح بلغ مرفأ بيزنطية.

وكان اليهوديّ قابعًا على الشاطئ، يترقّب عودة التاجر. لم يشهد أَيّ أَثرٍ لسفينةٍ قادمةٍ، ولكنّه شاهد الصندوق، الذي كان الموج يدفعه نحو قدميه، وكأَنّه كان يقول له: «خذني، إِنّه الله الذي يفي ذمّة بورجوازيّه». فأَمسك به في الحال، وكسر قفله، واكتشف الكنز المودع فيه، وهرع ليخبّئه تحت سريره.

وبعد فترةٍ عاد التاجر بدوره. وبما أَنّه كان قد اغتنى، استُقبل بمظاهر التكريم.

وأَقام له جميع من كان قد أَغدق عليهم عطاياه ولائم فاخرةً. وجاء، أيضًا، من حاول تعكير فرحة عودته. أعرفتم من هو؟ إِنّه اليهوديّ الذي جاء يُطالب بدينه.

وسأله التاجر:

– ماذا تعني؟

– أَعني أنّني سلّفتك، قديمًا، قرضًا، واتّخذت أَنتَ كفيلاً يسوع المسيح، وتعهّدت أَنّك، إِن تأخّرت، يومًا واحدًا، في تسديد مالي، ستكون لي عبدًا، سحابة ما تبقّى لك من حياةٍ، وحقّ لي أَن أَبيعك في السوق، بيع دابّةٍ.

وأَجاب التاجر:

– أَنا لم أَعد مدينًا لك بشيءٍ. ففي الموعد المحدّد أَرسلت لك ضعف مبلغ قرضك، ومن المؤكّد أَنّك استلمته.

واعترض اليهوديّ:

– إِنّ ما تدّعيه محض كذبٍ. فأَنا لم أَتلقَّ، يومًا، مالك. هناك كثيرون يشهدون على أَدائي القرض لك. فهل لديك، أَنت، شهودٌ على تسديدك؟

– أَجل، لديّ. هيّا بنا إِلى دير السيّدة العذراء.

وفي الحال شخصا إِلى الدير، يحيق بهما حشدٌ كثيفٌ، بحيث ما إِن دخلا الدير حتّى غصّت الكنيسة بالحضور.

وحينئذٍ تقدّم التاجر من الصورة التي كان قد خاطبها آنفًا، وركع، وقال:

– أَيّها الربّ يسوع، وأَنتِ يا نجمة البحر، يا عون المحزونين، اشهدي أَمام هذا اليهوديّ عن الحقيقة، كما هي. وقولي، حرصًا على شرفي وشرفك، هل سدّدت الدين، أَم لا.

وأَجابت الصورة حرفيًّا:

– إِنّني أَشهد أَنّك في الموعد المحدّد سدّدت له ضعف ما كان قد سلّفك. والدليل على ذلك هو أَنّك تستطيع أَن تجد الصندوق، تحت سريره.

وبحسب قول الصورة، وُجد الصندوق تحت سرير اليهوديّ الذي اعترف ببشاعة فعلته، وارتدّ إِلى دين المسيح، في ذلك اليوم عينه، مع أَلفٍ من أَبناء دينه.

وقد استخلص رئيس الدير الذي روى لنا هذا الحدث:

«هذه المعجزة تكشف لنا أَيّ أَبوابٍ يفتحها الإِيمان.

فعلينا، جميعًا، أَن نعلم، بلا شكٍّ، أَنّ ذلك التاجر،

لو لم يكن لديه رجاءٌ وإِيمانٌ في الله، لما كان قد رمى في البحر

كلّ هذا المال، ولما تخيّل أَن يراه ثانيةً،

ولما ظنّ أَنّ الله سيقوده إِلى المكان المناسب».

الراهب الذي أَراد الحنث بوعده

ابتغت سيّدةٌ رفيعة النسب، أَن تسوق حياةً أَوفر قداسةً وأَكثر تكريمًا لأُمّ الله التي كانت تجلّها أَعظم إِجلالٍ، فاعتزلت مكانًا قريبًا من المدينة، حيث كان كلّ مستعطٍ، أَو حاجٍّ، أَو مسافرٍ فقيرٍ واثقًا من أَن يجد لديها صدقةً تسعفه، وغوثًا لنفسه.

وذات يومٍ، بعد أَن استقبلت راهبًا بائسًا، وأَعانته أَحسن عونٍ، سألته:

– هل يمكنني أَن أَستفسر عن مقصدك؟ فعصاك، وأَمتعتك البسيطة، ومطرتك، تشير لي إِلى أَنّك حاجٌّ.

– وفي الواقع أَنا حاجٌّ.

– إِلى أَيّ قدّيسٍ تحجّ، وإِلى أَيّ قبرٍ؟

– إِلى أَشهر قبرٍ في العالم، قبر ربّنا يسوع المسيح.

وهتفت الراهبة التي لم تكن قد قابلت، حتّئذٍ، أَيَّ حاجٍّ إِلى أورشليم:

– يا لرحمة الله! كم هو طويلٌ الطريق أَمامك!

– أَجل الطريق طويلٌ، ولكنّ النعمة ستكون أَعظم. فمن يشاهد القبر المقدّس، يسعه أَن يموت مطمئنًّا أَنّ نفسه ستمضي مباشرةً إِلى الفردوس.

وقالت الراهبة الورعة:

– يا سيّدي، هل يمكنني أَن أَطلب منك أَمرًا؟

– وما عساني أَستطيع أَن أُكافئ به حسن وفادتك؟

– عندما تصل إلى المدينة حيث شاهدت أُمّ الله القدّوسة ابنها معلّقًا على الصليب، تذكّر امرأةً خاطئةً مسكينةً. وإن عدتَ فمررت من هنا، إئت لي بصورةٍ للمدعوّة، بحقٍّ، أُمّ جميع الآلام، بعد أن تباركها بالقبر المقدّس. وسيكون من دواعي سروري أن أضعها في المصلّى، وستكون رؤيتها عزاءً لجسدي الكليل، ولنفسي المسكينة، وهي أشدّ من جسدي بؤسًا.

وأكّد الحاجّ:

– إنّي أُقسم بكلّ ما أملك، أنّ الموت وحده كفيلٌ بجعلي أتخاذل عن الاستجابة لطلبكِ، وعن إتيانكِ بما تطلبين، بمثل هذا الشعور الكريم.

– شكرًا، شكرًا، ومن جهتي أعدك بأن أتلو، كلّ صباحٍ ومساءٍ، صلاة «السلام» لكي لا يحدث لك أيّ مكروهٍ، في ذهابك، وفي إيابك.

حينئذٍ ودّعها الحاجّ ومضى في سبيله.

وبعد أشهرٍ، انتهى الراهب الحاجّ إلى غايته، بلا عائقٍ. ومع أنّه كان لا يزال شابًّا، خُيّل إليه، بادئ الأمر، أنّ جميع الأيّام المتبقّية من حياته لن تكفيه لكي يجول بكلّ الروائع التي يمكن مشاهدتها في أورشليم. ولكنّ أسابيع معدوداتٍ كانت كافيةً لأداء طقوس التقوى في جميع الأماكن التي وسمها سيّدنا يسوع المسيح بآلامه، ولتقبيل جميع الذخائر، ولزيارة جميع الأديرة، وإذ به لا شيء يشغله، فأخذ به الضجر والحنين إلى الوطن.

كان سعيدًا بمجيئه، وأكثر سعادةً بإيابه، ومضى في سبيله، وقد ذهل عن الراهبة ومنسكها، وعن الوعد الذي قطعه لها بمجيئها بصورةٍ. ولكنّه عندما انتهى إلى المكان الذي يلتفت به الحاجّ إلى الوراء، كي يشهد، مرّةً أخيرةً، المدينة المقدّسة، سمع صوتًا يخاطبه:

– أيّها الراهب المبتلى بالنسيان، ماذا فعلت بالوعد الذي قطعته للراهبة؟

لدى سماعه هذه الكلمات الهابطة من السماء، انتاب الراهبَ المذهول شعورٌ بأنّ الأرض تميد تحت قدميه، فتهاوى، وارتمى على ركبتيه، وقرع صدره قرعًا

عنيفًا. ثمّ نهض وجرى مسرعًا صوب أورشليم. وفي هذه النوبة، لم يلتفت يمنةً ولا يسارًا، بل قصد، مباشرةً، الشارع الذي تباع فيه الصور. كانت هناك كلّ أَصناف الصور، بعضها مرسومٌ على ورقٍ فاخرٍ، وبعضها على خشبٍ، وأُخرى محفورةٌ في رخامٍ أَو في حجرٍ. بعضها كانت بحجم أَشخاصٍ أَحياء، وبعضها من الصغر بحيث تكمن في حفنة اليد، وجميعها من صنع فنّانين ماهرين، وكانت كلّها تغويه بابتياعها. لم تستوقفه صور القدّيسين والقدّيسات. ولم يكن يتطلّع إِلاّ إِلى صور ملكة السماوات، متمنّيًا أَن يأخذها كلّها.

حار بين صورٍ عديدةٍ، وتردّد طويلاً، قبل أَن يقف خياره على صورةٍ لم تكن مفرطةً في الصغر، ولا مفرطةً في الكبر. وقال له البائع:

– لقد أَحسنت الاختيار، فليس أَفضل من هذه، كي تؤخذ إِلى مكانٍ بعيدٍ.

لم يُساوم، بل نقد ثمنها ومضى بها. ثمّ شخص إِلى القبر المقدّس فباركها، واستأنف سفره.

المجيء كان سهلاً، أَمّا العودة فكانت أَقلّ يسرًا. فقد صادفته، على امتداد الطريق، مخاطر لا مجال لسردها. ولكن حسبنا الإِشارة إِلى أَنّ حياته غالبًا ما تعرّضت للهلاك، لو لم يستغث، لدى كلّ خطرٍ، بصاحبة الصورة، التي كان يخفيها تحت معطفه. وقد وثّقت كلّ هذه المخاطر، التي قُيّض له تخطّيها، علاقته بالصورة، فأَخذ يجيل في خلده أَنّ إِهداءها لديره، حيثُ، بفضل عجائبها، ستجتذب الحجّاج والصدقات، خيرٌ من وضعها بين يدي امرأةٍ مجهولةٍ، وإِن كانت شديدة التقوى حيال السيّدة العذراء.

وعندما بلغ مفترق طرقٍ، على مقربةٍ من مسكن الراهبة، حاول التحاشي عن الطريق الذي يمرّ ببابها، فانطلق في إِثره حيوانٌ مفترسٌ، لست أَدري هل هو كان دبًّا أَو خنزيرًا بريًّا، أَو وحشًا أَطلقته السماء، إِلى أَن أَعاده، منقطع الأَنفاس إِلى المفترق الذي انطلق منه. وهناك ما كان عليه إِلاّ إِخراج الصورة، حتّى لاذ الوحش بالفرار، في الحال.

حينئذٍ تبيّن أَنّ لا حقّ له بالاحتفاظ بما لا يخصّه، وانتهج درب المنسك. لم تتعرّفه الراهبة عندما رأته. ولا عجب في ذلك، فبعد مروره بصومعتها ما أكثر الحجّاج، ورجال الدين، والعلمانيّين، الذين التمسوا ملجأً لديها! ومع ذلك أَحسنت وفادته. وفيما كانا يتجاذبان أَطراف الحديث أتت على ذكر راهبٍ كان قد توقّف في صومعتها، وهو في طريقه إِلى أورشليم، وكانت تتلو، عن نيّته، كلّ صباحٍ ومساءٍ، صلاة «السلام»، لكي يعود سالمًا، ويأتيها بصورة أُمّ الله فائقة القداسة.

وفيما كانت تروي له ذلك، كان الراهب محدّقًا إِليها، متسائلاً بقلقٍ هل هي قد تعرّفته، مع أَنّ لا شيء في قسمات وجهها كان يشير إِلى ذلك.

لو هو كان حكيمًا وسليم النيّة لأَصغى إِلى صوت ملاكه الذي كان يهمس في أُذنه: «لا تكن حانثًا غاشًّا، وسلّم، في الحال، هذه الصورة، لهذه التي طيلة مدّة سفرك، لم تكفّ تدعو السيّدة العذراء من أَجلك!». ولكنّه ما انفكّ عازفًا عن سماع صوت ملاكه، وانحصر تفكيره بديره، وبالمجد الذي سيجنيه لمجيئه، من بعيدٍ، بصورةٍ تُجري عجائب.

ولكنّ الليل حمله على تبديل موقفه، فقرّر أَن يعيد للراهبة صورتها مع إِشراقة النهار. ولكن ما إِن كان الصباح، حتّى أَوهمه الشيطان بأَنّ الله نفسه هو الذي شاء أَن تنسى مضيفته ملامح وجهه، فوطّن العزم على مغادرتها، معرضًا عن تعريفها بهويّته.

قبل انطلاقه في سبيله، قصد المصلّى، ليصلّي. ركع أَمام الهيكل، وبعد تلاوة «أَبانا»، شرع بتلاوة «السلام»، ولكنّه توقّف بغتةً، وقد غابت عن ذهنه تتمّة هذه الصلاة. كرّر عشرين مرّةً: «السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة»، ولكنّه لم يستطع المضيّ إِلى أَبعد من ذلك. وحاول رسم إِشارات الصليب، ولكنّه عجز، أَيضًا، عن المضيّ بها إِلى نهايتها. استحوذ عليه اضطرابٌ يتعذّر وصفه، وخُيّل إِليه أَنّه ضحيّة عملٍ شيطانيٍّ، فنهض وقصد الباب هربًا من المصلّى. ولكن عبثًا! فكلّ شيءٍ من حوله كان حالكًا مدلهمًّا، وفي هذه الظلمة الكثيفة،

لم تكن عيناه تميّزان أيّ شيءٍ. تلمّس الجدران بيديه، وجال في كلّ أَرجاء المصلّى، ولكنّه لم يهتدِ إِلى الباب، فقد كان الجدار أَملس كالقبر. وانعقدت قطرات عرق الهلع عند صدغيه، وفَقَد رشده، فأَطلق صيحةً. وبغتةً فُتح الباب، وظهرت الراهبة عند العتبة، وقالت له:

– ما بك، يا سيّدي؟

وبجهدٍ، وخزيٍ، سحب الراهب الصورة من طوايا معطفه، وأَودعها اليدين اللّتين أَنقذتاه، واعترف بصراحةٍ تامّةٍ، بما كان يبيّته من مقصدٍ خبيثٍ، وكيف أَظهرت السيّدة العذراء إِرادتها بمكوث صورتها في المنسك.

كلّ كنوز روما ما كانت لتُسعد تلك الناسكة الطيّبة أَكثر من هذه الصورة. وقد قالت:

– كنت واثقةً أَنّ حاجًّا إِلى القبر المقدّس لا يستطيع الحنث بوعده، فلتُغدق عليك أُمّ الله النعم التي تخصّ بها أولئك الذين يخدمونها على خير وجهٍ.

وردّ الراهب:

– فليلبِّ الله دعاءكِ.

وكم كان راغبًا في التأكّد من رحمة العذراء! فقال للراهبة:

– لنعد إِلى المصلّى، ولنتلُ «السلام» معًا!

عادا إِلى المصلّى. وفي هذه النوبة، تذكّر الراهب كلّ كلمات تحيّة مريم العذراء، بلا جهدٍ، ولا خَلَلٍ.

شمعة الشاعر الجوّال

في كنيسة «روكامادور»، بفرنسا، أَجرت أُمّ الله العديد من المعجزات، ومنها هذه التي سأرويها، والتي تُظهر رقّة السيّدة العذراء.

في ذلك العهد، كان شاعرٌ جوّالٌ ذائع الصيت، يُدعى «پيير سيفلار»، لا يكفّ يطوف بالأَديرة، منشدًا أَمجاد مريم العذراء، وكان لا بدّ له من أَن يزور، ولو مرَّةً في حياته، معبدًا يحتوي صورةً لأُمّ الله، بل أَجمل صورةٍ لها، تجتذب من كلّ أَنحاء العالم حشودًا كثيفةً، تركع أَمامها وتتضرّع إِليها بورعٍ وثقةٍ. وقد وافى الشاعر هذا المعبد، في مساء يوم صيفٍ، عقب سفرٍ طويلٍ، وقد أَخذ منه الجوع والعطش كلّ مأخذٍ. وكان، في طريقه، قد تأمّل لافتات المطاعم والفنادق، وعلّل نفسه بعشاءٍ ممتعٍ، فهو، مع وَرَعه، كان يُقدّر الطعام اللذيذ، والشراب العذب. ولكن كان عليه، قبل ذلك، أَن يقدّم واجبات الاحترام لسيّدة المدينة.

كانت الكنيسة غاصّةً بالحجّاج الراكعين، المحدّقين إِلى الصورة المتأَلّقة في صدر الكنيسة، وسط الشموع المضاءة. فركع، هو أَيضًا، وبعد أَن تلا صلاته، تناول الأَرغول المعلّق بكتفه، واستلّه من غمده الجلديّ، ومرَّ بالقوس على أَوتاره، مُطلقًا أَنغامًا ساحرةً. وكان الحضور ينصتون بصمتٍ ومتعةٍ، دهشين لقدرة قوسٍ وثلاثة أَوتارٍ على التأثير العميق في النفوس.

وبعد أَن سبّح، بكلّ نفسه، تلك التي جاء من أَجلها، هتف بصوتٍ عالٍ:

– يا أُمّ الله، خالق كلّ شيءٍ، إِن كان قد أَعجبك نشيدي، أَرجوك أَن تهبيني، مكافأةً، واحدةً من تلك الشموع المضاءة حول صورتك، والتي يتخطّى

عددها كلّ ما شاهدتُ في حياتي. أَعطينيها، أَرجوكِ، أَيّتها السيّدة المنقطعة النظير، عساها تضيء ظلمة فندقي، وتبعث البهجة في عشائي. هذا هو كلّ ما أَلتمسه منكِ.

واستجابت سيّدة «روكامادور» لدعائه، فهي منبع الكياسة، وسلسبيل الرقّة. وفي الحال، شوهدت أَجمل شمعةٍ، وأَنصعها بياضًا، من الشموع التي كانت تصوغ حول رأس العذراء إِكليلاً من نورٍ، تطير وتحطّ على أَرغول الشاعر. وذهل الحجّاج، فانطلقوا ينشدون.

غير أَنّ راهبًا، يُدعى «جيرار» (وقد حفظ التاريخ اسمه لخزيه)، وكان كئيبًا تقطر نفسه مرارةً، وكان يستمدّ بعض الفائدة من بيع بقايا الشموع، استشاط غيظًا، وهتف:

– إِنّ هذا الشاعر لساحرٌ، ومجرمٌ يستحقّ الشنق!

وهرع فأَخذ الشمعة، وأَعادها إِلى المكان الذي طارت منه على الهيكل.

وكان لكلامه تأثيرٌ في الحضور الذين شرعوا يتهامسون متسائلين هل أَقوال الراهب، خادم الكنيسة، صحيحةٌ، وهل هذا الشاعر هو، حقًّا، موفد إِبليس.

سمع پيير ذلك، ولم يردّ بكلمةٍ، فقد كان يمتلك من الحنكة والحكمة ما جعله لا يُقيم وزنًا لشتائم إِنسانٍ أَحمق، ولا لهمسات الحضور. فحسبه أَنّ أُمّ اللّه أَنصتت له، واستجابت لصلاته، وهو ما كان ليرغب في أَكثر من ذلك. وقد أَفعم ذلك نفسه بهجةً، واستدرّ دموع فرحه. فصلّى بصمتٍ، واستفاض في شكر أُمّ اللّه. ثمّ تناول أَرغوله ثانيةً، وارتجل نشيدًا لم يُسمع، قطُّ، أجمل منه. وما إِن فرغ منه حتّى طارت الشمعة ثانيةً، وحطّت على أَرغوله، على مرأى جميع الحضور.

واهتاج خادم الكنيسة وانقضّ مثل ماعزٍ أَو تيسٍ، وقد خنقه الغيظ، فعجز، برهةً، عن الكلام، ثمّ أَزاح قلنسوته عن رأسه، ووجّه قبضته نحو الشاعر پيير قائلاً:

– لم أَرَ في حياتي مثل هذا العمل الشيطانيّ.

وتناول الشمعة ثانيةً، وهرع نحو الهيكل، وغرس الشمعة في مشكاتها، وربطها بسلكٍ حديديٍّ، وصاح باتّجاه الشاعر:

– لن يكون سمعان الساحر شيئًا، قياسًا لك، إِن استطعت، بعد الآن، انتزاع هذه الشمعة من مكانها.

وبلغ التأثّر أَشدّه في الكنيسة حيث انقسم الحضور فئةً تدعم الشاعر «پيير»، وفئةً أُخرى تؤيّد خادم الكنيسة «جيرار». ولكنّ الشاعر كان، طيلة حياته، قد صادف من الحمقى ومن الحكماء ما لا يُحصى عديدهم، فلم يأبه لأولئك القوم. قلبه المسقيّ مثل الفولاذ الصلب، لم يتأثّر لا بهؤلاء ولا بأولئك، بل كان واثقًا من أَنّ السيّدة العذراء التي تنازلت وتقبّلت نشيده، ستتدبّر كلّ هذه القضيّة لمجدها.

استأنف، إِذن، إِنشاده، باكيًا، متوسّلاً. لم تكن أَصابعه تلامس أَوتار الأَرغول، ومع ذلك كانت تنبعث من آلته أَنغامٌ تستدرّ دموع جميع الحضور. كان فمه يُنشد، وقلبه يُصلّي، وكانت صلاته ونشيده ينطلقان، معًا، نحو السماء.

وحينئذٍ، وللنوبة الثالثة، قفزت الشمعة قفزةً عاليةً في الهواء، متألّقةً مثل سيفٍ حدّه من لهبٍ، وجاءت فاستقرّت على الأَرغول، فيما انطلقت نواقيس الكنيسة تدوّي من تلقاء ذاتها، محدثةً ضجيجًا من الشدّة بحيث، لو أَطلق الربّ كلّ رعوده، لما سُمِعتْ.

وأَخذ التأثير كلّ مأخذٍ بالحضور عندما شاهدوا الشاعر يصعد أَدراج الهيكل حاملاً الشمعة المباركة بيده، كي يُقدّمها إِلى العذراء، إِذ لم يستحسن أَخذها إِلى الفندق.

هذه النعمة السنيّة لم تنلْ لا من كياسة «پيير سيفلار» ولا من حكمته. وما دام على قيد الحياة، لم يتخلّف، سنةً، عن المجيء إِلى «روكامادور»، كي يُقدّم

لأُمّ الله شمعةً تحاكي، في حجمها ووزنها، الشمعة التي كانت قد تكرّمت عليه بها. وفي يوم وفاته وصل إِلى الفردوس، تسبقه كلّ الشموع الجميلة التي كان قد أَضاءها، وفي مقدّم هذه الشموع كانت أَجملها، شمعة العذراء.

مناولة الحسّون

صباح عيد الميلاد، تساءل كاهنٌ شابٌّ ورِعٌ عن عملٍ صالحٍ يسعه به تقديس ذلك النهار. وفيما كان يُجيل في الأَمر فكره، توقّف نظره على بناءٍ مهترئٍ متهاوٍ، كان قد أَفلت، سهوًا، من معاول الهدم، وظلّ بؤرة بشاعةٍ، وسط أَبنيةٍ جديدةٍ، فاخرةٍ، تُحيق به من كلّ جانبٍ.

في الطبقة الرابعة من هذا البناء العتيق، كانت تعيش، تحت سقف القرميد، وفي نهاية ممرٍّ معتمٍ، عجوزٌ مُقعدةٌ، حبيسة غرفتها، لا أَهل لها، ولا أَصدقاء، ولا من يُسلّيها سوى حسّونٍ كانت كَلِفةً به. وكان الكاهن يعودها بين فينةٍ وأُخرى، ويُزوّدها بالإِفخارستيّا. وفي كلّ زيارةٍ له، كانت العجوز تقول له: «ما عساه كان يحلّ بي، لو لم يكن لديّ هذا الحسّون، فهو صديقي وملاكي الحارس؟». قفصه كان دائمًا مشرع الأَبواب، فيتطاير العصفور بحرّيّةٍ، في أَرجاء الغرفة، ويعود إِلى مجثمه.

غير أَنّ الوصول إِلى تلك العجوز كان يستلزم تسلّق أَدراج أَربع طبقاتٍ، أَدراجٍ قذرةٍ، تتعاقب فيها روائح مُقزّزةٌ، تختلف مع كلّ مستوًى، ولا تمتزج، وكأَنّها سدودٌ متلاحقةٌ. وكانت كلّ طبقةٍ من البناء تبدو أَشدّ قذارةً، وأَكره رائحةً من سابقتها.

مجرّد التفكير باجتياز هذه الأَدراج، بمعدةٍ خاويةٍ – إِذ كان الكاهن حريصًا على الصوم، وهو يوزّع القربان المقدّس ـ كاد يحمله على التقيّؤ. وفي محاولةٍ لصرف الفكرة عن باله، أَو لإِرجائها، قال في ذاته: «كم عليّ من مهامَّ، في

هذا الصباح!». ولكنّه ما لبث أَن تمسّك بالخاطرة التي راودته، وما كاد يفرغ من طقوس القدّاس، حتّى تزوّد بما يلزم لإِتمام مناولة العجوز صاحبة الحسّون.

في مطلع الدرج كانت الروائح الكريهة تنتظره، وقد رافقتها عتمةٌ رطبةٌ وباردةٌ لم تفلح في إِضاءتها، حتّى في وضح النهار، مصابيح الغاز. وعندما انتهى إِلى الطبقة الأَخيرة من البناء، وقرع باب العجوز، كان الدوار قد شرع يلعب برأسه.

أَمّا العجوز فعرفت زائرها – من طريقة قرعه للباب – ولا سيّما أَنّها كانت تتوقّع حضوره في ذلك اليوم.

وبعد تبادل الأَخبار المعتادة عن الطقس والصحّة والعصفور، عرّفها الكاهن، وقد استغرق اعترافها من الوقت أَكثر ممّا كان يفرضه اعتراف امرأةٍ مُقعدةٍ حبيسة منزلها. غير أَنّ الذين، نظيرها، يعيشون معزولين، وحيدين، يُمعنون في افتعال الوسواس...

أَصغى الكاهن بصبرٍ، من خطأٍ إِلى آخر، ومن تفصيلٍ إِلى آخر، حتّى أَفرغت العجوز جعبتها، وحان موعد مناولتها.

كانت جالسةً أَمامه على كرسيّها، إِذ غدت عاجزةً عن الركوع، وقد شرع الكاهن يضع القربان على لسانها مُرفقًا حركته بالعبارات الطقسيّة المألوفة، وإِذ بالحسّون الذي كان، حتّئذٍ، قد التزم السكون في إِحدى زوايا الغرفة، ينقضّ، بضربة جناحٍ سريعةٍ، على الخبز المقدّس، فينقر منه قطعةً صغيرةً، ويعود ليستقرّ على مجثمه.

وصاحت العجوز، وهي تكاد تختنق بما تبقّى من القربانة:

– يا يسوع ومريم! يا للهول! لقد أَكل الحسّون جسد اللّه!

وبغتةً ذهلت عن كلّ ما كان ينطوي عليه قلبها من عطفٍ على الطائر الصغير المسكين، وصاحت:

– يا سيّدي الكاهن، يجب قتل هذا العصفور! يجب قتله!

واعترض الكاهن:

– قتله! أَتدركين ما تقولين؟ قتل طائر الله هذا في لحظة تقرّبه من خالقه، ومناولته الأولى؟

أَلقى الكاهن نظرةً على القفص الذي كانت تزوّده حارسةُ المبنى بالأَكل والماء، فإِذا بها قد أَغفلت هذه المهمّة في ذلك الصباح. فقال:

– إِنّما هذا الطائر جائعٌ. وبعد أَن حظي بمأدبةٍ روحيّةٍ، لا بأس من إِكرامه بزادٍ أَرضيٍّ. ها أَنا ذاهبٌ وسأَعود في الحال.

خرج، وعاد بعد لحظاتٍ، وقد جاءه بالدخن، والذرة المطحونة، وورق الخسّ.

وكان الكاهن، وهو يروي قصّته ينهيها بقوله:

– وحدثت المعجزة. فلا في ذلك اليوم، ولا بعده، شممت أَيّة رائحةٍ كريهةٍ في درج المبنى.

قد يتساءل القارئ: أَين العذراء في كلّ ذلك؟

إِنّها حيث يرفرف الشِّعر.

ظهر للمؤلّف

– **قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب** (سلسلة دراسات كرمليّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٠

– **السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٢

– **فرنسيس ... أَصلحْ كنيستي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٨)

– **صوتُ مَن لا صوت لهم: الأب بيير** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٧

– **حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٨ (طبعة ثانية ٢٠٠٣)

– **أنا، الأخت إيمّانويل، أشهد**... (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٩

– **بولس، رسول يسوع، وقلبه، ولسانه** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٣

– **جان فانييه وسفينته** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٣

– **أبانا** (سلسلة صفحات روحيّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٥

– **يسوع في إنجيله**، منشورات المكتبة البوليسّة، جونيه، ٢٠٠٦

– **يسوع في حياته**، (جزآن)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٦

– **أمّ الله أُمّنا**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٩

كتب مترجمة للمؤلّف

- **على درب الحياة مع ألكسي كاريل**، دمشق، ١٩٨٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٠)
- **يد الله** (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٨٨
- **ثلاث عشرة قصّة** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٠
- **أيدٍ ملطّخةٍ بالدم** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **اذكروا الله: تأمُّلات من وحي رسائل الصوفانيَّة**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٥
- **سيرة المسيح** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٣
- **حدّثني عن الحبّ** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، (طبعة ثالثة ٢٠٠٥)
- **كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة: خمسون فضيلة لبناء الإنسان**، (سلسلة صفحات روحيّة ٣٥)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٧
- **العذراء في حياتنا** (سلسلة صفحات روحيّة ٣٦) – منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٧
- **مختارات مريميّة** – منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٩

الفهرس

إهداء ٥

تمهيد ٧

الجزء الأوّل: حكايا مريميّة من القرن الثاني عشر ١٣

«الربّ معكِ» ١٥

الصبيّ الحافي ١٦

العذراء تنقذ غريقًا ١٧

درسٌ لراهبٍ طبيبٍ ١٨

العذراء تفرج عن سجينٍ مظلومٍ ١٩

الراهب الذي أنقذته العذراء من مجموعة أبالسةٍ ٢٠

العذراء تحول دون وقوع فتاةٍ في شباك إبليس ٢١

الجزء الثاني: قصص مختارة من كتاب «أمجاد مريم»
للقدّيس ألفونس دي ليغوري ٢٣

العذراء ملجأ الخطأة ٢٥

جدوى الاستغاثة بالعذراء ٢٧

الطفل الإلهيّ الجريح ٢٩

الفتاة المحتضرة ٣١
توبة القدّيس ثيوفيلُس ٣٣
توبة الراهبة بياتريس ٣٥
القرد الجهنّميّ ٣٧
الأُسقف الخائن ٣٩
حماية مريم ٤٢
إِيقونة العذارء المنقذة ٤٤
حماية العذراء ٤٦

الجزء الثالث: باقة قصصٍ مريميّةٍ منوّعةٍ ٤٧
الأُمّ السماويّة تجمع الأَعداء ٤٩
الرجل الذي نسي اسم مريم ٥٠
لو كنت تحبّ أُمّك ٥١
سيّدة أَزهار «برا» ٥٣
هزّةٌ أَرضيّةٌ ٥٥
مريم تدرأ بركان ڤيزوف ٥٦
صورة العذراء التي نجت من الحريق ٥٧
مكافأة الوفاء ٥٩
معجزة «الڤيستول» ٦١
مريم العذراء ملجأ الخطأة ٦٢
الإيمان والمسبحة ٦٣

المسبحة والمقصلة ٦٤
هاكم مسبحتي! ٦٥
شُفيت وهي تتلو المسبحة ٦٦
مالٌ لبناء كنيسةٍ ٦٧
مسبحة الجنديّ العجوز ٦٨
بطولة فتاةٍ ٦٩
قدرة صلاة «السلام» ٧٠
وردة فاستيراس ٧٢
القيم التي تمثّلها العذراء ٧٣
إيمان والدٍ ٧٤
مُغامر العذراء القدّيسة ٧٥
عبير الإِيقونة ٧٧
أَنقذه دعاءٌ حارٌّ للعذراء ٨٠
رسولة العناية الإِلهيّة ٨٢
شفاء راهبةٍ ٨٤
العذراء تنقذ ولدًا يهوديًّا ٨٥
كومبوستيلّ ٨٦
شفاءٌ عجيبٌ في تشيكيا ٨٨
العذراء تفرج عن معتقلٍ مجريٍّ ٩٢
«اذكرينا»... في العاصفة ٩٥

معجزةٌ في بوغوتا	٩٦
صراعٌ مع الموت بسلاح «السلام عليك يا مريم»	٩٧
جنديٌّ بروتستانتيٌّ وإِيقونة مريم	١٠٠
إِيقونة السينما	١٠٢
شقيّا السيّدة	١٠٣
ها هي ذي أَيضًا	١٠٥
المسبحة المنقذة	١٠٦
سرّ رومانُس المنشد	١٠٧
رسول أُمّ اللّه	١٠٨
حلم «دون بوسكو» الذي تحقّق	١١١
مساومة مع سيّدة المعونة	١١٣
ستّ دفعاتٍ كلٌّ منها أَلفا فرنكٍ	١١٦
قدرة المسبحة الورديّة	١١٧
الصلاة المشتركة أَوفر جدوى	١١٩
ظهور سيّدة السنابل الثلاث	١٢١
شومان يروي ارتداده عن اليهوديّة	١٢٣
هل قلبنا هو مثل قلبكم؟	١٢٥
مريم في ليزوتو (أَفريقيا)	١٢٦
معجزة عذراء «البيلار» (إِسبانيا) الكبرى	١٢٨
السلسلة التي تقود إِلى السماء	١٢٩

اهتدى بفضل المسبحة العائليّة	١٣٠
مسبحة أُمٍّ	١٣٢
مسبحة القدّيس غرينيون دي مونفور	١٣٥
القدّيس سمعان القبطيّ الذي نقل جبل المقطّم	١٣٦
كنيسة «سيّدة النعمة الفائقة» في جمهوريّة الدومينيكان	١٤٠
كنيسة سيّدة النذر في شيربورغ	١٤١
ظهورات في سجنٍ روسيٍّ	١٤٢
سيّدة الرأفة في أوليتّا (كورسيكا)	١٤٤
لستُ، بعدُ، مستعدًّا للموت	١٤٦
اهتداء روبير حسين	١٤٨
احترموا أُمّي	١٤٩
السلّم الذهبيّة والسلّم الفضيّة	١٥٠
رسالة إلى العذراء	١٥٢
في أَزمات الحيرة، فلنستشر السيّدة العذراء	١٥٦
عودة ابنٍ ضالٍّ	١٥٧
شفاءٌ عجيبٌ	١٦٠
بروستانتيٌّ يتلو «السلام عليك يا مريم»	١٦٢
الموت ولا الدنس	١٦٥
رؤيا القدّيس إيلديفونس	١٦٧
القسّ والفلاّح	١٦٩

عمادٌ تحقّق بمساعدة مريم ١٧٠
محبّة جنديٍّ ١٧٣
كم أَنا بحاجةٍ إِلى أُمٍّ! ١٧٥
حمايةٌ مؤثّرةٌ ١٧٩
نعمة خلاصٍ تحقّقت بوساطة مريم ١٨٠
مريم رجاء البائسين ١٨٢
السيف الثامن ١٨٤
مريم معزّية الحزانى ١٨٥
قدرة الصلاة الكلّيّة ١٨٦
خدّام مريم يستعذبون الموت ١٨٩
عتابٌ وتوبةٌ ١٩١
جدوى الصلاة إِلى مريم ١٩٤
مريم تنتصر على عناد الخطيئة ١٩٦
الفتى البحّار الذي حمته مريم ١٩٨
ستحضر... ١٩٩
القدّيس يوحنّا الدمشقيّ وإِيقونات مريم ٢٠٣
ارتدّ مكرَهًا ٢٠٤
تقوى وحسن تدبير ٢٠٦
إِحدى بنات مريم ردّت أَباها إِلى الله ٢١١
فتاةٌ صامت حتّى عاد والدها إِلى الصراط القويم ٢١٤

... وفي ساعة موتنا ٢١٦
مسبحة في معهد البوليتكنيك ٢١٨
جرس باب السماء ٢٢٠
العذراء، معونة المسيحيّين ٢٢٢
سيّدة العجائب ٢٢٥
مسبحة العالم الفيزيائيّ، أَمبير ٢٢٧
مسبحةٌ في المسرح ٢٢٨
انتصارٌ على الحياء البشريّ ٢٢٩
ورودٌ للعذراء في «ليما» ٢٣١
عيد الأمّهات ٢٣٤
إيقونة الغريق ٢٣٦
البستانيّ الذي أنقذ رأس تمثال العذراء ٢٣٩
يا أُمّاه، أَهبك ابني ٢٤١
تبادل المسابح ٢٤٣
«سيّدة أپاريسيدا» والقسّ البروتستانتيّ ٢٤٥

الجزء الرابع: من معجزات لورد ٢٤٧
هنري بوسكيه (Henri Busquet) ٢٥٠
قيامةٌ ٢٥٢
ماري ٢٦٠

العجوز المشلولة ... تحصد ٢٦٥
مياه لورد تعيد الحياة إلى طفلٍ محتضرٍ ٢٦٧
أصابع مشلولةٌ استعادت حركتها ٢٧٣
هل تلتمس الشفاء؟ ٢٧٦
إِيمان ولدٍ ٢٧٩
شفيت في لورد ٢٨٢
سأُخبر أُمَّكَ ٢٨٤
أُمّ الله تعيد البصر لأُمٍّ ٢٨٥
إِلى يسوع عن طريق مريم ٢٨٧
تساعيّة لسيّدة لورد ٢٨٩
عقابٌ رهيبٌ ٢٩١
نجاة رقيبٍ من الإِعدام بشفاعة العذراء ٢٩٢
غفرانٌ ٢٩٧
إنسانٌ يُبعَث ٢٩٩

الجزء الخامس: من معجزات سيّدة فاطمة ٣٠٣
شمعة تنطفئ ٣٠٥
مرغريدا وسيّدة فاطمة ٣٠٧
إِيمانٌ ينقل الجبال ٣١٢
الشهر المريميّ في مولوكاي (جزيرة البرص) ٣١٤

ارتداد في فاطمة ٣١٦

الجزء السادس: روائع النعمة في مديوغورية ٣١٩

-١- ٣٢٠

صدمات رفائيل الثلاثاء ٣٢١

إِحدى قدميّ كانت في جهنّم، ولم أَكن أدري ٣٢٦

مدمنةٌ على الكحول منذ عشر سنواتٍ ٣٣١

جريدة البراڤدا تغلّف الحقيقة ٣٣٤

جميعكم ستشعرون بحبّي ٣٣٨

بروتستانتيّ يرى العذراء ٣٤٤

وغادرت المسبحة الدرج ٣٤٩

-٢- ٣٥١

عينا ڤيرونيكا الزرقاوان ٣٥٢

الحانة أم الكنيسة؟ ٣٥٨

بركةٌ في المترو ٣٦١

الصدمة التي شفت «سكوت» ٣٦٥

شفاء «متّيو» ٣٧٠

«فيديريكو»: أربع سنواتٍ وستّة أَورامٍ ٣٧٢

ألست، أنا، أُمّك؟ ٣٧٦

-٣- ٣٧٨

ارتدادٌ في سنّ التاسعة عشرة ٣٧٩
من البغض إلى الحبّ الإنجيليّ ٣٨٣
قيامةٌ ٣٨٦
شفاء «أوبرتو» من إدمان المخدّرات ٣٩٠

ملحق ٣٩٣

قصص مترجمة من كتاب «حكايات العذراء»
للأَخوين: جيروم وجان تارو ٣٩٥
زائرة الميلاد الأَخيرة ٣٩٦
العذراء والطيور ٣٩٨
ثلاثة طيورٍ من طينٍ ٤٠٠
العذراء والغجر ٤٠٢
أُعجوبة القدّيس مركور ٤٠٤
الفارس والدلو ٤١١
العذراء والخاتم ٤١٦
بهلوان العذراء ٤١٨
الدراهم الذهبيّة الثلاثة ٤٢١
المغنّية والبحر الهائج ٤٢٤
أُمّ البابا ٤٢٧
الراهب الذي رغب في رؤية العذراء ٤٣٧

المسيح يكفل تاجرًا مسيحيًّا ٤٣٩
الراهب الذي أَراد الحنث بوعده ٤٤٤
شمعة الشاعر الجوّال ٤٤٩
مناولة الحسّون ٤٥٣

ظهر للمؤلف ٤٥٧

الفهرس ٤٥٩

المطبعة البولسيّة
جونيه - لبنان